

فوائد
مَدَامُ السَّالِكِينَ
بَيْنَ مَنَازِلِ
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
للإمام العلامة ابن فَيِّد الجوزِيَّة



اسم الكتاب: فوائد مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين
إعداد الشيخ : فيصل بن عبده قائد الحاشدي
رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٦٧٨٩.



نوع الطباعة: لون واحد.
عدد الصفحات: ٥٢٨.
القياس: ٢٤X١٧.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ / يسري حسن.

٢٠١٩

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية -
تليفاكس: ٥٤٤٦٤٩٦ - ٥٤٥٧٧٦٩

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية -
تليفاكس: ٥٢٢٢٠٠٢ - ٥٤٥٧٧٦٩

dar_aleman@hotmail.com



دار الإيمان المتحدة

أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار

جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

فوائد

مَدَامُ السَّالِكِينَ

بَيْنَ مَنَازِلَ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

لِلإِمَامِ الْعَلَامَةِ أَبِي قَاسِمٍ الْجُوزِيِّ

تَأْلِيفُ

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فَصِيلِ بْنِ عَجْرَةَ قَائِدِ الرِّجَالِ الشُّرَافِيِّ

عَفَا اللَّهُ عَنْهُ

دارُ الأمانِ
الإسكندرية

دارُ القسمة
الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .
 أمّا بعد ، عشت مع كتاب «مدارج السالكين» حيناً من الدهر ، وبيننا
 رحم أو جبت صلتني له ، فكلما قسا قلبي أعود إليه فأجد حياة بعد
 جفاف ولسان حاله :

تَنَكَّبُ بَنِيَّاتِ الطَّرِيقِ وَجُورَهَا فَإِنَّكَ فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ مُسَافِرٌ^(١)
 وَقَدْ كَانَتْ الْفَائِدَةُ مِنْ فَوَائِدِهِ الْعِظَامِ لَتَسْتَوْفُقَنِي ، فَأَعْلَمُ عَلَيْهَا ،
 وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ أَجِدُ غَيْرَهَا بَكْرًا دُونَهَا النَّجْمِ ، فَأَصْنَعُ مَعَهَا مَا صَنَعْتُهُ
 بغيرها ، ثُمَّ قَيَّدْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابِي هَذَا وَسَمَّيْتُهُ :

«فوائد مدارج السالكين»

تَقْرِيْبًا لِلْعِلْمِ ، وَتَسْهِيْلًا لِلْوَقْتِ ، وَلَأَنَّ فِي الْكِتَابِ الْأَصْلِ مَا قَدْ
 يَشْكُلُ عَلَى بَعْضِ طَلَبَةِ الْعِلْمِ ، فَضْلًا عَنِ الْمُبْتَدِعَةِ أَوِ الْعَامِّي وَجُلَّهُ
 مِنْ كَلَامِ الْهَرَوِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَكُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ «ذَرْ مُشْكِلَ الْقَوْلِ

(١) الْبَيْتُ لِمَحْمُودِ الْوَرَّاقِ ، أَنْظَرُ : «ثَمَارُ الْقُلُوبِ» (٢٢) ، وَ«مُجْمَعُ الْأَمْثَالِ»
 (٢٩٤/١) .

وَإِنْ كَانَ حَقًّا ^(١)، حَتَّى تَجِدَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَى الطَّرِيقِ الْآمِنِ وَ«السَّلَامَةُ
إِحْدَى الْغَنِيمَتَيْنِ» ^(٢).

فَالِى مُحتَوَيَاتِ الْفَوَائِدِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ .

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَكُتِبَهُ

أَبُو حَبْرَةَ النَّصِيبِ بْنِ حَبْرَةَ قَائِدُ الْخِصْرِ
عَفَا اللَّهُ عَنْهُ



(١) «مُجَمَّعُ الْأَمْثَالِ» (١/٣١٣).

(٢) «الْمَرْجِعُ السَّابِقُ» (١/٣٨٦).

ترجمة مختصرة للإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -



قال العلامة ابن الألويسي البغدادي في ترجمة مختصرة للإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : (هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي ، الفقيه الحنبلي ، المفسر النحوي ، الأصولي المتكلم ، الشهير بابن قيم الجوزية) .

قال في الشذرات : بل هو المجتهد المطلق ، قال ابن رجب : ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة ، لازم الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وأخذ عنه ، وتفنن في كافة علوم الإسلام ، وكان عارفاً في التفسير لا يجاري فيه ، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى ، وبالحدِيث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط فيه لا يلحق في ذلك ، وبالفقه والأصول والعربية ، وله فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام والتصوف ، حبس مدة لإنكاره « شد الرحيل إلى قبر الخليل » .

وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، ولم أشاهد مثله في عبادته وعلمه بالقرآن والحدِيث وحقائق الإيمان ،

وَلَيْسَ هُوَ الْمَعْصُوم ، وَلَكِنْ لَمْ أَرِ فِي مَعْنَاهُ مِثْلَهُ ، وَقَدْ امْتَحَنَ وَأُوذِيَ
مَرَّاتٍ ، وَحُبَسَ مَعَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ تَقِيِّ الدِّينِ فِي الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ بِالْقُلْعَةِ
مُنْفَرِدًا عَنْهُ ، وَلَمْ يُفْرَجْ عَنْهُ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ الشَّيْخِ ، وَكَانَ فِي مُدَّةِ حَبْسِهِ
مُشْتَغَلًا بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَبِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ ، فَفُتِحَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ
كَثِيرٌ ، وَحَصَلَ لَهُ جَانِبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الصَّحِيحَةِ ،
وَتَسَلَّطَ بِسَبَبِ ذَلِكَ عَلَى الْكَلَامِ فِي عُلُومِ أَهْلِ الْمَعَارِفِ ، وَالخَوْضِ
فِي غَوَاصِّهِمْ ، وَتَصَانِيفُهُ مُمْتَلِئَةٌ بِذَلِكَ ، وَحَجَّ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً ، وَجَاوَرَ
بِمَكَّةَ ، وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ كَثَرَةِ طَوَافِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَسَمِعْتُ
عَلَيْهِ قَصِيدَتَهُ التَّوْنِيَّةَ فِي السُّنَّةِ ، وَأَشْيَاءَ مِنْ تَصَانِيفِهِ غَيْرَهَا ، وَأَخَذَ عَنْهُ
خَلْقٌ كَثِيرٌ فِي حَيَاةِ شَيْخِهِ ، وَإِلَى أَنْ مَاتَ وَانْتَفَعُوا بِهِ .

قَالَ الْقَاضِي بُرْهَانُ الدِّينِ الزَّرْعِي : وَمَا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ أَوْسَعُ عِلْمًا
مِنْهُ ، وَدَرَسَ بِالصَّدْرِيَّةِ ، وَأَمَّ بِالْجُوزِيَّةِ ، وَكَتَبَ بِخَطِّهِ مَا لَا يُوصَفُ
كَثْرَةً ، وَصَنَّفَ تَصَانِيفَ كَثِيرَةً جِدًّا فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ ، وَحَصَلَ لَهُ مِنَ
الْكِتَابِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ .

فَمِنْ تَصَانِيفِهِ : تَهْذِيبُ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَإِيضًا مُشْكَلَاتِهِ ، وَسَفَرُ
الْهَجْرَتَيْنِ ، وَمَرَاحِلُ السَّائِرِينَ ، وَالْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَزَادُ الْمَسَافِرِينَ ،
وَزَادُ الْمَعَادِ - أَرْبَعُ مُجَلَّدَاتٍ - وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ - ، وَكِتَابُ نَقْدِ
الْمَنْقُولِ ، وَكِتَابُ إِعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ - ثَلَاثُ مُجَلَّدَاتٍ - ،

وَكِتَابُ بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ - مُجَلَّدَانِ - ، وَالنُّونِيَّةُ الشَّهِيرَةُ بِالشَّافِيَةِ الْكَافِيَةِ ،
وَالصَّوَاعِقُ الْمُرْسَلَةُ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْطَلَةِ ، وَحَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَى بِلَادِ
الْأَفْرَاحِ ، وَنُزْهَةُ الْمُشْتَاقِينَ ، وَكِتَابُ الدَّاءِ وَالِدَوَاءِ ، وَكِتَابُ مُفْتَاحِ
دَارِ السَّعَادَةِ - مُجَلَّدٌ ضَخْمٌ غَرِيبُ الْأُسْلُوبِ - ، وَاجْتِمَاعُ الْجُيُوشِ
الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَكِتَابُ الطُّرُقِ الْحَكَمِيَّةِ ، وَكِتَابُ عُدَّةِ الصَّابِرِينَ ، وَكِتَابُ
إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ ، وَكِتَابُ الرُّوحِ ، وَكِتَابُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالْفَتْحُ
الْقُدْسِي ، وَالتُّحْفَةُ الْمَكِّيَّةُ ، وَالْفَتَاوَى وَغَيْرُ ذَلِكَ .

تُوِّفِيَ ثَالِثَ عَشَرَ رَجَبَ سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَدُفِنَ بِمَقْبَرَةِ
الْبَابِ الصَّغِيرِ بَعْدَ أَنْ صُلِّيَ عَلَيْهِ بِمَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ ، وَكَانَ قَدْ رَأَى قَبْلَ
مَوْتِهِ شَيْخَهُ تَقِيُّ الدِّينِ فِي النَّوْمِ وَسَأَلَهُ عَنْ مَنْزِلَتِهِ فَأَشَارَ إِلَى عُلوِّهَا
فَوْقَ بَعْضِ الْأَكَابِرِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - ^(١) .



(١) جَلَاءُ الْعَيْنَيْنِ : لِلْعَلَّامَةِ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ الْبُغْدَادِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - (ص ٤٤-٤٥) .

تَرْجَمَةٌ مُوجِزَةٌ لِلْإِمَامِ الْهَرَوِيِّ صَاحِبِ الْمَنَازِلِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -



تَرْجَمَ لَهُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ السَّيَرِ بِقَوْلِهِ : الْإِمَامُ الْقُدُوءَةُ ، الْحَافِظُ الْكَبِيرُ ، أَبُو إِسْمَاعِيلَ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ مَتِّ الْأَنْصَارِيِّ الْهَرَوِيِّ ، مُصَنِّفُ كِتَابِ « ذِمُّ الْكَلَامِ » ، وَشَيْخُ خُرَّاسَانَ مِنْ ذُرِّيَةِ صَاحِبِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .
مَوْلَدُهُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ .

قَالَ السَّلَفِيُّ : سَأَلْتُ الْمُؤْتَمَنَ السَّاجِيَّ عَنْ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيِّ ، فَقَالَ : كَانَ آيَةً فِي لِسَانِ التَّذَكِيرِ وَالتَّصَوُّفِ ، مِنْ سَلَاطِينِ الْعُلَمَاءِ ، سَمِعَ بَبْغَدَادٍ مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْخَلَالِ ، وَغَيْرِهِ ، يَرْوِي فِي مَجَالِسٍ وَغُظِّهِ الْأَحَادِيثَ بِالْإِسْنَادِ ، وَيُنْهَى عَنْ تَعْلِيْقِهَا عَنْهُ ، قَالَ : وَكَانَ بَارِعًا فِي اللُّغَةِ ، حَافِظًا لِلْحَدِيثِ ، قَرَأْتُ عَلَيْهِ كِتَابَ « ذِمُّ الْكَلَامِ » .

قَالَ الْمُؤْتَمَنُ : كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْأَمْراءِ وَالْجَبَابِرَةِ ، فَمَا يُبَالِي ، وَيَرَى الْغَرِيبَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ، فَيُبَالِغُ فِي إِكْرَامِهِ ، قَالَ لِي مَرَّةً : هَذَا الشَّانُ شَأْنُ

مَنْ لَيْسَ لَهُ شَأْنٌ سِوَى هَذَا الشَّأْنِ - يَعْنِي طَلَبَ الْحَدِيثِ - .

قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْكَتَبِيُّ: خَرَجَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ لَجْمَاعَةِ الْفَوَائِدِ بِخَطِّهِ إِلَى أَنْ ذَهَبَ بَصْرَهُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ فِيمَا يُخْرِجُهُ لِمَنْ يَكْتُبُ ، وَيُصَحِّحُ هُوَ ، وَقَدْ تَوَاضَعَ بِأَنْ خَرَجَ لِي فَوَائِدُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِمَّنْ خَرَجَ لَهُ سِوَايَ .

وَلَقَدْ بَالَعَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ فِي «ذِمِّ الْكَلَامِ» عَلَى الْإِتِّبَاعِ فَأَجَادَ ، وَلَكِنَّهُ لَهُ نَفْسٌ عَجِيبٌ لَا يُشَبِّهُ نَفْسَ أُمَّةٍ السَّلَفِ فِي كِتَابِهِ «مَنَازِلُ السَّائِرِينَ» ،

فَفِيهِ أَشْيَاءٌ مُطْرَبَةٌ ، وَفِيهِ أَشْيَاءٌ مُشْكَلَةٌ ، وَمَنْ تَأَمَّلَهُ لَاحَ لَهُ مَا أَشْرَتْ إِلَيْهِ ، وَالسُّنَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ صِلْفَةٌ ، وَلَا يَنْهَضُ الذَّوْقُ وَالْوَجْدُ إِلَّا عَلَى تَأْسِيسِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ سَيْفًا مَسْلُولًا عَلَى الْمُتَكَلِّمِينَ ، لَهُ صَوْلَةٌ وَهَيْبَةٌ وَاسْتِيلَاءٌ عَلَى النُّفُوسِ بِلَدِهِ ، يُعَظِّمُونَهُ ، وَيَتَغَالَوْنَ فِيهِ ، وَيَبْذُلُونَ أَرْوَاحَهُمْ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، كَانَ عِنْدَهُمْ أَطْوَعَ وَأَرْفَعَ مِنَ السُّلْطَانِ بكَثِيرٍ ، وَكَانَ طَوْدًا رَاسِيًا فِي السُّنَّةِ لَا يَتَزَلُّزَلُ وَلَا يَلِينُ ، لَوْلَا مَا كَدَّرَ كِتَابُهُ «الْفَارُوقُ فِي الصِّفَاتِ» ، بِذِكْرِ أَحَادِيثَ بَاطِلَةٍ يَجِبُ بَيَانُهَا وَهَتْكُهَا ، وَاللَّهُ يُغْفِرُ لَهُ بِحُسْنِ قَصْدِهِ ، وَصَنَّفَ «الْأَرْبَعِينَ» فِي التَّوْحِيدِ ، وَ«الْأَرْبَعِينَ» فِي السُّنَّةِ ، وَقَدْ امْتَحَنَ مَرَّاتٍ ، وَأُذِيَ وَنُفِيَ مِنْ بَلَدِهِ .

قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: عُرِضَتْ عَلَى السَّيْفِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ،

لَا يُقَالُ لِي : ارْجِعْ عَنْ مَذْهَبِكَ ، لَكِنْ يُقَالُ لِي : اسْكُتْ عَمَّنْ خَالَفَكَ ،
فَأَقُولُ : لَا أَسْكُتُ ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : أَحْفَظْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ حَدِيثٍ
أَسْرُدُهَا سَرْدًا .

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو النَّضْرِ الْفَامِي : كَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ
بُكَرُ الزَّمَانِ ، وَوَاسِطَةُ عَقْدِ الْمَعَانِي ، وَصُورَةُ الْإِقْبَالِ فِي فُنُونِ الْفَضَائِلِ
وَأَنْوَاعِ الْمَحَاسِنِ ، مِنْهَا نُصْرَةُ الدِّينِ وَالسُّنَّةِ ، مِنْ غَيْرِ مُدَاهَنَةٍ وَلَا
مُرَاقَبَةٍ لِسُلْطَانٍ وَلَا وَزِيرٍ ، وَقَدْ قَاسَى بِذَلِكَ قَصْدَ الْحُسَّادِ فِي كُلِّ
وَقْتٍ ، وَسَعَوْا فِي رُوحِهِ مَرَارًا ، وَعَمِدُوا إِلَى إِهْلَاكِهِ أَطْوَارًا ، فَوَقَّاهُ اللَّهُ
شَرَّهُمْ ، وَجَعَلَ قَصْدَهُمْ أَقْوَى سَبَبٍ لَارْتِفَاعِ شَأْنِهِ .

قُلْتُ : قَدْ انْتَفَعَ بِهِ خَلْقٌ ، وَجَهَلُ آخَرُونَ ، فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ صُوفِيَّةِ
الْفَلَسَفَةِ وَالْإِتِّحَادِ يَخْضَعُونَ لِكَلَامِهِ فِي «مَنَازِلِ السَّائِرِينَ» ، وَيَتَحَلُّوْنَهُ ،
وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مُوَافِقُهُمْ ، كَلَّا ، بَلْ هُوَ رَجُلٌ أَثَرِيٌّ ، لَهَجٌ بِإِثْبَاتِ نُصُوصِ
الْصِّفَاتِ ، مُنَافِرٌ لِلْكَلَامِ وَأَهْلُهُ جَدًّا ، وَفِي «مَنَازِلِهِ» إشاراتٌ إِلَى الْمَحْوِ
وَالْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ بِذَلِكَ الْفَنَاءُ هُوَ الْغَيْبَةُ عَنْ شُهُودِ السَّوَى ، وَلَمْ
يُرْدِ مَحْوِ السَّوَى فِي الْخَارِجِ ، وَيَالَيْتُهُ لَا صَنَّفَ ذَلِكَ ، فَمَا أَحْلَى تَصَوُّفِ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ! ، مَا خَاضُوا فِي هَذِهِ الْخَطَرَاتِ وَالْوَسَاوِسِ ،
بَلْ عَبَدُوا اللَّهَ ، وَذَلُّوا لَهُ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ،
لِأَعْدَائِهِ مُجَاهِدُونَ ، وَفِي الطَّاعَةِ مُسَارِعُونَ ، وَعَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ،

والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَقَدْ جَمَعَ هَذَا سِيرَةَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُجَلَّدٍ ، سَمِعْنَاهَا مِنْ أَبِي حَفْصِ
ابْنِ الْقَوَّاسِ بِإِجَازَتِهِ مِنَ الْكُنْدِيِّ ، أَخْبَرَنَا الْكَرُّوخِيُّ ، أَخْبَرَنَا الْمُؤَلِّفُ .

قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ : حَكَى لِي أَصْحَابُنَا أَنَّ السُّلْطَانَ أَلْبَ أَرْسَلَانَ قَدِمَ
هَرَّاءَ وَمَعَهُ وَزِيرُهُ نِظَامُ الْمَلِكِ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَيْمَةُ الْحَنْفِيَّةِ وَأَيْمَةُ الشَّافِعِيَّةِ
لِلشُّكُوى مِنَ الْأَنْصَارِيِّ ، وَمُطَالَبَتِهِ بِالْمُنَازَرَةِ ، فَاسْتَدْعَاهُ الْوَزِيرُ ، فَلَمَّا
حَضَرَ قَالَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ اجْتَمَعُوا لِمُنَازَرَتِكَ ، فَإِنْ يَكُنِ الْحَقُّ مَعَكَ ؛
رَجِعُوا إِلَى مَذْهَبِكَ ، وَإِنْ يَكُنِ الْحَقُّ مَعَهُمْ ، رَجِعْتَ أَوْ تَسَكَّتَ عَنْهُمْ .
فَوَثَبَ الْأَنْصَارِيُّ وَقَالَ : أَنَاظِرُ عَلَى مَا فِي كُفِّي ، قَالَ : وَمَا فِي كُفِّكَ ؟ ،
قَالَ : كِتَابُ اللَّهِ - وَأَشَارَ إِلَى كُفِّهِ الْيَمِينِ - وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَشَارَ إِلَى كُفِّهِ الْيَسَارِ - وَكَانَ فِيهِ «الصَّحِيحَانِ» .

فَنَظَرَ الْوَزِيرُ إِلَيْهِمْ مُسْتَفْهِمًا لَهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ نَازَرَهُ مِنْ هَذَا
الطَّرِيقِ .

وَقَالَ عَبْدُ الْغَافِرِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ : كَانَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيُّ عَلَى حَظٍّ
تَامٍّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّوَارِيخِ وَالْأَنْسَابِ ، إِمَامًا كَامِلًا فِي
التَّفْسِيرِ ، حَسَنَ السَّيَرَةِ فِي التَّصَوُّفِ ، غَيْرَ مُشْتَغَلٍ بِكَسْبِ ، مُكْتَفِيًا بِمَا
يُبَاسِطُ بِهِ الْمُرِيدِينَ وَالْأَتْبَاعَ مِنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ فِي الْعَامِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ عَلَى

رَأْسَ الْمَلَأَ ، فَيَحْصُلُ عَلَى أَلُوفٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَأَعْدَادٍ مِنَ الثِّيَابِ وَالْحَلِيِّ ،
فَيَأْخُذُهَا ، وَيُفَرِّقُهَا عَلَى اللَّحَامِ وَالْحَبَّازِ ، وَيُنْفِقُ مِنْهَا ، وَلَا يَأْخُذُ مِنَ
السُّلْطَانِ وَلَا مِنْ أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ شَيْئًا ، وَقَلَّ مَا يُرَاعِيهِمْ ، وَلَا يَدْخُلُ
عَلَيْهِمْ ، وَلَا يُبَالِي بِهِمْ ، فَبَقِيَ عَزِيزًا مَقْبُولًا قَبُولًا أَتَمَّ مِنَ الْمَلِكِ ، مُطَاعَ
الْأَمْرِ نَحْوًا مِنْ سِتِّينَ سَنَةً مِنْ غَيْرِ مُزَاحِمَةٍ ، وَكَانَ إِذَا حَضَرَ الْمَجْلِسَ
لَبَسَ الثِّيَابَ الْفَاخِرَةَ ، وَرَكِبَ الدَّوَابَّ الثَّمِينَةَ ، وَيَقُولُ : إِنَّمَا أَفْعَلُ
هَذَا إِعْزَازًا لِلدِّينِ ، وَرَغْمًا لِأَعْدَائِهِ ، حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى عِزِّي وَتَجَمُّلِي ،
فَيَرْغَبُوا فِي الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ إِذَا انْصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ عَادَ إِلَى الْمُرَقَّةِ وَالْقُعودِ
مَعَ الصُّوفِيَّةِ فِي الْخَانِقَاهُ يَأْكُلُ مَعَهُمْ ، وَلَا يَتَمَيَّزُ بِحَالٍ ، وَعَنْهُ أَخَذَ أَهْلُ
هَرَاةِ التَّبَكِيرِ بِالْفَجْرِ ، وَتَسْمِيَةِ الْأَوْلَادِ غَالِبًا بَعْدَ الْمُضَافِ إِلَى أَسْمَاءِ
الله - تَعَالَى - .

قَالَ أَبُو سَعْدٍ السَّمْعَانِي : كَانَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ مُظْهِرًا لِلِسُنَّةِ ، دَاعِيًا إِلَيْهَا ،
مُحَرِّضًا عَلَيْهَا ، كَانَ مُكْتَفِيًا بِمَا يُبَاسِطُ بِهِ الْمُرِيدِينَ ، مَا كَانَ يَأْخُذُ مِنَ
الظُّلَمِ شَيْئًا ، وَمَا كَانَ يَتَعَدَّى إِطْلَاقَ مَا وَرَدَ فِي الظُّوَاهِرِ مِنَ الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ ، مُعْتَقِدًا مَا صَحَّ ، غَيْرَ مُصَرِّحٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ تَشْبِيهُهُ ، وَقَالَ مَرَّةً : مَنْ
لَمْ يَرِ مَجْلِسِي وَتَذَكِيرِي ، وَطَعَنَ فِيَّ فَهُوَ مِنِّي فِي حِلٍّ .

قُلْتُ : غَالِبُ مَا رَوَاهُ فِي كِتَابِ « الْفَارُوقِ » صِحَاحٌ وَحِسَانٌ ، وَفِيهِ
بَابُ إِثْبَاتِ اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَأْنًا مِنْ خَلْقِهِ

مَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَسَاقَ دَلَائِلَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَفِي أَخْبَارِ شَتَّى أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَعِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَاسْتِمَاعُهُ وَنَظَرُهُ وَرَحْمَتُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

قِيلَ : إِنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ عَقَدَ عَلَى تَفْسِيرِ قَوْلِهِ -تَعَالَى- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَسِتِّينَ مَجْلَسًا .

قَالَ أَبُو النَّضْرِ الْفَافِي : « تُوفِّيَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي ذِي الْحِجَّةِ ، سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ ، عَنْ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَأَشْهُرًا »^(١) .



(١) «سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (١٨/٥٠٣-٥١٥) باختصار ، وَمَا وَرَدَ فِي هَذِهِ التَّرْجُمَةِ مِنْ لَفْظَةِ (شَيْخِ الْإِسْلَامِ) فَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْإِمَامُ الْهَرَوِيُّ .

العلم

هَدَايَةُ الْقُرْآن :

سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَاذَا حُرِّمَ الْمُعْرِضُونَ عَنْ نُصُوصِ الْوَحْيِ، وَاقْتَبَاسِ الْعِلْمِ مِنْ مَشْكَاةٍ مِنْ كُنُوزِ الذَّخَائِرِ ؟ ! وَمَاذَا فَاتَهُمْ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصَائِرِ ؟ قَنَعُوا بِأَقْوَالِ اسْتَنْبَطَتَهَا مَعَاوِلُ الْأَرَاءِ فِكْرًا، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ لِأَجْلِهَا زُبْرًا، وَأَوْحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، فَاتَّخَذُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.

كَمَالُ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ :

كَمَالُ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُمَا الْهُدَى وَدِينُ الْحَقِّ، وَبِتَكْمِيلِهِ لِغَيْرِهِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ [العصر] ، أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ خَاسِرٌ إِلَّا مَنْ كَمَّلَ قُوَّتَهُ الْعِلْمِيَّةَ بِالْإِيمَانِ، وَقُوَّتَهُ الْعَمَلِيَّةَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَكَمَّلَ غَيْرَهُ بِالتَّوَصُّيَةِ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ، وَلَا يَتِمَّانِ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمَا، وَالتَّوَاصِي

بِهِمَا كَانَ حَقِيقًا بِالْإِنْسَانِ أَنْ يُنْفِقَ سَاعَاتِ عُمُرِهِ بَلْ أَنْفَاسَهُ فِيمَا يَنَالُ
بِهِ الْمَطَالِبَ الْعَالِيَةَ، وَيَخْلُصَ بِهِ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَفَهُمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَاسْتِخْرَاجِ كُنُوزِهِ وَإِثَارَةِ دَفَائِنِهِ،
وَصَرْفِ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ، وَالْعُكُوفِ بِالْهَمَّةِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ الْكَفِيلُ بِمَصَالِحِ
الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَالْمَوْصِلُ لَهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَالْحَقِيقَةُ
وَالطَّرِيقَةُ، وَالْأَذْوَاقُ وَالْمُوَاجِدُ الصَّحِيحَةُ، كُلُّهَا لَا تُقْبَسُ إِلَّا مِنْ
مَشْكَاتِهِ، وَلَا تُسْتَمَرُّ إِلَّا مِنْ شَجَرَاتِهِ.

أَمْثَالُ الْقُرْآنِ :

وَكَمَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَثَلٍ عَقْلِيٍّ وَحِسِّيٍّ يُنبِّهُ بِهِ الْعُقُولَ عَلَى حُسْنِ مَا
أَمَرَ بِهِ، وَقُبْحِ مَا نَهَى عَنْهُ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِضَرْبِ
الْأَمْثَالِ لِلْعُقُولِ مَعْنَى، وَلَكَانَ إِثْبَاتُ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَ
ضَرْبِ الْأَمْثَالِ، وَتَبَيَّنَ جِهَةُ الْقُبْحِ الْمُشْهُودَةِ بِالْحُسْنِ وَالْعَقْلِ.

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِهَذَا لِمَنْ تَدَبَّرَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا
مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا
رَزَقَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
كَذَلِكَ نَفِصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرُّومُ: ٢٨] ، يَحْتَجُّ
سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي عُقُولِهِمْ مِنْ قُبْحِ كَوْنِ مَمْلُوكٍ أَحَدِهِمْ شَرِيكًا لَهُ،

فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَسْتَقْبِحُ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكُهُ، وَلَا يَرْضَىٰ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِي مِنْ عِبِيدِي شُرَكَاءَ تَعْبُدُونَهُمْ كَعِبَادَتِي؟ وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ قُبْحَ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُسْتَقَرٌّ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطْرِ، وَالسَّمْعُ نَبَأَ الْعُقُولِ وَأَرْشَدَهَا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا أُودِعَ فِيهَا مِنْ قُبْحِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٢٩]، اِحْتِجَّ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ قُبْحِ الشِّرْكِ بِمَا تَعْرِفُهُ الْعُقُولُ مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ حَالِ مَمْلُوكٍ يَمْلِكُهُ أَرْبَابٌ مُتَعَاْسِرُونَ سَيُّئُوا الْمَلَكَةَ، وَحَالِ عَبْدٍ يَمْلِكُهُ سَيِّدٌ وَاحِدٌ قَدْ سَلِمَ كُلُّهُ لَهُ، فَهَلْ يَصِحُّ فِي الْعُقُولِ اسْتِوَاءُ حَالِ الْعَبْدَيْنِ؟، فَكَذَلِكَ حَالُ الْمُشْرِكِ وَالْمُوَحِّدِ الَّذِي قَدْ سَلِمَتْ عُبودِيَّتُهُ لِإِلَهِهِ الْحَقِّ لَا يَسْتَوِيَانِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ مُثَلًّا لِقُبْحِ الرِّيَاءِ الْمُبْطِلِ لِلْعَمَلِ، وَالْمَنِّ وَالْأَذَى الْمُبْطِلِ لِلصَّدَقَاتِ بـ ﴿صَفْوَانٍ﴾ وَهُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ عَلَيْهِ تُرَابٌ غُبَارٌ قَدْ لَصِقَ بِهِ فَأَصَابَهُ مَطَرٌ شَدِيدٌ فَأَزَالَ مَا عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ فَتَرَكَهُ صَلْدًا أَمْلَسَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَهَذَا الْمَثَلُ فِي غَايَةِ الْمُطَابَقَةِ لِمَنْ فَهَمَهُ، فَ«الصَّفْوَانُ» وَهُوَ الْحَجَرُ، كَقَلْبِ الْمَرَائِي وَالْمَانِّ وَالْمُؤْذِي، وَالتُّرَابُ الَّذِي لَصِقَ بِهِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ أَثَرِ عَمَلِهِ وَصَدَقَتِهِ، وَالْوَابِلُ الْمَطَرُ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، فَإِذَا صَادَفَهَا لَيْنَةٌ قَابِلَةٌ نَبَتَ فِيهَا الْكَلَاءُ، وَإِذَا صَادَفَ الصُّخُورَ

وَالْحَجَارَةُ الصُّمَّ لَمْ يُنْبِتْ فِيهَا شَيْئًا، فَجَاءَ هَذَا الْوَابِلُ إِلَى التُّرَابِ الَّذِي عَلَى الْحَجَرِ، فَصَادَفَهُ رَقِيقًا، فَأَزَالَهُ، فَأَفْضَى إِلَى حَجَرٍ غَيْرِ قَابِلٍ لِلنَّبَاتِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قُبْحَ الْمَنِّ، وَالْأَذَى، وَالرِّيَاءَ مُسْتَقَرٌّ فِي الْعُقُولِ، فَلِذَلِكَ نَبَّهَهَا عَلَى شَبْهِهِ وَمِثَالِهِ.

وَعَكْسُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ - الَّتِي بِمَوْضِعِ عَالٍ، حَيْثُ لَا تُحْبَبُ عَنْهَا الشَّمْسُ وَالرِّيَّاحُ، وَقَدْ أَصَابَهَا مَطَرٌ شَدِيدٌ، فَأَخْرَجَتْ ثَمَرَتَهَا ضَعْفَيْنِ مَا يُخْرِجُ غَيْرُهَا - إِنْ كَانَتْ مُسْتَحْسَنَةً فِي الْعَقْلِ وَالْحَسِّ، فَكَذَلِكَ نَفَقَةٌ مِّنْ أَنْفَقَ مَالَهُ لَوَجْهِ اللَّهِ، لَا لِحِزَاءٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَا لَشُكُورٍ، بَلْ بَثَاتٍ مِّنْ نَفْسِهِ، وَقُوَّةٍ عَلَى الْإِنْفَاقِ، لَا يُخْرِجُ النَّفَقَةَ وَقَلْبُهُ يَرْجُفُ عَلَى خُرُوجِهَا، وَيَدَاهُ تَرْتَعِشَانِ، وَيَضْعُفُ قَلْبُهُ، وَيَخُورُ عِنْدَ الْإِنْفَاقِ، بِخِلَافِ نَفَقَةِ صَاحِبِ التَّثْبِيتِ وَالْقُوَّةِ.

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ كَانَ مَثَلُ نَفَقَةِ صَاحِبِ الْإِخْلَاصِ وَالْقُوَّةِ وَالتَّثْبِيتِ كَمَثَلِ الْوَابِلِ، وَمَثَلُ نَفَقَةِ الْآخِرِ كَمَثَلِ الطَّلِّ، وَهُوَ الْمَطَرُ الضَّعِيفُ، فَهَذَا بِحَسَبِ كَثَرَةِ الْإِنْفَاقِ وَقِلَّتِهِ،

وَكَمَالَ الْإِخْلَاصَ وَالْقُوَّةَ وَالْيَقِينَ فِيهِ وَضَعْفَهُ، أَفَلَا تَرَاهُ سُبْحَانَهُ نَبَهُ الْعُقُولِ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ اسْتِحْسَانٍ هَذَا، وَاسْتِقْبَاحٍ فِعْلِ الْأَوَّلِ؟

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٥)، فَنَبَهُ سُبْحَانَهُ الْعُقُولَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ قُبْحِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تُحْبِطُ ثَوَابَ الْحَسَنَاتِ، وَشَبَّهَهَا بِحَالِ شَيْخٍ كَبِيرٍ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، بِحَيْثُ يَخْشَى عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ وَعَلَى نَفْسِهِ، وَلَهُ بُسْتَانٌ هُوَ مَادَّةُ عَيْشِهِ وَعَيْشُ ذُرِّيَّتِهِ، فِيهِ النَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَأَرْجَى وَأَفْقَرُ مَا هُوَ لَهُ وَأَسْرَّ مَا كَانَ بِهِ إِذْ أَصَابَهُ نَارٌ شَدِيدَةٌ فَأَحْرَقَتْهُ، فَنَبَهُ الْعُقُولَ عَلَى أَنَّ قُبْحَ الْمَعَاصِي الَّتِي تُغْرِقُ الطَّاعَاتِ كَقُبْحِ هَذِهِ الْحَالِ، وَبِهَذَا فَسَّرَهَا عُمَرُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- لِرَجُلٍ غَنِيٍّ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ زَمَانًا، فَبَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

أَفَلَا تَرَاهُ نَبَهُ الْعُقُولَ عَلَى قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الطَّاعَةِ، وَضَرَبَ لِقُبْحِهَا هَذَا الْمَثَلَ؟

لَا يُسْتَحَبُّ لِلْمُعْتَكِفِ نَشْرُ الْعِلْمِ :

حَقِيقَةُ الْاِعْتِكَافِ الْمَشْرُوعِ، وَهُوَ جَمِيعَةُ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَخَلْوَتُهُ بِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَحْتَجِرُ بِحَصِيرٍ فِي الْمَسْجِدِ فِي اِعْتِكَافِهِ، يَخْلُو بِهِ مَعَ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْتَغِلُ بِتَعْلِيمِ الصَّحَابَةِ وَتَذْكِيرِهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَلِهَذَا كَانَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ لَا يُسْتَحَبُّ لِلْمُعْتَكِفِ إِقْرَاءُ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، وَخَلْوَتُهُ لِلذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ أَفْضَلُ لَهُ، وَاحْتَجُّوا بِفِعْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

فَوَائِدُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ :

وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاضِرِ الْقَلْبِ إِلَى مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ، لَا مَجْرَدُ تِلَاوَتِهِ بَلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۚ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٦٨] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزُّحْرَف: ٣] ، وَقَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيَتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا .

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ

الْقُرْآنَ، وَإِطَالَةَ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعَ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلَعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَائِفِرِهِمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَالَ أَهْلِهِمَا، وَتَتَلَّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشِيدُ بُنْيَانَهُ وَتُوطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُزَيِّنُ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُخَضِّرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُزَيِّنُ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمَوْصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَأَفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسَيِّمَاتِهِمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ تُعَرِّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتُعَرِّفُهُ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ثَلَاثَةً أُخْرَى: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ الْمَوْصِلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

مَعَانِي الْقُرْآن :

فَإِنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزِّهُهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النِّقْصِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ، وَذِكْرِ بَرَاهِينِ صِدْقِهِمْ، وَأَدْلَةِ صِحَّةِ نُبُوتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ، وَحُقُوقِ مُرْسَلِهِمْ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَذْيِيرِهِمُ الْأُمُورَ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُمْ، مِنْ حِينَ يَسْتَقَرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ إِلَى يَوْمِ يُوَافِي رَبَّهُ وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ دَارِ النِّعَمِ الْمَطْلُوقِ الَّتِي لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِالْمِ وَلَا نَكَدٍ وَتَنْغِيصٍ، وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ الْوَبِيلِ الَّتِي لَا يَخَالِطُهَا سُرُورٌ وَلَا رَخَاءٌ وَلَا رَاحَةٌ وَلَا فَرْحٌ، وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ أَتَمُّ تَفْصِيلٍ وَأَبْيَنُهُ، وَعَلَى تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ، وَالْمَبَادِي وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهَضُ الْعَبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتَحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحْثُّهُ عَلَى التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ، وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْأَرَآءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدْعِ وَالْأَضَالِيلِ وَتَبْعَثُهُ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ

بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها
 لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن
 الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية
 التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره تقدم الركب وفاتك
 الدليل، فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه
 سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمين العدو، أو قاطع من
 قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر ! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل:
 حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من
 الحكم والفوائد.

وبالجُملة فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار
 معانيه.

أخذ العلم من الكتاب والسنة :

من أخذ العلم من عين العلم ثبت، ومن أخذه من جريانه أخذه
 أمواج الشبه، ومالت به العبارات، واختلفت عليه الأقوال.

فَضْلُ الْعِلْمِ :

وَالْعِلْمُ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ : مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْحَالِ : الْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْحَالُ مُحْكومٌ عَلَيْهِ ، وَالْعِلْمُ هَادٍ ، وَالْحَالُ تَابِعٌ ، وَالْعِلْمُ أَمْرٌ نَاهٍ ، وَالْحَالُ مَنْفَعٌ قَابِلٌ ، وَالْحَالُ سَيْفٌ ، إِنَّ لَمْ يَصْحَبْهُ الْعِلْمُ فَهُوَ مَخْرَاقٌ فِي يَدٍ لَا عِبَ ، الْحَالُ مَرْكَبٌ لَا يُجَارَى ، فَإِنْ لَمْ يَصْحَبْهُ عِلْمٌ أَلْقَى صَاحِبَهُ فِي الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ ، وَالْحَالُ كَالْمَالِ يُؤْتَاهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، فَإِنْ لَمْ يَصْحَبْهُ نُورُ الْعِلْمِ كَانَ وَبَالًا عَلَى صَاحِبِهِ .

الْحَالُ بِلَا عِلْمٍ كَالسُّلْطَانِ الَّذِي لَا يَزَعُهُ عَنْ سَطْوَتِهِ وَازْعٌ .

الْحَالُ بِلَا عِلْمٍ كَالنَّارِ الَّتِي لَا سَائِسَ لَهَا .

نَفْعُ الْحَالِ لَا يَتَعَدَّى صَاحِبَهُ ، وَنَفْعُ الْعِلْمِ كَالْغَيْثِ يَقَعُ عَلَى الظَّرَابِ وَالْأَكَامِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ .

دَائِرَةُ الْعِلْمِ تَسَعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، وَدَائِرَةُ الْحَالِ تَضِيقُ عَنْ غَيْرِ صَاحِبِهِ ، وَرُبَّمَا ضَاقَتْ عَنْهُ .

الْعِلْمُ هَادٍ وَالْحَالُ الصَّحِيحُ مُهْتَدٍ بِهِ ، وَهُوَ تَرْكَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَتُرَاثُهُمْ ، وَأَهْلُهُ عُصْبَتُهُمْ وَوَرَاثُهُمْ ، وَهُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ، وَنُورُ الْبَصَائِرِ ، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ ، وَرِيَاضُ الْعُقُولِ ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ ، وَأَنْسُ الْمُسْتَوْحِشِينَ ،

وَدَلِيلُ الْمُتَحَرِّينَ ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي بِهِ تُوزَنُ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ وَالْأَحْوَالُ .

وَهُوَ الْحَاكِمُ الْمَفْرُقُ بَيْنَ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ .

بِهِ يُعْرَفُ اللَّهُ وَيُعْبَدُ ، وَيَذَكَّرُ وَيُوحَّدُ ، وَيُحَمَدُ وَيَمَجَّدُ ، وَبِهِ اهْتَدَى إِلَيْهِ السَّالِكُونَ ، وَمِنْ طَرِيقِهِ وَصَلَ إِلَيْهِ الْوَاصِلُونَ ، وَمِنْ بَابِهِ دَخَلَ عَلَيْهِ الْقَاصِدُونَ .

بِهِ تُعْرَفُ الشَّرَائِعُ وَالْأَحْكَامُ ، وَيَتَمَيَّزُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ ، وَبِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ وَبِهِ تُعْرَفُ مَرَاضِي الْحَبِيبِ ، وَبِمَعْرِفَتِهَا وَمُتَابَعَتِهَا يُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ .

وَهُوَ إِمَامٌ ، وَالْعَمَلُ مَأْمُومٌ ، وَهُوَ قَائِدٌ ، وَالْعَمَلُ تَابِعٌ ، وَهُوَ الصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ ، وَالْأَنِيسُ فِي الْوَحْشَةِ ، وَالْكَاشِفُ عَنِ الشُّبْهَةِ ، وَالْغَنِىُّ الَّذِي لَا فَقْرَ عَلَى مَنْ ظَفَرَ بِكَتْرِهِ ، وَالْكَنْفُ الَّذِي لَا ضَيْعَةَ عَلَى مَنْ آوَى إِلَى حِرْزِهِ .

مُذَكَّرَتُهُ تَسْبِيحٌ ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ ، وَطَلَبُهُ قُرْبَةٌ ، وَبَذْلُهُ صَدَقَةٌ ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ بِالصَّيَامِ وَالْقِيَامِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَعْظَمُ مِنْهَا إِلَى الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ .

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : النَّاسُ إِلَى الْعِلْمِ أَخْوَجُ مِنْهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَحَاجَتُهُ إِلَى الْعِلْمِ بَعْدَ أَنْفَاسِهِ .

أَقْسَامُ الْعُلَمَاءِ :

وَالْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ : عَالِمٌ اسْتَنَارَ بِنُورِهِ وَاسْتَنَارَ بِهِ النَّاسُ ، فَهَذَا مِنْ خُلَفَاءِ الرُّسُلِ وَوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَعَالِمٌ اسْتَنَارَ بِنُورِهِ ، وَلَمْ يَسْتَنْزِ بِهِ غَيْرُهُ ، فَهَذَا إِنْ لَمْ يُفَرِّطْ كَانَ نَفْعُهُ قَاصِرًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوَّلِ مَا بَيْنَهُمَا ، وَعَالِمٌ لَمْ يَسْتَنْزِ بِنُورِهِ وَلَا اسْتَنَارَ بِهِ غَيْرُهُ ، فَهَذَا عِلْمُهُ وَبَالَ عَلَيْهِ ، وَبَسْطَتُهُ لِلنَّاسِ فِتْنَةٌ لَهُمْ ، وَبَسْطَةُ الْأَوَّلِ رَحْمَةٌ لَهُمْ .

الرَّحْلَةُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ :

وَلَقَدْ رَحَلَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي طَلَبِ الْعِلْمِ هُوَ وَفَتَاهُ ، حَتَّى مَسَّهَا النَّصَبُ فِي سَفَرِهِمَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، حَتَّى ظَفَرَ بِثَلَاثِ مَسَائِلَ ، وَهُوَ مِنْ أَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ وَأَعْلَمِهِمْ بِهِ .



اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى أُمِّهِاتِ الْمَطَالِبِ

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَى أُمِّهِاتِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ أَتَمَّ اشْتِمَالٍ، وَتَضَمَّنَتْهَا أَكْمَلَ تَضَمُّنٍ.

فَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّعْرِيفِ بِالْمَعْبُودِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ، مَرْجِعُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا إِلَيْهَا، وَمَدَارُهَا عَلَيْهَا، وَهِيَ: اللَّهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَبُنِيَتْ السُّورَةُ عَلَى الْإِلَهِيَّةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِلَهِيَّةِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عَلَى الرُّبُوبِيَّةِ، وَطَلَبُ الْهُدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ، وَالْحَمْدُ يَتَضَمَّنُ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ، فَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَالشَّنَاءُ وَالْمَجْدُ كَمَا لَانَ لَجْدُهُ.

إِثْبَاتُ الْمَعَادِ :

وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ الْمَعَادِ، وَجَزَاءَ الْعِبَادِ بِأَعْمَالِهِمْ، حَسَنَهَا وَسَيِّئَهَا، وَتَفَرَّدَ الرَّبُّ تَعَالَى بِالْحُكْمِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَكَوْنِ حُكْمِهِ بِالْعَدْلِ، وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ قَوْلِهِ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

إثبات النبوات:

وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ النَّبَوَاتِ مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ:

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَلَا يَلِيْقُ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ عِبَادَهُ سُدىً هَمَلًا لَا يَعْرِفُهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ فِيهِمَا، فَهَذَا هَضْمٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ، وَنِسْبَةُ الرَّبِّ تَعَالَى إِلَى مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَمَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَسَبَهُ إِلَيْهِ.

الثَّانِي: أَخَذَهَا مِنْ اسْمِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَالُوهُ الْمَعْبُودُ، وَلَا سَبِيلَ لِلْعِبَادِ إِلَى مَعْرِفَةِ عِبَادَتِهِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ رُسُلِهِ.

المَوْضِعُ الثَّلَاثُ: مِنْ اسْمِهِ الرَّحْمَنُ فَإِنَّ رَحْمَتَهُ تَمْنَعُ إِهْمَالَ عِبَادِهِ، وَعَدَمَ تَعْرِيفِهِمْ مَا يَنَالُونَ بِهِ غَايَةَ كَمَا لَهُمْ، فَمَنْ أَعْطَى اسْمَ الرَّحْمَنِ حَقَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِأَرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، أَعْظَمَ مِنْ تَضَمُّنِهِ إِنْزَالِ الْغَيْثِ، وَإِنْبَاتِ الْكَلَأِ، وَإِخْرَاجِ الْحَبِّ، فَاقْتِضَاءُ الرَّحْمَةِ لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ أَعْظَمُ مِنْ اقْتِضَائِهَا لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَشْبَاحِ، لَكِنِ الْمَحْجُوبُونَ إِنَّمَا أَدْرَكُوا مِنْ هَذَا الْإِسْمِ حَظَّ الْبَهَائِمِ وَالْدَّوَابِّ، وَأَدْرَكَ مِنْهُ أَوَّلُ الْأَلْبَابِ أَمْرًا وَرَاءَ ذَلِكَ.

المَوْضِعُ الرَّابِعُ: مِنْ ذِكْرِ يَوْمِ الدِّينِ فَإِنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يُدِينُ اللَّهُ الْعِبَادَ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيُثَبِّتُهُمْ عَلَى الْخَيْرَاتِ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ،

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ بِرُسُلِهِ وَكُتِبَ، وَبِهِمْ اسْتُحِقَّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَبِهِمْ قَامَ سُوقُ يَوْمِ الدِّينِ، وَسِيقَ الْأَبْرَارُ إِلَى النِّعَمِ، وَالْفُجَّارُ إِلَى الْجَحِيمِ.

المَوْضِعُ الْخَامِسُ: مِنْ قَوْلِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَإِنَّ مَا يُعْبَدُ بِهِ الرَّبُّ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَعِبَادَتُهُ وَهِيَ شُكْرُهُ وَحُبُّهُ وَخَشْيَتُهُ فَطَرِيٌّ وَمَعْقُولٌ لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، لَكِنَّ طَرِيقَ التَّعْبُدِ وَمَا يُعْبَدُ بِهِ لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِرُسُلِهِ وَبَيَانِهِمْ، وَفِي هَذَا بَيَانٌ أَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ فِي الْعُقُولِ، يَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُ الْعَالَمِ عَنْهُ، كَمَا يَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُهُ عَنِ الصَّانِعِ، فَمَنْ أَنْكَرَ الرُّسُولَ فَقَدْ أَنْكَرَ الْمُرْسِلَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكُفْرَ بِرُسُلِهِ كُفْرًا بِهِ.

المَوْضِعُ السَّادِسُ: مِنْ قَوْلِهِ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٦ فَالْهُدَايَةُ: هِيَ الْبَيَانُ وَالذَّلَالَةُ، ثُمَّ التَّوْفِيقُ وَالْإِلَهَامُ، وَهُوَ بَعْدَ الْبَيَانِ وَالذَّلَالَةِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْبَيَانِ وَالذَّلَالَةِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ، فَإِذَا حَصَلَ الْبَيَانُ وَالذَّلَالَةُ وَالتَّعْرِيفُ تَرْتَّبَ عَلَيْهِ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَجَعَلَ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ، وَتَحْبِيْبُهُ إِلَيْهِ، وَتَزْيِينُهُ فِي الْقَلْبِ، وَجَعَلَهُ مُؤَثِّرًا لَهُ، رَاضِيًا بِهِ، رَاغِبًا فِيهِ.

وَهُمَا هِدَايَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ، لَا يَحْصُلُ الْفَلَاحُ إِلَّا بِهِمَا، وَهُمَا مُتَضَمِّنَتَانِ

تَعْرِيفَ مَا لَمْ نَعْلَمْهُ مِنَ الْحَقِّ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا، وَإِلْهَامَنَا لَهُ، وَجَعَلَنَا مُرِيدِينَ لِاتِّبَاعِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ثُمَّ خَلَقَ الْقُدْرَةَ لَنَا عَلَى الْقِيَامِ بِمُوجِبِ الْهُدَى بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْعَزْمِ، ثُمَّ إِدَامَةَ ذَلِكَ لَنَا وَتَثْبِيتَنَا عَلَيْهِ إِلَى الْوَفَاةِ.

وَمِنْ هُنَا يُعَلِّمُ اضْطِرَارَّ الْعَبْدِ إِلَى سُؤَالِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ، وَبُطْلَانُ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: إِذَا كُنَّا مُهْتَدِينَ، فَكَيْفَ نَسْأَلُ الْهُدَايَةَ؟، فَإِنَّ الْمَجْهُولَ لَنَا مِنَ الْحَقِّ أَضْعَافُ الْمَعْلُومِ، وَمَا لَا نُرِيدُ فَعَلَهُ تَهَاوُنًا وَكَسَلًا مِثْلُ مَا نُرِيدُهُ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُ أَوْ دُونَهُ، وَمَا لَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ مِمَّا نُرِيدُهُ كَذَلِكَ، وَمَا نَعْرِفُ جُمْلَتَهُ وَلَا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِهِ فَأَمْرٌ يُفَوِّتُ الْحَضَرَ، وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْهُدَايَةِ التَّامَّةِ، فَمَنْ كَمَلَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمُورُ كَانَ سُؤَالُ الْهُدَايَةِ لَهُ سُؤَالَ التَّثْبِيتِ وَالْوِثَامِ.

أَعْظَمُ مَرَاتِبِ الْهُدَايَةِ:

وَلِلْهُدَايَةِ مَرْتَبَةٌ أُخْرَى وَهِيَ آخِرُ مَرَاتِبِهَا وَهِيَ الْهُدَايَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمَوْصِلُ إِلَيْهَا، فَمَنْ هَدِيَ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، هَدِيَ هُنَاكَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمَوْصِلِ إِلَى جَنَّتِهِ وَدَارِ ثَوَابِهِ، وَعَلَى قَدَرِ ثُبُوتِ قَدَمِ الْعَبْدِ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ الَّذِي نَصَبَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ

يَكُونُ ثُبُوتُ قَدَمِهِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَعَلَى قَدْرِ سَيْرِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّرَاطِ يَكُونُ سَيْرُهُ عَلَى ذَاكَ الصِّرَاطِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرِّكَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى سَعْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْبُو حَبْوًا، وَمِنْهُمْ الْمُخْدُوشُ الْمُسَلَّمُ، وَمِنْهُمْ الْمُكَرَّدَسُ فِي النَّارِ، فَلْيَنْظُرِ الْعَبْدُ سَيْرَهُ عَلَى ذَلِكَ الصِّرَاطِ مِنْ سَيْرِهِ عَلَى هَذَا، حَذَوِ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، جَزَاءً وَفَاقًا هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وَلْيَنْظُرِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَعُوقُهُ عَنْ سَيْرِهِ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهَا الْكَالِيلُ الَّتِي بَجَنَبَتِي ذَاكَ الصِّرَاطِ، تَخْطِفُهُ وَتَعُوقُهُ عَنِ الْمُرُورِ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَثُرَتْ هُنَا وَقَوِيَتْ فَكَذَلِكَ هِيَ هُنَاكَ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ.

فَسُؤَالُ الْهِدَايَةِ مُتَضَمِّنٌ لِحُصُولِ كُلِّ خَيْرٍ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

الْمَوْضِعُ السَّابِعُ: مِنْ مَعْرِفَةِ نَفْسِ الْمَسْئُولِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَلَا تَكُونُ الطَّرِيقُ صِرَاطًا حَتَّى تَتَضَمَّنَ خَمْسَةَ أُمُورٍ: الْإِسْتِقَامَةَ، وَالْإِيصَالَ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَالْقُرْبَ، وَسَعَتُهُ لِلْمَارِّينَ عَلَيْهِ، وَتَعَيُّنُهُ طَرِيقًا لِلْمَقْصُودِ، وَلَا يَخْفَى تَضَمُّنُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ.

فَوَضَّفَهُ بِالْإِسْتِقَامَةِ يَتَضَمَّنُ قُرْبَهُ، لِأَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ خَطٍّ

فَاصِلٌ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ، وَكَلِمَا تَعَوَّجَ طَالَ وَبَعُدَ، وَاسْتِقَامَتُهُ تَتَضَمَّنُ إِيْصَالَهُ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَنَضَبُهُ لَجَمِيعٍ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ يَسْتَلْزِمُ سَعَتَهُ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَوَصْفُهُ بِمُخَالَفَةِ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ يَسْتَلْزِمُ تَعْيِينَهُ طَرِيقًا.

وَالصِّرَاطُ تَارَةٌ يُضَافُ إِلَى اللَّهِ، إِذْ هُوَ الَّذِي شَرَعَهُ وَنَضَبَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ وَتَارَةٌ يُضَافُ إِلَى الْعِبَادِ كَمَا فِي الْفَاتِحَةِ، لِكُونِهِمْ أَهْلَ سُلُوكِهِ، وَهُوَ الْمَنْسُوبُ لَهُمْ، وَهُمْ الْمَارُّونَ عَلَيْهِ.

المَوْضِعُ الثَّامِنُ: مِنْ ذِكْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَتَمْيِيزِهِمْ عَنْ طَائِفَتِي الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ.

فَانْقَسَمَ النَّاسُ بِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْحَقِّ، وَإِمَّا جَاهِلًا بِهِ، وَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِمُوجِبِهِ أَوْ مُخَالَفًا لَهُ، فَهَذِهِ أَقْسَامُ الْمُكَلَّفِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا الْبَتَّةَ، فَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَامِلُ بِهِ هُوَ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي زَكَّى نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُوَ الْمُفْلِحُ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشَّمْسُ: ٩]، وَالْعَالِمُ بِهِ الْمُتَّبِعُ هَوَاهُ هُوَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ،

وَالْجَاهِلُ بِالْحَقِّ هُوَ الضَّالُّ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ ضَالٌّ عَنْ هِدَايَةِ الْعَمَلِ،
وَالضَّالُّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ لَضَلَالِهِ عَنِ الْعِلْمِ الْمَوْجِبِ لِلْعَمَلِ، فَكُلُّ مَنْهَا
ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ تَارَكَ الْعَمَلَ بِالْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ أَوَّلَى
بَوْصَفِ الْغَضَبِ وَأَحَقُّ بِهِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ الْيَهُودُ أَحَقَّ بِهِ، وَهُوَ مُتَغَلِّظٌ
فِي حَقِّهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ
يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] ، وَقَالَ تَعَالَى :
﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ
سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠) [المائدة: ٦٠] .

وَالْجَاهِلُ بِالْحَقِّ أَحَقُّ بِاسْمِ الضَّلَالِ، وَمِنْ هُنَا وَصِفَتِ النَّصَارَى
بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧) [المائدة: ٧٧] ، فَالْأَوَّلَى فِي
سِيَاقِ الْخِطَابِ مَعَ الْيَهُودِ، وَالثَّانِيَةِ فِي سِيَاقِهِ مَعَ النَّصَارَى، وَفِي التَّرْمِذِيِّ
وَصَحِيحِ ابْنِ حَبَّانَ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ،

فَفِي ذِكْرِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَاتَّبَعَهُ وَالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مَنْ عَرَفَهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَالضَّالِّينَ وَهُمْ مَنْ جَهِلَهُ مَا يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوءَةِ، لِأَنَّ انْقِسَامَ النَّاسِ إِلَى ذَلِكَ هُوَ الْوَاقِعُ الْمَشْهُودُ، وَهَذِهِ الْقِسْمَةُ إِنَّمَا أَوْجَبَهَا ثُبُوتُ الرِّسَالَةِ.

إِسْنَادُ النُّعْمَةِ لِلَّهِ دُونَ الْغَضَبِ :

وَأَصَافُ النُّعْمَةَ إِلَيْهِ، وَحَذَفُ فَاعِلِ الْغَضَبِ لَوْجُوهٌ :

مِنْهَا: أَنَّ النُّعْمَةَ هِيَ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ، وَالْغَضَبُ مِنْ بَابِ الْإِنْتِقَامِ وَالْعَدْلِ، وَالرَّحْمَةُ تَغْلِبُ الْغَضَبَ، فَأَصَافُ إِلَى نَفْسِهِ أَكْمَلَ الْأَمْرَيْنِ، وَأَسْبَقَهُمَا وَأَقْوَاهُمَا، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي إِسْنَادِ الْخَيْرَاتِ وَالنِّعَمِ إِلَيْهِ، وَحَذَفِ الْفَاعِلِ فِي مُقَابَلَتِهِمَا، كَقَوْلِ مُؤْمِنِي الْجَنِّ ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَضِرِ فِي شَأْنِ الْجِدَارِ وَالْيَتِيمَيْنِ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وَقَالَ فِي خَرَقِ السَّفِينَةِ ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِِّي﴾ [الكهف: ٨٢]، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى

(١) (صَحِيحٌ): صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٨٢٠٢).

نَسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ ﴿ [البقرة: ١٨٧] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُلْمِيَّةٌ
وَالْدَمٌ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴿ [المائدة: ٣] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أَمْهَاتُكُمْ ﴿ [النساء: ٢٣] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴿
[النساء: ٢٤] .

النَّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ وَمُطْلَقُ النَّعْمَةِ :

وَفِي تَخْصِيصِهِ لِأَهْلِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِالنَّعْمَةِ مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ النَّعْمَةَ
الْمُطْلَقَةَ هِيَ الْمَوْجِبَةُ لِلْفَلَاحِ الدَّائِمِ ، وَأَمَّا مُطْلَقُ النَّعْمَةِ فَعَلَى الْمُؤْمِنِ
وَالْكَافِرِ ، فَكُلُّ الْخَلْقِ فِي نِعْمَةٍ ، وَهَذَا فَضْلُ النَّزَاعِ فِي مَسْأَلَةٍ : هَلْ لِلَّهِ
عَلَى الْكَافِرِ مِنْ نِعْمَةٍ أَمْ لَا ؟ .

فَالنَّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَمُطْلَقُ النَّعْمَةِ تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ
وَالْكَافِرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ
إِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿ ٣٤ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

وَالنَّعْمَةُ مِنْ جِنْسِ الْإِحْسَانِ ، بَلْ هِيَ الْإِحْسَانُ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى
إِحْسَانُهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ .
وَأَمَّا الْإِحْسَانُ الْمُطْلَقُ فَلِلَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالنِّعَمِ ؛ ﴿ وَمَا يَكُم مِّنْ
نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴿ [النحل: ٥٣] ، فَأُضِيفَ إِلَيْهِ مَا هُوَ مُتَفَرِّدٌ بِهِ ، وَإِنْ أُضِيفَ

إِلَى غَيْرِهِ فَلِكُونِهِ طَرِيقًا وَمَجْرَى النِّعْمَةِ، وَأَمَّا الْغَضَبُ عَلَى أَعْدَائِهِ فَلَا يَخْتَصُّ بِهِ تَعَالَى، بَلْ مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَآؤُهُ وَرُسُلُهُ وَأَوْلِيَآؤُهُ يَغْضَبُونَ لِعُضْبِهِ، فَكَانَ فِي لَفْظَةِ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بِمُوَافَقَةِ أَوْلِيَآئِهِ لَهُ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالْإِنْعَامِ، وَأَنَّ النِّعْمَةَ الْمُطْلَقَةَ مِنْهُ وَحْدَهُ، هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِهَا مَا لَيْسَ فِي لَفْظَةِ «الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ» .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ فِي حَذْفِ فَاعِلِ الْغَضَبِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِإِهَانَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، وَتَحْقِيرِهِ وَتَضْغِيرِ شَأْنِهِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ فَاعِلِ النِّعْمَةِ مِنْ إِكْرَامِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِهِ، وَرَفْعِ قَدْرِهِ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ قَدْ أَكْرَمَهُ مَلِكٌ وَشَرَّفَهُ وَرَفَعَ قَدْرَهُ، فَقُلْتَ: هَذَا الَّذِي أَكْرَمَهُ السُّلْطَانُ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مَا تَمَنَّاهُ، كَانَ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ مِنْ قَوْلِكَ: هَذَا الَّذِي أُكْرِمَ وَخُلِعَ عَلَيْهِ وَشُرِّفَ وَأُعْطِيَ.

وَتَأَمَّلْ سِرًّا بَدِيعًا فِي ذِكْرِ السَّبَبِ وَالْجَزَاءِ لِلطَّوَائِفِ الثَّلَاثَةِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرِهِ، فَإِنَّ الْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ يَتَضَمَّنُ إِنْعَامَهُ بِالْهُدَايَةِ الَّتِي هِيَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهِيَ الْهُدَى وَدِينُ الْحَقِّ، وَيَتَضَمَّنُ كِمَالَ الْإِنْعَامِ بِحُسْنِ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ، فَهَذَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ، وَلَفْظُ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَيْنِ.

وَذَكَرُ غَضْبِهِ عَلَى ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يَتَضَمَّنُ أَيْضًا أَمْرَيْنِ: الْجَزَاءُ

بِالْغَضَبِ الَّذِي مُوجِبُهُ غَايَةُ الْعَذَابِ وَالْهُوَانِ، وَالسَّبَبُ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ غَضَبَهُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ أَرْحَمُ وَأَرْأَفُ مِنْ أَنْ يَغْضَبَ بِلَا جَنَايَةِ مِنْهُمْ وَلَا ضَلَالٍ، فَكَأَنَّ الْغَضَبَ عَلَيْهِمْ مُسْتَلَزِمٌ لِضَلَالِهِمْ، وَذَكَرُ الضَّالِّينَ مُسْتَلَزِمٌ لَغَضَبِهِ عَلَيْهِمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ، فَإِنْ مَنْ ضَلَّ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ الَّتِي هِيَ مُوجِبُ ضَلَالِهِ وَغَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

فَاسْتَلَزِمَ وَصَفَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ لِلْسَّبَبِ وَالْجَزَاءِ أَتَيْنَ اسْتَلَزَامَ، وَاقْتَضَاهُ أَكْمَلَ اقْتِضَاءٍ فِي غَايَةِ الْإِيجَازِ وَالْيَبَانَ وَالْفَصَاحَةِ، مَعَ ذِكْرِ الْفَاعِلِ فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَحَذْفِهِ فِي أَهْلِ الْغَضَبِ، وَإِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى السَّبَبِ فِي أَهْلِ الضَّلَالِ.

وَتَأَمَّلِ الْمُقَابَلَةَ بَيْنَ الْهُدَايَةِ وَالنُّعْمَةِ، وَالْغَضَبِ وَالضَّلَالِ، فَذَكَرُ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ فِي مُقَابَلَةِ الْمُهْتَدِينَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، يَقْرُنُ بَيْنَ الضَّلَالِ وَالشَّقَاءِ، وَبَيْنَ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ، فَالثَّانِي كَقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

[البقرة: ٥٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [الأنعام

: ٥٠]، وَالْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿٤٧﴾

[القمر: ٤٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ

غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٧﴾ [البقرة: ٧]، وَقَدْ جَمَعَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ

الأمور الأربعة في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] ، فهذا الهدى والسعادة، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً (١٢٥) قال كذلك أنتكـ ءآيتنـا فنسينـها وكذلـك الـيوم نـنسـى (١٢٦) [طه: ١٢٤-١٢٦] ، فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.



اشتمال الفاتحة على جميع معاني القرآن

وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكِتَابِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْتَهَى
إِلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعِبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، حَتَّى قِيلَ:
أَنْزَلَ اللَّهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِي هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِي
الْقُرْآنِ فِي الْمَفْصَلِ، وَجَمَعَ مَعَانِي الْمَفْصَلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِي الْفَاتِحَةِ فِي
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وَهُمَا الْكَلِمَتَانِ الْمُقْسُومَتَانِ بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَ عَبْدِهِ نَصْفَيْنِ، فَنَصِفُهَا لَهُ
تَعَالَى، وَهُوَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَنَصِفُهَا لِعَبْدِهِ وَهُوَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .
وَسَيَأْتِي سِرُّ هَذَا وَمَعْنَاهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ، وَالْعَرَبُ
تَقُولُ: طَرِيقُ مُعَبَّدٍ أَيْ مُذَلَّلٍ، وَالتَّعَبُّدُ: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، فَمَنْ أَحَبَبْتَهُ
وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ
عَابِدًا لَهُ حَتَّى تَكُونَ مُحِبًّا خَاضِعًا، وَمَنْ هَاهُنَا كَانَ الْمُتَكَبِّرُونَ مُحِبَّةَ الْعِبَادِ
لِرَبِّهِمْ مُنْكَرِينَ حَقِيقَةَ الْعِبُودِيَّةِ، وَالْمُنْكَرُونَ لِكَوْنِهِ مُحِبُّوْبًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ

غَايَةً مَطْلُوبِهِمْ، وَوَجْهَهُ الْأَعْلَى نَهَايَةً بُغْيَتِهِمْ مُنْكَرِينَ لِكَوْنِهِ إِلْهًا، وَإِنْ أَقْرَبُوا بِكَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَخَالِقًا لَهُمْ، فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمْ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ عَنِ الشِّرْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٢٥]، ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٤]، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٩]، وَلِهَذَا يُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِهِ عَلَى تَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَالِاسْتِعَانَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: الثِّقَّةُ بِاللَّهِ، وَالْاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَثِقُ بِالْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ لَا اسْتِعْنَائِهِ عَنْهُ، وَقَدْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلِعَدَمِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، فَيَحْتَاجُ إِلَى اعْتِمَادِهِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاثِقٍ بِهِ.

وَالْتَوَكُّلُ مَعْنَى يَلْتَنِمُ مِنْ أَصْلَيْنِ: مِنَ الثِّقَّةِ، وَالْاعْتِمَادِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ وَهُمَا التَّوَكُّلُ، وَالْعِبَادَةُ قَدْ ذُكِرَا فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِيهَا، هَذَا أَحَدُهَا.]

الثَّانِي: قَوْلُ شُعَيْبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هُود: ٨٨] .

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هُود: ١٢٣] .

الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الْمُنْتَحَنَةِ: ٤] .

الخَامِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (١) ﴿ [الْمَزَّل: ٨-٩] .

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٣٠) ﴿ [الرَّعْدُ: ٣٠] .

فَهَذِهِ سِتَّةُ مَوَاضِعَ يُجْمَعُ فِيهَا بَيْنَ الْأَصْلَيْنِ، وَهُمَا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وَتَقْدِيمُ « الْعِبَادَةِ » عَلَى « الْأَسْتِعَانَةِ » فِي الْفَاتِحَةِ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْغَايَاتِ عَلَى الْوَسَائِلِ، إِذِ « الْعِبَادَةُ » غَايَةُ الْعِبَادِ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا، وَ« الْأَسْتِعَانَةُ » وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا، وَلِأَنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْوَهْيَةِ وَاسْمِهِ « اللَّهِ » ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَاسْمِهِ « الرَّبِّ » فَقَدَّمَ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ عَلَى ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كَمَا قَدَّمَ اسْمَ « اللَّهِ »

عَلَى « الرَّبِّ » فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَلِأَنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قَسْمُ « الرَّبِّ »، فَكَانَ مِنَ الشَّطْرِ الْأَوَّلِ، الَّذِي هُوَ ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِكَوْنِهِ أَوَّلِي بِهِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَسْمُ الْعَبْدِ، فَكَانَ مِنَ الشَّطْرِ الَّذِي لَهُ، وَهُوَ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » الْمُطْلَقَةَ تَتَضَمَّنُ « الْإِسْتِعَانَةَ » مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَكُلُّ عَابِدٍ لِلَّهِ عُبُودِيَّةً تَامَّةً مُسْتَعِينٌ بِهِ وَلَا يَنْعَكِسُ، لِأَنَّ صَاحِبَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ قَدْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى شَهَوَاتِهِ، فَكَانَتِ الْعِبَادَةُ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ، وَلِهَذَا كَانَتْ قَسْمَ الرَّبِّ.

وَلِأَنَّ « الْإِسْتِعَانَةَ » جُزْءٌ مِنْ « الْعِبَادَةِ » مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، وَلِأَنَّ « الْإِسْتِعَانَةَ » طَلَبٌ مِنْهُ، وَ « الْعِبَادَةُ » طَلَبٌ لَهُ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ مُخْلِصٍ، وَ « الْإِسْتِعَانَةَ » تَكُونُ مِنْ مُخْلِصٍ وَمِنْ غَيْرِ مُخْلِصٍ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » حَقُّهُ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْكَ، وَ « الْإِسْتِعَانَةَ » طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَى « الْعِبَادَةِ »، وَهُوَ بَيَانُ صَدَقَتِهِ الَّتِي تَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْكَ، وَأَدَاءُ حَقِّهِ أَهْمٌ مِنَ التَّعَرُّضِ لِمُصَدَّقَتِهِ.

وَلِأَنَّ « الْعِبَادَةَ » شُكْرُ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ، وَاللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَشْكُرَ، وَالْإِعَانَةُ فِعْلُهُ بِكَ وَتَوْفِيقُهُ لَكَ، فَإِذَا التَزَمْتَ عُبُودِيَّتَهُ، وَدَخَلْتَ تَحْتَ رِقِّهَا

أَعَانَكَ عَلَيْهَا، فَكَانَ التَّزَامُهَا وَالِدُخُولُ تَحْتَ رِقِّهَا سَبَبًا لِنَيْلِ الْإِعَانَةِ،
وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَتَمَّ عُبُودِيَّةً كَانَتْ الْإِعَانَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُ أَعْظَمَ.

وَالْعُبُودِيَّةُ مُحْفُوفَةٌ بِإِعَانَتَيْنِ: إِعَانَةٌ قَبْلَهَا عَلَى التَّزَامِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا،
وَإِعَانَةٌ بَعْدَهَا عَلَى عُبُودِيَّةٍ أُخْرَى، وَهَكَذَا أَبَدًا، حَتَّى يَقْضِيَ الْعَبْدُ نَحْبَهُ.

وَلَاَنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لَهُ، وَ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بِهِ، وَمَا لَهُ مُقَدِّمٌ
عَلَى مَا بِهِ، لِأَنَّ مَا لَهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَمَا بِهِ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِئَتِهِ،
وَمَا تَعَلَّقَ بِمَحَبَّتِهِ أَكْمَلُ مِمَّا تَعَلَّقَ بِمُجَرَّدِ مَشِئَتِهِ، فَإِنَّ الْكُونَ كُلَّهُ
مُتَعَلِّقٌ بِمَشِئَتِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافَرُ، وَالطَّاعَاتُ
وَالْمَعَاصِي، وَالْمُتَعَلِّقُ بِمَحَبَّتِهِ: طَاعَتُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ، فَالْكَافَرُ أَهْلُ مَشِئَتِهِ،
وَالْمُؤْمِنُونَ أَهْلُ مَحَبَّتِهِ، وَلِهَذَا لَا يَسْتَقَرُّ فِي النَّارِ شَيْءٌ لِلَّهِ أَبَدًا، وَكُلُّ مَا فِيهَا
فَإِنَّهُ بِهِ تَعَالَى وَبِمَشِئَتِهِ.

فَهَذِهِ الْأَسْرَارُ يَتَبَيَّنُ بِهَا حِكْمَةُ تَقْدِيمِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَى ﴿وإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾.

وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعْبُودِ وَالْمُسْتَعَانَ عَلَى الْفَعْلَيْنِ، فَفِيهِ: أَدْبَهُنَّ مَعَ اللَّهِ
بِتَقْدِيمِ اسْمِهِ عَلَى فِعْلِهِنَّ، وَفِيهِ الْإِهْتِمَامُ وَشِدَّةُ الْعَنَايَةِ بِهِ، وَفِيهِ
الْإِيدَانُ بِالْاِخْتِصَاصِ، الْمُسَمَّى بِالْحَضَرِ، فَهُوَ فِي قُوَّةٍ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا
إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ، وَالْحَاكِمُ فِي ذَلِكَ ذَوْقُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفِقْهُ فِيهَا،

وَاسْتِقْرَاءَ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ مُقَدِّمًا، وَسَيَبِيهِ نَصٌّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ،
وَلَمْ يَنْفِ غَيْرُهُ.

وَلَأَنَّهُ يَقْبَحُ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يُعْتَقَ عَشْرَةَ أَعْبُدْ مَثَلًا، ثُمَّ يَقُولُ لِأَحَدِهِمْ:
إِيَّاكَ أَعْتَقْتُ، وَمَنْ سَمِعَهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَغَيْرُهُ أَيْضًا أَعْتَقْتُ،
وَلَوْ لَا فَهْمُ الْإِخْتِصَاصِ لَمَا قُبِحَ هَذَا الْكَلَامُ، وَلَا حَسُنَ إِنْكَارُهُ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] ، ﴿وَإِنِّي
فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١]، كَيْفَ تَجِدُهُ فِي قُوَّةٍ: لَا تَرْهَبُوا غَيْرِي، وَلَا تَتَّقُوا
سِوَايَ، وَكَذَلِكَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿هُوَ فِي قُوَّةٍ:
لَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ سِوَاكَ، وَكُلُّ ذِي ذَوْقٍ سَلِيمٍ يَفْهَمُ هَذَا
الْإِخْتِصَاصَ مِنْ عِلَّةِ السِّيَاقِ.

وَلَا عِبْرَةَ بِجَدَلٍ مَنْ قَلَّ فَهْمُهُ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ بَابُ الشَّكِّ وَالتَّشْكِيكِ،
فَهَؤُلَاءِ هُمْ آفَةُ الْعُلُومِ، وَبَلِيَّةُ الْأَذْهَانِ وَالْفُهُومِ، مَعَ أَنَّ فِي ضَمِيرِ
﴿إِيَّاكَ﴾ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى نَفْسِ الذَّاتِ وَالْحَقِيقَةِ مَا لَيْسَ فِي الضَّمِيرِ
الْمُتَّصِلِ، فَفِي: إِيَّاكَ قَصْدٌ وَأَحْبَبْتُ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى حَقِيقَتِكَ
وَذَاتِكَ قَصْدِي، مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ: قَصْدُكَ وَأَحْبَبْتُكَ، وَإِيَّاكَ أَعْنِي
فِيهِ مَعْنَى: نَفْسِكَ وَذَاتَكَ وَحَقِيقَتَكَ أَعْنِي.

وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ النُّحَاةِ: إِنَّ «إِيَّا» اسْمٌ ظَاهِرٌ مُضَافٌ إِلَى

الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ، وَلَمْ يُرَدَّ عَلَيْهِ بَرْدٌ شَافٍ.

وَلَوْلَا أَنَا فِي شَأْنٍ وَرَاءَ هَذَا لَأَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَذَكَرْنَا
مَذَاهِبَ النُّحَاةِ فِيهَا، وَنَصَرْنَا الرَّاجِحَ، وَلَعَلَّنَا أَنْ نَعْطِفَ عَلَى ذَلِكَ
بِعَوْنِ اللَّهِ.

وَفِي إِعَادَةِ ﴿إِيَّاكَ﴾ مَرَّةً أُخْرَى دَلَالَةٌ عَلَى تَعَلُّقِ هَذِهِ الْأُمُورِ بِكُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ الْفَعْلَيْنِ، فَفِي إِعَادَةِ الضَّمِيرِ مِنْ قُوَّةِ الْاِقْتِضَاءِ لِذَلِكَ مَا لَيْسَ
فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا قُلْتَ لِمَلِكٍ مَثَلًا: إِيَّاكَ أَحَبُّ، وَإِيَّاكَ أَخَافُ، كَانَ فِيهِ مِنْ
اِخْتِصَاصِ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ بِذَاتِهِ وَالِاهْتِمَامِ بِذِكْرِهِ، مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ:
إِيَّاكَ أَحَبُّ وَأَخَافُ.



عَقِيدَة

أَفْعَالُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كُلُّهَا حَكْمٌ :

وَفِي دُعَائِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى تَفْسِيرٍ مَنْ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: وَالشَّرُّ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ، أَوْ لَا يَصْعَدُ إِلَيْكَ، فَإِنَّ الْمَعْنَى أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ، وَأَكْبَرُ وَأَعْظَمُ قَدَرًا، فَإِنَّ مَنْ أَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى، وَأَوْصَافُهُ كُلُّهَا كَمَالٌ، وَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا كَمَالٌ، وَأَقْوَالُهُ كُلُّهَا صِدْقٌ وَعَدْلٌ يَسْتَحِيلُ دُخُولُ الشَّرِّ فِي أَسْمَائِهِ أَوْ أَوْصَافِهِ، أَوْ أَفْعَالِهِ أَوْ أَقْوَالِهِ، فَطَابِقٌ بَيْنَ هَذَا الْمَعْنَى وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٦].

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ ذَكَرَ هَذَا عَقِيبَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هُود: ٥٦]، أَيُّ هُوَ رَبِّي، فَلَا يُسَلِّمُنِي وَلَا يُضَيِّعُنِي، وَهُوَ رَبُّكُمْ فَلَا يُسَلِّطُكُمْ عَلَيَّ وَلَا يُمْكِّنُكُمْ مِنِّي، فَإِنَّ نَوَاصِيَكُمْ بِيَدِهِ، لَا تَفْعَلُونَ شَيْئًا بَدُونِ مَشِيئَتِهِ، فَإِنَّ نَاصِيَةَ كُلِّ دَابَّةٍ بِيَدِهِ، لَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَحَرَّكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ فِي تَصَرُّفِهِ فِيهَا وَتَحْرِيكِهَا، وَنُفُوذِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فِيهَا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، لَا يَفْعَلُ

مَا يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِحِكْمَةٍ وَعَدْلٍ وَمَصْلَحَةٍ، وَلَوْ سَلَطَكُمْ عَلَىٰ فَلَهُ
مِنَ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ مَا لَهُ الْحَمْدُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ تَسْلِيْطٌ مَنْ هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ، لَا يَظْلِمُ وَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا بِغَيْرِ حِكْمَةٍ.

فَهَكَذَا تَكُونُ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ، لَا مَعْرِفَةُ الْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ
الْجَبَرِيَّةِ، نُفَاةَ الْحُكْمِ وَالْمَصَالِحِ وَالتَّغْلِيلِ، وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ سُبْحَانَهُ.

فِي التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَتَوْحِيدِهِ :

وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُ اللَّهِ الْهُدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَجَلَ الْمَطَالِبِ، وَنَيْلُهُ
أَشْرَفَ الْمَوَاهِبِ: عَلَّمَ اللَّهُ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ سُؤَالِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا بَيْنَ
يَدَيْهِ حَمْدَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ عُبُودِيَّتَهُمْ وَتَوْحِيدَهُمْ،
فَهَاتَانِ وَسِيلَتَانِ إِلَى مَطْلُوبِهِمْ، تَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَوَسُّلٌ
إِلَيْهِ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَهَاتَانِ الْوَسِيلَتَانِ لَا يَكَادُ يَرُدُّ مَعَهُمَا الدُّعَاءُ، وَيُؤَيِّدُهُمَا
الْوَسِيلَتَانِ الْمَذْكُورَتَانِ فِي حَدِيثِي الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ اللَّذَيْنِ رَوَاهُمَا ابْنُ
حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

أَحَدُهُمَا: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ « سَمِعَ النَّبِيَّ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلًا يَدْعُو، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ
أَنَّكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ

الْأَعْظَمُ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ» ^(١) ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

فَهَذَا تَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ بِتَوْحِيدِهِ، وَشَهَادَةِ الدَّاعِي لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَثُبُوتِ صِفَاتِهِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِاسْمِ الصَّمَدِ وَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « الْعَالَمُ الَّذِي كَمَلَ عِلْمُهُ، الْقَادِرُ الَّذِي كَمَلَتْ قُدْرَتُهُ » ، وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: « هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِيهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ السُّؤْدُدِ » ، وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: « هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى سُؤْدُدُهُ » ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَبَنَفِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] ، وَهَذِهِ تَرْجُمَةُ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالتَّوَسَّلُ بِالْإِيمَانِ بِذَلِكَ، وَالشَّهَادَةُ بِهِ هُوَ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ.

وَالثَّانِي: حَدِيثُ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، فَقَالَ: « لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ » ^(٢) ، فَهَذَا تَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

(١) (صَحِيحٌ): صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٧٦٣)، وَ «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣١١١).

(٢) (صَحِيحٌ): صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣١١٢).

وَقَدْ جَمَعَتِ الْفَاتِحَةُ الْوَسِيلَتَيْنِ، وَهُمَا التَّوَسُّلُ بِالْحَمْدِ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ وَتَمْجِيدِهِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِعِبُودِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ جَاءَ سُؤَالُ أَهَمِّ الْمَطَالِبِ، وَأَنْجَحِ الرِّغَائِبِ وَهُوَ الْهِدَايَةُ بَعْدَ الْوَسِيلَتَيْنِ، فَالِدَّاعِي بِهِ حَقِيقٌ بِالْإِجَابَةِ.

وَنَظِيرُ هَذَا دُعَاءُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي كَانَ يَدْعُو بِهِ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَلَكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفُرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ » ^(١)، فَذَكَرَ التَّوَسُّلَ إِلَيْهِ بِحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَبِعِبُودِيَّتِهِ لَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ الْمَغْفِرَةَ.

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ :

فِي اشْتِمَالِ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٨٤٢)، وَمُسْلِمٌ (١٢٨٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤٣١٨).

التَّوْحِيدُ نَوْعَانِ: نَوْعٌ فِي الْعِلْمِ وَالْإِعْتِقَادِ، وَنَوْعٌ فِي الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ، وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ: التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ، وَالثَّانِي: التَّوْحِيدُ الْقَصْدِيُّ الْإِرَادِيُّ، لَتَعْلُقَ الْأَوَّلُ بِالْأَخْبَارِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالثَّانِي بِالْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَهَذَا الثَّانِي أَيْضًا نَوْعَانِ: تَوْحِيدٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ.

فَأَمَّا تَوْحِيدُ الْعِلْمِ: فَمَدَارُهُ عَلَى اثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَعَلَى نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالْمِثَالِ، وَالتَّنْزِيهِ عَنِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا شَيْئَانِ: مُجْمَلٌ، وَمُفَصَّلٌ.

أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَإِثْبَاتُ الْحَمْدِ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا الْمُفَصَّلُ: فَذِكْرُ صِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ وَالْمُلْكِ، وَعَلَى هَذِهِ الْأَرْبَعِ مَدَارُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فِي دَلَالَةِ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ عَلَى أَوْصَافِ كَمَالِ :

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ عَلَيْهَا، وَهِيَ « اللَّهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَالرَّحِيمُ، وَالْمَلِكُ » فَمَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دَالَّةٌ عَلَى صِفَاتِ كَمَالِهِ، فَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصِّفَاتِ، فَهِيَ أَسْمَاءٌ، وَهِيَ أَوْصَافٌ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ حُسْنَى، إِذْ لَوْ كَانَتْ أَلْفَاظًا لَا مَعَانِيَ فِيهَا لَمْ تَكُنْ حُسْنَى، وَلَا كَانَتْ دَالَّةً عَلَى مَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ، وَلَسَاغَ وَقُوعُ أَسْمَاءِ الْإِنْتِقَامِ وَالْغَضَبِ فِي مَقَامِ

الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَبِالْعَكْسِ، فَيُقَالُ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاعْفُزْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ الْمُتَّقِمُ، وَاللَّهُمَّ اعْطِنِي، فَإِنَّكَ أَنْتَ الضَّارُّ الْمَانِعُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَنَفْيُ مَعَانِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى مِنْ أَعْظَمِ الْإِلْحَادِ فِيهَا، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَلِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تَدُلَّ عَلَى مَعَانٍ وَأَوْصَافٍ لَمْ يُجْزَ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهَا بِمَصَادِرِهَا وَيُوصَفُ بِهَا، لَكِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِمَصَادِرِهَا، وَأَثَبَهَا لِنَفْسِهِ، وَأَثَبَهَا لَهُ رَسُولُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٨]، فَعَلِمَ أَنَّ الْقَوِيَّ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَمَعْنَاهُ الْمَوْصُوفُ بِالْقُوَّةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، فَالْعَزِيزُ مَنْ لَهُ الْعِزَّةُ، فَلَوْلَا ثُبُوتُ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ لَهُ لَمْ يُسَمَّ قَوِيًّا وَلَا عَزِيزًا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النِّسَاء: ١٦٦]، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هُود: ١٤]، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴿[البَقَرَة: ٢٥٥].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفَضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ

سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ « (١) ، فَأُثْبِتَ الْمَصْدَرُ
الَّذِي اشْتَقَّ مِنْهُ اسْمُهُ الْبَصِيرُ.

حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ :

وَحَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِيهَا الْعُدُولُ بِهَا عَنِ الصَّوَابِ فِيهَا، وَإِدْخَالُ مَا لَيْسَ
مِنْ مَعَانِيهَا فِيهَا، وَإِخْرَاجُ حَقَائِقِ مَعَانِيهَا عَنْهَا، هَذَا حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ،
وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، فَفَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-
الْإِلْحَادَ بِالْكَذِبِ، أَوْ هُوَ غَايَةُ الْمُلْحَدِ فِي أَسْمَاءِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ إِذَا أَدْخَلَ فِي
مَعَانِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَخَرَجَ بِهَا عَنْ حَقَائِقِهَا، أَوْ بَعْضِهَا، فَقَدْ عَدَلَ بِهَا
عَنِ الصَّوَابِ وَالْحَقِّ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ.

فَالْإِلْحَادُ إمَّا بِجَحْدِهَا وَإِنْكَارِهَا، وَإِمَّا بِجَحْدِ مَعَانِيهَا وَتَعْطِيلِهَا،
وَإِمَّا بِتَحْرِيفِهَا عَنِ الصَّوَابِ، وَإِخْرَاجِهَا عَنِ الْحَقِّ بِالتَّأْوِيلَاتِ
الْبَاطِلَةِ، وَإِمَّا بِجَعْلِهَا أَسْمَاءً لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَصْنُوعَاتِ، كَالْإِلْحَادِ أَهْلَ
الْإِتِّحَادِ، فَإِنَّهُمْ جَعَلُوهَا أَسْمَاءً هَذَا الْكُونِ، مُحْمُودَهَا وَمَذْمُومَهَا، حَتَّى
قَالَ زَعِيمُهُمْ: وَهُوَ الْمُسَمَّى بِكُلِّ اسْمٍ مَمْدُوحٍ عَقْلًا، وَشَرْعًا وَعُرْفًا،
وَبِكُلِّ اسْمٍ مَذْمُومٍ عَقْلًا وَشَرْعًا وَعُرْفًا، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُلْحِدُونَ
عُلُوكًا كَبِيرًا.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٣) .

في دلالة الأسماء الخمسة على الذات والصفات :

الأصل الثاني: أَنَّ الاسمَ مِنْ أَسْمَائِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَمَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ وَالصِّفَةِ الَّتِي اشْتَقَّ مِنْهَا بِالمُطَابَقَةِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلَالَتَيْنِ أُخْرَيْنِ بِالتَّضَمُّنِ وَاللُّزُومِ، فَيَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ بِمُفْرَدِهَا بِالتَّضَمُّنِ، وَكَذَلِكَ عَلَى الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الصِّفَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ الْآخَرَى بِاللُّزُومِ، فَإِنَّ اسْمَ السَّمِيعِ يَدُلُّ عَلَى ذَاتِ الرَّبِّ وَسَمْعِهِ بِالمُطَابَقَةِ، وَعَلَى الذَّاتِ وَخُدَّهَا، وَعَلَى السَّمْعِ وَخُدَّهُ بِالتَّضَمُّنِ، وَيَدُلُّ عَلَى اسْمِ الْحَيِّ وَصِفَةِ الْحَيَاةِ بِالِئْتِزَامِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنْ يَتَفَاوَتْ النَّاسُ فِي مَعْرِفَةِ اللُّزُومِ وَعَدَمِهِ، وَمِنْ هَاهُنَا يَقَعُ اخْتِلَافُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَحْكَامِ، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْفِعْلَ الْاِخْتِيَارِيَّ لَا زِمَ لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ لَا زِمَ لِلْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ، وَأَنَّ سَائِرَ الْكِمَالِ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ أَثْبَتَ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ مَا يُنْكِرُهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُزُومَ ذَلِكَ، وَلَا عَرَفَ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ وَلَوَازِمَهَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ صِفَاتِهِ.

فَإِنَّ اسْمَ الْعَظِيمِ لَهُ لَوَازِمٌ يُنْكِرُهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ عَظَمَةَ اللَّهِ وَلَوَازِمَهَا. وَكَذَلِكَ اسْمُ الْعَلِيِّ، وَاسْمُ الْحَكِيمِ وَسَائِرُ أَسْمَائِهِ، فَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِ اسْمِ الْعَلِيِّ الْعُلُوُّ الْمُطْلَقُ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، فَلَهُ الْعُلُوُّ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ: عُلُوُّ

الْقَدْر، وَعُلُوُّ الْقَهْرِ، وَعُلُوُّ الذَّاتِ، فَمَنْ جَحَدَ عُلُوَّ الذَّاتِ فَقَدْ جَحَدَ لَوَازِمَ اسْمِهِ الْعَلِيِّ.

وَكَذَلِكَ اسْمُهُ «الظَّاهِرُ» مِنْ لَوَازِمِهِ: أَنْ لَا يَكُونَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ» ^(١)، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ جَحَدَ فَوْقِيَّتَهُ سُبْحَانَهُ فَقَدْ جَحَدَ لَوَازِمَ اسْمِهِ الظَّاهِرِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الظَّاهِرُ هُوَ مَنْ لَهُ فَوْقِيَّةُ الْقَدْرِ فَقَطْ، كَمَا يُقَالُ: الذَّهَبُ فَوْقَ الْفِضَّةِ، وَالْجَوْهَرُ فَوْقَ الزُّجَاجِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْفَوْقِيَّةَ تَتَعَلَّقُ بِالظُّهُورِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْمَفُوقُ أَظْهَرَ مِنَ الْفَائِقِ فِيهَا، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ ظُهُورُ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ فَقَطْ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ ظَاهِرًا بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ، لِمُقَابَلَةِ الْاسْمِ بِ «الْبَاطِنِ» وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، كَمَا قَبَلَ الْأَوَّلَ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، بِ «الْآخِرِ» الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ.

وَكَذَلِكَ اسْمُ «الْحَكِيمِ» مِنْ لَوَازِمِهِ ثُبُوتُ الْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ الْمُقْصُودَةِ لَهُ بِأَفْعَالِهِ، وَوَضْعُهُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَإِيقَاعُهَا عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ، فَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِهَذَا الْاسْمِ وَلَوَازِمِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٨٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٤٨١) وَأَبُو دَاوُدَ (٥٠٥١).

في دلالة اسم (الله) على الأسماء والصفات :

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَانِ الْأَصْلَانِ، فَاسْمُ (الله) دَالٌ عَلَى جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا بِالذَّلَالَاتِ الثَّلَاثِ، فَإِنَّهُ دَالٌ عَلَى إِلَهِيَّتِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لثُبُوتِ صِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ مَعَ نَفْيِ أَضْدَادِهَا عَنْهُ.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى ولله الأسماء الحسنى ويقال: الرحمن والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزیز، والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فَعَلِمَ أَنَّ اسْمَهُ (الله) مُسْتَلَزَمٌ لْجَمِيعِ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، دَالٌ عَلَيْهَا بِالْإِجْمَالِ، وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى تَفْصِيلٌ وَتَبْيِينٌ لْصِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي اشْتَقَّ مِنْهَا اسْمُ (الله)، وَاسْمُ (الله) دَالٌ عَلَى كَوْنِهِ مَالُوهَا مَعْبُودًا، تَوَلَّاهُ الْخَلَائِقُ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا وَخُضُوعًا، وَفَزَعًا إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ وَالنَّوَائِبِ، وَذَلِكَ مُسْتَلَزَمٌ لِكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ، الْمُتَضَمِّنِينَ لِكَمَالِ الْمُلْكِ وَالْحَمْدِ، وَإِلَهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَرَحْمَانِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ مُسْتَلَزَمٌ لْجَمِيعِ صِفَاتِ كَمَالِهِ، إِذْ يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُ ذَلِكَ لِمَنْ لَيْسَ بِحَيٍّ، وَلَا سَمِيعٍ، وَلَا بَصِيرٍ، وَلَا قَادِرٍ، وَلَا مُتَكَلِّمٍ، وَلَا فَعَّالٍ لِمَا يُرِيدُ، وَلَا حَكِيمٍ فِي أَفْعَالِهِ.

وَصِفَاتُ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ: أَخْصُ بِاسْمِ (الله) .

وَصِفَاتُ الْفِعْلِ وَالْقُدْرَةِ، وَالتَّفَرُّدِ بِالضَّرِّ وَالنَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ،
وَنُفُوذِ الْمَشِيئَةِ وَكَمَالِ الْقُوَّةِ، وَتَذْيِيرِ أَمْرِ الْخَلِيقَةِ أَخْصُ بِاسْمِ (الرَّبِّ) .
وَصِفَاتُ الْإِحْسَانِ، وَالْجُودِ وَالْبِرِّ، وَالْحَنَانِ وَالْمِنَّةِ، وَالرَّأْفَةِ وَاللُّطْفِ
أَخْصُ بِاسْمِ (الرَّحْمَنِ) ، وَكُرِّرْ إِذَا نَأَى بِثُبُوتِ الْوَصْفِ، وَحُصُولِ أَثَرِهِ،
وَتَعَلُّقِهِ بِمُتَعَلِّقَاتِهِ.

فَالرَّحْمَنُ الَّذِي الرَّحْمَةُ وَصْفُهُ، وَ(الرَّحِيمُ) الرَّاحِمُ لِعِبَادِهِ، وَلِهَذَا
يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ﴾ وَلَمْ يَجِئْ: رَحْمَنُ بَعِبَادِهِ، وَلَا رَحْمَنُ بِالْمُؤْمِنِينَ، مَعَ مَا فِي اسْمِ
(الرَّحْمَنِ) الَّذِي هُوَ عَلَى وَزْنِ فَعْلَانٍ مِنْ سِعَةِ هَذَا الْوَصْفِ، وَثُبُوتِ
جَمِيعِ مَعْنَاهُ الْمُوصُوفِ بِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: غَضَبَانُ، لِلْمُتَمَتِّلِي غَضَبًا، وَنَدَمَانُ وَحَيْرَانُ
وَسَكْرَانُ وَلَهْفَانُ لِمَنْ مِلَى بِذَلِكَ، فَبِنَاءُ فَعْلَانٍ لِلْسَّعَةِ وَالشُّمُولِ، وَلِهَذَا
يَقْرُنُ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بِهَذَا الْإِسْمِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]
: [٣] ، الرَّحْمَنُ فَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ
بِالْمَخْلُوقَاتِ قَدْ وَسِعَهَا، وَالرَّحْمَةُ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فَاسْتَوَى عَلَى أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ، فَلِذَلِكَ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» ^(١)، وَفِي لَفْظٍ «فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ» ^(٢).

فَتَأْمَلْ اخْتِصَاصَ هَذَا الْكِتَابِ بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ، وَوَضْعَهُ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ، وَطَابِقَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا﴾ ^(٥٩) [الفرقان: ٥٩]، يَنْفَتِحُ لَكَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْ لَمْ يُغْلِقْهُ عَنْكَ التَّعْطِيلُ وَالتَّجَهُمُ.

وَصِفَاتُ الْعَدْلِ، وَالْقَبْضُ وَالْبَسْطُ، وَالْخَفْضُ وَالرَّفْعُ، وَالْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ، وَالْإِعْزَازُ وَالْإِذْلَالُ، وَالْقَهْرُ وَالْحُكْمُ، وَنَحْوُهَا أَخَصُّ بِاسْمِ الْمَلِكِ وَخَصَّهُ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَهُوَ الْجَزَاءُ بِالْعَدْلِ، لِتَفَرُّدِهِ بِالْحُكْمِ فِيهِ وَحْدَهُ، وَلِأَنَّهُ الْيَوْمُ الْحَقُّ، وَمَا قَبْلَهُ كَسَاعَةٌ، وَلِأَنَّهُ الْغَايَةُ، وَأَيَّامُ الدُّنْيَا مَرَاحِلُ إِلَيْهِ.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٥٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥١).

(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

في ارتباط الخلق والأمر بأسمائه (الله - الرب - الرحمن) :

وَتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي الله، والرب، والرحمن كيف نشأ عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع، ولها الفرق.

فاسم (الرب) له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، واختلفوا بصفة الإلهية، فله وحد السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإحبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افرق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدین والشرع، والأمر والنهي مظهره، وقيامه من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك، وهو ملك يوم الدين، فأمرهم

بِإِهْيَئَتِهِ، وَأَعَانَهُمْ وَوَقَّعَهُمْ وَهَدَاهُمْ وَأَضَلَّهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَثَابَهُمْ وَعَاقَبَهُمْ بِمُلْكِهِ وَعَدْلِهِ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا تَنْفَكُ عَنِ الْأُخْرَى.

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ فَهِيَ التَّعَلُّقُ، وَالسَّبَبُ الَّذِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَالتَّأْلِيهِ مِنْهُمْ لَهُ، وَالرُّبُوبِيَّةُ مِنْهُ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبَهَا هَدَاهُمْ، وَبَهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبَهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سَبَبُ الْعُبُودِيَّةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَبَبُ الرَّحْمَةِ.

وَاقْتِرَانُ رُبُوبِيَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ كَاقْتِرَانِ اسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ بِرَحْمَتِهِ، فَ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿اسْتَوَى﴾ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] [الفاتحة: ٢-٣]، فَإِنَّ شُمُولَ الرُّبُوبِيَّةِ وَسِعَتَهَا بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْهَا أَقْصَى شُمُولِ الرَّحْمَةِ وَسِعَتَهَا، فَوَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ بِرَحْمَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّ فِي كَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ مَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

إِيقَاعُ الْحَمْدِ عَلَى مَضْمُونِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ :

فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ بَعْدَ الْحَمْدِ، وَإِيقَاعُ الْحَمْدِ عَلَى مَضْمُونِهَا وَمُقْتَضَاهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُحْمُودٌ فِي إِهْيَئَتِهِ، مُحْمُودٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، مُحْمُودٌ

فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، مُحَمَّدٌ فِي مُلْكِهِ، وَأَنَّهُ إِلَهُ مُحَمَّدٌ، وَرَبُّ مُحَمَّدٌ، وَرَحْمَنُ مُحَمَّدٌ، وَمَلِكُ مُحَمَّدٌ، فَلَهُ بِذَلِكَ جَمِيعُ أَقْسَامِ الْكَمَالِ: كَمَالٌ مِنْ هَذَا الْأِسْمِ بِمُفْرَدِهِ، وَكَمَالٌ مِنَ الْآخِرِ بِمُفْرَدِهِ، وَكَمَالٌ مِنْ اقْتِرَانِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التَّغَابُنُ: ٦]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ [الْمُنْتَحَنَةُ: ٧]، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البَقَرَةُ: ٢١٨] فَالْغِنَى صِفَةُ كَمَالٍ، وَالْحَمْدُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَاقْتِرَانُ غِنَاهُ بِحَمْدِهِ كَمَالٌ أَيْضًا، وَعِلْمُهُ كَمَالٌ، وَحُكْمَتُهُ كَمَالٌ، وَاقْتِرَانُ الْعِلْمِ بِالْحُكْمَةِ كَمَالٌ أَيْضًا، وَقُدْرَتُهُ كَمَالٌ وَمَغْفِرَتُهُ كَمَالٌ، وَاقْتِرَانُ الْقُدْرَةِ بِالْمَغْفِرَةِ كَمَالٌ، وَكَذَلِكَ الْعَفْوُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ [النِّسَاءُ: ٤٣]، وَاقْتِرَانُ الْعِلْمِ بِالْحِلْمِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النِّسَاءُ: ١٢].

وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولَانِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَاثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ» ^(١)، فَمَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَفَا، وَلَا كُلُّ مَنْ عَفَا يَعْفُو عَنْ قُدْرَةٍ، وَلَا كُلُّ مَنْ عَلِمَ يَكُونُ حَلِيمًا،

(١) ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ هَذَا الْأَثَرِ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (١/٣٢٧)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحِلْيَةِ (٣/٥٥ - ٧٤/٦)، وَالدَّهْبِيُّ فِي السِّيَرِ (٥/٢٦٤).

وَلَا كُلُّ حَلِيمٍ عَالِمٌ، فَمَا قُرْنَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ أَزَيْنُ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ، وَمِنْ عَفْوٍ إِلَى قُدْرَةٍ، وَمِنْ مُلْكٍ إِلَى حَمْدٍ، وَمِنْ عِزَّةٍ إِلَى رَحْمَةٍ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَمِنْ هَاهُنَا كَانَ قَوْلُ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿ ١١٨ ﴾ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [المائدة: ١١٨]، أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، أَيْ إِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ كَانَ مَصْدَرُ مَغْفِرَتِكَ عَنْ عِزَّةٍ، وَهِيَ كَمَا لُ الْقُدْرَةِ، وَعَنْ حِكْمَةٍ، وَهِيَ كَمَا لُ الْعِلْمِ، فَمَنْ غَفَرَ عَنْ عَجْزٍ وَجَهْلٍ بِجُرْمِ الْجَانِي، فَأَنْتَ لَا تَغْفِرُ إِلَّا عَنْ قُدْرَةٍ تَامَّةٍ، وَعِلْمٍ تَامٍّ، وَحِكْمَةٍ تَضَعُ بِهَا الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، فَهَذَا أَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِ الْغَفُورِ الرَّحِيمِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، الدَّالُّ ذِكْرُهُ عَلَى التَّعْرِيزِ بَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ فِي غَيْرِ حِينِهَا، وَقَدْ فَاتَتْ، فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ: وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، كَانَ فِي هَذَا مِنَ الْإِسْتِعْطَافِ وَالتَّعْرِيزِ بَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ لَمْ لَا يَسْتَحِقُّهَا مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مَنْصِبُ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، لَا سِيَّما وَالْمَوْقِفُ مَوْقِفُ عَظَمَةِ وَجَلَالٍ، وَمَوْقِفُ انتقامٍ مِمَّنْ جَعَلَ لِلَّهِ وَلَدًا، وَاتَّخَذَهُ إلهًا مِنْ دُونِهِ، فَذَكَرُ الْعِزَّةَ وَالْحِكْمَةَ فِيهِ أَلْيَقُ مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿ وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [٣٥] رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ ٣٦ ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] ، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنَّكَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ، لَأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ اسْتِعْطَافٍ وَتَعْرِيزٍ بِالْدُّعَاءِ، أَيْ إِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ وَتَرْحَمَهُمْ، بَأَنْ تُوفِّقَهُمْ لِلرُّجُوعِ مِنَ الشَّرِّ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَمِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).

وَفِي هَذَا أَظْهَرَ الدَّلَالََةَ عَلَى أَنَّ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَعَالَى مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَوْصَافٍ وَمَعَانٍ قَامَتْ بِهِ، وَأَنَّ كُلَّ اسْمٍ يَنَاسِبُ مَا ذُكِرَ مَعَهُ، وَاقْتَرَنَ بِهِ، مِنْ فِعْلِهِ وَأَمْرِهِ، وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ لِلصَّوَابِ.

مَرَاتِبُ الْهَدَايَةِ:

فِي مَرَاتِبِ الْهَدَايَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَهِيَ عَشْرُ مَرَاتِبَ:

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: مَرْتَبَةُ تَكْلِيمِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِعَبْدِهِ يَقْظَةً بِلَا وَاسِطَةٍ، بَلْ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَهَذِهِ أَعْلَى مَرَاتِبِهَا، كَمَا كَلَّمَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٦٤]، فَذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ وَحْيَهُ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ خَصَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ بَيْنِهِمْ بِالْإِخْبَارِ بِأَنَّهُ كَلَّمَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّكْلِيمَ الَّذِي حَصَلَ لَهُ أَخْصَصُ مِنْ مُطْلَقِ الْوَحْيِ الَّذِي ذَكَرَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِالْمُضَدَّرِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي هُوَ مُضَدَّرُ كَلَمٍ وَهُوَ التَّكْلِيمُ رَفْعًا لِمَا يَتَوَهَّمُ الْمَعْطَلَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَرَلَةُ

(١) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «كِتَابِ الْأَنْبِيَاءِ» (٦٠)، وَبَابُ حَدَّثِنَا أَبُو الْيَمَانِ (٥٤).

وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسى بشيء غير التكلیم، فأكدّه بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز .

قال الفراء- رحمه الله- : العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالأرادة، يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة، لأنه مجاز غير حقيقة، هذا كلامه، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ قال رب أرني أنظر إليك ﴿[الأعراف: ١٤٣]، وهذا التكلیم غير التكلیم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكلیم الثاني سأل النظر لا في الأول، وفيه أعطي الألواح، وكان عن مواعدة من الله له، والتكلیم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: ﴿يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه، فالنداء من بعد، والنجاء من قرب، تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء، أو نجاء، وقال له أبوه آدم في حاجته: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟.

وَكَذَلِكَ يَقُولُ لَهُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ إِلَى رَبِّهِ،
وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ فِي رُؤْيَا مُوسَى فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَوْ
السَّابِعَةِ عَلَى اخْتِلَافِ الرَّوَايَةِ، قَالَ: وَذَلِكَ بِتَفْضِيلِهِ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَلَوْ
كَانَ التَّكْلِيمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ مِنْ جَنْسِ مَا حَصَلَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ
يَكُنْ لِهَذَا التَّخْصِصِ لَهُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ مَعْنَى، وَلَا كَانَ يُسَمَّى كَلِيمَ
الرَّحْمَنِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ
مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشُّورَى :
٥١] ، فَفَرَّقَ بَيْنَ تَكْلِيمِ الْوَحْيِ، وَالتَّكْلِيمِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ، وَالتَّكْلِيمِ
مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

الْوَحْيُ :

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ مَرْتَبَةُ الْوَحْيِ الْمُخْتَصِّ بِالْأَنْبِيَاءِ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النِّسَاءُ : ١٦٣] ، وَقَالَ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ
إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [الشُّورَى : ٥١] ، فَجَعَلَ الْوَحْيَ فِي هَذِهِ
الْآيَةِ قِسْمًا مِنْ أَقْسَامِ التَّكْلِيمِ، وَجَعَلَهُ فِي آيَةِ النَّسَاءِ قِسْمًا لِلتَّكْلِيمِ،
وَذَلِكَ بِاعْتِبَارَيْنِ، فَإِنَّهُ قِسْمُ التَّكْلِيمِ الْخَاصِّ الَّذِي هُوَ بِلَا وَاسِطَةٍ،
وَقِسْمٌ مِنَ التَّكْلِيمِ الْعَامِّ الَّذِي هُوَ إِصْلَالُ الْمَعْنَى بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَالْوَحْيُ فِي اللُّغَةِ هُوَ: الإِعْلَامُ السَّرِيعُ الْخَفِيُّ، وَيُقَالُ فِي فَعْلِهِ: وَحَى،
وَأَوْحَى، قَالَ رُؤْبَةُ: وَحَى لَهَا الْقَرَارُ فَاسْتَقَرَّتْ، وَهُوَ أَقْسَامٌ، كَمَا
سَنَذْكُرُهُ.

إِرْسَالُ الرُّسُلِ:

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: إِرْسَالُ الرُّسُولِ الْمَلَكِيِّ إِلَى الرُّسُولِ الْبَشَرِيِّ:

فَيُوحَى إِلَيْهِ عَنِ اللَّهِ مَا أَمَرَهُ أَنْ يُوصِّلَهُ إِلَيْهِ.
فَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الثَّلَاثُ خَاصَّةٌ بِالْأَنْبِيَاءِ لَا تَكُونُ لِغَيْرِهِمْ.
ثُمَّ هَذَا الرُّسُولُ الْمَلَكِيُّ قَدْ يَتِمَثَّلُ لِلرُّسُولِ الْبَشَرِيِّ رَجُلًا، يَرَاهُ عَيْنًا
وَيُخَاطِبُهُ، وَقَدْ يَرَاهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ الْمَلَكُ،
وَيُوحَى إِلَيْهِ مَا يُوحِيهِ، ثُمَّ يَفْصِمُ عَنْهُ، أَيْ يُقْلَعُ، وَالثَّلَاثَةُ حَصَلَتْ لِنَبِيِّنَا
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

التَّحْدِيثُ:

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: مَرْتَبَةُ التَّحْدِيثِ:

وَهَذِهِ دُونَ مَرْتَبَةِ الْوَحْيِ الْخَاصِّ، وَتَكُونُ دُونَ مَرْتَبَةِ الصِّدِّيقِينَ،
كَمَا كَانَتْ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّهُ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ

الْأُمَّةُ فَعَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» (١).

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ:
جَزَمَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْأُمَمِ قَبْلَنَا، وَعَلَّقَ وَجُودَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِ«إِنْ»
الشَّرْطِيَّةِ، مَعَ أَنَّهَا أَفْضَلُ الْأُمَمِ، لِاحْتِيَاجِ الْأُمَمِ قَبْلَنَا إِلَيْهِمْ، وَاسْتِغْنَاءِ
هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْهُمْ بِكَمَالِ نَبِيِّهَا وَرِسَالَتِهِ، فَلَمْ يُجَوِّجِ اللَّهُ الْأُمَّةَ بَعْدَهُ إِلَى
مُحَدِّثٍ وَلَا مُلْهِمٍ، وَلَا صَاحِبِ كَشْفٍ وَلَا مَنَامٍ، فَهَذَا التَّعْلِيقُ لِكَمَالِ
الْأُمَّةِ وَاسْتِغْنَائِهَا لَا لِنَقْصِهَا.

وَالْمُحَدِّثُ: هُوَ الَّذِي يُحَدِّثُ فِي سِرِّهِ وَقَلْبِهِ بِالشَّيْءِ، فَيَكُونُ كَمَا يُحَدِّثُ بِهِ.
قَالَ شَيْخُنَا: وَالصَّدِيقُ أَكْمَلُ مِنَ الْمُحَدِّثِ، لِأَنَّهُ اسْتَغْنَى بِكَمَالِ
صَدِيقِيَّتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ عَنِ التَّحْدِيثِ وَالْإِلْهَامِ وَالْكَشْفِ، فَإِنَّهُ قَدْ سَلَّمَ قَلْبُهُ
كُلَّهُ وَسِرُّهُ وَظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ لِلرَّسُولِ، فَاسْتَغْنَى بِهِ عَمَّا مِنْهُ.
قَالَ: وَكَانَ هَذَا الْمُحَدِّثُ يَعْزُضُ مَا يُحَدِّثُ بِهِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ،
فَإِنْ وَافَقَهُ قَبْلَهُ، وَإِلَّا رَدَّهُ، فَعَلِمَ أَنَّ مَرْتَبَةَ الصَّدِيقِيَّةِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ
التَّحْدِيثِ.

قَالَ: وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الْخَيَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ: حَدَّثَنِي
قَلْبِي عَنْ رَبِّي، فَصَحِيحٌ أَنْ قَلْبُهُ حَدَّثَهُ، وَلَكِنْ عَمَّنْ؟، عَنْ شَيْطَانِهِ، أَوْ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٩٨).

عَنْ رَبِّهِ ؟ فَإِذَا قَالَ : حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي ، كَانَ مُسْنَدًا الْحَدِيثَ إِلَى مَنْ لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ حَدَّثَهُ بِهِ ، وَذَلِكَ كَذِبٌ ، قَالَ : وَمُحَدَّثُ الْأُمَّةِ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ ذَلِكَ ، وَلَا تَفَوَّهُ بِهِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ ، وَقَدْ أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ ، بَلْ كَتَبَ كَاتِبُهُ يَوْمًا : هَذَا مَا أَرَى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : لَا ، أَنَحُهُ وَاکْتُبْ : هَذَا مَا رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَمِنْ عُمَرَ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَقَالَ فِي الْكَلَالَةِ : أَقُولُ فِيهَا بَرَأْيِي ، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمَنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ ، فَهَذَا قَوْلُ الْمُحَدَّثِ بِشَهَادَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَنْتَ تَرَى الْإِتِّحَادِيَّ وَالْحُلُولِيَّ وَالْإِبَاحِيَّ الشُّطَّاحَ ، وَالسَّامِعِيَّ مُجَاهِرًا بِالْقَحَّةِ وَالْفِرْيَةِ ، يَقُولُ : « حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي » .

فَانْظُرْ إِلَى مَا بَيْنَ الْقَائِلِينَ وَالْمُرْتَبِتِينَ وَالْقَوْلِينَ وَالْحَالِينَ ، وَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَلَا تَجْعَلِ الزَّغْلَ وَالْخَالِصَ شَيْئًا وَاحِدًا .

الإفهام :

المرتبة الخامسة : مرتبة الإفهام :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿ [الأنبياء : ٧٨-٧٩] ، فَذَكَرَ هَذَيْنِ

النَّبِيِّينَ الْكَرِيمِينَ، وَأَثْنُي عَلَيْهِمَا بِالْعِلْمِ وَالْحُكْمِ، وَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْمُعَيَّنَةِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ سُئِلَ « هَلْ خَصَّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِشَيْءٍ دُونَ النَّاسِ؟ » فَقَالَ: لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَكَانَ فِيهَا الْعَقْلُ، وَهُوَ الدِّيَاتُ، وَفِكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ » (١).

وَفِي كِتَابِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : وَالْفَهْمُ الْفَهْمُ فِيمَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ ، فَالْفَهْمُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ ، وَنُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ ، يَعْرِفُ بِهِ ، وَيُذْرِكُ مَا لَا يُذْرِكُهُ غَيْرُهُ وَلَا يَعْرِفُهُ ، فَيَفْهَمُ مِنَ النَّصِّ مَا لَا يَفْهَمُهُ غَيْرُهُ ، مَعَ اسْتِوَائِهِمَا فِي حِفْظِهِ ، وَفَهْمِ أَصْلِ مَعْنَاهُ .

فَالْفَهْمُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عُنْوَانُ الصِّدِّيقِيَّةِ ، وَمَنْشُورُ الْوَلَايَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَفِيهِ تَفَاوُتٌ مَرَاتِبُ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدٍ ، فَانْظُرْ إِلَى فَهْمِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَدْ سَأَلَهُ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، وَمَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَغَيْرِهِمْ عَنْ سُورَةِ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١) وَمَا خُصَّ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ فَهْمِهِ مِنْهَا أَنَّهَا نَعْيُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ إِلَى نَفْسِهِ وَإِعْلَامُهُ بِحُضُورِ أَجَلِهِ ، وَمُوَافَقَةُ عُمَرَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَخَفَائِهِ عَنْ غَيْرِهِمَا

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٤٧) ، وَالنَّسَائِيُّ (٤٧٤٤) وَابْنُ مَاجَهَ (٢٦٥٨) .

مِنَ الصَّحَابَةِ وَابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - إِذْ ذَاكَ أَحَدْتُهُمْ سِنًا،
وَأَيْنَ تَجِدُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْإِعْلَامَ بِأَجَلِهِ، لَوْلَا الْفَهْمُ الْخَاصُّ؟، وَيَدِقُّ
هَذَا حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَرَاتِبَ تَتَقَاصَرُ عَنْهَا أَفْهَامُ أَكْثَرِ النَّاسِ، فَيُحْتَاجُ مَعَ
النَّصِّ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَقَعُ الْإِسْتِغْنَاءُ بِالنُّصُوصِ فِي حَقِّهِ، وَأَمَّا فِي حَقِّ
صَاحِبِ الْفَهْمِ فَلَا يُحْتَاجُ مَعَ النَّصُوصِ إِلَى غَيْرِهَا.

الْبَيَانُ الْعَامُّ :

الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ : مَرْتَبَةُ الْبَيَانِ الْعَامِّ :

وَهُوَ تَبْيِينُ الْحَقِّ وَتَمْيِيزُهُ مِنَ الْبَاطِلِ بِأَدِلَّتِهِ وَشَوَاهِدِهِ وَأَعْلَامِهِ، بِحَيْثُ
يَصِيرُ مَشْهُودًا لِلْقَلْبِ، كَشُهُودِ الْعَيْنِ لِلْمَرْتَبَاتِ.

وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، الَّتِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا وَلَا يُضِلُّهُ
إِلَّا بَعْدَ وَضُوءِهِ إِلَيْهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ
قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ : ١١٥]، فَهَذَا
الْإِضْلَالُ عُقُوبَةٌ مِنْهُ لَهُمْ، حِينَ بَيَّنَّ لَهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مَا بَيَّنَّهُ لَهُمْ، وَلَمْ يَعْمَلُوا
بِهِ، فَعَاقَبَهُمْ بِأَنْ أَضَلَّهُمْ عَنِ الْهُدَى، وَمَا أَضَلَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا
بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا عَرَفْتَ سِرَّ الْقَدَرِ، وَزَالَتْ عَنْكَ شُكُوكُ كَثِيرَةٍ،
وَشُبُهَاتُ فِي هَذَا الْبَابِ، وَعَلِمْتَ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي إِضْلَالِهِ مَنْ يُضِلُّهُ مِنْ

عِبَادِهِ، وَالْقُرْآنُ يُصَرِّحُ بِهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، وَقَوْلِهِمْ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَةُ: ٨٨]، فَالْأَوَّلُ: كُفْرُ عِنَادٍ، وَالثَّانِي: كُفْرُ طَبَعٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنْذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١١٠]، فَعَاقِبَتُهُمْ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ بِهِ حِينَ تَيَقَّنُوهُ وَتَحَقَّقُوهُ، بِأَنْ قَلَّبَ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا لَهُ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، فَإِنَّهُ مَوْضِعٌ عَظِيمٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فُصِّلَتْ: ١٧]، فَهَذَا هُدًى بَعْدَ الْبَيَانِ وَالِدَّلَالَةِ، وَهُوَ شَرْطٌ لَا مُوجِبٌ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ هُدًى آخَرُ بَعْدَهُ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ كَمَالُ الْإِهْتِدَاءِ، وَهُوَ هُدًى التَّوْفِيقِ وَالْإِلَهَامِ.

وَهَذَا الْبَيَانُ نَوْعَانِ: بَيَانٌ بِالْآيَاتِ الْمُسْمُوعَةِ الْمُتْلُوَّةِ، وَبَيَانٌ بِالْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ الْمُرِيَّةِ، وَكِلَاهُمَا أدِلَّةٌ وَآيَاتٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَكَمَالِهِ، وَصِدْقِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا يَدْعُو عِبَادَهُ بِآيَاتِهِ الْمُتْلُوَّةِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ وَيَحْضُرُهُمْ عَلَى التَّفَكِيرِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ، وَهَذَا الْبَيَانُ هُوَ الَّذِي بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَجُعِلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى الْعُلَمَاءِ بَعْدَهُمْ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ [إِبْرَاهِيمُ : ٤] ،
فَالرُّسُلُ تَبَيَّنَ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِعِزَّتِهِ
وَحِكْمَتِهِ.

الْبَيَانُ الْخَاصُّ :

الْمَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ : الْبَيَانُ الْخَاصُّ :

وَهُوَ الْبَيَانُ الْمُسْتَلْزَمُ لِلْهُدَايَةِ الْخَاصَّةِ، وَهُوَ بَيَانُ تُقَارُنُهُ الْعِنَايَةُ
وَالْتَوْفِيقُ وَالْاجْتِبَاءُ، وَقَطَعَ أَسْبَابَ الْخِذْلَانِ وَمَوَادَّهَا عَنِ الْقَلْبِ،
فَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ الْهُدَايَةُ الْبَتَّةَ، قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ : ﴿ إِن تَحَرَّصْ
عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ [النحل : ٣٧] ، وَقَالَ تَعَالَى :
﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص :
٥٦] ، فَالْبَيَانُ الْأَوَّلُ شَرْطٌ، وَهَذَا مُوجِبٌ.

الْإِسْمَاءُ :

الْمَرْتَبَةُ الثَّامِنَةُ : مَرْتَبَةُ الْإِسْمَاءِ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [النحل : ٣٧] ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا
يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ [١٩] وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿ ٢٠ ﴾ وَلَا الظِّلُّ

وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ [فاطر: ١٩: ٢٣].

وَهَذَا الْإِسْمَاعُ أَخْصُّ مِنْ إِسْمَاعِ الْحُجَّةِ وَالتَّبْلِيغِ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُمْ، وَبِهِ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ ذَلِكَ إِسْمَاعُ الْأَذَانِ، وَهَذَا إِسْمَاعُ الْقُلُوبِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ لَهُ لَفْظٌ وَمَعْنَى، وَلَهُ نِسْبَةٌ إِلَى الْأُذُنِ وَالْقَلْبِ وَتَعَلَّقُ بِهِمَا، فَسَمَاعُ لَفْظِهِ حَظُّ الْأُذُنِ، وَسَمَاعُ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ وَمَقْصُودِهِ حَظُّ الْقَلْبِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَفَى عَنِ الْكُفَّارِ سَمَاعَ الْمَقْصُودِ وَالْمُرَادِ الَّذِي هُوَ حَظُّ الْقَلْبِ، وَاتَّبَتْ لَهُمْ سَمَاعُ الْأَلْفَاظِ الَّذِي هُوَ حَظُّ الْأُذُنِ فِي قَوْلِهِ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ﴿٣﴾ [الأنبياء: ٢-٣].

وَهَذَا السَّمَاعُ لَا يُفِيدُ السَّامِعَ إِلَّا قِيَامَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، أَوْ تَمَكُّنَهُ مِنْهَا، وَأَمَّا مَقْصُودُ السَّمَاعِ وَثَمَرَتُهُ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ فَلَا يَحْصُلُ مَعَ هُوَ الْقَلْبُ وَغَفَلَتِهِ وَإِعْرَاضِهِ، بَلْ يَخْرُجُ السَّامِعُ قَائِلًا لِلْحَاضِرِ مَعَهُ ﴿مَاذَا قَالَ عَافِيًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَمَرْتَبَةِ الْإِفْهَامِ، أَنَّ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِوَاسِطَةِ الْأُذُنِ، وَمَرْتَبَةُ الْإِفْهَامِ أَعَمُّ، فَهِيَ أَخْصُّ مِنْ مَرْتَبَةِ الْفَهْمِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَمَرْتَبَةُ الْفَهْمِ أَخْصُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهِيَ أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَى

المُرَاد وَلَوَازِمِهِ وَمُتَعَلِّقَاتِهِ وَإِشَارَاتِهِ، وَمَرْتَبَةُ السَّمَاعِ مَدَارُهَا عَلَى إِيصَالِ
الْمَقْصُودِ بِالْخِطَابِ إِلَى الْقَلْبِ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا السَّمَاعِ سَمَاعُ الْقَبُولِ.
فَهُوَ إِذَنْ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: سَمَاعُ الْأَذْنِ، وَسَمَاعُ الْقَلْبِ، وَسَمَاعُ الْقَبُولِ
وَالْإِجَابَةِ.

الإلهام :

المرتبة التاسعة : مرتبة الإلهام :

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ ﴾ (٨) ﴿ الشَّمْسُ : ٧-٨ ﴾ ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِحُصَيْنِ بْنِ مُنْذِرٍ
الْخُزَاعِيِّ لَمَّا أَسْلَمَ قُلُوبُ : «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي» (١).
وَقَدْ جَعَلَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ الْإِلَهَامَ هُوَ مَقَامُ الْمُحَدِّثِينَ، قَالَ: وَهُوَ
فَوْقَ مَقَامِ الْفِرَاسَةِ، لِأَنَّ الْفِرَاسَةَ رُبَّمَا وَقَعَتْ نَادِرَةً، وَاسْتُضْعِبَتْ عَلَى
صَاحِبِهَا وَقَتًا، أَوْ اسْتَعَصَتْ عَلَيْهِ، وَالْإِلَهَامُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي مَقَامٍ عَتِيدٍ.
قُلْتُ: التَّحْدِيثُ أَحْصَى مِنَ الْإِلَهَامِ، فَإِنَّ الْإِلَهَامَ عَامٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ
إِيمَانِهِمْ فَكُلُّ مُؤْمِنٍ فَقَدْ أَلْهِمَهُ اللَّهُ رُشْدَهُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ بِهِ الْإِيمَانُ، فَأَمَّا
التَّحْدِيثُ فَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فِيهِ : «إِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ

(١) (ضَعِيفٌ) : ضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «ضَعِيفِ الْجَامِعِ» (٤٠٩٨) ، وَرَوَاهُ
التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٣٤٠٥) .

الْأُمَّةَ أَحَدُ فَعْمَرُ» ^(١) ، يَعْنِي مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ، فَالتَّحْدِيثُ إِلَهُامٌ خَاصٌّ ، وَهُوَ الْوَحْيُ إِلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ إِمَّا مِنَ الْمُكَلِّفِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [الْقَصَصُ : ٧] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَيُرْسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ [الْمَائِدَةُ : ١١١] ، وَإِمَّا مِنْ غَيْرِ الْمُكَلِّفِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النَّحْلُ : ٦٨] ، فَهَذَا كُلُّهُ وَحْيٌ إِلَهُامٌ .

الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ :

الْمُرْتَبَةُ الْعَاشِرَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْهَدَايَةِ : الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ :

وَهِيَ مِنْ أَجْزَاءِ النَّبُوءَةِ كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ » ^(٢) .

وَقَدْ قِيلَ فِي سَبَبِ هَذَا التَّخْصِصِ الْمَذْكُورِ : إِنَّ أَوَّلَ مُبْتَدَأِ الْوَحْيِ كَانَ هُوَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ ، وَذَلِكَ نِصْفُ سَنَةٍ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى وَحْيِ الْيَقَظَةِ مُدَّةَ ثَلَاثَ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، مِنْ حِينَ بُعِثَ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، فَنِسْبَةُ مُدَّةِ الْوَحْيِ فِي الْمَنَامِ مِنْ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا ، وَهَذَا حَسَنٌ ، لَوْلَا مَا جَاءَ فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى الصَّحِيحَةِ « إِنَّهَا جُزْءٌ مِنْ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٩٨) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٨٣) ، (٦٩٨٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦٣) .

سَبْعِينَ جُزْءًا» (١).

وَقَدْ قِيلَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا: إِنَّ ذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِ الرَّائِي، فَإِنَّ رُؤْيَا الصَّدِيقِينَ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ، وَرُؤْيَا عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقَةِ مِنْ سَبْعِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالرُّؤْيَا مَبْدَأُ الْوَحْيِ، وَصَدَقُهَا بِحَسَبِ صِدْقِ الرَّائِي، وَأَصْدَقُ النَّاسِ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا، وَهِيَ عِنْدَ اقْتِرَابِ الزَّمَانِ لَا تَكَادُ تُخْطِئُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَذَلِكَ لِبُعْدِ الْعَهْدِ بِالنُّبُوَّةِ وَآثَارِهَا، فَيَتَعَوَّضُ الْمُؤْمِنُونَ بِالرُّؤْيَا، وَأَمَّا فِي زَمَنِ قُوَّةِ نُورِ النُّبُوَّةِ فَنُورُ ظُهُورِ نُورِهَا وَقُوَّتُهُ مَا يُغْنِي عَنِ الرُّؤْيَا.

فِي حَقِيقَةِ إِصَابَةِ الْعَبْدِ :

وَأَمَّا شَهَادَةُ قَوَاعِدِ الطَّبِّ بِذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّدْغَةَ تَكُونُ مِنْ ذَوَاتِ الْحُمَاتِ وَالسُّمُومِ، وَهِيَ ذَوَاتُ الْأَنْفُسِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي تَتَكَيَّفُ بِكَيْفِيَّةِ غَضَبِيَّةٍ، تُثِيرُ فِيهَا سُمِّيَّةً نَارِيَّةً، يُحْصِلُ بِهَا اللَّدْغَ، وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ حُبِّهِ تِلْكَ النُّفُوسِ وَقُوَّتِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا، فَإِذَا تَكَيَّفَتْ أَنْفُسُهَا الْخَبِيثَةُ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ الْغَضَبِيَّةِ أَحْدَثَ لَهَا ذَلِكَ طَبِيعَةً سُمِّيَّةً، تَجِدُ رَاحَةً وَلَذَّةً فِي إِلْقَائِهَا إِلَى الْمَحَلِّ الْقَابِلِ، كَمَا يَجِدُ الشَّرِيرُ مِنَ النَّاسِ رَاحَةً وَلَذَّةً فِي إِيْصَالِ شَرِّهِ إِلَى مَنْ يُوَصِّلُهُ إِلَيْهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْنَأُ لَهُ عَيْشٌ فِي

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٨٣)، (٦٩٨٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦٣).

يَوْمَ لَا يُؤْذِي فِيهِ أَحَدًا مِنْ بَنِي جَنْسِهِ ، وَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ تَأْذِيًا بِحَمْلِ تِلْكَ
السُّمِّيَّةِ وَالشَّرِّ الَّذِي فِيهِ ، حَتَّى يُفَرِّغَهُ فِي غَيْرِهِ ، فَيَبْرُدَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْيَنُهُ ،
وَتَسْكُنَ نَفْسُهُ ، وَيُصِيبُهُ فِي ذَلِكَ نَظِيرُ مَا يُصِيبُ مَنْ اشْتَدَّتْ شَهْوَتُهُ
إِلَى الْجَمَاعِ ، فَيَسُوءُ خُلُقَهُ ، وَتَثْقُلُ نَفْسُهُ حَتَّى يَقْضِيَ وَطْرَهُ ، هَذَا فِي قُوَّةِ
الشَّهْوَةِ ، وَذَلِكَ فِي قُوَّةِ الْغَضَبِ .

وَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُكْمَتِهِ السُّلْطَانَ وَازِعًا لِهَذِهِ النُّفُوسِ الْغَضَبِيَّةِ ،
فَلَوْلَا هُوَ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَخَرَبَتْ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] ، وَأَبَاحَ اللَّهُ بِلُطْفِهِ
وَرَحْمَتِهِ لِهَذِهِ النُّفُوسِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَمِلِكِ الْيَمِينِ مَا يَكْسِرُ حَدَّتَهَا .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذِهِ النُّفُوسَ الْغَضَبِيَّةَ إِذَا اتَّصَلَتْ بِالْمَحَلِّ الْقَابِلِ أَثَرَتْ
فِيهِ ، وَمِنْهَا مَا يُؤَثِّرُ فِي الْمَحَلِّ بِمَجَرَّدِ مُقَابَلَتِهِ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَمَسَّهُ ، فَمِنْهَا
مَا يَطْمَسُ الْبَصَرَ ، وَيُسْقِطُ الْحَبَلَ .

وَمِنْ هَذَا نَظَرُ الْعَائِنِ ، فَإِنَّهُ إِذَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى الْمَعِينِ حَدَثَتْ فِي نَفْسِهِ
كَيْفِيَّةٌ سُمِّيَّةٌ أَثَرَتْ فِي الْمَعِينِ بِحَسَبِ عَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ ، وَكَوْنِهِ أَغْزَلَ مِنَ
السَّلَاحِ ، وَبِحَسَبِ قُوَّةِ تِلْكَ النَّفْسِ ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ النُّفُوسِ يُؤَثِّرُ
فِي الْمَعِينِ إِذَا وُصِفَ لَهُ ، فَتَتَكَيَّفُ نَفْسُهُ وَتُقَابِلُهُ عَلَى الْبُعْدِ فَيَتَأَثَّرُ بِهِ ،

وَمُنْكَرُ هَذَا لَيْسَ مَعْدُودًا مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا بِالصُّورَةِ وَالشَّكْلِ ، فَإِذَا قَابَلَتِ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْعُلَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ الَّتِي فِيهَا غَضَبٌ وَحَمِيَّةٌ لِلْحَقِّ هَذِهِ النَّفُوسَ الْخَبِيثَةَ السُّمِّيَّةَ ، وَتَكَيَّفَتْ بِحَقَائِقِ الْفَاتِحَةِ وَأَسْرَارِهَا وَمَعَانِيهَا ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ ، وَذَكَرِ أَصُولِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ، وَذَكَرِ اسْمِهِ الَّذِي مَا ذُكِرَ عَلَى شَرٍّ إِلَّا أَزَالَهُ وَمَحَقَّهُ ، وَلَا عَلَى خَيْرٍ إِلَّا نَاهُ وَزَادَهُ ، دَفَعَتْ هَذِهِ النَّفْسُ بِمَا تَكَيَّفَتْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ أَثَرَ تِلْكَ النَّفْسِ الْخَبِيثَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، فَحَصَلَ الْبُرُّ ، فَإِنَّ مَبْنَى الشِّفَاءِ وَالْبُرِّ عَلَى دَفْعِ الضِّدِّ بِضِدِّهِ ، وَحِفْظِ الشَّيْءِ بِمِثْلِهِ ، فَالصَّحَّةُ تُحْفَظُ بِالْمِثْلِ ، وَالْمَرَضُ يُدْفَعُ بِالضِّدِّ ، أَسْبَابُ رَبَطِهَا بِمُسَبِّبَاتِهَا الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ خَلَقًا وَأَمْرًا ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا إِلَّا بِقُوَّةٍ مِنَ النَّفْسِ الْفَاعِلَةِ ، وَقَبُولِ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْمُتَفَعِّلَةِ ، فَلَوْ لَمْ تَتَفَعَّلْ نَفْسُ الْمَلْدُوعِ لِقَبُولِ الرُّقِيَّةِ ، وَلَمْ تَقَوْ نَفْسُ الرَّاقِي عَلَى التَّأْثِيرِ ، لَمْ يَحْصُلِ الْبُرُّ .

فَهَذَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ : مُوَافَقَةُ الدَّوَاءِ لِلدَّاءِ ، وَبَذْلُ الطَّيِّبِ لَهُ ، وَقَبُولُ طَبِيعَةِ الْعَلِيلِ ، فَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْهَا لَمْ يَحْصُلِ الشِّفَاءُ ، وَإِذَا اجْتَمَعَتْ حَصَلَ الشِّفَاءُ وَلَا بُدَّ بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَمَنْ عَرَفَ هَذَا كَمَا يَنْبَغِي تَبَيَّنَ لَهُ أَسْرَارُ الرُّقَى ، وَمَيَّزَ بَيْنَ النَّافِعِ مِنْهَا وَغَيْرِهِ ، وَرَقَى الدَّاءَ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الرُّقَى ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الرُّقِيَّةَ بِرَاقِيهَا

وَقَبُولِ الْمَحَلِّ ، كَمَا أَنَّ السَّيْفَ بَضَارِيهِ مَعَ قَبُولِ الْمَحَلِّ لِلْقَطْعِ ، وَهَذِهِ
 إِشَارَةٌ مُطْلَعَةٌ عَلَى مَا وَرَاءَهَا لِمَنْ دَقَّ نَظْرُهُ ، وَحَسَنَ تَأَمُّلُهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
 وَأَمَّا شَهَادَةُ التَّجَارِبِ بِذَلِكَ فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذَكَّرَ ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ
 زَمَانٍ ، وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا مِنْ ذَلِكَ فِي نَفْسِي وَفِي غَيْرِي أُمُورًا عَجِيبَةً ، وَلَا
 سِيَّامًا مُدَّةَ الْمُقَامِ بِمَكَّةَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعْزُضُ لِي آلامٌ مُزَعِجَةٌ ، بِحَيْثُ تَكَادُ
 تَقْطَعُ الْحَرَكَةَ مِنِّي ، وَذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ وَغَيْرِهِ ، فَأُبَادِرُ إِلَى قِرَاءَةِ
 الْفَاتِحَةِ ، وَأَمْسُحُ بِهَا عَلَى مَحَلِّ الْأَلَمِ فَكَأَنَّهُ حَصَاةٌ تَسْقُطُ ، جَرَّبْتُ ذَلِكَ
 مَرَارًا عَدِيدَةً ، وَكُنْتُ أَخْذُ قَدْحًا مِنْ مَاءٍ زَمْزَمٍ فَأَقْرَأُ عَلَيْهِ الْفَاتِحَةَ مَرَارًا ،
 فَأَشْرَبُهُ فَأَجِدُ بِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْقُوَّةِ مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ فِي الدَّوَاءِ ، وَالْأَمْرُ
 أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ ، وَاللَّهُ
 الْمُسْتَعَانُ .

**فِي اشْتِمَالِ الْفَاتِحَةِ عَلَى الرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ الْمُبْطِلِينَ مِنْ أَهْلِ
 الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ :**

وَهَذَا يُعَلِّمُ بِطَرِيقَيْنِ ، مُجَمَّلٍ وَمُفَصَّلٍ :

أَمَّا الْمُجَمَّلُ : فَهُوَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مُتَضَمِّنٌ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ ، وَإِثَارَهُ ،
 وَتَقْدِيمَهُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَمَحَبَّتَهُ وَالْإِنْقِيَادَ لَهُ ، وَالِدَّعْوَةَ إِلَيْهِ ، وَجِهَادَ أَعْدَائِهِ
 بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ .

وَالْحَقُّ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا فِي بَابِ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَأَسْمَائِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَفِي حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، الَّتِي هِيَ مَنَازِلُ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ ذَلِكَ مُسَلَّمٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، دُونَ آرَاءِ الرِّجَالِ وَأَوْضَاعِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ.

فَكُلُّ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ حَقِيقَةٍ، أَوْ حَالٍ أَوْ مَقَامٍ خَرَجَ مِنْ مِشْكَاتِ نُبُوَّتِهِ، وَعَلَيْهِ السَّكَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْ ضَرْبِ الْمَدِينَةِ، فَهُوَ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنْ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ، فَمَا تَمَّ خُرُوجُ عَنْ هَذِهِ الطُّرُقِ الثَّلَاثِ: طَرِيقِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا جَاءَ بِهِ، وَطَرِيقِ أَهْلِ الْغَضَبِ، وَهِيَ طَرِيقُ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَعَانَدَهُ، وَطَرِيقِ أَهْلِ الضَّلَالِ وَهِيَ طَرِيقُ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: « الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: هُوَ الْإِسْلَامُ » .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «هُوَ الْقُرْآنُ» ، وَفِيهِ حَدِيثُ مَرْفُوعٌ فِي التَّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: « طَرِيقُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ »، وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرْنِيُّ: « طَرِيقُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - » .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ عُلَمَاءَ وَعَمَلَاءَ وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَتَقْدِيمُهُ، وَإِثَارُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ دَالَّةٌ عَلَيْهِ جَامِعَةٌ لَهُ.

فَبِهَذَا الطَّرِيقِ الْمُجْمَلِ يُعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهُ فَبَاطِلٌ، وَهُوَ مِنْ صِرَاطِ الْأُمَمَيْنِ: الْأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ، وَأُمَّةِ أَهْلِ الضَّلَالِ.

إثبات الربوبية :

وَأَمَّا الْمَفْصَلُ : فَبِمَعْرِفَةِ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِلَةِ، وَاشْتِمَالِ كَلِمَاتِ الْفَاتِحَةِ عَلَى إِبْطَالِهَا، فنقول :

النَّاسُ قِسْمَانِ : مُقَرَّبٌ بِالْحَقِّ تَعَالَى، وَجَا حِدْ لَهُ، فَتَضَمَّنَتْ الْفَاتِحَةُ إِثْبَاتَ الْخَالِقِ تَعَالَى، وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ جَحَدَهُ، بِإِثْبَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى لِلْعَالَمِينَ.

وَتَأَمَّلْ حَالَ الْعَالَمِ كُلِّهِ، عُلوِيَّهِ وَسُفْلِيَّهِ، بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ : تَجِدُهُ شَاهِدًا بِإِثْبَاتِ صَانِعِهِ وَفَاطِرِهِ وَمَلِيكِهِ، فَإِنْكَارُ صَانِعِهِ وَجَحْدُهُ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطْرِ بِمَنْزِلَةِ إِنْكَارِ الْعِلْمِ وَجَحْدِهِ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، بَلْ دَلَالَةُ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ، وَالْفِعَالِ عَلَى الْفِعْلِ، وَالصَّانِعِ عَلَى أَحْوَالِ الْمَصْنُوعِ عِنْدَ الْعُقُولِ الزَكِيَّةِ الْمُشْرِقَةِ الْعُلُويَّةِ، وَالْفِطْرِ الصَّحِيحَةِ أَظْهَرُ مِنَ الْعَكْسِ. فَالْعَارِفُونَ أَرْبَابُ الْبَصَائِرِ يَسْتَدِلُّونَ بِاللَّهِ عَلَى أَعْمَالِهِ وَصُنْعِهِ، إِذَا

اسْتَدَلَّ النَّاسُ بِصُنْعِهِ وَأَفْعَالِهِ عَلَيْهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا طَرِيقَانِ صَحِيحَانِ،
كُلُّ مِنْهُمَا حَقٌّ، وَالْقُرْآنُ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِمَا.

فَأَمَّا الاسْتِدْلَالُ بِالصَّنْعَةِ فَكَثِيرٌ، وَأَمَّا الاسْتِدْلَالُ بِالصَّانِعِ فَلَهُ شَأْنٌ،
وَهُوَ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ بِقَوْلِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَكُّ أَيِّ أَيْشَكُّ فِي
اللَّهِ حَتَّى يُطَلَّبَ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَى وُجُودِهِ ؟ ، وَأَيُّ دَلِيلٍ أَصَحُّ وَأَظْهَرُ
مِنْ هَذَا الْمَدْلُولِ ؟ ، فَكَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْأَظْهَرِ بِالْأَخْفَى ؟ ، ثُمَّ نَبِّهُوا
عَلَى الدَّلِيلِ بِقَوْلِهِمْ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ -
يَقُولُ: كَيْفَ يُطَلَّبُ الدَّلِيلُ عَلَى مَنْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؟ ، وَكَانَ
كَثِيرًا مَا يَتِمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا اخْتَجَّ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

وَمَعْلُومٌ أَنَّ وُجُودَ الرَّبِّ تَعَالَى أَظْهَرُ لِلْعُقُولِ وَالْفِطْرِ مِنْ وُجُودِ
النَّهَارِ، وَمَنْ لَمْ يَرَ ذَلِكَ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ فَلَيْتَهُمَا.

وَإِذَا بَطَلَ قَوْلُ هَؤُلَاءِ بَطَلَ قَوْلُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ، الْقَائِلِينَ بِوَحْدَةِ
الْوُجُودِ، وَأَنَّهُ مَا تَمَّ وُجُودٌ قَدِيمٌ خَالِقٌ وَوُجُودٌ حَادِثٌ مَخْلُوقٌ، بَلْ
وُجُودُ هَذَا الْعَالَمِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ اللَّهِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ وُجُودِ هَذَا الْعَالَمِ،

فَلَيْسَ عِنْدَ الْقَوْمِ رَبٌّ وَعَبْدٌ، وَلَا مَالِكٌ وَمَمْلُوكٌ، وَلَا رَاحِمٌ وَمَرْحُومٌ،
وَلَا عَابِدٌ وَمَعْبُودٌ، وَلَا مُسْتَعِينٌ وَمُسْتَعَانٌ بِهِ، وَلَا هَادٍ وَلَا مَهْدِيٌّ، وَلَا
مُنْعَمٌ وَلَا مُنْعَمٌ عَلَيْهِ، وَلَا غَضْبَانٌ وَمَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، بَلِ الرَّبُّ هُوَ نَفْسُ
الْعَبْدِ وَحَقِيقَتُهُ، وَالْمَالِكُ هُوَ عَيْنُ الْمَمْلُوكِ، وَالرَّاحِمُ هُوَ عَيْنُ الْمَرْحُومِ،
وَالْعَابِدُ هُوَ نَفْسُ الْمَعْبُودِ، وَإِنَّمَا التَّغَايُرُ أَمْرٌ اِعْتِبَارِيٌّ بِحَسَبِ مَظَاهِرِ
الذَّاتِ وَتَجَلِّيَّاتِهَا، فَتُظْهِرُ تَارَةً فِي صُورَةِ مَعْبُودٍ، كَمَا ظَهَرَتْ فِي صُورَةِ
فِرْعَوْنَ، وَفِي صُورَةِ عَبْدٍ، كَمَا ظَهَرَتْ فِي صُورَةِ الْعَبِيدِ، وَفِي صُورَةِ هَادٍ،
كَمَا فِي صُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْكُلُّ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، بَلِ هُوَ
الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ، فَحَقِيقَةُ الْعَابِدِ وَوُجُودُهُ أَوْ أُنْيَتُهُ: هِيَ حَقِيقَةُ الْمَعْبُودِ
وَوُجُودُهُ وَأُنْيَتُهُ.

وَالْفَاتِحَةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا تُبَيِّنُ بُطْلَانَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمَلَا حِدَةِ
وَضَلَالَهُمْ.

فِي بَيَانِ تَضَمُّنِهَا الرَّدَّ عَلَى الرَّافِضَةِ :

وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ إِلَى آخِرِهَا.

وَوَجْهُ تَضَمُّنِهِ إِبْطَالَ قَوْلِهِمْ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَسَمَ النَّاسَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:
«مُنْعَمٌ عَلَيْهِمْ» وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ،
«وَمَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ» وَهُمْ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَرَفَضُوهُ، «وَضَالُونَ»

وَهُمُ الَّذِينَ جَهِلُوهُ فَأَخْطَئُوهُ.

فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْرَفَ لِلْحَقِّ، وَاتَّبَعَ لَهُ كَانَ أَوْلَىٰ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.
وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الرَّوَافِضِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمَحَالِ أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَهِلُوا الْحَقَّ وَعَرَفَهُ الرَّوَافِضُ، أَوْ رَفَضُوهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ الرَّوَافِضُ.

ثُمَّ إِنَّا رَأَيْنَا آثَارَ الْفَرِيقَيْنِ تَدُلُّ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ مِنْهُمَا، فَرَأَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَحُوا بِلَادَ الْكُفْرِ، وَقَلَبُوهَا بِلَادَ إِسْلَامٍ، وَفَتَحُوا الْقُلُوبَ بِالْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى، فَأَثَارُهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَرَأَيْنَا الرَّافِضَةَ بِالْعَكْسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَإِنَّهُ قَطُّ مَا قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا كَانُوا أَعْوَانَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَمْ جَرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ بَلِيَّةٍ؟، وَهَلْ عَاثَتْ سَيْوْفُ الْمُشْرِكِينَ عِبَادِ الْأَضْنَامِ مِنْ عَسْكَرٍ هُولَاكَو وَذَوِيهِ مِنَ التَّتَارِ إِلَّا مِنْ تَحْتِ رُءُوسِهِمْ؟، وَهَلْ عَطَلَتِ الْمَسَاجِدُ، وَحَرَّقَتِ الْمَصَاحِفُ، وَقَتْلَ سَرَوَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَعِبَادَهُمْ وَخَلِيفَتَهُمْ، إِلَّا بِسَبَبِهِمْ وَمِنْ جَرَائِهِمْ؟، وَمُظَاهَرَتِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَأَثَارُهُمْ فِي الدِّينِ مَعْلُومَةٌ.

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟ ، وَأَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالْغَضَبِ
وَالضَّلَالِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؟ .

وَلِهَذَا فَسَرَ السَّلَفُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَأَهْلَهُ: بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،
وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ
كَمَا فَسَّرُوهُ، فَإِنَّهُ صِرَاطُهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ عَيْنُ صِرَاطِ نَبِيِّهِمْ،
وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَغَضِبَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَحَكَمَ لِأَعْدَائِهِمْ
بِالضَّلَالِ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَفِيعُ الرِّيَاحِيِّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَهُمَا مِنْ أَجْلِ
التَّابِعِينَ: ﴿ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ﴾ : رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَصَاحِبَاهُ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ : « هُمْ آلُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبُو
بَكْرٍ وَعُمَرُ » ، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ آلَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ عَلَى طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ،
وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَمُؤَالَاةَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَثَنَؤُهُمْ عَلَيْهِمَا، وَمُحَارَبَةَ
مَنْ حَارَبَا، وَمُسَالَمَةَ مَنْ سَالَمَا مَعْلُومَةً عِنْدَ الْأُمَّةِ خَاصَّهَا وَعَامَّهَا، وَقَالَ
زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ هُمْ أَتْبَاعُهُ، وَالْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ هُمْ

الخَارِجُونَ عَنْ اتِّبَاعِهِ، وَاتَّبَعَ الْأُمَّةَ لَهُ وَأَطَوْعَهُمْ أَصْحَابُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَاتَّبَعَ الصَّحَابَةَ لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَشَدُّ الْأُمَّةِ مُخَالَفَةً لَهُ هُمُ الرَّاغِبَةُ، فَخِلَافُهُمْ لَهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ جَمِيعِ فِرَقِ الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا يُبْغِضُونَ السُّنَّةَ وَأَهْلَهَا، وَيُعَادُونَهَا وَيُعَادُونَ أَهْلَهَا، فَهُمْ أَعْدَاءُ سُنَّتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَاتَّبَاعُهُ مِنْ بَنِيهِمْ أَكْمَلُ مِيرَاثًا؟، بَلْ هُمْ وَرَثَتُهُ حَقًّا.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طَرِيقُ أَصْحَابِهِ وَاتَّبَاعِهِ، وَطَرِيقُ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ طَرِيقُ الرَّاغِبَةِ. وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ بَعَيْنُهَا يُرَدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ، فَإِنَّ مُعَادَاتِهِمُ الصَّحَابَةَ مَعْرُوفَةٌ.

أَنْقِسَامُ النَّاسِ فِي الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ:

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَالنَّاسُ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ وَهُمَا الْعِبَادَةُ وَالِاسْتِعَانَةُ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

أَجْلُهَا وَأَفْضَلُهَا: أَهْلُ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ عَلَيْهَا، فَعِبَادَةُ اللَّهِ غَايَةُ مُرَادِهِمْ، وَطَلَبُهُمْ مِنْهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَيْهَا، وَيُوفِّقَهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَا، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَفْضَلِ مَا يُسْأَلُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْإِعَانَةُ عَلَى مَرْضَاتِهِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِحَبِّهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ

الله عنه، فقال « يَا مُعَاذُ، وَاللهُ إِنِّي لِأَحِبُّكَ، فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » (١).

فَأَنْفَعُ الدُّعَاءِ طَلَبُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، وَأَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ إِسْعَافُهُ بِهَذَا الْمَطْلُوبِ، وَجَمِيعُ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ مَدَارُهَا عَلَى هَذَا، وَعَلَى دَفْعِ مَا يُضَادُّهُ، وَعَلَى تَكْمِيلِهِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ، فَتَأَمَّلْهَا.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ -: تَأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ فَإِذَا هُوَ سُؤَالُ الْعَوْنِ عَلَى مَرْضَاتِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِي الْفَاتِحَةِ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَمُقَابِلُ هَؤُلَاءِ الْقِسْمِ الثَّانِي، وَهُمْ الْمُعْرِضُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، فَلَا عِبَادَةَ وَلَا اسْتِعَانَةَ، بَلْ إِنْ سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ وَاسْتَعَانَ بِهِ فَعَلَى حُظُوْظِهِ وَشَهْوَاتِهِ، لَا عَلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَحُقُوقِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْأَلُهُ أَوْلِيَاؤُهُ وَأَعْدَاؤُهُ وَيَمُدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَأَبْغَضُ خَلْقِهِ عَدُوُّهُ إِبْلِيسُ وَمَعَ هَذَا فَقَدْ سَأَلَهُ حَاجَةً فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَمَتَّعَهُ بِهَا، وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ تَكُنْ عَوْنًا لَهُ عَلَى مَرْضَاتِهِ، كَانَتْ زِيَادَةً لَهُ فِي شَقْوَتِهِ، وَبُعْدَهُ عَنِ اللَّهِ وَطَرْدَهُ عَنْهُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى أَمْرِ وَسَأَلَهُ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَكُنْ عَوْنًا عَلَى طَاعَتِهِ كَانَ مُبْعِدًا لَهُ عَنْ مَرْضَاتِهِ، قَاطِعًا

(١) (صَحِيحٌ): صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٧٩١٩)، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ (١٣٠٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (١٥٢٢).

لَهُ عَنْهُ وَلَا بَدَّ.

وَلِتَتَأَمَّلِ الْعَاقِلُ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ إِجَابَةَ اللَّهِ لِسَائِلِهِ لَيْسَتْ لِكِرَامَةِ السَّائِلِ عَلَيْهِ، بَلْ يَسْأَلُهُ عَبْدُهُ الْحَاجَّةَ فَيَقْضِيهَا لَهُ، وَفِيهَا هَلَاقُهُ وَشَقْوَتُهُ، وَيَكُونُ قَضَاؤُهُ لَهُ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيْهِ، وَسُقُوطُهُ مِنْ عَيْنِهِ، وَيَكُونُ مَنْعُهُ مِنْهَا لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، فَيَمْنَعُهُ حِمَايَةً وَصِيَانَةً وَحِفْظًا لَا بُخْلًا، وَهَذَا إِنَّمَا يَفْعَلُهُ بَعْدَهُ الَّذِي يُرِيدُ كِرَامَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَيُعَامِلُهُ بِلُطْفِهِ، فَيَظُنُّ بِجَهْلِهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يُكْرِمُهُ، وَيَرَاهُ يَقْضِي حَوَائِجَ غَيْرِهِ، فَيَسْئَلُهُ ظَنَّهُ رَبَّهُ، وَهَذَا حَشْوُ قَلْبِهِ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ، وَالْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَعَلَامَةٌ هَذَا حَمْلُهُ عَلَى الْأَقْدَارِ وَعَتَابُهُ الْبَاطِنُ لَهَا، كَمَا قِيلَ:

وَعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْيَاعٌ لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ الْقَدَرَا

فَوَاللَّهِ لَوْ كَشَفَ عَنْ حَاصِلِهِ وَسَرِّهِ لَرَأَى هُنَاكَ مُعَاتِبَةَ الْقَدَرِ وَاتِّهَامَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذًا وَكَذًا، وَلَكِنْ مَا حِيلَتِي، وَالْأَمْرُ لَيْسَ إِلَيَّ؟، وَالْعَاقِلُ خَصَمُ نَفْسِهِ، وَالْجَاهِلُ خَصَمُ أَقْدَارِ رَبِّهِ.

فَاحْذَرِ كُلَّ الْحَذَرِ أَنْ تَسْأَلَهُ شَيْئًا مُعَيَّنًا خَيْرَتُهُ وَعَاقِبَتُهُ مُغَيَّبَةٌ عَنْكَ، وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنْ سُؤَالِهِ بُدًّا، فَعَلِّقْهُ عَلَى شَرْطِ عِلْمِهِ تَعَالَى فِيهِ الْخَيْرَةُ، وَقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ سُؤَالِكَ الْإِسْتِخَارَةَ، وَلَا تَكُنْ اسْتِخَارَةً بِاللِّسَانِ بَلَا

معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وَإِذَا أَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بِلَا سُؤَالٍ تَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَوْنًا لَكَ عَلَى طَاعَتِهِ وَبَلَاغًا إِلَى مَرْضَاتِهِ، وَلَا يَجْعَلَهُ قَاطِعًا لَكَ عَنْهُ، وَلَا مُبْعِدًا عَنْ مَرْضَاتِهِ، وَلَا تَظُنُّ أَنَّ عَطَاءَهُ كُلَّ مَا أَعْطَى لِكِرَامَةِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَا مَنَعَهُ كُلَّ مَا يَمْنَعُهُ لِهَوَانِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ عَطَاءَهُ وَمَنَعَهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ، يَمْتَحِنُ بِهِمَا عِبَادَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿[الفجر: ١٥-١٧]﴾، أَيُّ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَعْطِيَتْهُ وَنَعَّمَتْهُ وَخَوَّلَتْهُ فَقَدْ أَكْرَمَتْهُ، وَمَا ذَاكَ لِكِرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنِّي، وَامْتِحَانٌ لَهُ أَشْكُرُنِي فَأُعْطِيَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، أَمْ يَكْفُرُنِي فَأَسْلُبُهُ إِيَّاهُ، وَأُخَوِّلُ فِيهِ غَيْرَهُ؟، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ابْتَلَيْتُهُ فَضَيِّقْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَجَعَلْتُهُ بِقَدَرٍ لَا يُفْضَلُ عَنْهُ، فَذَلِكَ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ مِنِّي لَهُ أَيُّضَبُ فَأُعْطِيَهُ أَضْعَافَ أَضْعَافٍ مَا فَاتَهُ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ، أَمْ يَتَسَخَّطُ فَيَكُونُ حَظُّهُ السُّخْطَ؟.

فَرَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيَّ مَنْ ظَنَّنَ أَنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ إِكْرَامٌ، وَأَنَّ الْفَقْرَ إِهَانَةٌ، فَقَالَ: لَمْ أَبْتَلْ عَبْدِي بِالْغِنَى لِكِرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَمْ أَبْتَلِهِ بِالْفَقْرِ لِهَوَانِهِ عَلَيَّ،

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْإِكْرَامَ وَالْإِهَانَةَ لَا يَدُورَانِ عَلَى الْمَالِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ،
فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُوسِّعُ عَلَى الْكَافِرِ لَا لِكِرَامَتِهِ، وَيُقْتَرِّ عَلَى الْمُؤْمِنِ لَا
لِإِهَانَتِهِ، إِنَّمَا يُكْرِمُ مَنْ يُكْرِمُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَيُهِينُ مَنْ يُهِينُهُ
بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَمَعْصِيَتِهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، وَهُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ.

فَعَادَتْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

مَنْ لَهُ عِبَادَةٌ بِلاِ اسْتِعَانَةٍ :

الْقِسْمُ الثَّالِثُ : مَنْ لَهُ نَوْعُ عِبَادَةٍ بِلاِ اسْتِعَانَةٍ ، وَهُوَ لَا نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا : الْقَدَرِيَّةُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ قَدْ فَعَلَ بِالْعَبْدِ جَمِيعَ مَقْدُورِهِ مِنْ
الْأَلْطَافِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي مَقْدُورِهِ إِعَانَةٌ لَهُ عَلَى الْفِعْلِ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَعَانَهُ
بِخَلْقِ الْأَلَاتِ وَسَلَامَتِهَا، وَتَعْرِيفِ الطَّرِيقِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَتَمَكِينِهِ
مِنَ الْفِعْلِ ، فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا إِعَانَةٌ مَقْدُورَةٌ يَسْأَلُهُ إِيَّاهَا ، بَلْ قَدْ سَاوَى
بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ فِي الْإِعَانَةِ ، فَأَعَانَ هَؤُلَاءِ كَمَا أَعَانَ هَؤُلَاءِ ، وَلَكِنَّ
أَوْلِيَاءَهُ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَأَعْدَاءَهُ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمُ الْكُفْرَ ،
مَنْ غَيْرَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَفَقَّ هَؤُلَاءِ بِتَوْفِيقِ زَائِدٍ أَوْجَبَ لَهُمُ
الْإِيمَانَ ، وَخَذَلَ هَؤُلَاءِ بِأَمْرِ آخَرٍ أَوْجَبَ لَهُمُ الْكُفْرَ ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ نَصِيبٌ
مَنْقُوصٌ مِنَ الْعِبَادَةِ ، لَا اسْتِعَانَةَ مَعَهُ ، فَهُمْ مَوْكُولُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ،

مَسْدُودٌ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ الاسْتِعَانَةِ وَالتَّوْحِيدِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « الْإِيْمَانُ بِالْقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَكَذَّبَ بِقَدَرِهِ نَقَضَ تَكْذِيبُهُ تَوْحِيدَهُ » .

النَّوعُ الثَّانِي : مَنْ لَهُمْ عِبَادَاتٌ وَأُورَادٌ ، وَلَكِنْ حَظُّهُمْ نَاقِصٌ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ ، لَمْ تَتَّسِعْ قُلُوبُهُمْ لِارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْقَدَرِ ، وَتَلَاشِيهَا فِي ضَمْنِهِ ، وَقِيَامِهَا بِهِ ، وَأَنَّهَا بَدُونُ الْقَدَرِ كَالْمَوَاتِ الَّذِي لَا تَأْثِيرَ لَهُ ، بَلْ كَالْعَدَمِ الَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ ، وَأَنَّ الْقَدَرَ كَالرُّوحِ الْمُحَرَّكِ لَهَا ، وَالْمَعْوَلُ عَلَى الْمُحَرَّكِ الْأَوَّلِ .

فَلَمْ تَنْفُذْ قُوَى بَصَائِرِهِمْ مِنَ الْمُتَحَرِّكِ إِلَى الْمُحَرَّكِ ، وَمِنَ السَّبَبِ إِلَى الْمُسَبَّبِ ، وَمِنَ الْأَلَةِ إِلَى الْفَاعِلِ ، فَضَعُفَتْ عَزَائِمُهُمْ وَقَصُرَتْ هِمَمُهُمْ ، فَقَلَّ نَصِيْبُهُمْ مِنْ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْذُ ﴾ وَلَمْ يَجِدُوا ذَوْقَ التَّعَبُّدِ بِالتَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ ، وَإِنْ وَجَدُوا ذَوْقَهُ بِالْأُورَادِ وَالْوُضَائِفِ .

فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ نَصِيْبٌ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالتَّنْفُوزِ وَالتَّأْثِيرِ ، بِحَسَبِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ ، وَلَهُمْ مِنَ الْخُذْلَانِ وَالضَّعْفِ وَالْمَهَانَةِ وَالْعَجْزِ بِحَسَبِ قِلَّةِ اسْتِعَانَتِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ ، وَلَوْ تَوَكَّلَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ فِي إِزَالَةِ جَبَلٍ عَنْ مَكَانِهِ وَكَانَ مَأْمُورًا بِإِزَالَتِهِ لَأَزَالَهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِعَانَةِ ؟ .

قُلْتُ : هُوَ حَالٌ لِلْقَلْبِ يَنْشَأُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِاللَّهِ ، وَالْإِيْيَانِ بِتَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ
وَالْتَّدْبِيرِ وَالضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ
النَّاسُ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَإِنْ شَاءَهُ النَّاسُ ، فَيُوجِبُ لَهُ هَذَا اعْتِمَادًا
عَلَيْهِ ، وَتَفْوِيضًا إِلَيْهِ ، وَطُمَأْنِينَةً بِهِ ، وَثِقَةً بِهِ ، وَيَقِينًا بِكَفَايَتِهِ لِمَا تَوَكَّلَ
عَلَيْهِ فِيهِ ، وَأَنَّهُ مَلِيٌّ بِهِ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ ، شَاءَهُ النَّاسُ أَمْ أَبَوْهُ .

فَتَشَبَّهُ حَالَتُهُ حَالَةَ الطِّفْلِ مَعَ أَبَوَيْهِ فِيمَا يَنْوِيهِ مِنْ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ هُمَا
مَلِيَّانِ بِهِمَا ، فَاَنْظُرْ فِي تَجَرُّدِ قَلْبِهِ عَنِ الِاتِّفَاتِ إِلَى غَيْرِ أَبَوَيْهِ ، وَحَبْسِ هَمِّهِ
عَلَى انْزَالِ مَا يَنْوِيهِ بِهِمَا ، فَهَذِهِ حَالُ الْمُتَوَكِّلِ ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا مَعَ اللَّهِ
فَاللَّهُ كَافِيهِ وَلَا بُدَّ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطَّلَاقُ : ٣] ، أَيِ كَافِيهِ ، وَالْحَسْبُ الْكَافِي ، فَإِنْ كَانَ مَعَ هَذَا مِنْ أَهْلِ
التَّقْوَى كَانَتْ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى فَهُوَ .

الْقِسْمُ الرَّابِعُ : وَهُوَ مَنْ شَهِدَ تَفَرُّدَ اللَّهِ بِالنَّفْعِ وَالضَّرِّ ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ
كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَمْ يَدْرِ مَعَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرِضَاهُ ، فَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ،
وَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَى حُظُوْظِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَأَغْرَاضِهِ ، وَطَلَبَهَا مِنْهُ ، وَأَنْزَلَهَا بِهِ ،
فَقَضِيَّتْ لَهُ ، وَأُسْعِفَ بِهَا ، سَوَاءٌ كَانَتْ أَمْوَالًا أَوْ رِيَاسَةً أَوْ جَاهًا عِنْدَ
الْخَلْقِ ، أَوْ أَحْوَالًا مِنْ كَشْفٍ وَتَأْثِيرٍ وَقُوَّةٍ وَتَمَكُّينَ ، وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ ،
فَإِنَّهَا مِنْ جِنْسِ الْمُلْكِ الظَّاهِرِ ، وَالْأَمْوَالُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْإِسْلَامَ ، فَضْلًا
عَنِ الْوِلَايَةِ وَالْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ ، فَإِنَّ الْمُلْكَ وَالْجَاهَ وَالْمَالَ وَالْحَالَ مُعْطَاةٌ

لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، فَمَنْ اسْتَدَلَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى
 مَحَبَّةِ اللَّهِ لِمَنْ آتَاهُ إِيَّاهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَهُوَ مِنْ
 أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ دِينِهِ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ
 مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَيَكْرَهُهُ وَيُسْخِطُهُ ، فَالْحَالُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَهُوَ كَالْمَلِكِ
 وَالْمَالِ إِنْ أَعَانَ صَاحِبَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ ، وَتَنْفِيدِ أَوَامِرِهِ أَلْحَقَهُ
 بِالْمُلُوكِ الْعَادِلِينَ الْبَرَّةِ ، وَإِلَّا فَهُوَ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَمُبْعَدٌ لَهُ عَنِ
 اللَّهِ ، وَمُلْحَقٌ لَهُ بِالْمُلُوكِ الظَّالِمَةِ ، وَالْأَغْنِيَاءِ الْفَجَرَةِ .

عَقِيدَتُنَا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ :

وَالْعِصْمَةُ النَّافِعَةُ فِي هَذَا الْبَابِ : أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ،
 وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا
 تَعْطِيلٍ ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، بَلْ تُثَبَّتْ لَهُ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ ،
 وَتُنْفَى عَنْهُ مُشَابَهَةُ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَيَكُونُ إِثْبَاتُكَ مُنْزَهًا عَنِ التَّشْبِيهِ ،
 وَنَفْيُكَ مُنْزَهًا عَنِ التَّعْطِيلِ ، فَمَنْ نَفَى حَقِيقَةَ الْإِسْتِوَاءِ فَهُوَ مُعْطَلٌّ ،
 وَمَنْ شَبَّهَهُ بِإِسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ فَهُوَ مِمَّاثٌ ، وَمَنْ قَالَ : اسْتِوَاءٌ
 لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَهُوَ الْمُوَحِّدُ الْمُنْزَهُ .

دَعْوَةُ الرُّسُلِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ :

وَجَمِيعُ الرُّسُلِ إِنَّمَا دَعَوْا إِلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥٠﴾

فَاتَّبَعَهُمْ كُلُّهُمْ دَعَوْا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ عِبَادَتِهِ، مِنْ أَوْلَاهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَقَالَ نُوحٌ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقَوْمِهِ : ﴿ اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- وَإِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ٥١ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿ ٥٢ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢] .

مَرَاتِبُ إِيَّاكَ نَعْبُدُ عِلْمًا وَعَمَلًا :

لِلْعِبُودِيَّةِ مَرَاتِبٌ ، بِحَسَبِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، فَأَمَّا مَرَاتِبُهَا الْعِلْمِيَّةُ فَمَرَّتَانِ :

إِحْدَاهُمَا : الْعِلْمُ بِاللَّهِ ، وَالثَّانِيَّةُ : الْعِلْمُ بِدِينِهِ .

فَأَمَّا الْعِلْمُ بِهِ سُبْحَانَهُ ، فَخَمْسُ مَرَاتِبَ : الْعِلْمُ بِذَاتِهِ ، وَصِفَاتِهِ ، وَأَفْعَالِهِ ، وَأَسْمَائِهِ ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ .

وَالْعِلْمُ بِدِينِهِ مَرَّتَانِ ، إِحْدَاهُمَا : دِينُهُ الْأَمْرِيُّ الشَّرْعِيُّ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمَوْصِلُ إِلَيْهِ .

وَالثَّانِيَّةُ : دِينُهُ الْجَزَائِيُّ ، الْمُتَضَمِّنُ ثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ ، وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذَا

الْعِلْمُ الْعِلْمُ بِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.

وَأَمَّا مَرَاتِبُهَا الْعِلْمِيَّةُ، فَمَرْتَبَتَانِ: مَرْتَبَةُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَمَرْتَبَةُ
لِلْسَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ.

فَأَمَّا مَرْتَبَةُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ: فَأَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ، مَعَ
ارْتِكَابِ الْمُبَاحَاتِ، وَبَعْضِ الْمَكْرُوهَاتِ، وَتَرْكِ بَعْضِ الْمُسْتَحَبَّاتِ.

وَأَمَّا رُتْبَةُ الْمُقَرَّبِينَ: فَالْقِيَامُ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ
وَالْمَكْرُوهَاتِ، زَاهِدِينَ فِيهَا لَا يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَادِهِمْ، مُتَوَرِّعِينَ عَمَّا يَخَافُونَ
ضَرَرَهُ.

وَخَاصَّتُهُمْ قَدْ انْقَلَبَتِ الْمُبَاحَاتُ فِي حَقِّهِمْ طَاعَاتٍ وَقُرْبَاتٍ بِالنِّيَّةِ
فَلَيْسَ فِي حَقِّهِمْ مُبَاحٌ مُتَسَاوِي الطَّرْفَيْنِ، بَلْ كُلُّ أَعْمَالِهِمْ رَاجِحَةٌ، وَمَنْ
دُونَهُمْ يَتْرُكُ الْمُبَاحَاتِ مُشْتَغَلًا عَنْهَا بِالْعِبَادَاتِ، وَهُوَ لَا يَأْتُونَهَا طَاعَاتٍ
وَقُرْبَاتٍ، وَلَا أَهْلُ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ دَرَجَاتٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ.

الاعْتِدَارُ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مُخَاصِمَةٌ لِلَّهِ

وَأَمَّا الْاعْتِدَارُ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مُخَاصِمَةٌ لِلَّهِ، وَاحْتِجَاجٌ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى
الرَّبِّ، وَحُمْلٌ لِدُنْبِهِ عَلَى الْأَقْدَارِ، وَهَذَا فِعْلٌ خُصَمَاءِ اللَّهِ.

مَا حُكْمُ الْإِعْتِذَارِ بِالْقَدَرِ؟

فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهِ:

أَحَدُهَا: أَنْ يُقَالَ: الْعُذْرُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا لَمْ يَكُنْ نَافِعًا، وَالْإِعْتِذَارُ بِالْقَدَرِ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَلَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِهِ، وَلَوْ اعْتَذَرَ فَهُوَ كَلَامٌ بَاطِلٌ لَا يُفِيدُ شَيْئًا بَلَّتَةً، بَلْ يَزِيدُ فِي ذَنْبِ الْجَانِي، وَيَغْضَبُ الرَّبَّ عَلَيْهِ، وَمَا هَذَا شَأْنُهُ لَا يَشْتَغِلُ بِهِ عَاقِلٌ.

الثَّانِي: أَنَّ الْإِعْتِذَارَ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَ الْجَانِي نَفْسَهُ، وَتَنْزِيهَ سَاحَتِهِ، وَهُوَ الظَّالِمُ الْجَاهِلُ، وَالْجَاهِلُ عَلَى الْقَدَرِ نَسْبَةُ الذَّنْبِ إِلَيْهِ، وَتَظْلِيمُهُ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْقَالَ، بِتَحْسِينِ الْعِبَارَةِ وَتَلَطُّفِهَا، وَرُبَّمَا غَلَبَهُ الْحَالُ، فَصَرَّحَ بِالْوُجْدِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ خُصَمَاءِ اللَّهِ:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا، وَقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ

أَسْمَاءُ اللَّهِ تَقْتَضِي آثَارَهَا :

إِنَّ أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى تَقْتَضِي آثَارَهَا اقْتِضَاءَ الْأَسْبَابِ التَّامَّةِ لِمُسَبِّبَاتِهَا، فَاسْمُ السَّمِيعِ، الْبَصِيرِ يَقْتَضِي مَسْمُوعًا وَمُبْصَرًا، وَاسْمُ الرَّزَّاقِ يَقْتَضِي مَرْزُوقًا، وَاسْمُ الرَّحِيمِ يَقْتَضِي مَرْحُومًا، وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْغُفُورِ، وَالْعَفْوِ، وَالتَّوَّابِ، وَالْحَلِيمِ يَقْتَضِي مَنْ يَغْفِرُ لَهُ، وَيَتَوَبُّ عَلَيْهِ، وَيَغْفُو

عَنهُ، وَيَحْلُمُ، وَيَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، إِذْ هِيَ أَسْمَاءُ حُسْنَى وَصِفَاتُ كَمَالٍ، وَنُعُوتُ جَلَالٍ، وَأَفْعَالُ حِكْمَةٍ وَإِحْسَانٍ وَجُودٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ ظُهُورِ آثَارِهَا فِي الْعَالَمِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، حَيْثُ يَقُولُ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» (١).

وَأَنْتَ إِذَا فَرَضْتَ الْحَيَوَانَ بِجُمْلَتِهِ مَعْدُومًا، فَمَنْ يَرْزُقُ الرِّزَاقُ سُبْحَانَهُ؟، وَإِذَا فَرَضْتَ الْمَعْصِيَةَ وَالْخَطِيئَةَ مُتَتَفِيَةً مِنَ الْعَالَمِ، فَلِمَنْ يَغْفِرُ؟، وَعَمَّنْ يَغْفُو؟، وَعَلَى مَنْ يَتُوبُ وَيَحْلُمُ؟، وَإِذَا فَرَضْتَ الْفَاقَاتِ كُلَّهَا قَدْ سُدَّتْ، وَالْعَبِيدُ أَغْنِيَاءُ مُعَافُونَ، فَأَيْنَ السُّؤَالُ وَالتَّضَرُّعُ وَالِابْتِهَالُ؟، وَالْإِجَابَةُ وَشُهُودُ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ، وَالتَّخْصِصُ بِالْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ؟.

فَسُبْحَانَ مَنْ تَعَرَّفَ إِلَى خَلْقِهِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّعَرُّفَاتِ، وَدَلَّهِمْ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الدَّلَالَاتِ، وَفَتَحَ لَهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعَ الطُّرُقَاتِ، ثُمَّ نَصَبَ إِلَيْهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَعَرَّفَهُمْ بِهِ وَدَلَّهِمْ عَلَيْهِ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٤٩).

الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ :

وَأَمَّا حَدِيثُ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ فَيُقَالُ :

أَوَّلًا: بَأَيِّ كِتَابٍ، أَمْ بَأَيِّ سُنَّةٍ، أَمْ بَأَيِّ مَعْقُولٍ عَلِمْتُمْ وَجُوبَ الرِّضَا بِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ وَيُقَدَّرُهُ ؟ ، بَلْ بِجَوَازِ ذَلِكَ، فَضْلًا عَنْ وَجُوبِهِ ؟ هَذَا كِتَابُ اللَّهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَأَدِلَّةُ الْعُقُولِ، لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا الْأَمْرُ بِذَلِكَ، وَلَا إِبَاحَتُهُ.

بَلْ مِنَ الْمَقْضِيِّ مَا يَرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا يُسْخِطُهُ وَيَمْقُتُهُ، فَلَا نَرْضَى بِكُلِّ قَضَاءٍ كَمَا لَا يَرْضَى بِهِ الْقَاضِي لِأَقْضِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ مِنَ الْقَضَاءِ مَا يُسْخِطُهُ، كَمَا أَنَّ مِنَ الْأَعْيَانِ الْمَقْضِيَّةِ مَا يَغْضِبُ عَلَيْهِ، وَيَمْقُتُ عَلَيْهِ، وَيَلْعَنُ وَيَذُمُّ.

وَيُقَالُ ثَانِيًا: هَاهُنَا أَمْرَانِ قَضَاءٌ وَهُوَ فِعْلٌ قَائِمٌ بِذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَمَقْضِيٌّ وَهُوَ الْمَفْعُولُ الْمُنْفَصِلُ عَنْهُ، فَالْقَضَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ، وَعَدْلٌ وَحِكْمَةٌ، فَيَرْضَى بِهِ كُلُّهُ، وَالْمَقْضِيُّ قِسْمَانِ: مِنْهُ مَا يَرْضَى بِهِ، وَمِنْهُ مَا لَا يَرْضَى بِهِ. وَهَذَا جَوَابُ مَنْ يَقُولُ: الْفِعْلُ غَيْرُ الْمَفْعُولِ، وَالْقَضَاءُ غَيْرُ الْمَقْضِيِّ. وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْفِعْلَ هُوَ عَيْنُ الْمَفْعُولِ، وَالْقَضَاءُ هُوَ عَيْنُ الْمَقْضِيِّ، فَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُجِيبَ بِهَذَا الْجَوَابِ.

وَيُقَالُ ثَالِثًا: الْقَضَاءُ لَهُ وَجْهَانِ؛

أَحَدُهُمَا: تَعَلُّقُهُ بِالرَّبِّ تَعَالَى، وَنِسْبَتُهُ إِلَيْهِ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَرْضَى بِهِ كُلَّهُ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: تَعَلُّقُهُ بِالْعَبْدِ وَنِسْبَتُهُ إِلَيْهِ فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَرْضَى بِهِ، وَإِلَى مَا لَا يَرْضَى بِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: قَتْلُ النَّفْسِ - مَثَلًا - لَهُ اعْتِبَارَانِ، فَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ وَكَتَبَهُ وَشَاءَهُ، وَجَعَلَهُ أَجَلًا لِلْمَقْتُولِ، وَنَهَايَةَ لِعُمُرِهِ يَرْضَى بِهِ، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ صَدَرَ مِنَ الْقَاتِلِ، وَبَاشَرَهُ وَكَسَبَهُ، وَأَقْدَمَ عَلَيْهِ بِاخْتِيَارِهِ، وَعَصَى اللَّهَ بِفِعْلِهِ يَسْخَطُهُ وَلَا يَرْضَى بِهِ.

فَهَذِهِ نَهَايَةُ أَقْدَامِ الْعَالَمِ، الْمُقَرَّرِينَ بِالنُّبُوءَاتِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَمُفْتَرَقُ طُرُقِهِمْ، قَدْ حَصَرْتُ لَكَ أَقْوَاهُمْ وَمَا خَذَهُمْ، وَأُصُولَ تِلْكَ الْأَقْوَالِ، بِحَيْثُ لَا يَشِدُّ مِنْهَا شَيْءٌ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَلَا تُتَنَكَّرُ الْإِطَالَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّهُ مَزَلَّةُ أَقْدَامِ الْخَلْقِ، وَمَا نَجَا مِنْ مَعَاطِبِهِ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرَائِعِهِ.

حَقِيقَةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ :

وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ مُجَرَّدَ إِفْرَارِ الْعَبْدِ بِأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، كَمَا كَانَ عَبَادُ الْأَصْنَامِ مُقَرَّرِينَ بِذَلِكَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، بَلِ التَّوْحِيدُ يَتَضَمَّنُ - مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَمَالِ الْأَنْقِيَادِ لَطَاعَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَى بِجَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَنْعِ، وَالْعَطَاءِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ - مَا يُحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْمَعَاصِي، وَالْإِضْرَارِ عَلَيْهَا، وَمَنْ عَرَفَ هَذَا عَرَفَ قَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ^(١) - وَقَوْلُهُ: لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ^(٢) .

وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى ظَنَّنَهَا بَعْضُهُمْ مَنْسُوخَةً، وَظَنَّنَهَا بَعْضُهُمْ قِيلَتْ قَبْلَ وُرُودِ الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي وَاسْتِقْرَارِ الشَّرْعِ، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى نَارِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَفَّارِ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُم الدُّخُولَ بِالْخُلُودِ، وَقَالَ: الْمَعْنَى لَا يَدْخُلُهَا خَالِدًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢٥)، وَمُسْلِمٌ (٣٣)، (٢٦٣) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٨)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٠٩١)، بَلَفَظَ : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ » .

وَالشَّارِعُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا
بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ، فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالْإِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ
الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِالنِّسْتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاهِدِينَ لَهَا
فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ اللِّسَانِ،
وَقَوْلِ الْقَلْبِ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، وَالتَّصَدِيقِ بِهَا، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا
تَضَمَّنَتْهُ - مِنَ النِّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُنْفِيَّةِ عَنْ غَيْرِ
اللَّهِ، الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، الَّتِي يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُهَا لِغَيْرِهِ، وَقِيَامُ هَذَا الْمَعْنَى بِالْقَلْبِ
عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَيَقِينًا، وَحَالًا - مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ قَائِلِهَا عَلَى النَّارِ، وَكُلُّ
قَوْلٍ رَتَّبَ الشَّارِعُ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ التَّامُّ،
كَقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ
مِائَةً مَرَّةً، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ - أَوْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ - وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ
الْبَحْرِ» ^(١)، وَلَيْسَ هَذَا مُرْتَبًا عَلَى مُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ.

نَعَمْ مَنْ قَالَهَا بِلِسَانِهِ، غَافِلًا عَنْ مَعْنَاهَا، مُعْرِضًا عَنْ تَدَبُّرِهَا، وَلَمْ
يُوَاطِئْ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، وَلَا عَرَفَ قَدْرَهَا وَحَقِيقَتَهَا، رَاجِعًا مَعَ ذَلِكَ ثَوَابَهَا،
حَطَّتْ مِنْ خَطَايَاهُ بِحَسَبِ مَا فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُورِهَا
وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ
وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا فِي التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالرَّجُلَانِ يَكُونُ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٩١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٥١٢)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.
وَتَأَمَّلْ حَدِيثَ الْبَطَاقَةِ الَّتِي تُوَضَّعُ فِي كِفَّةٍ، وَيُقَابَلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ
سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبَطَاقَةُ وَتَطِيشُ السَّجَلَاتُ،
فَلَا يُعَذَّبُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحَّدٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْبَطَاقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ
بِذُنُوبِهِ، وَلَكِنَّ السِّرَّ الَّذِي ثَقُلَ بَطَاقَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَطَاشَتْ لِأَجْلِهِ
السَّجَلَاتُ لَمَّا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَرْبَابِ الْبَطَاقَاتِ، انْفَرَدَتْ بِطَاقَتِهِ
بِالثَّقَلِ وَالرَّزَانَةِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ زِيَادَةَ الْإِيضَاحِ لِهَذَا الْمَعْنَى، فَانْظُرْ إِلَى ذِكْرِ مَنْ قَلْبُهُ مَلَأَنُ
بِمَحَبَّتِكَ، وَذَكَرَ مَنْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْكَ غَافِلٌ سَاهٍ، مَشْغُولٌ بِغَيْرِكَ، قَدْ
انْجَذَبَتْ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَى مُحَبَّةِ غَيْرِكَ، وَإِثَارِهِ عَلَيْكَ، هَلْ يَكُونُ ذِكْرُهُمَا
وَاحِدًا؟ أَمْ هَلْ يَكُونُ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ هُمَا بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ، أَوْ عَبْدَاكَ، أَوْ
زَوْجَتَاكَ، عِنْدَكَ سَوَاءٌ؟.

وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ قَاتِلِ الْمَاءَةِ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ الَّتِي لَمْ تَشْغَلْهُ عِنْدَ
السِّيَاقِ عَنِ السَّيْرِ إِلَى الْقَرْيَةِ، وَحَمَلَتُهُ - وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ - عَلَى
أَنْ جَعَلَ يَنْوُءُ بِصَدْرِهِ، وَيُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَهَذَا أَمْرٌ آخَرُ، وَإِيمَانٌ
آخَرُ، وَلَا جَرَمَ أَنْ أُلْحِقَ بِالْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ، وَجَعَلَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا قَامَ بِقَلْبِ الْبَغِيِّ الَّتِي رَأَتْ ذَلِكَ الْكَلْبَ - وَقَدْ
 اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ يَأْكُلُ الثَّرَى - فَقَامَ بِقَلْبِهَا ذَلِكَ الْوَقْتُ - مَعَ عَدَمِ الْأَلَةِ،
 وَعَدَمِ الْمُعِينِ وَعَدَمِ مَنْ تُرَائِيهِ بِعَمَلِهَا - مَا حَمَلَهَا عَلَى أَنْ غَرَّرَتْ بِنَفْسِهَا
 فِي نُزُولِ الْبُئْرِ، وَمَلَأَ الْمَاءَ فِي خُفِّهَا، وَلَمْ تَعْبَأْ بِتَعَرُّضِهَا لِلتَّلَفِ، وَحَمَلَهَا
 خُفُّهَا بِفِيهَا، وَهُوَ مَلَأْنٌ، حَتَّى أَمَكَّنَهَا الرُّقْيُ مِنَ الْبُئْرِ، ثُمَّ تَوَاضَعُهَا لِهَذَا
 الْمَخْلُوقِ الَّذِي جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِضَرْبِهِ، فَأَمْسَكَتْ لَهُ الْخُفَّ بِيَدِهَا
 حَتَّى شَرَبَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْجُوَ مِنْهُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَأَحْرَقَتْ أَنْوَارُ
 هَذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّوْحِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا مِنَ الْبَغَاءِ، فَغَفِرَ لَهَا.

فَهَكَذَا الْأَعْمَالُ وَالْعُمَالُ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْغَافِلُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْإِكْسِيرِ
 الْكِيمَاوِيِّ، الَّذِي إِذَا وُضِعَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَى قَنَاطِيرٍ مِنْ نُحَاسٍ
 الْأَعْمَالِ قَلْبَهَا ذَهَبًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

حَاجَةُ الْعَبْدِ لِلرَّجَاءِ :

فَالرَّجَاءُ ضَرُورِيٌّ لِلْمُرِيدِ السَّالِكِ، وَالْعَارِفُ لَوْ فَارَقَهُ لَحَظَةً لَتَلَفَ
 أَوْ كَادَ ، فَإِنَّهُ دَائِرٌ بَيْنَ ذَنْبٍ يَرْجُو غُفْرَانَهُ، وَعَيْبٍ يَرْجُو إِصْلَاحَهُ،
 وَعَمَلٍ صَالِحٍ يَرْجُو قَبُولَهُ، وَاسْتِقَامَةٍ يَرْجُو حُصُولَهَا وَدَوَامَهَا، وَقُرْبٍ
 مِنَ اللَّهِ وَمَنْزِلَةٍ عِنْدَهُ يَرْجُو وَصُولَهُ إِلَيْهَا، وَلَا يَنْفَكُ أَحَدٌ مِنَ السَّالِكِينَ
 عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ بَعْضِهَا.

التَّوَكُّلُ نِصْفُ الدِّينِ :

التَّوَكُّلُ نِصْفُ الدِّينِ ، وَالنِّصْفُ الثَّانِي الْإِنَابَةُ ، فَإِنَّ الدِّينَ اسْتِعَانَةُ وَعِبَادَةٌ ، فَالتَّوَكُّلُ هُوَ الْإِسْتِعَانَةُ ، وَالْإِنَابَةُ هِيَ الْعِبَادَةُ .

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي التَّوَكُّلِ :

فَأُولَئِكَ وَخَاصَّتُهُ يَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ فِي الْإِيمَانِ ، وَنُصْرَةِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ ، وَفِي مُحَابَةِ وَتَنْفِيدِ أَمْرِهِ .

وَدُونَ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي اسْتِقَامَتِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَحِفْظِ حَالِهِ مَعَ اللَّهِ ، فَارِغًا عَنِ النَّاسِ .

وَدُونَ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي مَعْلُومٍ يَنَالُهُ مِنْهُ ، مِنْ رِزْقٍ أَوْ عَافِيَةٍ ، أَوْ نَصْرِ عَلَى عَدُوٍّ ، أَوْ زَوْجَةٍ أَوْ وَلَدٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَدُونَ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي حُصُولِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ ، فَإِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الْمَطَالِبِ لَا يَنَالُونَهَا غَالِبًا إِلَّا بِاسْتِعَانَتِهِمْ بِاللَّهِ ، وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ ، بَلْ قَدْ يَكُونُ تَوَكُّلُهُمْ أَقْوَى مِنْ تَوَكُّلِ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ الطَّاعَاتِ ، وَلِهَذَا يُلْقُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَتَالِفِ وَالْمَهَالِكِ ، مُعْتَمِدِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ ، وَيُظْفِرَهُمْ بِمَطَالِبِهِمْ .

مِمَّنْ يَصِحُّ التَّوَكُّلُ :

كُلُّ مَنْ كَانَ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ أَعْلَمَ وَأَعْرَفُ كَانَ تَوَكُّلُهُ أَصَحَّ وَأَقْوَى ،
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

عَدَمُ الرُّكُونِ إِلَى الْأَسْبَابِ :

مَنْ تَمَامَ التَّوَكُّلِ عَدَمَ الرُّكُونِ إِلَى الْأَسْبَابِ ، وَقَطَعَ عِلَاقَةَ الْقَلْبِ
بِهَا ؛ فَيَكُونُ حَالُ قَلْبِهِ قِيَامَهُ بِاللَّهِ لَا بِهَا ، وَحَالُ بَدَنِهِ قِيَامَهُ بِهَا .

التَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ التَّوَحِيدِ :

فَالْأَسْبَابُ مَحَلُّ حِكْمَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَدِينِهِ ، وَالتَّوَكُّلُ مُتَعَلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ
وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَلَا تَقُومُ عُبُودِيَّةُ الْأَسْبَابِ إِلَّا عَلَى سَاقِ التَّوَكُّلِ ، وَلَا
يَقُومُ سَاقُ التَّوَكُّلِ إِلَّا عَلَى قَدَمِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

التَّوَكُّلُ رُسُوخُ الْقَلْبِ فِي مَقَامِ التَّوَحِيدِ :

فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ تَوَكُّلُ الْعَبْدِ حَتَّى يَصِحَّ لَهُ تَوْحِيدُهُ ، بَلْ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ
تَوْحِيدُ الْقَلْبِ ، فَمَا دَامَتْ فِيهِ عِلَاقَةُ الشَّرْكِ ، فَتَوَكُّلُهُ مَعْلُولٌ مَدْخُولٌ ،
وَعَلَى قَدَرِ تَجْرِيدِ التَّوَحِيدِ تَكُونُ صِحَّةُ التَّوَكُّلِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مَتَى التَّفَتَّ
إِلَى غَيْرِ اللَّهِ أَخَذَ ذَلِكَ الْإِلْتِفَاتُ شُعْبَةً مِنْ شُعَبِ قَلْبِهِ ، فَانْقَصَ مِنْ تَوَكُّلِهِ
عَلَى اللَّهِ بِقَدَرِ ذَهَابِ تِلْكَ الشُّعْبَةِ وَمِنْ هَاهُنَا ظَنٌّ مِنْ ظَنِّ أَنَّ التَّوَكُّلَ لَا

يَصِحُّ إِلَّا بِرَفْضِ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا حَقٌّ، لَكِنَّ رَفْضَهَا عَنِ الْقَلْبِ لَا عَنِ الْجَوَارِحِ.

فَالْتَّوَكُّلُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرَفْضِ الْأَسْبَابِ عَنِ الْقَلْبِ، وَتَعَلُّقِ الْجَوَارِحِ بِهَا، فَيَكُونُ مُنْقَطِعًا مِنْهَا مُتَّصِلًا بِهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

التَّوَكُّلُ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ :

فَعَلَى قَدَرِ حُسْنِ ظَنِّكَ بِرَبِّكَ وَرَجَائِكَ لَهُ، يَكُونُ تَوَكُّلُكَ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ التَّوَكُّلَ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

وَالْتَّحْقِيقُ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِهِ يَدْعُوهُ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، إِذْ لَا يَتَصَوَّرُ التَّوَكُّلُ عَلَى مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ، وَلَا التَّوَكُّلُ عَلَى مَنْ لَا تَرْجُوهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الرِّضَا مِنْ ثَمَارِ التَّوَكُّلِ :

وَهِيَ ثَمَرَةُ التَّوَكُّلِ، وَمَنْ فَسَّرَ التَّوَكُّلَ بِهَا فَإِنَّمَا فَسَّرَهُ بِأَجَلِ ثَمَرَاتِهِ، وَأَعْظَمَ فَوَائِدِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا تَوَكَّلَ حَقَّ التَّوَكُّلِ رَضِيَ بِمَا يَفْعَلُهُ وَكَيْلُهُ.

وَكَانَ شَيْخُنَا - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: الْمَقْدُورُ يَكْتَفِيهِ أَمْرَانِ: التَّوَكُّلُ قَبْلَهُ، وَالرِّضَا بَعْدَهُ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَرَضِيَ بِالْمَقْضِيِّ لَهُ بَعْدَ الْفِعْلِ فَقَدْ قَامَ بِالْعُبُودِيَّةِ، أَوْ مَعْنَى هَذَا.

قُلْتُ: وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي دُعَاءِ
الاسْتِخَارَةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ،
وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ - فَهَذَا تَوَكَّلٌ وَتَفْوِيضٌ - ثُمَّ قَالَ: فَإِنَّكَ
تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَتَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » (١).

فَهَذَا تَبَرُّؤٌ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ
بِصِفَاتِهِ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ مَا تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِهَا الْمُتَوَسِّلُونَ ، ثُمَّ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ
يَقْضِيَ لَهُ ذَلِكَ الْأَمْرَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَتُهُ ، عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، وَأَنْ
يَصْرِفَهُ عَنْهُ إِنْ كَانَ فِيهِ مَضَرَّتُهُ ، عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، فَهَذَا هُوَ حَاجَتُهُ الَّتِي
سَأَلَهَا ، فَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا الرِّضَا بِمَا يَقْضِيهِ لَهُ ، فَقَالَ: وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ
حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ.

فَقَدْ اشْتَمَلَ هَذَا الدُّعَاءُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ ،
الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا التَّوَكُّلُ وَالتَّفْوِيضُ ، قَبْلَ وَقُوعِ الْمَقْدُورِ ، وَالرِّضَا بَعْدَهُ ،
وَهُوَ ثَمَرَةُ التَّوَكُّلِ ، وَالتَّفْوِيضُ عَلَامَةُ صِحَّتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَرْضَ بِمَا قُضِيَ
لَهُ ، فَتَفْوِيضُهُ مَعْلُولٌ فَاسِدٌ.

الاعتماد على الراتب :

وَأَكْثَرُ الْمُتَوَكِّلِينَ سُكُونُهُمْ وَطُمَأْنِينَتُهُمْ إِلَى الْمَعْلُومِ ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٨٢) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤٨٠) .

إِلَى اللَّهِ ، وَعَلَامَةٌ ذَلِكَ أَنَّهُ مَتَى انْقَطَعَ مَعْلُومٌ أَحَدِهِمْ حَضَرَهُ هُمُهُ وَبَثَّهُ وَخَوْفُهُ ، فَعَلِمَ أَنَّ طَمَآنِيئَتَهُ وَسُكُونَهُ لَمْ يَكُنْ إِلَى اللَّهِ .

تَعْلُقُ التَّوَكُّلَ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى :

التَّوَكُّلُ مِنْ أَعَمِّ الْمَقَامَاتِ تَعْلُقًا بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى .

فَإِنَّ لَهُ تَعْلُقًا خَاصًّا بِعَامَّةِ أَسْمَاءِ الْأَفْعَالِ ، وَأَسْمَاءِ الصِّفَاتِ .

فَلَهُ تَعْلُقٌ بِاسْمِ الْغَفَّارِ ، وَالتَّوَّابِ ، وَالْعَفْوِ ، وَالرَّءُوفِ ، وَالرَّحِيمِ وَتَعْلُقٌ بِاسْمِ الْفَتَّاحِ ، وَالْوَهَّابِ ، وَالرِّزَّاقِ ، وَالْمُعْطِيِ ، وَالْمُحْسِنِ ، وَتَعْلُقٌ بِاسْمِ الْمُعِزِّ الْمَذِلِّ ، الْخَافِضِ الرَّافِعِ ، الْمَانِعِ ، مِنْ جِهَةِ تَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ فِي إِذْلَالِ أَعْدَاءِ دِينِهِ ، وَخَفْضِهِمْ وَمَنْعِهِمْ أَسْبَابَ النَّصْرِ ، وَتَعْلُقٌ بِأَسْمَاءِ الْقُدْرَةِ ، وَالْإِرَادَةِ وَلَهُ تَعْلُقٌ عَامٌّ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَلِهَذَا فَسَّرَهُ مَنْ فَسَّرَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِأَنَّهُ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ .

وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ بِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ يَصِحُّ لَهُ مَقَامُ التَّوَكُّلِ ، وَكُلَّمَا كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ ، كَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَيْهِ أَقْوَى .

مَقْصُودُ التَّوَكُّلِ :

قِيلَ : لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهِ شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ ، كَانَ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللَّهِ تَسْلِيمَ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ هُوَ لَهُ ، وَعَزَلَ نَفْسَهُ عَنْ مُنَازَعَاتِ مَالِكِهِ

وَاعْتِمَادُهُ عَلَيْهِ فِيهِ ، وَخُرُوجُهُ عَنْ تَصَرُّفِهِ بِنَفْسِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَوْنِهِ بِهِ ،
إِلَى تَصَرُّفِهِ بِرَبِّهِ وَكَوْنِهِ بِهِ سُبْحَانَهُ دُونَ نَفْسِهِ ، وَهَذَا مَقْصُودُ التَّوَكُّلِ .

سُؤَالُ الْخَلْقِ مُنَافٍ لِلتَّوَكُّلِ :

فَإِنَّ الطَّلَبَ مِنَ الْخَلْقِ فِي الْأَصْلِ مُحْظُورٌ ، وَغَايَتُهُ : أَنْ يُبَاحَ لِلضَّرُورَةِ ،
كَإِبَاحَةِ الْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ ، وَنَصَّ أَحْمَدُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ
شَيْخُنَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ الطَّلَبُ وَالسُّؤَالُ .

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي السُّؤَالِ : هُوَ ظُلْمٌ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ
الْخَلْقِ ، وَظُلْمٌ فِي حَقِّ النَّفْسِ .

أَمَّا فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ فَلَمَّا فِيهِ مِنَ الذُّلِّ لغيرِ اللَّهِ ، وَإِرَاقَةُ مَاءِ الْوَجْهِ لغيرِ
خَالِقِهِ ، وَالتَّعَوُّضُ عَنْ سُؤَالِهِ بِسُؤَالِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَالتَّعَرُّضُ لِمَقْتِهِ إِذَا
سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَهُ .

وَأَمَّا فِي حَقِّ النَّاسِ فَبِمُنَازَعَتِهِمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بِالسُّؤَالِ ، وَاسْتِخْرَاجِهِ
مِنْهُمْ ، وَأَبْغَضُ مَا إِلَيْهِمْ مَنْ يَسْأَلُهُمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَأَحَبُّ مَا إِلَيْهِمْ مَنْ
لَا يَسْأَلُهُمْ ، فَإِنَّ أَمْوَالَهُمْ مُحَبُّوبَاتُهُمْ ، وَمَنْ سَأَلَكَ مُحَبُّوبَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ
لِمَقْتِكَ وَبُغْضِكَ .

وَأَمَّا ظُلْمُ السَّائِلِ نَفْسَهُ فَحَيْثُ امْتَنَهَنَهَا ، وَأَقَامَهَا فِي مَقَامِ ذُلِّ السُّؤَالِ ،
وَرَضِيَ لَهَا بِذُلِّ الطَّلَبِ مِمَّنْ هُوَ مِثْلُهُ ، أَوْ لَعَلَّ السَّائِلَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَعْلَى

قَدْرًا ، وَتَرَكَ سُؤَالَ مَنْ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشُّورَى : ١١] ، فَقَدْ أَقَامَ السَّائِلُ نَفْسَهُ مَقَامَ الذُّلِّ ، وَأَهَانَهَا بِذَلِكَ ، وَرَضِيَ أَنْ يَكُونَ شَحَاذًا مِنْ شَحَاذِ مِثْلِهِ ، فَإِنَّ مَنْ تَشَحَّذُهُ فَهُوَ أَيْضًا شَحَاذٌ مِثْلُكَ ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

فَسُؤَالَ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ سُؤَالَ الْفَقِيرِ لِلْفَقِيرِ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى كُلَّمَا سَأَلْتَهُ كَرُمْتَ عَلَيْهِ ، وَرَضِيَ عَنْكَ ، وَأَحَبَّكَ ، وَالْمَخْلُوقُ كُلَّمَا سَأَلْتَهُ هُنْتَ عَلَيْهِ وَأَبْغَضَكَ وَمَقَتَّكَ وَقَلَاكَ ، كَمَا قِيلَ :

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبَنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وَقَبِيحٌ بِالْعَبْدِ الْمُرِيدِ : أَنْ يَتَعَرَّضَ لِسُؤَالِ الْعَبِيدِ ، وَهُوَ يَجِدُ عِنْدَ مَوْلَاهُ كُلَّ مَا يُرِيدُهُ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تِسْعَةً - أَوْ ثَمَانِيَةً ، أَوْ سَبْعَةً - فَقَالَ : أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ ، فَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَبَسَطْنَا أَيْدِينَا وَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَعَلَامَ تُبَايِعُكَ ؟ فَقَالَ : أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَالصَّلَاةَ الْخَمْسَ - وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا . قَالَ : وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيكَ النَّفَرِ

يَسْقُطُ سَوْطٌ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يُنَاولَهُ إِيَّاهُ» (١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: « لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِرْعَةُ لَحْمٍ » (٢).

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ - وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ - : « وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ » (٣).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكْثِيرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا ، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لْيَسْتَكْثِرْ » (٤).

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ بَابِ كَرَاهِيَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ (١٠٤٣) ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الزَّكَاةِ بَابِ الْبَيْعَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ (١٦٤٢) .

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الزَّكَاةِ بَابِ مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكْثِيرًا (١٤٧٤) ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ بَابِ كَرَاهِيَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ (١٠٤٠) .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الزَّكَاةِ بَابِ لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَنْ ظَهْرِ غِنَى (١٤٢٩) ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ بَابِ أَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى (١٠٤٠) .

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ بَابِ كَرَاهِيَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ (١٠٤١) ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي الزَّكَاةِ بَابِ مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى (١٨٣٨) .

تَوَكَّلِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

فَحَالُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحَالُ أَصْحَابِهِ مَحْكُ الْأَحْوَالِ وَمِيزَانُهَا ، بِهَا يُعْلَمُ صَحِيحُهَا مِنْ سَقِيمِهَا ، فَإِنَّ هِمَمَهُمْ كَانَتْ فِي التَّوَكُّلِ أَعْلَى مِنْ هِمَمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَإِنَّ تَوَكُّلَهُمْ كَانَ فِي فَتْحِ بَصَائِرِ الْقُلُوبِ ، وَأَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ ، وَأَنْ يُوحَّدَهُ جَمِيعُ الْعِبَادِ ، وَأَنْ تُشْرَقَ شُمُوسُ الدِّينِ الْحَقِّ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَمَلَّئُوا بِذَلِكَ التَّوَكُّلِ الْقُلُوبَ هُدًى وَإِيمَانًا ، وَفَتَحُوا بِلَادَ الْكُفْرِ وَجَعَلُوهَا دَارَ إِيْمَانٍ ، وَهَبَّتْ رِيَّاحُ رَوْحِ نَسَمَاتِ التَّوَكُّلِ عَلَى قُلُوبِ أَتْبَاعِهِمْ فَمَلَأَتْهَا يَقِينًا وَإِيمَانًا .

فَكَانَتْ هِمَمُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ قُوَّةَ تَوَكُّلِهِ وَاعْتِمَادِهِ عَلَى اللَّهِ فِي شَيْءٍ يَحْصُلُ بِأَدْنَى حِيلَةٍ وَسَعْيٍ ، فَيَجْعَلُهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ ، وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ قُوَى تَوَكُّلِهِ .

مَعِيَّةُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ :

فَإِنَّ الْمَعِيَّةَ نَوْعَانِ : عَامَّةٌ : وَهِيَ : مَعِيَّةُ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : ٧] .

وَخَاصَّةٌ : وَهِيَ مَعِيَّةُ الْقُرْبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ

أَتَقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

فَهَذِهِ مَعِيَّةُ قُرْبٍ ، تَتَضَمَّنُ الْمَوَالَاةَ ، وَالنَّصَرَ ، وَالْحَفَظَ ، وَكِلَا الْمُعِينَيْنِ مُصَاحَبَةً مِنْهُ لِلْعَبْدِ ، لَكِنَّ هَذِهِ مُصَاحَبَةُ اِطِّلَاعٍ وَاحِاطَةٍ ، وَهَذِهِ مُصَاحَبَةُ مَوَالَاةٍ وَنَصْرِ وَإِعَانَةٍ ، فَ﴿ مَعَ ﴾ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ تُفِيدُ الصُّحْبَةَ اللَّائِقَةَ ، لَا تُشْعِرُ بِامْتِرَاجٍ وَلَا اخْتِلَاطٍ ، وَلَا مُجَاوَرَةٍ ، وَلَا مُجَانِبَةٍ ، فَمَنْ ظَنَّ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ هَذَا فَمِنْ سُوءِ فَهْمِهِ أَتَى .

أَهْمِيَّةُ التَّوْحِيدِ :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ التَّوْحِيدِ ، وَبَاشَرَتْ جَوَانِبَهَا الْأَرْوَاحَ ، وَنُورُهَا الْبَصَائِرَ ، تَجَلَّتْ بِهَا ظُلُمَاتُ النَّفْسِ وَالطَّبَعِ ، وَتَحَرَّكَتْ بِهَا الْأَرْوَاحُ فِي طَلَبِ مَنْ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿ [الشورى : ١١] ، فَسَافَرَ الْقَلْبُ فِي بَيْدَاءِ الْأَمْرِ ، وَنَزَلَ مَنَازِلَ الْعُبُودِيَّةِ ، مَنَزَلًا مَنَزَلًا ، فَهُوَ يَنْتَقِلُ مِنْ عِبَادَةٍ إِلَى عِبَادَةٍ ، مُقِيمٌ عَلَى مَعْبُودٍ وَاحِدٍ ، فَلَا تَزَالُ شَوَاهِدُ الصِّفَاتِ قَائِمَةً بَقَلْبِهِ ، تُوقِظُهُ إِذَا رَقَدَ ، وَتُذَكِّرُهُ إِذَا غَفَلَ ، وَتَحْدُو بِهِ إِذَا سَارَ ، وَتُقِيمُهُ إِذَا قَعَدَ .

الْأَزْوَاجُ خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ :

وَأَمَّا الْحَقُّ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ وَاتَّبَاعُهُمْ : فَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْأَزْوَاجَ بَاقِيَةٌ بَعْدَ مُفَارَقَةِ أَبْدَانِهَا ، لَا تَفْنَى وَلَا تُعْدَمُ ، وَأَنَّهَا مُنْعَمَةٌ أَوْ مُعَذِّبَةٌ فِي الْبَرْزَخِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ رُدَّتْ إِلَى أَبْدَانِهَا ، فَتَنْعَمُ مَعَهَا أَوْ تُعَذِّبُ ، وَلَا تُعْدَمُ وَلَا تَفْنَى .

الْمُعْطَلُ شَرٌّ مِنَ الْمُشْرِكِ :

وَلَمَّا كَانَ أَحَبُّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ حَمْدُهُ وَمَدْحُهُ ، وَالشَّيْءُ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ؛ كَانَ أَنْكَارُهَا وَجَحْدُهَا أَعْظَمَ الْإِلْحَادِ وَالْكَفْرِ بِهِ ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الشَّرِّكَ ، فَالْمُعْطَلُ شَرٌّ مِنَ الْمُشْرِكِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَوِي جَحْدُ صِفَاتِ الْمَلِكِ وَحَقِيقَةُ مُلْكِهِ وَالطَّعْنُ فِي أَوْصَافِهِ هُوَ وَالشَّيْءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْمُلْكِ ، فَالْمُعْطَلُونَ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ بِالذَّاتِ ، بَلْ كُلُّ شَرِّكَ فِي الْعَالَمِ فَأَصْلُهُ التَّعْطِيلُ ، فَإِنَّهُ لَوْلَا تَعْطِيلُ كَمَالِهِ - أَوْ بَعْضِهِ - وَظَنُّ السَّوِّءِ بِهِ : لَمَا أُشْرِكَ بِهِ ، كَمَا قَالَ إِمَامُ الْخُفَاءِ وَأَهْلُ التَّوْحِيدِ لِقَوْمِهِ ﴿ أَيَفْكَاءُ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (٨٧) ﴾ [الصَّافَّاتُ : ٨٦-٨٧] ، أَيِ فَمَا ظَنُّكُمْ بِهِ أَنْ يُجَازِيَكُمْ ، وَقَدْ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وَمَا الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِهِ حَتَّى جَعَلْتُمْ مَعَهُ شُرَكَاءَ ؟ أَظَنْنْتُمْ : أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى الشُّرَكَاءِ وَالْأَعْوَانِ ؟ أَمْ ظَنْنْتُمْ : أَنَّهُ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ عِبَادِهِ ،

حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى شِرْكَاءٍ تُعَرِّفُهُ بِهَا كَالْمَلُوكِ ؟ ، أَمْ ظَنَنْتُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ وَحْدَهُ عَلَى اسْتِقْلَالِهِ بِتَدْبِيرِهِمْ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ ، أَمْ هُوَ قَاسٍ ؛ فَيَحْتَاجُ إِلَى شُفْعَاءٍ يَسْتَعِظِفُونَهُ عَلَى عِبَادِهِ ؟ أَمْ ذَلِيلٌ ؛ فَيَحْتَاجُ إِلَى وَلِيٍّ يَتَكَثَّرُ بِهِ مِنَ الْقَلَّةِ ، وَيَتَعَزَّزُ بِهِ مِنَ الذَّلَّةِ ؟ ، أَمْ يَحْتَاجُ إِلَى الْوَلَدِ ؛ فَيَتَّخِذُ صَاحِبَةً يَكُونُ الْوَلَدُ مِنْهَا وَمِنْهُ ؟ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ التَّعْطِيلَ مَبْدَأُ الشَّرِّ وَأَسَاسُهُ ، فَلَا تَجِدُ مُعْطَلًا إِلَّا وَشِرْكَهُ عَلَى حَسَبِ تَعْطِيلِهِ ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْتَرٌ .

الإيمان بالصفات :

فَالْإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ وَمَعْرِفَتُهَا ، وَإِثْبَاتُ حَقَائِقِهَا ، وَتَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِهَا ، وَشُهُودُهُ لَهَا : هُوَ مَبْدَأُ الطَّرِيقِ وَوَسْطُهُ وَغَايَتُهُ ، وَهُوَ رُوحُ السَّالِكِينَ ، وَحَادِيهِمْ إِلَى الْوُصُولِ ، وَمَحَرِّكُ عَزَمَاتِهِمْ إِذَا قَتَرُوا ، وَمُثِيرُ هِمَمِهِمْ إِذَا قَصَرُوا ، فَإِنَّ سَيْرَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الشَّوَاهِدِ ، فَمَنْ كَانَ لَا شَاهِدَ لَهُ فَلَا سَيْرَ لَهُ ، وَلَا طَلَبَ وَلَا سُلُوكَ لَهُ ، وَأَعْظَمُ الشَّوَاهِدِ : صِفَاتُ مَحْبُوبِهِمْ ، وَنَهَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ ، وَذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي رُفِعَ لَهُمْ فِي السَّيْرِ فَشَمَرُوا إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدْ رَأَاهُ غَادِيًا رَائِحًا ، لَمْ يَضَعْ لَبَنَةً عَلَى لَبَنَةٍ ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عِلْمٌ فَشَمَرَ إِلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي التَّوَانِي وَالْفُتُورِ وَالْكَسَلِ ،

حَتَّى يَرْفَعَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ - بِفَضْلِهِ وَمَنْنِهِ - عِلْمًا يُشَاهِدُهُ بِقَلْبِهِ ،
فَيُشَمِّرُ إِلَيْهِ ، وَيَعْمَلُ عَلَيْهِ .

أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ هِيَ الْجاذِبَةُ لِلْقُلُوبِ إِلَى مَحَبَّتِهِ :

فَإِنْ عَطَّلَتْ شَوَاهِدُ الصِّفَاتِ ، وَوُضِعَتْ أَعْلَامُهَا عَنِ الْقُلُوبِ ،
وَطُمَسَتْ آثَارُهَا ، وَضُرِبَتْ بِسَيِّطِ الْبُعْدِ ، وَأُسْبِلَ دُونَهَا حِجَابُ الطَّرْدِ ،
وَتَخَلَّفَتْ مَعَ الْمُتَخَلِّفِينَ ، وَأَوْحَى إِلَيْهَا الْقَدَرُ : أَنْ اقْعُدِي مَعَ الْقَاعِدِينَ ،
فَإِنَّ أَوْصَافَ الْمَدْعُوِّ إِلَيْهِ ، وَنُعُوتَ كَمَالِهِ ، وَحَقَائِقَ أَسْمَائِهِ : هِيَ الْجاذِبَةُ
لِلْقُلُوبِ إِلَى مَحَبَّتِهِ ، وَطَلَبِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا تُحِبُّ مَنْ
تَعْرِفُهُ ، وَتُخَافُهُ وَتَرْجُوهُ وَتَشْتَاقُ إِلَيْهِ ، وَتَلْتَدُّ بِقُرْبِهِ ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَى ذِكْرِهِ ،
بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهَا بِصِفَاتِهِ ، فَإِذَا ضُرِبَ دُونَهَا حِجَابُ مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ
وَالْإِقْرَارِ بِهَا : امْتَنَعَ مِنْهَا - بَعْدَ ذَلِكَ - مَا هُوَ مَشْرُوطٌ بِالْمَعْرِفَةِ ، وَمَلْزُومٌ
لَهَا ، إِذْ وَجُودُ الْمَلْزُومِ بِدُونِ لَازِمِهِ ، وَالْمَشْرُوطِ بِدُونِ شَرْطِهِ ، مُمْتَنِعٌ .

فَحَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ ، وَالْإِنَابَةِ ، وَالتَّوَكُّلِ ، وَمَقَامِ الْإِحْسَانِ مُمْتَنِعٌ عَلَى
الْمُعْطَلِ امْتِنَاعَ حُصُولِ الْمَغْلِ مِنْ مُعْطَلِ الْبَذْرِ ، بَلْ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا .

السُّنَّةُ فَصَلَّتِ الصِّفَاتِ أَتَمَّ التَّفْصِيلِ :

فَأَمَّا الرِّسَالَةُ : فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ إِثْبَاتًا مُفَصَّلًا عَلَى
وَجْهِ أَزَالِ الشُّبْهَةِ ، وَكَشَفِ الْغِطَاءِ ، وَحَصَلَ الْعِلْمُ الْيَقِينِيُّ ، وَرُفِعَ

الشك والريب ؛ فتلجأت له الصدور ، وأطمأنت به القلوب ، واستقرَّ به الإيمان في نصابه ، ففصلت الرسالة الصفات والنُّعوت والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي ، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ ، وأبعد من الإجمال والاحتمال ، وأمنعه من قبول التأويل ، وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يُخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره ، بل أبعد منه لوجوه كثيرة ، ذكرتها في كتاب « الصواعق المرسلة على الجهمية والمُعطلة » ، بل تأويل آيات الصفات - بما يُخرجها عن حقائقها - كتأويل آيات الأمر والنهي سواء ، فالباب كله باب واحد ، ومصدره واحد ، ومقصوده واحد ، وهو إثبات حقائقه والإيمان بها .

تأويل الصفات أصل فساد الدنيا والدين :

وقد ذكرنا في كتاب الصواعق أن تأويل آيات الصفات وأخبارها - بما يُخرجها عن حقائقها - هو أصل فساد الدنيا والدين ، وزوال الممالك ، وتسليط أعداء الإسلام عليه ؛ إنما كان بسبب التأويل ، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم ، ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته ؛ لأنه سبب لفساد العالم ، وتعطيل الشرائع .

وَمَنْ تَأَمَّلَ كَيْفِيَّةَ وَرُودِ آيَاتِ الصِّفَاتِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ : عَلِمَ قَطْعًا
بُطْلَانَ تَأْوِيلِهَا بِمَا يُخْرِجُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا ، فَإِنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى وَجْهِ لَا
يُحْتَمَلُ مَعَهُ التَّأْوِيلُ بِوَجْهِ .

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ
رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ، هَلْ يُحْتَمَلُ هَذَا التَّقْسِيمُ
وَالْتَّنَوُّعُ : تَأْوِيلَ إِيْتَانِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ بِإِيْتَانِ مَلَائِكَتِهِ أَوْ آيَاتِهِ ؟ وَهَلْ
يَبْقَى مَعَ هَذَا السِّيَاقِ شُبْهَةٌ أَصْلًا : أَنَّهُ إِيْتَانُهُ بِنَفْسِهِ ؟ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى
﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ - إِلَى
أَنْ قَالَ - ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤] ،
فَفَرَّقَ بَيْنَ الْإِيْحَاءِ الْعَامِّ ، وَالتَّكْلِيمِ الْخَاصِّ ، وَجَعَلَهُمَا نَوْعَيْنِ ، ثُمَّ أَكَّدَ
فِعْلَ التَّكْلِيمِ بِالْمُضَدِّ الرَّافِعِ لِتَوْهُمِ مَا يَقُولُهُ الْمُحَرِّفُونَ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ
وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ [الشورى: ٥١] ، فَنَوْعُ تَكْلِيمِهِ إِلَى تَكْلِيمٍ
بِوَاسِطَةٍ ، وَتَكْلِيمٍ بَغَيْرِ وَاسِطَةٍ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي ﴾ [النساء: ١٤٤] ،
فَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالْكَلامِ ، وَالرِّسَالَةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَلامِهِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ
النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيْنًا ، كَمَا تَرَوْنَ
الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فِي الصَّحْوِ ، لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ

في الظهيرة صَحُوا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ « (١) ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْبَيَانَ
وَالْكَشْفَ وَالِاخْتِرَازَ : يُنَافِي إِرَادَةَ التَّأْوِيلِ قَطْعًا ، وَلَا يَرْتَابُ فِي هَذَا
مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَدِينٌ .

المخلوقات شواهد صفات الربِّ - سبحانه وتعالى - :

وَإِذَا اعتَبَرْتَ المخلوقاتِ والمأموراتِ ، وَجَدْتَهَا بِأَسْرَهَا كُلَّهَا دَالَّةً
عَلَى التُّعُوتِ وَالصِّفَاتِ ، وَحَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَعَلِمْتَ أَنَّ الْمُعْطَلَةَ
مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَمَى بِمُكَابَرَةٍ ، وَيَكْفِي ظُهُورُ شَاهِدِ الصَّنْعِ فِيكَ
خَاصَّةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢١) [الذَّارِيَاتُ :
٢١] ، فَاَلْمَوْجُودَاتُ بِأَسْرَهَا شَوَاهِدُ صِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَنُعُوتِهِ
وَأَسْمَائِهِ ، فَهِيَ كُلُّهَا تُشِيرُ إِلَى الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَحَقَائِقِهَا ، وَتُنَادِي عَلَيْهَا ،
وَتَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَتُخْبِرُ بِهَا بِلِسَانِ النُّطْقِ وَالْحَالِ ، كَمَا قِيلَ :

تَأْمَلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا مِنْ الْمَلِكِ الْأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ خَطَّ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ
تُشِيرُ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِرَبِّهَا فَصَامَتُهَا يَهْدِي وَمَنْ هُوَ قَائِلُ
فَلَسْتَ تَرَى شَيْئًا أَدَلَّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ دَلَالَةِ المخلوقاتِ عَلَى صِفَاتِ
خَالِقِهَا ، وَنُعُوتِ كَمَالِهِ ، وَحَقَائِقِ أَسْمَائِهِ ، وَقَدْ تَنَوَّعَتْ أَدِلَّتُهَا بِحَسَبِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٣٩) ، وَمُسْلِمٌ (١٨٢) .

تَنَوُّعِهَا ، فَهِيَ تَدُلُّ عَقْلًا وَحِسًّا ، وَفِطْرَةً وَنَظْرًا ، وَاعْتِبَارًا .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ :

الثَّالِثُ : عَدَمُ تَشْبِيهِهَا بِمَا لِلْمَخْلُوقِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، لَا فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ، فَالْعَارِفُونَ بِهِ ، الْمُصَدِّقُونَ لِرُسُلِهِ ، الْمُقَرُّونَ بِكَمَالِهِ : يُثْبِتُونَ لَهُ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ مُشَابَهَةَ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ ، وَبَيْنَ التَّنْزِيهِ وَعَدَمِ التَّعْطِيلِ ، فَمَذْهَبُهُمْ حَسَنَةٌ بَيْنَ سَيِّئَتَيْنِ ، وَهَدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ ، فَصَرَّاطُهُمُ صَرَّاطُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ ، وَصَرَّاطُ غَيْرِهِمْ صَرَّاطُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَا نُزِيلُ عَنْ اللَّهِ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ ، لِأَجْلِ شِنَاعَةِ الْمُشَنِّعِينَ ، وَقَالَ : التَّشْبِيهُ : أَنْ تَقُولَ يَدٌ كَيْدِي ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

الْعَمَلُ بِالْأَسْبَابِ :

وَنَحْنُ نَقُولُ : إِنَّ الدِّينَ هُوَ إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ ، وَالْوُقُوفُ مَعَهَا ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهَا ، وَالْإِلْتِفَاتُ إِلَيْهَا ، وَإِنَّهُ لَا دِينَ إِلَّا بِذَلِكَ .

بِالْأَسْبَابِ عُرِفَ اللَّهُ :

وَبِالْأَسْبَابِ عُرِفَ اللَّهُ ، وَبِهَا عُبِدَ اللَّهُ ، وَبِهَا أُطِيعَ اللَّهُ ، وَبِهَا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ الْمُتَقَرَّبُونَ ، وَبِهَا نَالَ أَوْلِيَاؤُهُ رِضَاهُ وَجِوَارُهُ فِي جَنَّتِهِ ، وَبِهَا نُصِرَ حِزْبُهُ

وَدِينُهُ ، وَأَقَامُوا دَعْوَتَهُ ، وَبِهَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ وَشَرَعَ شَرَائِعَهُ ، وَبِهَا انْقَسَمَ
النَّاسُ إِلَى سَعِيدٍ وَشَقِيٍّ ، وَمُهْتَدٍ وَغَوِيٍّ ، فَالْوُقُوفُ مَعَهَا وَالْإِلْتِفَاتُ
إِلَيْهَا وَالنَّظَرُ إِلَيْهَا : هُوَ الْوَاجِبُ شَرْعًا ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ قَدَرًا ، وَلَا تَكُنْ
مَنْ غَلِظَ حِجَابَهُ ، وَكَثَفَ طَبْعَهُ فَيَقُولُ : لَا نَقِفُ مَعَهَا وَنُقُوفَ مَنْ يَعْتَقِدُ
أَنَّهَا مُسْتَقَلَّةٌ بِالْإِحْدَاثِ وَالتَّأْثِيرِ ، وَأَنَّهَا أَرْبَابٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ وَجَدْتَ
أَحَدًا يَزْعُمُ ذَلِكَ ، وَيَظُنُّ أَنَّهَا أَرْبَابٌ ، وَآلِهَةٌ مَعَ اللَّهِ مُسْتَقَلَّةٌ بِالْإِيجَادِ ، أَوْ
أَنَّهَا عَوْنُ اللَّهِ يَحْتَاجُ فِي فِعْلِهِ إِلَيْهَا ، أَوْ أَنَّهَا شُرَكَاءُ لَهُ : فَشَأْنُكَ بِهِ ، فَمَزَّقْ
أَدِيمَهُ ، وَتَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بَعْدَاوَتِهِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَإِلَّا فَمَا هَذَا النَّفْيُ لِمَا
أَثْبَتَهُ اللَّهُ ؟ وَالْإِلْغَاءُ لِمَا اعْتَبَرَهُ ؟ ، وَالْإِهْدَارُ لِمَا حَقَّقَهُ ؟ ، وَالْحَطُّ وَالْوَضْعُ
لِمَا نَصَبَهُ ؟ ، وَالْمَحْوُ لِمَا كَتَبَهُ ؟ ، وَالْعَزْلُ لِمَا وَلَّاهُ ؟ ، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ
تَعَزَّلُهَا عَنْ رُتْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَنْ وَلَّاهَا هَذِهِ الرُّتْبَةَ حَتَّى تَجْعَلَ
سَعْيِكَ فِي عَزْلِهَا عَنْهَا ؟ .

وَيَا اللَّهَ مَا أَجْهَلَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالتَّصَوُّفِ ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ
عِنْدَهُمْ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ إِلَّا بِالْغَائِبِ وَمَحْوِهَا ، وَإِهْدَارِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ قُوَى وَلَا طِبَاعَ ، وَلَا غَرَائِزَ لَهَا تَأْثِيرُ مُوجِبَةٍ مَا ،
وَلَا فِي النَّارِ حَرَارَةً وَلَا إِحْرَاقًا ، وَلَا فِي الدَّوَاءِ قُوَّةٌ مُذْهِبَةٌ لِلدَّاءِ ، وَلَا
فِي الْخُبْزِ قُوَّةٌ مُشْبَعَةٌ ، وَلَا فِي الْمَاءِ قُوَّةٌ مُرَوِّيَّةٌ ، وَلَا فِي الْعَيْنِ قُوَّةٌ بَاصِرَةٌ ،
وَلَا فِي الْأَنْفِ قُوَّةٌ شَامَّةٌ ، وَلَا فِي السَّمِّ قُوَّةٌ قَاتِلَةٌ ، وَلَا فِي الْحَدِيدِ قُوَّةٌ

قَاطِعَةً؟ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا بِشَيْءٍ ، وَلَا فَعَلَ شَيْئًا لِأَجْلِ شَيْءٍ .

فَهَذَا غَايَةُ تَوْحِيدِهِمُ الَّذِي يُحْمَوْنَ حَوْلَهُ ، وَيُبَالِغُونَ فِي تَقْرِيرِهِ .

فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَضْحَكُوا عَلَيْهِمُ الْعُقَلَاءُ ، وَأَشْمَتُوا بِهِمُ الْأَعْدَاءُ ، وَنَهَجُوا لِأَعْدَاءِ الرُّسُلِ طَرِيقَ إِسَاءَةِ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَجَنَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ أَعْظَمَ جَنَایَةٍ ، وَقَالُوا : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، الْمُوَكَّلُونَ بِكُسْرِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَعْدَاءِ الرُّسُلِ ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ كَسَرُوا الدِّينَ وَسَلَّطُوا عَلَيْهِ الْمُبْطِلِينَ ، وَقَدْ قِيلَ : إِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْجَاهِلِ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ .

التَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى : قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوِّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٥٩] ، وَقَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٦٥] ، وَقَالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٧٣] ، وَقَالَ شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٨٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [التَّحْلُفُ: ٣٦] .

التَّوْحِيدُ مِفْتَاحُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ :

فَالْتَّوْحِيدُ : مِفْتَاحُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرَسُولِهِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ - : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ : عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » ^(١) ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » ^(٢) .

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ : أَنْ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمَكْلَفِ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لَا النَّظَرُ ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ ، وَلَا الشَّكُّ - كَمَا هِيَ أَقْوَالُ لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ .

فَالْتَّوْحِيدُ : أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَآخِرُ مَا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(٣) ، فَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ ، وَآخِرُ وَاجِبٍ ، فَالْتَّوْحِيدُ :

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤) ، وَمُسْلِمٌ (١١) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢) .

(٣) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (٣١١٦) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٢٦٧٣) .

أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ .

التَّعَلُّقُ بِالْأَسْبَابِ تَعَلُّقًا زَائِدًا نَوْعٌ مِنَ الشَّرِكِ :

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : الْإِلْتِفَاتُ إِلَى الْأَسْبَابِ شَرِكٌ فِي التَّوْحِيدِ ، وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ - أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا - تَغْيِيرٌ فِي وَجْهِ الْعَقْلِ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ : قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ ، وَالتَّوَكُّلُ مَعْنَى يَلْتَمِسُ مِنْ مَعْنَى التَّوْحِيدِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ .

وَهَذَا الْكَلَامُ يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ وَتَقْيِيدٍ ، فَالِإِلْتِفَاتُ إِلَى الْأَسْبَابِ ضَرْبَانِ ، أَحَدُهُمَا : شَرِكٌ ، وَالْآخَرُ : عُبودِيَّةٌ وَتَوْحِيدٌ ، فَالشَّرِكُ : أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا وَيَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا ، وَيَعْتَقِدَ أَنَّهَا بِذَاتِهَا مُحْصِلَةٌ لِلْمَقْصُودِ ، فَهُوَ مُعْرِضٌ عَنِ السَّبَبِ لَهَا ، وَيَجْعَلُ نَظْرَهُ وَالتَّفَاتَهُ مَقْصُورًا عَلَيْهَا ، وَأَمَّا إِنْ التَّفَتَ إِلَيْهَا التَّفَاتَ امْتِثَالٍ وَقِيَامَ بِهَا وَأَدَاءٍ لِحَقِّ الْعُبودِيَّةِ فِيهَا ، وَإِنْزَالِهَا مَنَازِلَهَا : فَهَذَا الْإِلْتِفَاتُ عُبودِيَّةٌ وَتَوْحِيدٌ ، إِذْ لَمْ يَشْغَلْهُ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْمُسَبَّبِ .

حَالُ الْمُتَوَكِّلِ مَعَ الْأَسْبَابِ :

الْمُتَوَكِّلُ : لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْأَسْبَابِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَلَا يَرْجُوهَا وَلَا يَخَافُهَا ، فَلَا يَرْكُنُ إِلَيْهَا ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا - بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا

يُسْقَطُهَا وَلَا يُهْمِلُهَا وَيُلْغِيهَا - بَلْ يَكُونُ قَائِمًا بِهَا ، مُلْتَفِتًا إِلَيْهَا ، نَاطِرًا
إِلَى مُسَبِّبِهَا سُبْحَانَهُ وَمُجْرِيهَا ، فَلَا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ - شَرْعًا وَعَقْلًا - إِلَّا
عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ .



الاعتصام بالسنة



لِمَنْ ضُمِنَتِ النَّجَاةُ :

وَأِنَّمَا ضُمِنَتِ النَّجَاةُ لِمَنْ حَكَمَ هُدَى اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَتَزَوَّدَ التَّقْوَى وَاتَّكَمَ بِالذَّلِيلِ، وَسَلَكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْوَحْيِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ صِرَاطُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ :

وَلَمَّا كَانَ طَالِبُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ طَالِبَ أَمْرٍ أَكْثَرُ النَّاسِ نَاكِبُونَ عَنْهُ، مُرِيدًا لِسُلُوكِ طَرِيقٍ مُرَافِقُهُ فِيهَا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ وَالْعِزَّةِ، وَالنَّفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى وَحْشَةِ التَّفَرُّدِ، وَعَلَى الْأُنْسِ بِالرَّفِيقِ، نَبَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الرَّفِيقِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَأَنَّهُمْ هُمْ ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فَأَضَافَ الصِّرَاطَ إِلَى الرَّفِيقِ السَّالِكِينَ لَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لِيُزُولَ عَنِ الطَّالِبِ لِلْهُدَايَةِ وَسُلُوكِ الصِّرَاطِ وَحْشَةُ تَفَرُّدِهِ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَبَنِي جَنْسِهِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ رَفِيقَهُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ هُمْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَكْتَرِثُ بِمُخَالَفَةِ النَّاكِبِينَ عَنْهُ لَهُ، فَإِنَّهُمْ

هُمُ الْأَقْلُونَ قَدْرًا، وَإِنْ كَانُوا الْأَكْثَرِينَ عَدَدًا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «عَلَيْكَ بِطَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا تَسْتَوْحِشْ لِقَلَّةِ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الْبَاطِلِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ»، وَكُلَّمَا اسْتَوْحِشْتَ فِي تَفَرُّدِكَ فَانْظُرْ إِلَى الرَّفِيقِ السَّابِقِ، وَاحْرِضْ عَلَى اللَّحَاقِ بِهِمْ، وَغُضِّ الطَّرْفَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِذَا صَاحُوا بِكَ فِي طَرِيقِ سَيْرِكَ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ مَتَى التَفَتَ إِلَيْهِمْ أَخَذُوكَ وَعَاقُوكَ.

وَقَدْ ضَرَبْتُ لِدَلِكْ مَثَلَيْنِ، فَلْيَكُونَا مِنْكَ عَلَى بَالٍ:

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: رَجُلٌ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، لَا يُرِيدُ غَيْرَهَا، فَعَرَضَ لَهُ فِي طَرِيقِهِ شَيْطَانٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ كَلَامًا يُؤْذِيهِ، فَوَقَّفَ وَرَدَّ عَلَيْهِ، وَتَمَسَّكَ، فَرُبَّمَا كَانَ شَيْطَانُ الْإِنْسِ أَقْوَى مِنْهُ، فَقَهَرَهُ، وَمَنَعَهُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ، حَتَّى فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ، وَرُبَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَقْوَى مِنْ شَيْطَانِ الْإِنْسِ، وَلَكِنْ اشْتَغَلَ بِمُهَاوَشَتِهِ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَكَمَالَ إِدْرَاكِ الْجَمَاعَةِ، فَإِنْ التَفَتَ إِلَيْهِ أَطْمَعَهُ فِي نَفْسِهِ، وَرُبَّمَا فَتَرَتْ عَزِيمَتُهُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَعْرِفَةٌ وَعِلْمٌ زَادَ فِي السَّعْيِ وَالْجَمْرِ بِقَدْرِ التَّفَاتِهِ أَوْ أَكْثَرَ، فَإِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَاشْتَغَلَ لِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَخَافَ فَوْتَ الصَّلَاةِ أَوْ الْوَقْتِ لَمْ يَبْلُغْ عَدُوَّهُ مِنْهُ مَا شَاءَ.

الْمَثَلُ الثَّانِي: الظَّبْيُ أَشَدُّ سَعْيًا مِنَ الْكَلْبِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا أَحَسَّ بِهِ التَّفَتَ

إِلَيْهِ فَيَضَعُ سَعْيَهُ، فَيَذَرُ الْكَلْبُ فَيَأْخُذُهُ.

وَالْقَصْدُ: أَنَّ فِي ذِكْرِ هَذَا الرَّفِيقِ مَا يُزِيلُ وَحْشَةَ التَّفَرُّدِ، وَيُحِثُّ عَلَى السَّيْرِ وَالشَّمِيرِ لِلْحَاقِ بِهِمْ.

الفائدة الأولى : وَهَذِهِ إِحْدَى الْفَوَائِدِ فِي دُعَاءِ الْقُنُوتِ « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ » ^(١) أَيِ ادْخِلْنِي فِي هَذِهِ الزُّمَرَةِ، وَاجْعَلْنِي رَفِيقًا لَهُمْ وَمَعَهُمْ.

والفائدة الثانية: أَنَّهُ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِنِعْمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْهَدَايَةِ ، أَيِ: قَدْ أَنْعَمْتَ بِالْهَدَايَةِ عَلَى مَنْ هَدَيْتَ، وَكَانَ ذَلِكَ نِعْمَةً مِنْكَ، فَاجْعَلْ لِي نَصِيبًا مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَاجْعَلْنِي وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِإِحْسَانِهِ.

والفائدة الثالثة: كَمَا يَقُولُ السَّائِلُ لِلكَرِيمِ: تَصَدَّقْ عَلَيَّ فِي جُمْلَةٍ مَنْ تَصَدَّقْتَ عَلَيْهِمْ، وَعَلَّمْنِي فِي جُمْلَةٍ مَنْ عَلَّمْتَهُ، وَأَحْسِنْ إِلَيَّ فِي جُمْلَةٍ مَنْ شَمِلْتَهُ بِإِحْسَانِكَ.

أسباب ظهور الكرامات بعد عصر الصحابة :

وَنَظِيرُ هَذَا الْكَرَامَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ بَعْدَ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَلَمْ تَظْهَرْ

(١) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَهَ» (٩٦٧) وَ«صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١٢٦٣) .

عَلَيْهِمْ، لَاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا بِقُوَّةِ إِيْمَانِهِمْ، وَاحْتِيَاج مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَيْهَا لَضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ، وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَقَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ: رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ كَلَامٌ يُكَلِّمُ بِهِ الرَّبُّ عَبْدَهُ فِي الْمَنَامِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، قِيلَ: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ » ^(١)، وَإِذَا تَوَاطَّاتِ رُؤْيَا الْمُسْلِمِينَ لَمْ تَكْذِبْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَصْحَابِهِ لَمَّا أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، قَالَ: « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَّاتِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَحَرِّيًا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » ^(٢).

أقسامُ الرؤيا :

وَالرُّؤْيَا كَالْكَشْفِ، مِنْهَا رَحْمَانِيٌّ، وَمِنْهَا نَفْسَانِيٌّ، وَمِنْهَا شَيْطَانِيٌّ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يَحْدُثُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسُهُ فِي الْيَقَظَةِ، فَيَرَاهُ فِي الْمَنَامِ » ^(٣).

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٩٠)، بِدُونِ «يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ» وَمَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ (٩٥٧/٢).

(٢) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥٨)، وَمُسْلِمٌ (١١٦٥).

(٣) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠١٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٦٣).

وَالَّذِي هُوَ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ: هُوَ الرَّؤْيَا الَّتِي مِنَ اللَّهِ خَاصَّةً.
وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٍ، فَإِنَّهَا مَعْصُومَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا بِاتِّفَاقِ
الْأُمَّةِ، وَلِهَذَا أَقْدَمَ الْخَلِيلُ عَلَى ذَنْبِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -
بِالرُّؤْيَا.

وَأَمَّا رُؤْيَا غَيْرِهِمْ فَتُعْرَضُ عَلَى الْوَحْيِ الصَّرِيحِ، فَإِنْ وَافَقَتْهُ وَإِلَّا لَمْ
يُعْمَلْ بِهَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ إِذَا كَانَتْ رُؤْيَا صَادِقَةً، أَوْ تَوَاطَأَتْ ؟
قُلْنَا: مَتَى كَانَتْ كَذَلِكَ اسْتَحَالَ مُخَالَفَتُهَا لِلْوَحْيِ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا
مُطَابَقَةً لَهُ، مُنْبَهَةً عَلَيْهِ، أَوْ مُنْبَهَةً عَلَى انْدِرَاجِ قَضِيَّةٍ خَاصَّةٍ فِي حُكْمِهِ،
لَمْ يَعْرِفِ الرَّائِي انْدِرَاجَهَا فِيهِ، فَيَتَّبِعُ بِالرُّؤْيَا عَلَى ذَلِكَ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ
تُصَدَّقَ رُؤْيَاهُ فَلْيَتَحَرَّ الصَّدَقَ وَأَكْلَ الْحَلَالِ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى الْأَمْرِ
وَالنَّهْيِ، وَلْيَنْمِ عَلَى طَهَارَةٍ كَامِلَةٍ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَيَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَغْلِبَهُ
عَيْنَاهُ، فَإِنَّ رُؤْيَاهُ لَا تَكَادُ تَكْذِبُ الْبَتَّةَ.

أَصْدَقُ الرُّؤْيَا :

وَأَصْدَقُ الرُّؤْيَا: رُؤْيَا الْأَسْحَارِ، فَإِنَّهُ وَقْتُ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، وَاقْتِرَابِ
الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَسُكُونِ الشَّيَاطِينِ، وَعَكْسُهُ رُؤْيَا الْعَتَمَةِ، عِنْدَ انْتِشَارِ
الشَّيَاطِينِ وَالْأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَقَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ - : رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ كَلَامٌ يُكَلِّمُ بِهِ الرَّبُّ عَبْدَهُ فِي الْمَنَامِ.

لَا يُعْبَرُ الرُّؤْيَا إِلَّا عَالِمٌ بِالتَّأْوِيلِ :

وَلِلرُّؤْيَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهَا، يُرِيهَا الْعَبْدَ فِي أَمْثَالٍ تُنَاسِبُهُ وَتُشَاكِلُهُ،
فَيُضَرِّبُهَا لِكُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِهِ، وَقَالَ مَالِكٌ: «الرُّؤْيَا مِنَ الْوَحْيِ وَخِي»،
وَزَجَرَ عَنْ تَفْسِيرِهَا بِلَا عِلْمٍ، وَقَالَ: أَتَتَلَاعَبُ بِوَحْيِ اللَّهِ؟ .
وَلَذَكَرَ الرُّؤْيَا وَأَحْكَامَهَا وَتَفَاصِيلَهَا وَطُرُقَ تَأْوِيلِهَا مَظَانَّ مَخْصُوصَةً
بِهَا، يُخْرِجُنَا ذِكْرُهَا عَنِ الْمَقْصُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَهْلُ الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ :

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُتَحَقِّقًا بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إِلَّا بِأَصْلَيْنِ
عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَالثَّانِي: الْإِخْلَاصُ لِلْمَعْبُودِ، فَهَذَا تَحْقِيقُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

وَالنَّاسُ مُنْقَسِمُونَ بِحَسَبِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ أَيْضًا إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: أَهْلُ الْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ وَالْمُتَابَعَةِ، وَهُمْ أَهْلُ ﴿إِيَّاكَ
نَعْبُدُ﴾ حَقِيقَةً، فَأَعْمَاهُمْ كُلُّهَا اللَّهُ، وَأَقْوَاهُمْ اللَّهُ، وَعَطَاؤُهُمْ لِلَّهِ،
وَمَنْعُهُمْ لِلَّهِ، وَحُبُّهُمْ لِلَّهِ، وَبُغْضُهُمْ لِلَّهِ، فَمَعَامَلَتُهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لَوَجْهِ

الله وَحْدَهُ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ مِنَ النَّاسِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَلَا ابْتِغَاءَ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ، وَلَا طَلَبَ الْمُحَمَّدَةِ، وَالْمُنْزِلَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَا هَرَبًا مِنْ ذَمِّهِمْ، بَلْ قَدْ عَدُّوا النَّاسَ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿٣﴾ [الْفُرْقَان: ٣] ، فَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ، وَابْتِغَاءُ الْجَاهِ وَالْمُنْزِلَةَ عِنْدَهُمْ، وَرَجَاؤُهُمْ لِلضَّرِّ وَالنَّفْعِ مِنْهُمْ لَا يَكُونُ مِنْ عَارِفٍ بِهِمُ الْبَيِّنَةِ، بَلْ مِنْ جَاهِلٍ بِشَأْنِهِمْ، وَجَاهِلٍ بِرَبِّهِ، فَمَنْ عَرَفَ النَّاسَ أَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَخْلَصَ لَهُ أَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ، وَعَطَاءَهُ وَمَنْعَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ، وَلَا يُعَامِلُ أَحَدَ الْخَلْقِ دُونَ اللَّهِ إِلَّا لَجَهْلِهِ بِاللَّهِ وَجَهْلِهِ بِالْخَلْقِ، وَإِلَّا فَإِذَا عَرَفَ اللَّهُ وَعَرَفَ النَّاسَ أَثَرَ مُعَامَلَةِ اللَّهِ عَلَى مُعَامَلَتِهِمْ.

وَكَذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا وَعِبَادَتُهُمْ مُوَافَقَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَلِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ عَامِلٍ سِوَاهُ، وَهُوَ الَّذِي بَلَىٰ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ لِأَجَلِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الْمَلِك: ٢] ، وَجَعَلَ مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيُخْتَبَرَهُمْ آيَاتُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- :

الْعَمَلُ الْحَسَنُ هُوَ أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ، قَالُوا : يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ

وَأَصُوبُهُ ؟ ، قَالَ : إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا ، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا ، وَالْخَالِصُ : مَا كَانَ لِلَّهِ ، وَالصَّوَابُ : مَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء : ١٢٥] ، فَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ ، عَلَى مُتَابَعَةِ أَمْرِهِ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى عَامِلِهِ ، يُرَدُّ عَلَيْهِ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ هَبَاءً مَثُورًا .

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » ^(١) ، وَكُلُّ عَمَلٍ بِلَا اقْتِدَاءٍ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ عَامِلَهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعْبَدُ بِأَمْرِهِ ، لَا بِالْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ .

مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ :

الضَرْبُ الثَّانِي : مَنْ لَا إِخْلَاصَ لَهُ وَلَا مُتَابَعَةَ ، فَلَيْسَ عَمَلُهُ مُوَافِقًا لَشَرْعٍ ، وَلَيْسَ هُوَ خَالِصًا لِلْمَعْبُودِ ، كَأَعْمَالِ الْمُتَزَيِّنِينَ لِلنَّاسِ ، الْمُرَائِينَ لَهُمْ بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَهَؤُلَاءِ شِرَارُ الْخَلْقِ ، وَأَمَقَّتْهُمْ إِلَى اللَّهِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٩٧) ، وَمُسْلِمٌ (١٧١٨) .

-عَزَّ وَجَلَّ-، وَلَهُمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] ، يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ وَالشَّرِّكِ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَهَذَا الضَّرْبُ يَكْثُرُ فِيمَنْ انْحَرَفَ مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْفَقْرِ وَالْعِبَادَةِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ الْبِدْعَ وَالضَّلَالَاتِ، وَالرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوهُ مِنَ الْإِتِّبَاعِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِلْمِ، فَهُمْ أَهْلُ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ.

مَنْ أَخْلَصَ فِي أَعْمَالِهِ بِلا مُتَابَعَةٍ :

الضَّرْبُ الثَّلَاثُ : مَنْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي أَعْمَالِهِ، لَكِنَّهَا عَلَى غَيْرِ مُتَابَعَةٍ الْأَمْرِ، كَجُهَاالِ الْعِبَادِ، وَالْمُتَسَبِّينَ إِلَى طَرِيقِ الزُّهْدِ وَالْفَقْرِ، وَكُلِّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، وَاعْتَقَدَ عِبَادَتَهُ هَذِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ فَهَذَا حَالُهُ، كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ سَمَاعَ الْمَكَاءِ وَالتَّصَدِيقَةَ قُرْبَةً، وَأَنَّ الْخُلُوةَ الَّتِي يَتْرُكُ فِيهَا الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ قُرْبَةً، وَأَنَّ مُوَاصَلَةَ صَوْمِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ قُرْبَةً، وَأَنَّ صِيَامَ يَوْمٍ فِطْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ قُرْبَةً، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

مَنْ أَعْمَالُهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ وَالنَّفْيِ لَكِنَّا لَغَيْرِ اللَّهِ :

الضَرْبُ الرَّابِعُ: مَنْ أَعْمَالُهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ، لَكِنَّا لَغَيْرِ اللَّهِ، كَطَاعَةِ الْمُرَائِنِ، وَكَالرَّجُلِ يُقَاتِلُ رِيَاءً وَحَمِيَّةً وَشَجَاعَةً، وَيُحْجُّ لِيُقَالَ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ، فَهَؤُلَاءِ أَعْمَالُهُمْ ظَاهِرُهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ مَأْمُورٌ بِهَا، لَكِنَّا لَغَيْرِ صَالِحَةٍ، فَلَا تُقْبَلُ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]، فَكُلُّ أَحَدٍ لَمْ يُؤْمَرْ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ بِمَا أُمِرَ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَهُمْ أَهْلُ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ :

وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فَهُوَ أَشَدُّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا، وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا، وَلِهَذَا ذَكَرَ فِي الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَدْيَانُ، وَلَا تُبَاحُ بِحَالٍ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً، وَلَيْسَتْ كَالْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَلَحْمِ الْخَنْزِيرِ، الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ.

فَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ نَوْعَانِ: مُحَرَّمٌ لِدَاثِهِ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ، وَمُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا عَارِضًا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى- فِي الْمُحَرَّمِ لِدَاثِهِ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿ وَالْأَيْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا

لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴿ [الْأَعْرَافُ : ٣٣] ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [الْأَعْرَافُ : ٣٣] ، فَهَذَا أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ اللَّهِ وَأَشَدُّهَا إِثْمًا ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ ، وَنَسْبَتَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَتَغْيِيرَ دِينِهِ وَتَبْدِيلَهُ ، وَنَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ وَإِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ ، وَتَحْقِيقَ مَا أَبْطَلَهُ وَإِبْطَالَ مَا حَقَّقَهُ ، وَعَدَاوَةَ مَنْ وَالَاهُ وَمَوَالَاةَ مَنْ عَادَاهُ ، وَحُبَّ مَا أَبْغَضَهُ وَبُغْضَ مَا أَحَبَّهُ ، وَوَصْفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

فَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْمُحَرَّمَاتِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُ ، وَلَا أَشَدُّ إِثْمًا ، وَهُوَ أَصْلُ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدْعُ وَالضَّلَالَاتُ ، فَكُلُّ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ فِي الدِّينِ أَسَاسُهَا الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ .

التَّحْذِيرُ مِنَ الْبِدْعِ :

وَلِهَذَا اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لَهَا ، وَصَاحُوا بِأَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَحَذَرُوا فَتَنَتَهُمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ ، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يُبَالَغُوا مِثْلَهُ فِي إِنْكَارِ الْفَوَاحِشِ ، وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، إِذْ مَضَرَّةُ الْبِدْعِ وَهَدْمُهَا لِلدِّينِ وَمُنَافَاتُهَا لَهُ أَشَدُّ ، وَقَدْ أَنْكَرَ - تَعَالَى - عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى دِينِهِ تَحْلِيلَ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمَهُ مِنْ عِنْدِهِ ، بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللَّهِ ، فَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾

لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴿١١٦﴾ [النحل: ١١٦].

فَكَيْفَ بَمَنْ نَسَبَ إِلَى أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ؟
أَوْ نَفَى عَنْهُ مِنْهَا مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؟

قَالَ بَعْضُ السَّالِفِ: لِيَحْذَرَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللَّهُ كَذَا، وَحَرَّمَ
اللَّهُ كَذَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، لَمْ أَحِلَّ هَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا.

يَعْنِي التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ، بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ أَصْلُ الشِّرْكِ:

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ هُوَ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، فَإِنَّ الْمَشْرُكَ
يَزْعُمُ أَنَّ مَنْ اتَّخَذَهُ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ، وَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ،
وَيَقْضِي حَاجَتَهُ بِوِاسِطَتِهِ، كَمَا تَكُونُ الْوَسَائِطُ عِنْدَ الْمُلُوكِ، فَكُلُّ مُشْرِكٍ
قَائِلٌ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، دُونَ الْعَكْسِ، إِذِ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ قَدْ
يَتَضَمَّنُ التَّعْطِيلَ وَالْإِبْتِدَاعَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشِّرْكِ، وَالشِّرْكَ
فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُوجِبًا
لِدُخُولِ النَّارِ، وَاتِّخَاذِ مَنْزِلَةٍ مِنْهَا مَبُوءًا، وَهُوَ الْمَنْزِلُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا
يُفَارِقُهُ صَاحِبُهُ، لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، كَصَرِيحِ الْكَذِبِ
عَلَيْهِ، لِأَنَّ مَا انْصَافَ إِلَى الرَّسُولِ فَهُوَ مُصَافٌ إِلَى الْمُرْسِلِ، وَالْقَوْلُ عَلَى

الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ [الأنعام: ٢١] .

التَّوْبَةُ مِنَ الْبِدْعِ :

فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدْعِ كُلِّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ فَلَا تَحَقِّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدْعِ.

وَأَنْتَ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لَمْ يَعْلمْ أَنَّهَا بَدْعَةٌ، أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً، فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَحْضُرُ عَلَيْهَا ؟ فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا إِلَّا بِتَضْلُعِهِ مِنَ السُّنَّةِ، وَكَثْرَةِ اطِّلاعِهِ عَلَيْهَا، وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا، وَلَا تَرَى صَاحِبَ بَدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا.

فَإِنَّ السُّنَّةَ بِالذَّاتِ تَمَحُّقُ الْبَدْعَةَ، وَلَا تَقُومُ لَهَا، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسُهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَابٌ كُلُّ بَدْعَةٍ، وَأَزَالَتْ ظُلْمَةَ كُلِّ ضَلَالَةٍ، إِذْ لَا سُلْطَانَ لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَى الْعَبْدُ الْفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبَدْعَةِ، وَيُعِينُهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَتِهَا إِلَى نُورِ السُّنَّةِ إِلَّا الْمُتَابِعَةُ، وَالْهَجْرَةُ بِقَلْبِهِ كُلِّ وَقْتٍ إِلَى اللَّهِ، بِالِاسْتِعَانَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَصَدَقَ اللَّجْأُ إِلَى اللَّهِ، وَالْهَجْرَةُ إِلَى رَسُولِهِ، بِالْحَرَصِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ حَظُهُ وَنَصِيبُهُ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الإِعْتِصَامُ بِاللَّهِ :

وَأَمَّا الإِعْتِصَامُ بِهِ : فَهُوَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ، وَالامْتِنَاعُ بِهِ ، وَالِاخْتِمَاءُ بِهِ ، وَسُؤَالُهُ أَنْ يَحْمِيَ الْعَبْدَ وَيَمْنَعَهُ ، وَيَعْصِمَهُ وَيُدْفِعَ عَنْهُ ، فَإِنَّ ثَمَرَةَ الإِعْتِصَامِ بِهِ : هُوَ الدَّفْعُ عَنِ الْعَبْدِ ، وَاللَّهُ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، فَيُدْفِعُ عَنْ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا اعْتَصَمَ بِهِ ، كُلُّ سَبَبٍ يُفْضِي بِهِ إِلَى الْعَطَبِ ، وَيَحْمِيهِ مِنْهُ ، فَيُدْفِعُ عَنْهُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَكَيْدَ عَدُوِّهِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، وَشَرَّ نَفْسِهِ ، وَيُدْفِعُ عَنْهُ مُوجِبُ أَسْبَابِ الشَّرِّ بَعْدَ انْعِقَادِهَا ، بِحَسَبِ قُوَّةِ الإِعْتِصَامِ بِهِ وَتَمَكُّنِهِ ، فَتَفْقَدُ فِي حَقِّهِ أَسْبَابَ الْعَطَبِ ، فَيُدْفِعُ عَنْهُ مُوجِبَاتِهَا وَمُسَبِّبَاتِهَا ، وَيُدْفِعُ عَنْهُ قَدْرَهُ بِقَدْرِهِ ، وَإِرَادَتِهِ بِإِرَادَتِهِ ، وَيُعِينُهُ بِهِ مِنْهُ .

تَحْكِيمُ الْوَحْيِ :

أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ النَّزَاعُ فِي حُكْمِ فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ ، أَوْ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، أَوْ ذَوْقٍ مِنَ الْأَذْوَاقِ ، هَلْ هُوَ صَحِيحٌ أَوْ فَاسِدٌ ؟ ، وَحَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ ؟ ، وَجَبَ الرُّجُوعُ فِيهِ إِلَى الْحُجَّةِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهِيَ وَحْيُهُ الَّذِي تُتْلَى أَحْكَامُ النَّوَازِلِ وَالْأَحْوَالِ وَالْوَارِدَاتِ مِنْهُ ، وَتُعْرَضُ عَلَيْهِ وَتُوزَنُ بِهِ ، فَمَا زَكَاهُ مِنْهَا وَقَبْلَهُ وَرَجَحَهُ وَصَحَّحَهُ فَهُوَ

الْمَقْبُولُ، وَمَا أَبْطَلَهُ وَرَدَّهُ فَهُوَ الْبَاطِلُ الْمَرْدُودُ، وَمَنْ لَمْ يَنْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ عِلْمَهُ وَسُلُوكَهُ وَعَمَلَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، وَإِنْ وَإِنْ، وَإِنَّمَا مَعَهُ خُدَعٌ وَغُرُورٌ ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ﴾ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ [التَّوْبَةُ: ٣٩].

الْحُكْمُ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ :

إِذَا أَشْكَلَ عَلَى النَّازِرِ أَوْ السَّالِكِ حُكْمُ شَيْءٍ هَلْ هُوَ الْإِبَاحَةُ أَوْ التَّحْرِيمُ ؟ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَفْسَدَتِهِ وَثَمَرَتِهِ وَغَايَتِهِ، فَإِنْ كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى مَفْسَدَةٍ رَاجِحَةٍ ظَاهِرَةٍ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى الشَّارِعِ الْأَمْرُ بِهِ أَوْ إِبَاحَتُهُ، بَلِ الْعِلْمُ بِتَحْرِيمِهِ مِنْ شَرْعِهِ قَطْعِيٌّ .

الِاِقْتِصَادُ فِي الْعَمَلِ وَالِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ :

وَالسَّلَفُ يَذْكُرُونَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ كَثِيرًا - وَهُمَا الْاِقْتِصَادُ فِي الْأَعْمَالِ، وَالِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ - فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَشُمُّ قَلْبَ الْعَبْدِ وَيَخْتَبِرُهُ، فَإِنْ رَأَى فِيهِ دَاعِيَةً لِلْبِدْعَةِ ، وَإِعْرَاضًا عَنْ كَمَالِ الْاِنْقِيَادِ لِلْسُّنَّةِ: أَخْرَجَهُ عَنِ الْاِعْتِصَامِ بِهَا ، وَإِنْ رَأَى فِيهِ حِرْصًا عَلَى السُّنَّةِ ، وَشِدَّةَ طَلَبٍ لَهَا: لَمْ يَظْفَرْ بِهِ مِنْ بَابِ اِقْتِطَاعِهِ عَنْهَا ، فَأَمَرَهُ بِالِاجْتِهَادِ ، وَالْجُورِ عَلَى النَّفْسِ، وَمُجَاوِزَةَ حَدِّ الْاِقْتِصَادِ فِيهَا ، قَائِلًا لَهُ: إِنَّ هَذَا خَيْرٌ وَطَاعَةٌ.

وَالزِّيَادَةُ وَالاجْتِهَادُ فِيهَا أَكْمَلُ ، فَلَا تَفُتِّرْ مَعَ أَهْلِ الْفُتُورِ ، وَلَا تَنَمْ مَعَ أَهْلِ النَّوْمِ ، فَلَا يَزَالُ يُحْتَبُّ وَيُحَرِّضُهُ ، حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنِ الْاِقْتِصَادِ فِيهَا ، فَيُخْرِجَ عَنْ حَدِّهَا ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ خَارِجٌ هَذَا الْحَدِّ ، فَكَذَا هَذَا الْآخَرَ خَارِجٌ عَنِ الْحَدِّ الْآخَرِ .

وَهَذَا حَالُ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ يَحْقِرُ أَهْلُ الْاِسْتِقَامَةِ صَلَاتَهُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ ، وَصِيَامَهُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ ، وَقِرَاءَتَهُمْ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ خُرُوجٌ عَنِ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ ، لَكِنَّ هَذَا إِلَى بِدْعَةِ التَّفْرِيطِ ، وَالْإِضَاعَةِ ، وَالْآخَرَ إِلَى بِدْعَةِ الْمَجَاوِزَةِ وَالْإِسْرَافِ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزَعَتَانِ ، إِمَّا إِلَى تَفْرِيطٍ ، وَإِمَّا إِلَى مُجَاوِزَةٍ ، وَهِيَ الْإِفْرَاطُ ، وَلَا يُبَالِي بَايَهُمَا ظَفَرُ : زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ .

الطَّرِيقُ إِلَى الْحِكْمَةِ :

قَالَ أَبُو عَثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا : نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ ، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَىٰ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا : نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [التَّوْرَةُ: ٥٤] .

طريقُ الحق :

قَالَ أَبُو حَمْزَةَ الْبَغْدَادِيُّ - مِنْ أَكْبَارِ الشُّيُوخِ - : وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ لَهُ فِي الْمَسَائِلِ : مَا تَقُولُ يَا صُوفِي - مَنْ عَلِمَ طَرِيقَ الْحَقِّ سَهْلًا عَلَيْهِ سُلُوكُهُ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

مَنْ فَارَقَ الدَّلِيلَ ضَلَّ السَّبِيلَ :

مَنْ أَحَالَكَ عَلَى غَيْرِ « أَخْبَرْنَا » وَ « حَدَّثْنَا » فَقَدْ أَحَالَكَ : إِمَّا عَلَى خَيَالِ صُوفِيٍّ ، أَوْ قِيَاسِ فُلَسْفِيٍّ ، أَوْ رَأْيِ نَفْسِيٍّ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْقُرْآنِ « أَخْبَرْنَا » وَ « حَدَّثْنَا » إِلَّا شُبُهَاتُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَآرَاءُ الْمُنْحَرِفِينَ ، وَخَيَالَاتُ الْمُتَصَوِّفِينَ ، وَقِيَاسُ الْمُتَفَلِّسِينَ ، وَمَنْ فَارَقَ الدَّلِيلَ ، ضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ، وَلَا دَلِيلَ إِلَى اللَّهِ وَالْجَنَّةِ ، سِوَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَكُلُّ طَرِيقٍ لَمْ يَضَحِبْهَا دَلِيلُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَهِيَ مِنْ طُرُقِ الْجَحِيمِ وَالشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

الدِّينُ وَسَطٌ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ :

وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزَعَتَانِ : إِمَّا إِلَى تَفْرِيطٍ وَإِضَاعَةٍ ، وَإِمَّا إِلَى إِفْرَاطٍ وَغُلُوٍّ ، وَدِينُ اللَّهِ وَسَطٌ بَيْنَ الْجَافِي عَنْهُ وَالْغَالِي فِيهِ ، كَالْوَادِي بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْهُدَى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ ، وَالْوَسْطُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ

ذَمِيمِينَ ، فَكَمَا أَنَّ الْجَافِيَّ عَنِ الْأَمْرِ مُضَيِّعٌ لَهُ ، فَالْغَالِي فِيهِ : مُضَيِّعٌ لَهُ ،
هَذَا بِتَقْصِيرِهِ عَنِ الْحَدِّ ، وَهَذَا بِتَجَاوُزِهِ الْحَدَّ .

النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ :

نَهَى اللَّهُ عَنِ الْغُلُوِّ بِقَوْلِهِ -تَعَالَى- : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا
فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٧٧] .

وَالْغُلُوُّ نَوْعَانِ : نَوْعٌ يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ مُطِيعًا ، كَمَنْ زَادَ فِي الصَّلَاةِ
رَكْعَةً ، أَوْ صَامَ الدَّهْرَ مَعَ أَيَّامِ النَّهْيِ ، أَوْ رَمَى الْجَمَرَاتِ بِالصَّخَرَاتِ
الْكِبَارِ الَّتِي يُرْمَى بِهَا فِي الْمُنَجْنِيقِ ، أَوْ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ عَشْرًا ،
أَوْ نَحَوَ ذَلِكَ عَمْدًا .

وَعُلُوٌّ يُخَافُ مِنْهُ الْإِنْقِطَاعُ وَالِاسْتِحْسَارُ ، كَقِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ ، وَسَرْدِ
الصَّيَامِ الدَّهْرَ أَجْمَعَ ، بِدُونِ صَوْمِ أَيَّامِ النَّهْيِ ، وَالْجَوْرِ عَلَى النَّفْسِ فِي
الْعِبَادَاتِ وَالْأُورَادِ ، الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :
« إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا
وَيَسِّرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوَّةِ وَالرَّوْحَةِ ، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ » ^(١) ، يَعْنِي :
اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ، فَإِنَّ الْمُسَافِرَ
يَسْتَعِينُ عَلَى قَطْعِ مَسَافَةِ السَّفَرِ بِالسَّيْرِ فِيهَا .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٩) ، وَأَحْمَدُ (٥١٤ / ٢) ، وَالنَّسَائِيُّ (١٢١ - ١٢٢) .

وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ ، فَإِذَا فَرَ فَلِيرُقَدْ » ^(١) ، رَوَاهُمَا الْبُخَارِيُّ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » ^(٢) ، - قَالَهَا ثَلَاثًا - وَهُمْ الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُتَشَدِّدُونَ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمْلُوا » ^(٣) .

وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرِّقْ ، وَلَا تُبْغِضَنَّ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ » ^(٤) .



(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥٠) ، وَأَبُو دَاوُدَ (١٣١٢) .

(٢) (صَحِيحُ) رَوَاهُ وَمُسْلِمٌ (٢٦٧٠) ، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٨) .

(٣) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥١) ، وَمُسْلِمٌ (٧٨٥) .

(٤) (صَحِيحُ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٩٩/٢) ، صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢٢٤٦) .

رَقَائِقُ

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى الشِّفَاءَيْنِ: شِفَاءِ الْقُلُوبِ وَشِفَاءِ الْأَبْدَانِ :

فَأَمَّا اشْتِمَالُهَا عَلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ :

فَإِنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَتَمَّ اشْتِمَالٍ، فَإِنَّ مَدَارَ اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ وَأَسْقَامِهَا عَلَى أَصْلَيْنِ: فَسَادِ الْعِلْمِ، وَفَسَادِ الْقَصْدِ.

وَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا دَاءَانِ قَاتِلَانِ، وَهُمَا الضَّلَالُ وَالْغَضَبُ، فَالضَّلَالُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْعِلْمِ، وَالْغَضَبُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْقَصْدِ، وَهَذَانِ الْمَرَضَانِ هُمَا مَلَكَ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ جَمِيعِهَا، فَهَدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ، وَلِذَلِكَ كَانَ سُؤَالُ هَذِهِ الْهَدَايَةِ أَفْرَضَ دُعَاءٍ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ، وَأَوْجَبَهُ عَلَيْهِ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، لِشِدَّةِ ضُرُورَتِهِ وَفَاقَتِهِ إِلَى الْهَدَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ، وَلَا يَقُومُ غَيْرُ هَذَا السُّؤَالِ مَقَامَهُ.

وَالْتَّحَقُّ بِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً، وَعَمَلًا وَحَالًا يَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ فَسَادِ الْقَلْبِ وَالْقَصْدِ، فَإِنَّ فَسَادَ الْقَصْدِ يَتَعَلَّقُ بِالْغَايَاتِ وَالْوَسَائِلِ، فَمَنْ طَلَبَ غَايَةً مُنْقَطِعَةً مُضْمَحَلَةً فَانِيَةً، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا بِأَنْوَاعِ الْوَسَائِلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهَا كَانَ

كَلَّا نَوْعِي قَصْدِهِ فَاسِدًا، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنْ كَانَ غَايَةً مَطْلُوبَةً غَيْرَ
 اللَّهُ وَعُبودِيَّتِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمُتَّبِعِي الشَّهَوَاتِ، الَّذِينَ لَا غَايَةَ لَهُمْ
 وَرَاءَهَا، وَأَصْحَابِ الرِّيَاسَاتِ الْمُتَّبِعِينَ لِإِقَامَةِ رِيَاسَتِهِمْ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ
 مِنْ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، فَإِذَا جَاءَ الْحَقُّ مُعَارِضًا فِي طَرِيقِ رِيَاسَتِهِمْ طَحْنُوهُ
 وَدَاسُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ، فَإِنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ دَفَعُوهُ دَفْعَ الصَّائِلِ، فَإِنْ
 عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ حَبَسُوهُ فِي الطَّرِيقِ، وَحَادُوا عَنْهُ إِلَى طَرِيقٍ أُخْرَى،
 وَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِدَفْعِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، فَإِذَا لَمْ يَجِدُوا مِنْهُ بُدًّا أَعْطَوْهُ
 السَّكَّةَ وَالْخُطْبَةَ وَعَزَلُوهُ عَنِ التَّصَرُّفِ وَالْحُكْمِ وَالتَّنْفِيزِ، وَإِنْ جَاءَ الْحَقُّ
 نَاصِرًا لَهُمْ وَكَانَ لَهُمْ صَالُوا بِهِ وَجَالُوا، وَآتَوْا إِلَيْهِ مُدْعِينَ، لَا لِأَنَّهُ
 حَقٌّ، بَلْ لِمُوَافَقَتِهِ غَرَضَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَانْتَصَارِهِمْ بِهِ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى
 اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ
 يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ [النور: ٥٠].

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ قَصْدَ هَؤُلَاءِ فَاسِدٌ فِي غَايَاتِهِمْ وَوَسَائِلِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ
 إِذَا بَطَلَتِ الْغَايَاتُ الَّتِي طَلَبُوهَا، وَاضْمَحَلَّتْ وَفْنِيَتْ، حَصَلُوا عَلَى
 أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ وَالْحَسَرَاتِ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ نَدَامَةً وَتَحَسُّرًا إِذَا حَقَّ
 الْحَقُّ وَبَطَلَ الْبَاطِلُ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ أَسْبَابُ الْوَصْلِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ،
 وَتَقَيَّنُوا انْقِطَاعَهُمْ عَنْ رَكْبِ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ، وَهَذَا يَظْهَرُ كَثِيرًا فِي

الدُّنْيَا، وَيُظْهِرُ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الرَّحِيلِ مِنْهَا وَالْقُدُومَ عَلَى اللَّهِ،
وَيَشْتَدُّ ظُهُورُهُ وَتَحَقُّقُهُ فِي الْبَرْزَخِ، وَيُنْكَشِفُ كُلَّ الْإِنْكَشَافِ يَوْمَ اللَّقَاءِ،
إِذَا حَقَّتْ الْحَقَائِقُ، وَفَازَ الْمُحَقُّونَ وَخَسِرَ الْمُبْطِلُونَ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا
كَاذِبِينَ، وَكَانُوا مَخْدُوعِينَ مَغْرُورِينَ، فَيَالَهُ هُنَاكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ عَالِمَهُ،
وَيَقِينٍ لَا يُنْجِي مُسْتَيَقِنَهُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْغَايَةَ الْعُلْيَا وَالْمَطْلَبَ الْأَسْمَى، وَلَكِنْ لَمْ يَتَوَسَّلْ
إِلَيْهِ بِالْوَسِيلَةِ الْمَوْصَلَةِ لَهُ وَإِلَيْهِ، بَلْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِوَسِيلَةٍ ظَنَّنَهَا مُوَصَّلَةً
إِلَيْهِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْقَوَاطِعِ عَنْهُ، فَحَالُهُ أَيْضًا كَحَالِ هَذَا، وَكِلَاهُمَا
فَاسِدُ الْقَصْدِ، وَلَا شِفَاءَ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ إِلَّا بِدَوَاءِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾.

فَإِنَّ هَذَا الدَّوَاءَ مُرَكَّبٌ مِنْ سِتَّةِ أَجْزَاءٍ :

- (١) عِبُودِيَّةُ اللَّهِ لَا غَيْرَهُ .
- (٢) بِأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ .
- (٣) لَا بِالْهَوَى .
- (٤) وَلَا بِأَرَاءِ الرِّجَالِ وَأَوْضَاعِهِمْ، وَرُسُومِهِمْ، وَأَفْكَارِهِمْ .
- (٥) بِالِاسْتِعَانَةِ عَلَى عِبُودِيَّتِهِ بِهِ .
- (٦) لَا بِنَفْسِ الْعَبْدِ وَقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ .

فَهَذِهِ هِيَ أَجْزَاءُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَإِذَا رَكِبَهَا الطَّيِّبُ
اللطيفُ، الْعَالَمُ بِالْمَرَضِ، وَاسْتَعْمَلَهَا الْمَرِيضُ، حَصَلَ بِهَا الشِّفَاءُ التَّامُّ،
وَمَا نَقَصَ مِنَ الشِّفَاءِ فَهُوَ لِفَوَاتِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا، أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.

مَا يَغْرِضُ لِلْقَلْبِ مِنَ الْأَمْرَاضِ :

ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَغْرِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ
تَرَامِيًا بِهِ إِلَى التَّلَفِ وَلَا بُدَّ، وَهُمَا الرِّيَاءُ، وَالْكِبَرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بـ ﴿إِيَّاكَ
نَعْبُدُ﴾ وَدَوَاءُ الْكِبَرِ بـ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ-
يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدْفَعُ الرِّيَاءَ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدْفَعُ
الْكِبَرِيَاءَ.

فَإِذَا عُوفِيَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَمِنْ مَرَضِ الْكِبَرِيَاءِ
وَالْعُجْبِ بـ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَمِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بـ
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ عُوفِيَ مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ، وَرَفَلَ فِي
أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النُّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ ﴿غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا
الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَالضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ
وَلَمْ يَعْرِفُوهُ.

وَحَقَّ لِسُورَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى هَذَيْنِ الشِّفَاءَيْنِ أَنْ يُسْتَشْفَى بِهَا مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، وَهَذَا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَى هَذَا الشِّفَاءِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الشِّفَاءَيْنِ، كَانَ حُصُولُ الشِّفَاءِ الْأَدْنَى بِهَا أَوْلَى، كَمَا سَنُبَيِّنُهُ، فَلَا شَيْءَ أَشْفَى لِلْقُلُوبِ الَّتِي عَقَلَتْ عَنِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ، وَفَهِمَتْ عَنْهُ فَهْمًا خَاصًّا، اخْتَصَّهَا بِهِ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ السُّورَةِ.

وَسَنُبَيِّنُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - تَضَمُّنَهَا لِلرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْبِدْعِ بِأَوْضَحِ الْبَيَانِ وَأَحْسَنِ الطَّرْقِ.

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى شِفَاءِ الْأَبْدَانِ :

وَأَمَّا تَضَمُّنُهَا لِشِفَاءِ الْأَبْدَانِ فَنَذْكُرُ مِنْهُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَمَا شَهِدَتْ بِهِ قَوَاعِدُ الطَّبِّ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ التَّجَرُّبَةُ.

فَأَمَّا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ: فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرُّوا بِحَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَلَمْ يَقْرُؤْهُمْ، وَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلَدَغَ سَيِّدُ الْحَيِّ، فَاتَوْهُمْ، فَقَالُوا: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رُقِيَّةٍ، أَوْ هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، وَلَكِنْكُمْ لَمْ تُقْرَؤْنَا، فَلَا نَفْعُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ، فَجَعَلَ رَجُلٌ مِّنَّا يَقْرَأُ عَلَيْهِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَقَامَ كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ قَلْبَةٌ، فَقُلْنَا: لَا تَعْجَلُوا

حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَأَتَيْنَاهُ ، فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :
« مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ ؟ ، كُلُّوْا ، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ » ^(١) .

فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ حُصُولَ شِفَاءِ هَذَا اللَّدِيغِ بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَيْهِ ، فَأَغْنَتْهُ عَنِ الدَّوَاءِ ، وَرُبَّمَا بَلَغَتْ مِنْ شِفَائِهِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ الدَّوَاءُ .
هَذَا مَعَ كَوْنِ الْمَحَلِّ غَيْرَ قَابِلٍ ، إِمَّا لِكَوْنِ هُوْلَاءِ الْحَيِّ غَيْرِ مُسْلِمِينَ ، أَوْ أَهْلَ بُخْلِ وَلَوْمْ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا .

أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ وَأَنْفَعُهَا :

إِنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ الْعَمَلُ عَلَى مَرْضَاةِ الرَّبِّ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا هُوَ مُقْتَضِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوُضِيفَتْهُ ، فَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ فِي وَقْتِ الْجِهَادِ : الْجِهَادُ ، وَإِنْ آلَ إِلَى تَرْكِ الْأَوْرَادِ ، مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ ، بَلْ وَمِنْ تَرْكِ إِمْتَامِ صَلَاةِ الْفَرَضِ ، كَمَا فِي حَالَةِ الْأَمْنِ .

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ حُضُورِ الضَّيْفِ مَثَلًا الْقِيَامُ بِحَقِّهِ ، وَالِاشْتِغَالُ بِهِ عَنِ الْوَرْدِ الْمُسْتَحَبِّ ، وَكَذَلِكَ فِي آدَاءِ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَالْأَهْلِ .

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ السَّحَرِ الْإِشْتَغَالُ بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ ، وَالِدُّعَاءُ وَالذِّكْرُ وَالِاسْتِغْفَارُ .

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ اسْتِرْشَادِ الطَّالِبِ ، وَتَعْلِيمِ الْجَاهِلِ الْإِقْبَالُ عَلَى

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٤٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٠١) .

تَعْلِيمِهِ وَالِاشْتِغَالَ بِهِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ الْأَذَانِ تَرْكُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ وَرْدِهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِإِجَابَةِ الْمُؤَذِّنِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْجِدُّ وَالنُّصْحُ فِي إِيقَاعِهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَالْخُرُوجُ إِلَى الْجَامِعِ، وَإِنْ بَعْدَ كَانَ أَفْضَلَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَوْقَاتِ ضَرُورَةِ الْمُحْتَاجِ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ بِالْجَاهِ، أَوِ الْبَدَنِ، أَوِ الْمَالِ الْإِشْتِغَالُ بِمُسَاعَدَتِهِ، وَإِعَاثَةُ لَهْفَتِهِ، وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى أَوْرَادِكَ وَخُلُوتِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ جَمْعِيَّةُ الْقَلْبِ وَالْهَمَّةُ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَفْهَمِهِ، حَتَّى كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَاطِبُكَ بِهِ، فَتَجْمَعُ قَلْبَكَ عَلَى فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَنْفِيدِ أَوَامِرِهِ أَعْظَمُ مِنْ جَمْعِيَّةِ قَلْبٍ مَنْ جَاءَهُ كِتَابٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى ذَلِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةِ الْاجْتِهَادِ فِي التَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ دُونَ الصَّوْمِ الْمُضْعِفِ عَنْ ذَلِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْإِكْثَارُ مِنَ التَّعَبُّدِ، لَاسِيَّما التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ غَيْرِ الْمُتَعَيَّنِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي الْعُشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ لَزُومِ الْمَسْجِدِ فِيهِ وَالْخُلُوةِ وَالْاعْتِكَافِ دُونَ التَّصَدِّي لِمُخَالَطَةِ النَّاسِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى تَعْلِيمِهِمُ الْعِلْمَ، وَإِقْرَائِهِمُ الْقُرْآنَ، عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ مَرَضِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ أَوْ مَوْتِهِ عِيَادَتُهُ، وَحُضُورُ جَنَازَتِهِ وَتَشْيِيعُهُ، وَتَقْدِيمُ ذَلِكَ عَلَى خَلُوتِكَ وَجَمْعِيَّتِكَ.

وَالْأَفْضَلُ : فِي وَقْتِ نَزُولِ النَّوَازِلِ وَأَذَاةِ النَّاسِ لَكَ أَدَاءً وَاجِبَ الصَّبْرِ مَعَ خُلُطَتِكَ بِهِمْ، دُونَ الْهَرَبِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يُؤْذُونَهُ.

وَالْأَفْضَلُ : خُلُطَتُهُمْ فِي الْخَيْرِ، فَهِيَ خَيْرٌ مِنْ اعْتِرَازِهِمْ فِيهِ، وَاعْتِرَازَهُمْ فِي الشَّرِّ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ خُلُطَتِهِمْ فِيهِ، فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَالَطَهُمْ أَرَاَهُ أَوْ قَلَّ لَهُ فَخُلُطَتُهُمْ حِينَئِذٍ أَفْضَلُ مِنْ اعْتِرَازِهِمْ.

فَالْأَفْضَلُ : فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ إِثَارُ مَرْضَاةِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْحَالِ، وَالِاشْتِغَالُ بِوَاجِبِ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَوُظِيفَتِهِ وَمُقْتَضَاهُ.

سِرُّ الْعِبَادَةِ :

فَاعْلَمْ أَنَّ سِرَّ الْعُبُودِيَّةِ، وَغَايَتَهَا وَحِكْمَتَهَا إِنَّمَا يَطَّلُعُ عَلَيْهَا مَنْ عَرَفَ صِفَاتِ الرَّبِّ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَمْ يُعْطَلْهَا، وَعَرَفَ مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ وَحَقِيقَتَهَا،

وَمَعْنَى كَوْنِهِ إِلهًا، بَلْ هُوَ الْإِلهُ الْحَقُّ، وَكُلُّ إِلَهٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ، بَلْ أَبْطُلُ الْبَاطِلَ، وَأَنَّ حَقِيقَةَ الْإِلَهِيَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ مُوجِبُ إِهْلِيَّتِهِ وَأَثَرُهَا وَمُقْتَضَاهَا، وَارْتِبَاطُهَا بِهَا كَارْتِبَاطِ مُتَعَلِّقِ الصِّفَاتِ بِالصِّفَاتِ، وَكَارْتِبَاطِ الْمَعْلُومِ بِالْعِلْمِ، وَالْمَقْدُورِ بِالْقُدْرَةِ، وَالْأَصْوَاتِ بِالسَّمْعِ، وَالْإِحْسَانِ بِالرَّحْمَةِ، وَالْعَطَاءِ بِالْجُودِ.

فَمَنْ أَنْكَرَ حَقِيقَةَ الْإِلَهِيَّةِ وَلَمْ يَعْرِفْهَا كَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ مَعْرِفَةُ حِكْمَةِ الْعِبَادَاتِ وَغَايَاتِهَا وَمَقَاصِدِهَا وَمَا شُرِعَتْ لِأَجْلِهِ؟ ، كَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ الْعِلْمُ بِأَنَّهَا هِيَ الْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ بِالْخَلْقِ، وَالَّتِي لَهَا خُلُقُوا، وَلَهَا أُرْسِلَتْ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ الْكُتُبُ، وَلَا أَجْلَهَا خُلِقَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؟ ، وَأَنْ فَرَضَ تَعْطِيلَ الْخَلِيقَةِ عَنْهَا نِسْبَةَ اللَّهِ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَيَتَعَالَى عَنْهُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَلَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلًا، وَلَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْهُ سُدًى مُهْمَلًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) ﴿ [الْمُؤْمِنُونَ: ١١٥] ، أَيْ لِعَیْرِ شَيْءٍ وَلَا حِكْمَةٍ، وَلَا لِعِبَادَتِي وَمُجَازَاتِي لَكُمْ، وَقَدْ صَرَّحَ تَعَالَى بِهَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) ﴿ [الذَّارِيَاتِ: ٥٦] ، فَالْعِبَادَةُ هِيَ الْغَايَةُ الَّتِي خَلَقَ لَهَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٣٦) ﴿ [الْقِيَامَةُ: ٣٦] ، أَيْ مُهْمَلًا .

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ، وَقَالَ غَيْرُهُ : لَا يُثَابُ وَلَا يُعَاقَبُ ، وَالصَّحِيحُ الْأَمْرَانِ ، فَإِنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ مُتَرَتِّبَانِ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ طَلَبُ الْعِبَادَةِ وَإِرَادَتُهَا ، وَحَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ امْتِثَالُهَا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٩١] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الْحَجَرُ : ٨٥] ، وَقَالَ : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الْجَاثِيَةِ : ٢٢] .

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ الْمُتَضَمِّنِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ، وَثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ .

فَإِذَا كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا خُلِقَتْ لِهَذَا ، وَهُوَ غَايَةُ الْخَلْقِ ، فَكَيْفَ يُقَالُ إِنَّهُ لَا عِلَّةَ لَهُ ، وَلَا حِكْمَةَ مَقْصُودَةٍ هِيَ غَايَتُهُ ؟ أَوْ إِنَّ ذَلِكَ لِمَجَرَّدِ اسْتِجَارِ الْعِبَادِ حَتَّى لَا يُنْكَدَ عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ بِالْمَنَّةِ ، أَوْ لِمَجَرَّدِ اسْتِعْدَادِ النُّفُوسِ لِلْمَعَارِفِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَارْتِيَاضِهَا بِمُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ ؟ .

فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّيْبُ الْفُرْقَانِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ ، وَبَيْنَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ صَرِيحُ الْوَحْيِ يَجِدُ أَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَلَا

عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

فَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، الْجَامِعَةَ لِكَمَالِ مَحَبَّتِهِ، مَعَ الْخُضُوعِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِهِ.

فَأَصْلُ الْعِبَادَةِ: مَحَبَّةُ اللَّهِ، بَلْ إِفْرَادُهُ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ الْحُبُّ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَلَا يُحِبُّ مَعَهُ سِوَاهُ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ لِأَجْلِهِ وَفِيهِ، كَمَا يُحِبُّ أَنْبِيَاءُهُ وَرُسُلُهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأَوْلِيَائِهِ، فَمَحَبَّتُنَا لَهُمْ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ، وَلَيْسَتْ مَحَبَّةً مَعَهُ، كَمَحَبَّةٍ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ.

وَإِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ لَهُ هِيَ حَقِيقَةُ عُبودِيَّتِهِ وَسِرِّهَا، فَهِيَ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، فَعِنْدَ اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ تَبَيَّنَ حَقِيقَةُ الْعُبودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَلِهَذَا جَعَلَ تَعَالَى اتِّبَاعَ رَسُولِهِ عَلَمًا عَلَيْهَا، وَشَاهِدًا لِمَنْ ادَّعَاهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فَجَعَلَ اتِّبَاعَ رَسُولِهِ مَشْرُوطًا بِمَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ، وَشَرْطًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُمْ، وَوُجُودُ الْمَشْرُوطِ مُمْتَنِعٌ بِدُونِ وُجُودِ شَرْطِهِ وَتَحَقُّقُهُ بِتَحَقُّقِهِ فَعَلِمَ انْتِفَاءُ الْمَحَبَّةِ عِنْدَ انْتِفَاءِ الْمُتَابَعَةِ، فَانْتِفَاءُ مَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ لَا زِمَ لَانْتِفَاءِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ، وَانْتِفَاءُ الْمُتَابَعَةِ مُلزومٌ لانتِفَاءِ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُمْ، فَيَسْتَحِيلُ إِذَا ثُبُوتُ مَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ، وَثُبُوتُ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُمْ بِدُونِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُتَابَعَةَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هِيَ حُبُّ
 اللَّهُ وَرَسُولِهِ، وَطَاعَةُ أَمْرِهِ، وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ فِي الْعُبُودِيَّةِ حَتَّى يَكُونَ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ
 إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَتَى كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا فَهَذَا هُوَ
 الشَّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْبَتَّةَ، وَلَا يَهْدِيهِ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ عِبَادُ اللَّهِ مُتَابِعِينَ لِحُبِّ اللَّهِ - طَاعَتِهِ أَوْ مَنَاجَاةٍ أَوْ خُفْيَةٍ لِمَنْ هُوَ
 غِيْبٌ أَوْ نَفَقَةٍ أَوْ مَقَامٍ مَغْشًى لَمْ أَكُنْ مِنْكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ الْبَأْسَ فَيُكَفِّرُنَا كَمَا
 كَفَّرَ الْبَاقِينَ ﴾

وَأَمْوَالٌ أُقْتَرَفَتْ مِنْهَا وَتَجَرَّةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا
 أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا
 حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

[التَّوْبَةُ : ٢٤] .

فَكُلُّ مَنْ قَدَّمَ طَاعَةَ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ قَوْلَ
 أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ مَرْضَاةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَرْضَاةِ
 اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ خَوْفَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَرَجَاءَهُ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ عَلَى خَوْفِ
 اللَّهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، أَوْ مُعَامَلَةَ أَحَدِهِمْ عَلَى مُعَامَلَةِ اللَّهِ فَهُوَ مِمَّنْ
 لَيْسَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَإِنْ قَالَهُ بِلِسَانِهِ فَهُوَ كَذِبٌ
 مِنْهُ، وَإِخْبَارٌ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَدَّمَ حُكْمَ أَحَدٍ عَلَى
 حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَذَلِكَ الْمَقْدَّمُ عِنْدَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَكِنْ
 قَدْ يَشْتَبِهُ الْأَمْرُ عَلَى مَنْ يَقْدِّمُ قَوْلَ أَحَدٍ أَوْ حُكْمَهُ، أَوْ طَاعَتَهُ أَوْ مَرْضَاتَهُ،

ظَنَّا مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ وَلَا يَحْكُمُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا مَا قَالَهُ الرَّسُولُ، فَيُطِيعُهُ، وَيُحَاجِمُ إِلَيْهِ، وَيَتَلَقَّى أَقْوَالَهُ كَذَلِكَ، فَهَذَا مَعْدُورٌ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَأَمَّا إِذَا قَدَرَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الرَّسُولِ، وَعَرَفَ أَنَّ غَيْرَ مَنْ اتَّبَعَهُ هُوَ أَوْلَى بِهِ مُطْلَقًا، أَوْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الرَّسُولِ وَلَا إِلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى بِهِ، فَهَذَا الَّذِي يُخَافُ عَلَيْهِ، وَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ الْوَعِيدِ، فَإِنْ اسْتَحَلَّ عُقُوبَةَ مَنْ خَالَفَهُ وَأَذَلَّهُ، وَلَمْ يُوَافِقْهُ عَلَى اتِّبَاعِ شَيْخِهِ، فَهُوَ مِنَ الظَّلَمَةِ الْمُعْتَدِينَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

القَوَاعِدُ الْأَرْبَعُ لِلْعِبَادَةِ التَّامَّةِ :

وَبَنَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَى أَرْبَعِ قَوَاعِدَ: التَّحَقُّقُ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيَرْضَاهُ، مِنْ قَوْلِ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَعَمَلِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ.

فَالْعُبُودِيَّةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ، فَأَصْحَابُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَقًّا هُمْ أَصْحَابُهَا.

فَقَوْلُ الْقَلْبِ: هُوَ اعْتِقَادُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَلِقَائِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ.

وَقَوْلُ اللِّسَانِ: الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِذَلِكَ، وَالِدَعْوَةُ إِلَيْهِ، وَالذَّبُّ عَنْهُ، وَتَبْيِينُ بَطْلَانِ الْبِدْعِ الْمُخَالَفَةِ لَهُ، وَالْقِيَامُ بِذِكْرِهِ، وَتَبْلِيغُ أَوَامِرِهِ.

وَعَمَلُ الْقَلْبِ: كَالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، وَالْخَوْفَ مِنْهُ

وَالرَّجَاءَ لَهُ، وَإِخْلَاصَ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرَ عَلَى أَوَامِرِهِ، وَعَنْ نَوَاهِيهِ، وَعَلَى أَقْدَارِهِ، وَالرِّضَى بِهِ وَعَنْهُ، وَالْمُؤَالَاةَ فِيهِ، وَالْمَعَادَاةَ فِيهِ، وَالذَّلَّ لَهُ وَالْخُضُوعَ، وَالْإِخْبَاتَ إِلَيْهِ، وَالطَّمَأْنِينَةَ بِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي فَرَضَهَا أَفْرَضُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَمُسْتَحِبُّهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُسْتَحِبِّهَا، وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ بِدُونِهَا إِمَّا عَدِيمُ الْمُنْفَعَةِ أَوْ قَلِيلُ الْمُنْفَعَةِ.

وَأَعْمَالُ الْجَوَارِحِ: كَالصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ، وَنَقَلَ الْأَقْدَامَ إِلَى الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَمُسَاعَدَةَ الْعَاجِزِ، وَالْإِحْسَانَ إِلَى الْخَلْقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

ف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التَّزَامُ لِأَحْكَامِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِقْرَارُ بِهَا، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طَلَبُ لِلْإِعَانَةِ عَلَيْهَا وَالتَّوْفِيقِ لَهَا، وَ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ مُتَضَمِّنٌ لِلتَّعْرِيفِ بِالْأَمْرَيْنِ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَإِلْهَامِ الْقِيَامِ بِهِمَا، وَسُلُوكِ طَرِيقِ السَّالِكِينَ إِلَى اللَّهِ بِهَا.

مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ:

وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْعُبُودِيَّةَ وَصْفَ أَكْمَلِ خَلْقِهِ، وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ١٧٣ [الْمَائِدَةُ: ١٧٢].

وَقَالَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦] ، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْوَقْفَ التَّامَّ فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١٩] ، هَاهُنَا ، ثُمَّ يَبْتَدِئُ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠] ، فَهِيَ جُمْلَتَانِ تَامَتَانِ مُسْتَقْلِلَتَانِ ، أَيْ إِنَّ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ عَبِيدًا وَمَلَكًا ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ جُمْلَةً أُخْرَى فَقَالَ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ يَعْنِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ يَعْنِي لَا يَأْنِفُونَ عَنْهَا ، وَلَا يَتَعَاطَمُونَ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ، فَيَعْيُونَ وَيَنْقَطِعُونَ يُقَالُ : حَسَرَ وَاسْتَحْسَرَ ، إِذَا تَعَبَ وَأَعْيَا بَلْ عِبَادَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ كَالنَّفْسِ لِبَنِي آدَمَ ، فَالْأَوَّلُ وَصْفٌ لِعَبِيدِ رَبُّوبِيَّتِهِ ، وَالثَّانِي وَصْفٌ لِعَبِيدِ إلهِيَّتِهِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

وَقَالَ : ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٦﴾ [الإنسان: ٦] ، وَقَالَ : ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] ، وَقَالَ : ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] ، وَقَالَ عَنْ سُلَيْمَانَ ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ، وَقَالَ عَنِ

المسيح : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الرُّخْفُ: ٥٩] ، فَجَعَلَ غَايَتَهُ الْعُبُودِيَّةَ لَا الْإِلَهِيَّةَ ، كَمَا يَقُولُ أَعْدَاؤُهُ النَّصَارَى ، وَوَصَفَ أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ ، وَأَعْلَاهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً بِالْعُبُودِيَّةِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٣] ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [الْفُرْقَان: ١] ، وَقَالَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الْكَهْفُ: ١] ، فَذَكَرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ أَنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ ، وَفِي مَقَامِ التَّحَدِّيِّ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ، وَقَالَ : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ ﴾ [الْجِن: ١٩] ، فَذَكَرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ، وَقَالَ ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١] ، فَذَكَرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي مَقَامِ الْإِسْرَاءِ .
وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » ^(١) ، وَفِي الْحَدِيثِ : « أَنَا عَبْدٌ ، أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ » ^(٢) .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٤٥) .

(٢) رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» (١/ ٢٨٨) ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ فِي تَحْقِيقِهِ لَزَادِ الْمَعَادِ : لَهُ شَاهِدٌ عَنْ أَحْمَدَ فِي «الزُّهْدِ» ص (٥) ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ : فَيَقْوَى الْحَدِيثُ وَيَصِحُّ . انْظُرْ : زَادُ الْمَعَادِ (٤/ ٢٢١) .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «قَرَأْتُ فِي التَّوْرَةِ صِفَةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيئُهُ الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ بَفِظٍ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يُجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ» (١).

وَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْبَشَارَةَ الْمُطْلَقَةَ لِعِبَادِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧﴾
 الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝١٨﴾ [الزُّمَر: ١٧-١٨]، وَجَعَلَ الْأَمْنُ الْمُطْلَقُ،
 فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٦٩﴾ [الزُّخْرُف: ٦٨-٦٩]، وَعَزَلَ
 الشَّيْطَانُ عَنْ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِمْ خَاصَّةً، وَجَعَلَ سُلْطَانَهُ عَلَى مَنْ تَوَلَّاهُ
 وَأَشْرَكَ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا
 مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحِجْر: ٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ
 لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾
 سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾
 [النَّحْل: ٩٩-١٠٠].

وَجَعَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِحْسَانَ الْعُبُودِيَّةِ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ
 (١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢١٢٥).

الدِّينَ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ ، فَقَالَ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الْإِحْسَانِ : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ^(١).

لِزُومِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ لِكُلِّ عَبْدٍ إِلَى الْمَوْتِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [١٩] ، وَقَالَ أَهْلُ النَّارِ ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [٤٦] حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ [٤٧] ، وَالْيَقِينُ هَاهُنَا هُوَ الْمَوْتُ بِاجْتِمَاعِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ ، وَفِي الصَّحِيحِ فِي قِصَّةِ مَوْتِ عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ » ^(٢) ، أَيِ الْمَوْتُ وَمَا فِيهِ ، فَلَا يَنْفَكُ الْعَبْدُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ مَا دَامَ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ ، بَلْ عَلَيْهِ فِي الْبَرْزَخِ عُبُودِيَّةٌ أُخْرَى لَمَّا يَسْأَلُهُ الْمَلَكَانِ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ ؟ وَمَا يَقُولُ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟ وَيَلْتَمِسَانِ مِنْهُ الْجَوَابَ ، وَعَلَيْهِ عُبُودِيَّةٌ أُخْرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَوْمَ يَدْعُو اللَّهُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَى السُّجُودِ ، فَيَسْجُدُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَيَبْقَى الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ السُّجُودَ ، فَإِذَا دَخَلُوا دَارَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْقَطَعَ التَّكْلِيفُ هُنَاكَ ، وَصَارَتْ عُبُودِيَّةُ أَهْلِ الثَّوَابِ تَسْبِيحًا مَقْرُونًا بِأَنْفَاسِهِمْ لَا يَجِدُونَ لَهُ تَعَبًا وَلَا نَصَبًا .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠) ، وَمُسْلِمٌ (٩-١٠) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٤٣) .

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَصِلُ إِلَى مَقَامٍ يَسْقُطُ عَنْهُ فِيهِ التَّعَبُّدُ، فَهُوَ زَنْدِيقٌ كَافِرٌ
 بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَى مَقَامِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَالْإِنْسِلَاخِ مِنْ دِينِهِ،
 بَلْ كَلِمَا تَمَكَّنَ الْعَبْدُ فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ كَانَتْ عُبُودِيَّتُهُ أَعْظَمَ، وَالْوَاجِبُ
 عَلَيْهِ مِنْهَا أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ دُونَهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْوَاجِبُ
 عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَلْ عَلَى جَمِيعِ الرُّسُلِ أَعْظَمَ
 مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى أُمَّهَمُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى أُولَى الْعِزْمِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ
 عَلَى مَنْ دُونَهُمْ، وَالْوَاجِبُ عَلَى أُولَى الْعِلْمِ أَعْظَمَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ
 دُونَهُمْ، وَكُلُّ أَحَدٍ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ.

مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى خَمْسِ عَشْرَةَ قَاعِدَةً :

وَرَحَى الْعُبُودِيَّةِ تَدْوِرُ عَلَى خَمْسِ عَشْرَةَ قَاعِدَةً، مَنْ كَمَّلَهَا كَمَّلَ
 مَرَاتِبَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَبَيَانُهَا أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مُنْقَسِمَةٌ عَلَى الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ، وَعَلَى
 كُلِّ مِنْهَا عُبُودِيَّةٌ تَخْصُهُ.

وَالْأَحْكَامُ الَّتِي لِلْعُبُودِيَّةِ خَمْسَةٌ: وَاجِبٌ، وَمُسْتَحَبٌّ، وَحَرَامٌ،
 وَمَكْرُوهٌ، وَمُبَاحٌ، وَهِيَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ.
 فَوَاجِبُ الْقَلْبِ مِنْهُ مُتَّفَقٌ عَلَى وُجُوبِهِ، وَخُتَلَفَ فِيهِ.
 فَالْمُتَّفَقُ عَلَى وُجُوبِهِ كَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالْبِرِّ، وَالْإِنَابَةِ،

وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّصَدِيقُ الْجَازِمُ، وَالنِّيَّةُ فِي الْعِبَادَةِ، وَهَذِهِ قَدْرُ زَائِدٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ إِفْرَادُ الْمُعْبُودِ عَنْ غَيْرِهِ.

وَنِيَّةُ الْعِبَادَةِ لَهَا مَرْتَبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: تَمَيُّزُ الْعِبَادَةِ عَنِ الْعَادَةِ.

وَالثَّانِيَةُ: تَمَيُّزُ مَرَاتِبِ الْعِبَادَاتِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ.

وَالْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ وَاجِبَةٌ:

وَكَذَلِكَ الصَّدْقُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِخْلَاصِ أَنَّ لِلْعَبْدِ مَطْلُوبًا وَطَلَبًا، فَالْإِخْلَاصُ تَوْحِيدُ مَطْلُوبِهِ، وَالصَّدْقُ تَوْحِيدُ طَلَبِهِ.

فَالْإِخْلَاصُ: أَنْ لَا يَكُونَ الْمَطْلُوبُ مُنْقَسِمًا، وَالصَّدْقُ: أَنْ لَا يَكُونَ الطَّلَبُ مُنْقَسِمًا، فَالصَّدْقُ بَذْلُ الْجُهِدِ، وَالْإِخْلَاصُ إِفْرَادُ الْمَطْلُوبِ.

وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى وُجُوبِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ.

وَكَذَلِكَ النَّصْحُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَمَدَارُ الدِّينِ عَلَيْهِ، وَهُوَ بَذْلُ الْجُهِدِ فِي إِيقَاعِ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَحْبُوبِ لِلرَّبِّ الْمَرْضِيِّ لَهُ، وَأَصْلُ هَذَا وَاجِبٌ، وَكَمَالُهُ مَرْتَبَةُ الْمُقَرَّبِينَ.

وَكَذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ الْقَلْبِيَّةِ لَهُ طَرَفَانِ، وَاجِبٌ

مُسْتَحَقٌّ، وَهُوَ مَرْتَبَةُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَمَالٌ مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ مَرْتَبَةُ الْمُقَرَّبِينَ.

وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ذَكَرَ اللَّهُ الصَّبْرَ فِي تِسْعِينَ مَوْضِعًا مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ بَضْعًا وَتِسْعِينَ، وَلَهُ طَرَفَانِ أَيْضًا: وَاجِبٌ مُسْتَحَقٌّ، وَكَمَالٌ مُسْتَحَبٌّ.

وَأَمَّا الْمُخْتَلَفُ فِيهِ فَكَالرِّضَا، فَإِنَّ فِي وُجُوبِهِ قَوْلَيْنِ لِلْفُقَهَاءِ وَالصُّوْفِيَّةِ، وَالْقَوْلَانِ لِأَصْحَابِ أَحْمَدَ، فَمَنْ أَوْجَبَهُ قَالَ: السُّخْطُ حَرَامٌ، وَلَا خَلَاصَ عَنْهُ إِلَّا بِالرِّضَا، وَمَا لَا خَلَاصَ عَنِ الْحَرَامِ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَاحْتَجُّوا بِأَثَرِ « مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي، وَلَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ » ^(١).

وَمَنْ قَالَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ، قَالَ: لَمْ يَجِئِ الْأَمْرُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، بِخِلَافِ الصَّبْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَكَذَلِكَ التَّوَكُّلُ، قَالَ: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يُونُسُ: ٨٤]، وَأَمَرَ بِالْإِنَابَةِ، فَقَالَ: ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزُّمَرُ: ٥٤]، وَأَمَرَ بِالْإِخْلَاصِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

(١) (ضَعِيفٌ) ضَعَّفَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَقَالَ: ضَعِيفٌ جِدًّا بِرَقْمِ (٥٠٥).

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿ [البينة: ٥] ، وَكَذَلِكَ الْخَوْفُ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ
وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَاحْشَوْنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠] ، وَقَوْلِهِ ﴿ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴾ [البقرة: ٤٠] ،
وَكَذَلِكَ الصِّدْقُ، قَالَ تَعَالَى ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا
مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] ، وَكَذَلِكَ الْمَحَبَّةُ، وَهِيَ أَفْرَضُ
الْوَاجِبَاتِ، إِذْ هِيَ قَلْبُ الْعِبَادَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا، وَنُحْهَا وَرُوحُهَا.
وَأَمَّا الرِّضَا فَإِنَّمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَدْحُ أَهْلِهِ، وَالشَّائِءُ عَلَيْهِمْ، لَا الْأَمْرُ بِهِ.
قَالُوا: وَأَمَّا الْأَثَرُ الْمَذْكُورُ فِإِسْرَائِيلَ، لَا يُحْتَجُّ بِهِ.

قَالُوا: وَفِي الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
«إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ الرِّضَا مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنْ فِي
الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّهُ النَّفْسُ خَيْرًا كَثِيرًا» ^(١)، وَهُوَ فِي بَعْضِ السَّنَنِ.

قَالُوا: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ « لَا خَلَاصَ عَنِ السُّخْطِ إِلَّا بِهِ » فَلَيْسَ بِلَازِمٍ،
فَإِنَّ مَرَاتِبَ النَّاسِ فِي الْمَقْدُورِ ثَلَاثَةٌ: الرِّضَا، وَهُوَ أَغْلَاهَا، وَالسُّخْطُ،
وَهُوَ أَسْفَلُهَا، وَالصَّبْرُ عَلَيْهِ بَدُونِ الرِّضَا بِهِ، وَهُوَ أَوْسَطُهَا، فَالْأَوَّلُ
لِلْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، وَالثَّالِثَةُ لِلْمُقْتَصِدِينَ، وَالثَّانِيَةُ لِلظَّالِمِينَ، وَكَثِيرٌ مِنْ

(١) ذَكَرَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٣/ ٦٢٣)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٧/ ٢٠٣)،
وَبَلَفَظَ آخَرُ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي حَدِيثٍ « أَحْفَظَ اللَّهُ يَحْفَظُكَ » (١/ ٣٠٧).

النَّاسِ يَصْبِرُ عَلَى الْمَقْدُورِ فَلَا يَسْخَطُ ، وَهُوَ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ ، فَالرِّضَا أَمْرٌ آخَرُ .

وَقَدْ أَشْكَلَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ اجْتِمَاعُ الرِّضَا مَعَ التَّأَلُّمِ ، وَظَنَّ أَنَّهَا مُتَبَايِنَانِ ، وَلَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ ، فَاَلْمَرِيضُ الشَّارِبُ لِلدَّوَاءِ الْكَرِيهِ مُتَأَلِّمٌ بِهِ رَاضٍ بِهِ ، وَالصَّائِمُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ مُتَأَلِّمٌ بِصَوْمِهِ رَاضٍ بِهِ ، وَالْبَخِيلُ مُتَأَلِّمٌ بِإِخْرَاجِ زَكَاةِ مَالِهِ رَاضٍ بِهَا ، فَالتَّأَلُّمُ كَمَا لَا يُنَافِي الصَّبْرَ لَا يُنَافِي الرِّضَا بِهِ .

وَهَذَا الْخِلَافُ بَيْنَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الرِّضَا بِقَضَائِهِ الْكُونِيِّ ، وَأَمَّا الرِّضَا بِهِ رَبًّا وَإِلَهًا ، وَالرِّضَا بِأَمْرِهِ الدِّينِيِّ فَمُتَمَقٌّ عَلَى فَرَضِيَّتِهِ ، بَلْ لَا يَصِيرُ الْعَبْدُ مُسْلِمًا إِلَّا بِهَذَا الرِّضَا أَنْ يَرْضَى بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَسُولًا .

وَمِنْ هَذَا أَيْضًا اخْتِلَافُهُمْ فِي الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ ، وَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ ، وَهُمَا فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ .

وَعَلَى الْقَوْلَيْنِ اخْتِلَافُهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِعَادَةِ عَلَى مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَسْوَاسُ فِي صَلَاتِهِ ، فَأَوْجَبَهَا ابْنُ حَامِدٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ ، وَأَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي إِحْيَائِهِ ، وَلَمْ يُوجِبْهَا أَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ .

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمَرَ مَنْ سَهَا فِي صَلَاتِهِ

بَسَجَدَتِي السَّهْوُ وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِالْإِعَادَةِ مَعَ قَوْلِهِ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَضِلَّ الرَّجُلُ أَنْ يَذَرِي كَمْ صَلَّى » ^(١)، وَلَكِنْ لَا نَزَاعَ أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يُثَابُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا بِقَدْرِ حُضُورِ قَلْبِهِ وَخُضُوعِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَنْصَرِفُ مِنَ الصَّلَاةِ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إِلَّا نِصْفُهَا، ثُلُثُهَا، رُبُعُهَا حَتَّى بَلَغَ عَشْرَهَا » ^(٢)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا، فَلَيْسَتْ صَحِيحَةً بِاعْتِبَارِ تَرْتُّبِ كَمَالِ مَقْصُودِهَا عَلَيْهَا، وَإِنْ سُمِّيَتْ صَحِيحَةً بِاعْتِبَارِ أَنَا لَا نَأْمُرُهُ بِالْإِعَادَةِ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَقَ لَفْظُ الصَّحَّةِ عَلَيْهَا، فَيُقَالُ صَلَاةٌ صَحِيحَةٌ مَعَ أَنَّهُ لَا يُثَابُ عَلَيْهَا فَاعِلُهَا.

وَالْقَصْدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ وَاجِبَهَا وَمُسْتَحَبَّهَا هِيَ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ، فَمَنْ عَطَّلَهَا فَقَدْ عَطَّلَ عُبُودِيَّةَ الْمَلِكِ، وَإِنْ قَامَ بِعُبُودِيَّةِ رَعِيَّتِهِ مِنَ الْجَوَارِحِ. وَالْمَقْصُودُ أَنْ يَكُونَ مَلِكُ الْأَعْضَاءِ وَهُوَ الْقَلْبُ قَائِمًا بِعُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، هُوَ وَرَعِيَّتُهُ.

(١) (صَحِيحٌ) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ أَوَّلُهُ : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ... » وَهُوَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٦٠٨)، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ (٣٨٩).

(٢) هُوَ بَلْفُظٌ آخَرَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَحَسَنُهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ رَقْمَ (٧١٤).

وَأَمَّا الْمَحْرَمَاتُ الَّتِي عَلَيْهِ: فَالْكِبَرُ، وَالرِّيَاءُ، وَالْعُجْبُ، وَالْحَسَدُ،
وَالْغَفْلَةُ، وَالنَّفَاقُ، وَهِيَ نَوْعَانِ: كُفْرٌ، وَمَعْصِيَةٌ.

فَالْكُفْرُ: كَالشَّكِّ، وَالنَّفَاقِ، وَالشَّرْكِ، وَتَوَابِعُهَا.

وَالْمَعْصِيَةُ نَوْعَانِ: كِبَائِرٌ، وَصَغَائِرٌ.

فَالْكِبَائِرُ: كَالرِّيَاءِ، وَالْعُجْبِ، وَالْكِبَرِ، وَالْفَخْرِ، وَالْخِيَلَاءِ، وَالْقَنُوطِ
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْفَرَحِ
وَالسُّرُورِ بِأَذَى الْمُسْلِمِينَ، وَالشَّمَاتَةِ بِمُصِيبَتِهِمْ، وَمَحَبَّةِ أَنْ تَشِيعَ
الْفَاحِشَةُ فِيهِمْ، وَحَسَدِهِمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَتَمَنِّي زَوَالِ
ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَتَوَابِعُ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ
الْخَمْرِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْكِبَائِرِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا صَلَاحَ لِلْقَلْبِ وَلَا لِلْجَسَدِ إِلَّا
بِاجْتِنَابِهَا، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا، وَإِلَّا فَهُوَ قَلْبٌ فَاسِدٌ، وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَ
الْبَدَنُ.

وَهَذِهِ الْأَفَاتُ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْجَهْلِ بِعُبُودِيَّةِ الْقَلْبِ، وَتَرَكِ الْقِيَامِ بِهَا.
فَوَظِيفَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَى الْقَلْبِ قَبْلَ الْجَوَارِحِ، فَإِذَا جَهَلَهَا
وَتَرَكِ الْقِيَامَ بِهَا امْتِلَاءً بِأَضْدَادِهَا وَلَا بُدَّ، وَبِحَسَبِ قِيَامِهِ بِهَا يَتَخَلَّصُ
مِنْ أَضْدَادِهَا.

وَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا قَدْ تَكُونُ صَغَائِرَ فِي حَقِّهِ، وَقَدْ تَكُونُ كِبَائِرَ،

بَحَسَبِ قُوَّتِهَا وَغِلْظِهَا، وَخَفَّتِهَا وَدَقَّتِهَا.

وَمِنَ الصَّغَائِرِ أَيْضًا: شَهْوَةُ الْمَحَرَّمَاتِ وَتَمَنِّيْهَا، وَتَفَاوُتُ دَرَجَاتِ الشَّهْوَةِ فِي الْكِبَرِ وَالصَّغَرِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ دَرَجَاتِ الْمُشْتَهَى، فَشَهْوَةُ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ كُفْرٌ، وَشَهْوَةُ الْبِدْعَةِ فَسُقٌ، وَشَهْوَةُ الْكِبَائِرِ مَعْصِيَةٌ، فَإِنْ تَرَكَهَا لِلَّهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا أُثِيبَ، وَإِنْ تَرَكَهَا عَجْزًا بَعْدَ بَذْلِهِ مَقْدُورِهِ فِي تَحْصِيلِهَا اسْتَحَقَّ عُقُوبَةَ الْفَاعِلِ، لِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَتَهُ فِي أَحْكَامِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَإِنْ لَمْ يَنْزَلْ مَنْزِلَتَهُ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ، قَالُوا: هَذَا الْقَاتِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا بِالْأَقْتُولِ ؟، قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » ^(١)، فَزَلَّ مَنْزِلَةُ الْقَاتِلِ، لِحَرَصِهِ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ، فِي الْإِثْمِ دُونَ الْحُكْمِ، وَلَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. وَقَدْ عَلِمَ بِهَذَا مُسْتَحَبُّ الْقَلْبِ وَمُبَاحُهُ.

عِبُودِيَّةُ اللِّسَانِ الْخَمْسُ:

وَأَمَّا عِبُودِيَّاتُ اللِّسَانِ الْخَمْسُ، فَوَاجِبُهَا النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتِلَاوَةُ مَا يُلْزَمُهُ تِلَاوَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ مَا تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ، وَتَلْفُظُهُ بِالْأَذْكَارِ الْوَاجِبَةِ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَرَسُولُهُ، كَمَا أَمَرَ بِالتَّسْبِيحِ

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣١)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٨٨) .

فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأَمَرَ بِقَوْلِ « رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ » بَعْدَ الْإِعْتِدَالِ،
وَأَمَرَ بِالتَّشَهُّدِ، وَأَمَرَ بِالتَّكْبِيرِ.

وَمِنْ وَاجِبِهِ رَدُّ السَّلَامِ، وَفِي ابْتِدَائِهِ قَوْلَانِ.

وَمِنْ وَاجِبِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْلِيمُ الْجَاهِلِ،
وِإِرْشَادُ الضَّالِّ، وَأَدَاءُ الشَّهَادَةِ الْمُتَعَيَّنَةِ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا مُسْتَحَبُّهُ فَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَدَوَامُ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالْمَذَاكِرَةُ فِي الْعِلْمِ
النَّافِعِ، وَتَوَابِعُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا مُحَرَّمُهُ فَهُوَ النُّطْقُ بِكُلِّ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، كَالنُّطْقِ بِالْبَدْعِ
الْمُخَالَفَةِ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَالِدُّعَاءِ إِلَيْهَا، وَتَحْسِينِهَا وَتَقْوِيَتِهَا،
وَكَالْقَذْفِ وَسَبِّ الْمُسْلِمِ وَأَذَاهُ بِكُلِّ قَوْلٍ، وَالْكَذِبِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ،
وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَهُوَ أَشَدُّهَا تَحْرِيمًا.

وَمَكْرُوهُهُ التَّكَلُّمُ بِمَا تَرَكُهُ خَيْرٌ مِنَ الْكَلَامِ بِهِ، مَعَ عَدَمِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ هَلْ فِي حَقِّهِ كَلَامٌ مُبَاحٌ، مُتَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ؟
عَلَى قَوْلَيْنِ، ذَكَرَهُمَا ابْنُ الْمُنْذِرِ وَغَيْرُهُ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَخْلُو كُلُّ مَا يَتَكَلَّمُ
بِهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي حَقِّهِ شَيْءٌ لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ.

وَاحْتَجُّوا بِالْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ، وَهُوَ « كُلُّ كَلَامٍ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا

مَا كَانَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ» (١).

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ كَلَامُهُ كُلُّهُ، وَلَا يُكْتَبُ إِلَّا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ.
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ هَذَا الْكَلَامُ مُبَاحٌ، لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ، كَمَا فِي حَرَكَاتِ
الْجَوَارِحِ.

قَالُوا: لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَلَامِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَهَذَا شَأْنُ
الْمُبَاحِ.

وَالْتَحْقِيقُ: أَنَّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ بِالْكَلامِ لَا تَكُونُ مُتَسَاوِيَةً الطَّرْفَيْنِ، بَلْ
إِمَّا رَاجِحَةً وَإِمَّا مَرْجُوحَةً، لِأَنَّ لِلِّسَانَ شَأْنًا لَيْسَ لِسَائِرِ الْجَوَارِحِ، وَإِذَا
أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّمَا
نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اغْوَجَجْتَ اغْوَجَجْنَا، وَأَكْثَرُ مَا
يُكَبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَكُلُّ مَا يَتَلَفَّظُ بِهِ
اللِّسَانُ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْ لَا، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ
الرَّاجِحُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ الْمَرْجُوحُ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَرَكَاتِ سَائِرِ
الْجَوَارِحِ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا يَنْتَفِعُ بِتَحْرِيكِهَا فِي الْمُبَاحِ الْمُسْتَوِيِّ الطَّرْفَيْنِ، لِمَا
لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّاحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، فَأُبَيِّحُ لَهُ اسْتِعْمَالَهَا فِيمَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَهُ، وَلَا
مَضَرَّةَ عَلَيْهِ فِيهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا حَرَكََةُ اللِّسَانِ بِهَا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ فَلَا يَكُونُ
إِلَّا مَضَرَّةً، فَتَأَمَّلْهُ.

(١) (ضَعِيفٌ) ضَعَّفَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي ضَعِيفِ الْجَامِعِ (٤٢٨٣).

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ يَتَحَرَّكَ بِهَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مُبَاحَةٌ مُسْتَوِيَّةُ الطَّرْفَيْنِ،
فَيَكُونُ حُكْمُ حَرَكَتِهِ حُكْمَ ذَلِكَ الْفِعْلِ.

قِيلَ: حَرَكَتُهُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا رَاجِحَةٌ، وَعِنْدَ عَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا
مَرْجُوحَةٌ لَا تَفِيدُهُ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ لَا لَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ مُتَسَاوِي الطَّرْفَيْنِ، كَانَتْ حَرَكََةُ اللِّسَانِ
الَّتِي هِيَ الْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ، إِذِ الْوَسَائِلُ تَابِعَةٌ لِلْمَقْصُودِ فِي الْحُكْمِ.

قِيلَ: لَا يَلْزَمُ ذَلِكَ، فَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ مُبَاحًا، بَلْ وَاجِبًا، وَوَسِيلَتُهُ
مَكْرُوهَةٌ كَالْوَفَاءِ بِالطَّاعَةِ الْمُنْدُورَةِ هُوَ وَاجِبٌ، مَعَ أَنَّ وَسِيلَتَهُ وَهُوَ
النَّذْرُ مَكْرُوهٌ مِنْهُي عَنْهُ، وَكَذَلِكَ الْحَلْفُ الْمَكْرُوهُ مَرْجُوحٌ، مَعَ وَجُوبِ
الْوَفَاءِ بِهِ أَوْ الْكِفَّارَةِ، وَكَذَلِكَ سُؤَالُ الْخَلْقِ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَكْرُوهٌ، وَيَبَاحُ
لَهُ الْإِنْتِفَاعُ بِهَا أَخْرَجَتْهُ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، وَهَذَا كَثِيرٌ جَدًّا، فَقَدْ تَكُونُ الْوَسِيلَةُ
مُتَضَمِّنَةً مَفْسَدَةً تُكْرَهُ أَوْ تُحَرَّمُ لِأَجْلِهَا، وَمَا جُعِلَتْ وَسِيلَةً إِلَيْهِ لَيْسَ
بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوهٍ.

عِبُودِيَّةُ الْجَوَارِحِ الْخَمْسُ:

وَأَمَّا الْعِبُودِيَّاتُ الْخَمْسُ عَلَى الْجَوَارِحِ فَعَلَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ مَرْتَبَةً
أَيْضًا، إِذِ الْحَوَاسُّ خَمْسَةٌ، وَعَلَى كُلِّ حَاسَّةٍ خَمْسُ عِبُودِيَّاتٍ.

فَعَلَى السَّمْعِ وَجُوبُ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ لِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

عَلَيْهِ، مَنْ اسْتَمَاعَ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَفَرَّوْضَهُمَا، وَكَذَلِكَ اسْتَمَاعَ الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ إِذَا جَهَرَ بِهَا الْإِمَامُ، وَاسْتَمَاعَ الْخُطْبَةَ لِلْجُمُعَةِ فِي أَصَحِّ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ.

وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ اسْتِمَاعُ الْكُفْرِ وَالْبَدْعِ، إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ فِي اسْتِمَاعِهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ رَدِّهِ، أَوْ الشَّهَادَةِ عَلَى قَائِلِهِ، أَوْ زِيَادَةِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ بِمَعْرِفَةِ ضِدِّهِمَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْبَدْعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَاسْتِمَاعِ أَسْرَارِ مَنْ يَهْرُبُ عَنْكَ بِسَرِّهِ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُطْلَعَكَ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يَكُنْ مُتَضَمِّنًا لِحَقِّ اللَّهِ يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ، أَوْ لِأَذَى مُسْلِمٍ يَتَعَيَّنُ نَصْحُهُ، وَتَحْذِيرُهُ مِنْهُ.

وَكَذَلِكَ اسْتِمَاعُ أَصْوَاتِ النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ الَّتِي تُخْشَى الْفِتْنَةُ بِأَصْوَاتِهِنَّ، إِذَا لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ مِنْ شَهَادَةٍ، أَوْ مُعَامَلَةٍ، أَوْ اسْتِفْتَاءٍ، أَوْ مُحَاكَمَةٍ، أَوْ مُدَاوَاةٍ وَنَحْوِهَا.

وَكَذَلِكَ اسْتِمَاعُ الْمَعَازِفِ، وَآلَاتِ الطَّرَبِ وَاللَّهْوِ، كَالْعُودِ وَالطُّنْبُورِ وَالْيَرَّاعِ وَنَحْوِهَا، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ سَدُّ أُذُنِهِ إِذَا سَمِعَ الصَّوْتَ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ اسْتِمَاعَهُ، إِلَّا إِذَا خَافَ السُّكُونَ إِلَيْهِ وَالْإِنْصَاتَ، فَحِينَئِذٍ يَجِبُ لِتَجَنُّبِ سَمَاعِهَا وَجُوبِ سَدِّ الذَّرَائِعِ.

وَنَظِيرُ هَذَا : الْمَحْرَمُ لَا يَجُوزُ لَهُ تَعَمُّدُ شَمِّ الطَّيِّبِ، وَإِذَا حَمَلَتْ الرِّيحُ رَائِحَتَهُ وَالْقَتَهَا فِي مَشَامِهِ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ سَدُّ أَنْفِهِ.

وَنَظِيرُ هَذَا : نَظَرَةُ الْفُجَاءَةِ لَا تَحْرُمُ عَلَى النَّاطِرِ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّظَرَةُ الثَّانِيَةُ إِذَا تَعَمَّدَهَا.

وَأَمَّا السَّمْعُ الْمُسْتَحَبُّ فَكَاسْتِمَاعِ الْمُسْتَحَبِّ مِنَ الْعِلْمِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللَّهِ، وَاسْتِمَاعِ كُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَيْسَ بِفَرْضٍ.
وَالْمَكْرُوهُ عَكْسُهُ، وَهُوَ اسْتِمَاعُ كُلِّ مَا يُكْرَهُ وَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ.
وَالْمُبَاحُ ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا النَّظَرُ الْوَاجِبُ : فَالنَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ وَكُتُبِ الْعِلْمِ عِنْدَ تَعَيُّنِ تَعَلُّمِ الْوَاجِبِ مِنْهَا، وَالنَّظَرُ إِذَا تَعَيَّنَ لَتَمْيِيزِ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ فِي الْأَعْيَانِ الَّتِي يَأْكُلُهَا أَوْ يُنْفِقُهَا أَوْ يَسْتَمْتِعُ بِهَا، وَالْأَمَانَاتِ الَّتِي يُؤَدِّيَهَا إِلَى أَرْبَابِهَا لِيُمَيِّزَ بَيْنَهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالنَّظَرُ الْحَرَامُ النَّظَرُ إِلَى الْأَجْنَبِيَّاتِ بِشَهْوَةٍ مُطْلَقًا، وَبَغَيْرِهَا إِلَّا لِحَاجَةٍ، كَنَظَرِ الْخَاطِبِ، وَالْمُسْتَأْمِ وَالْمُعَامِلِ، وَالشَّاهِدِ، وَالْحَاكِمِ، وَالطَّبِيبِ، وَذِي الْمَحْرَمِ.

وَالْمُسْتَحَبُّ النَّظَرُ فِي كُتُبِ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ الَّتِي يَزِدَادُ بِهَا الرَّجُلُ إِيمَانًا وَعِلْمًا، وَالنَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ، وَوُجُوهِ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ وَالْوَالِدِينَ، وَالنَّظَرُ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْهُودَةِ لِيُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.
وَالْمَكْرُوهُ فُضُولُ النَّظَرِ الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُ فُضُولًا كَمَا

لِللِّسَانِ فُضُولًا، وَكَمْ قَادَ فُضُولُهَا إِلَى فُضُولِ عَزِّ التَّخْلُصِ مِنْهَا، وَأُعْيِي دَوَاؤُهَا، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كَانُوا يَكْرَهُونَ فُضُولَ النَّظَرِ، كَمَا يَكْرَهُونَ فُضُولَ الْكَلَامِ.

وَالْمَبَاحُ النَّظَرُ الَّذِي لَا مَضَرَّةَ فِيهِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ وَلَا مَنَفْعَةَ.

وَمِنَ النَّظَرِ الْحَرَامِ: النَّظَرُ إِلَى الْعَوْرَاتِ، وَهِيَ قِسْمَانِ:

عَوْرَةٌ وَرَاءَ الثِّيَابِ، وَعَوْرَةٌ وَرَاءَ الْأَبْوَابِ.

وَلَوْ نَظَرَ فِي الْعَوْرَةِ الَّتِي وَرَاءَ الْأَبْوَابِ فَرَمَاهُ صَاحِبُ الْعَوْرَةِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَذَهَبَتْ هَذِرًا بِنَصِّ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ، وَإِنْ ضَعَفَهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ لَكُونَهُ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّصُّ، أَوْ تَأَوَّلَهُ.

وَهَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاظِرِ سَبَبٌ يُبَاحُ النَّظَرُ لِأَجْلِهِ، كَعَوْرَةٍ لَهُ هُنَاكَ يَنْظُرُهَا، أَوْ رِيْبَةٍ هُوَ مَأْمُورٌ أَوْ مَأْذُونٌ لَهُ فِي الْإِطْلَاعِ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا الذَّوْقُ الْوَاجِبُ: فَتَنَاوُلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عِنْدَ الْاضْطِرَارِ إِلَيْهِ وَخَوْفِ الْمَوْتِ، فَإِنْ تَرَكَهُ حَتَّى مَاتَ، مَاتَ عَاصِيًا قَاتِلًا لِنَفْسِهِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَطَاوُسٌ: مَنْ اضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَلَمْ يَأْكُلْ حَتَّى مَاتَ، دَخَلَ النَّارَ.

وَمِنْ هَذَا تَنَاوُلُ الدَّوَاءِ إِذَا تَيَقَّنَ النِّجَاةَ بِهِ مِنَ الْهَلَاكِ، عَلَى أَصَحِّ

الْقَوْلَيْنِ، وَإِنْ ظَنَّ الشِّفَاءَ بِهِ، فَهَلْ هُوَ مُسْتَحَبٌّ مُبَاحٌ، أَوْ الْأَفْضَلُ تَرْكُهُ؟، فِيهِ نِزَاعٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَالذَّوْقُ الْحَرَامُ: كَذَوْقِ الْخَمْرِ، وَالسُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، وَالذَّوْقِ الْمَمْنُوعِ مِنْهُ لِلصَّوْمِ الْوَاجِبِ.

وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ: فَكَذَوْقُ الْمُشْتَبَهَاتِ، وَالْأَكْلُ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَذَوْقُ طَعَامِ الْفُجَاءَةِ، وَهُوَ الطَّعَامُ الَّذِي تَفَجَّأَ أَكْلُهُ وَلَمْ يُرَدَّ أَنْ يَدْعُوكَ إِلَيْهِ، وَكَأَكْلِ أَطِعمَةِ الْمُرَائِنِ فِي الْوَلَائِمِ وَالِدَّعَوَاتِ وَنَحْوَهَا، وَفِي السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « نَهَى عَنْ طَعَامِ الْمُتَبَارِينِ » ^(١) ، وَذَوْقُ طَعَامٍ مَنْ يُطْعِمُكَ حَيَاءً مِنْكَ لَا بِطَبِيعَةِ نَفْسٍ.

وَالذَّوْقُ الْمُسْتَحَبُّ: أَكْلُ مَا يُعِينُكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، مِمَّا أَدْنَى اللَّهُ فِيهِ، وَالْأَكْلُ مَعَ الضَّيْفِ لِيَطِيبَ لَهُ الْأَكْلُ، فَيَنَالَ مِنْهُ غَرَضُهُ، وَالْأَكْلُ مِنْ طَعَامِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْوَاجِبِ إِجَابَتُهَا أَوْ الْمُسْتَحَبِّ.

وَقَدْ أَوْجَبَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ الْأَكْلَ مِنَ الْوَلِيمَةِ الْوَاجِبِ إِجَابَتُهَا لِلْأَمْرِ بِهِ عَنِ الشَّارِعِ.

وَالذَّوْقُ الْمُبَاحُ: مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِثْمٌ وَلَا رُجْحَانٌ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ الْعُبُودِيَّاتِ الْخُمْسِ بِحَاسَةِ الشَّمِّ، فَالشَّمُّ الْوَاجِبُ: كُلُّ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٦٩٦٥).

شَمَّ تَعَيَّنَ طَرِيقًا لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَالشَّمِّ الَّذِي تُعْلَمُ بِهِ هَذِهِ الْعَيْنُ هَلْ هِيَ خَبِيثَةٌ أَوْ طَيِّبَةٌ؟ ، وَهَلْ هِيَ شَمٌّ قَاتِلٌ أَوْ لَا مَضَرَّةَ فِيهِ؟ ، أَوْ يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ مَا يَمْلِكُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ، وَمَا لَا يَمْلِكُ؟ ، وَمِنْ هَذَا شَمُّ الْمُقَوِّمِ، وَرَبُّ الْخَبْرَةِ عِنْدَ الْحُكْمِ بِالتَّقْوِيمِ، وَشَمُّ الْعَبِيدِ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الشَّمُّ الْحَرَامُ: فَالتَّعَمُّدُ لَشَمِّ الطَّيِّبِ فِي الْإِحْرَامِ، وَشَمُّ الطَّيِّبِ الْمَغْصُوبِ وَالْمَسْرُوقِ، وَتَعَمُّدُ شَمِّ الطَّيِّبِ مِنَ النِّسَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ خَشْيَةَ الْإِفْتِتَانِ بِمَا وَرَاءَهُ.

وَأَمَّا الشَّمُّ الْمُسْتَحَبُّ: فَشَمُّ مَا يُعِينُكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُقَوِّي الْحَوَاسَّ، وَيَبْسِطُ النَّفْسَ لِلْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَمِنْ هَذَا هَدِيَّةُ الطَّيِّبِ وَالرَّيْحَانِ إِذَا أُهْدِيَتْ لَكَ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ عَرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ، خَفِيفُ الْمَحْمَلِ»^(١).

وَالْمَكْرُوهُ: كَشَمِّ طَيِّبِ الظَّلَمَةِ، وَأَصْحَابِ الشُّبُهَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. **وَالْمُبَاحُ:** مَا لَا مَنَعَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ وَلَا تَبِعَةَ، وَلَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ، وَلَا تَعَلُّقٌ لَهُ بِالشَّرْعِ.

وَأَمَّا تَعَلُّقُ هَذِهِ الْخَمْسَةِ بِحَاسَةِ اللَّمَسِ: فَالَلَّمْسُ الْوَاجِبُ كُلَّمَسٍ

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٢٥٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٧٩١) .

الزَّوْجَةَ حِينَ يَجِبُ جَمَاعُهَا، وَالْأَمَةَ الْوَاجِبَ إِعْفَافُهَا.
وَالْحَرَامُ: لَمَسُ مَا لَا يَحِلُّ مِنَ الْأَجْنِيَّاتِ.
وَالْمُسْتَحَبُّ: إِذَا كَانَ فِيهِ غَضُّ بَصَرِهِ، وَكَفُّ نَفْسِهِ عَنِ الْحَرَامِ، وَإِعْفَافُ
 أَهْلِهِ.

وَالْمَكْرُوهُ: لَمَسُ الزَّوْجَةِ فِي الْإِحْرَامِ لِلذَّةِ، وَكَذَلِكَ فِي الْإِعْتِكَافِ،
 وَفِي الصِّيَامِ إِذَا لَمْ يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ.
 وَمَنْ هَذَا لَمَسُ بَدَنِ الْمَيِّتِ لَغَيْرِ غَاسِلِهِ لِأَنَّهُ بَدَنُهُ قَدْ صَارَ بِمَنْزِلَةِ عَوْرَةِ
 الْحَيِّ تَكْرِيمًا لَهُ، وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ سِتْرُهُ عَنِ الْعُيُونِ وَتَغْسِيلُهُ فِي قَمِيصِهِ فِي
 أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، وَلَمَسُ فَخْذِ الرَّجُلِ إِذَا قُلْنَا هِيَ عَوْرَةٌ.
 وَالْمُبَاحُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَفْسَدَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ.
 وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ أَيْضًا مُرْتَبَةٌ عَلَى الْبَطْشِ بِالْيَدِ، وَالْمَشْيِ بِالرَّجْلِ،
 وَأَمْثَلْتُهَا لَا تَخْفَى.

فَالْتَكَسُّبُ الْمَقْدُورُ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ وَاجِبٌ، وَفِي
 وَجُوبِهِ لِقَضَاءِ دَيْنِهِ خِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ وَجُوبُهُ لِيُمْكِنَهُ مِنْ أَدَاءِ دَيْنِهِ،
 وَلَا يَجِبُ لِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَفِي وَجُوبِهِ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ نَظَرٌ، وَالْأَقْوَى
 فِي الدَّلِيلِ وَجُوبُهُ لِدُخُولِهِ فِي الْإِسْتِطَاعَةِ وَتَمَكُّنِهِ بِذَلِكَ مِنْ أَدَاءِ النَّسْكِ،
 وَالْمَشْهُورُ عَدَمُ وَجُوبِهِ.

وَمِنَ الْبَطْشِ الْوَاجِبُ: إِعَانَةُ الْمُضْطَرِّ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ، وَمُبَاشَرَةُ الْوُضُوءِ وَالتَّيَمُّمِ.

وَالْحَرَامُ: كَقَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا، وَنَهَبُ الْمَالِ الْمَعْصُومِ، وَضَرْبُ مَنْ لَا يَحِلُّ ضَرْبُهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَكَأَنْوَاعِ اللَّعِبِ الْمَحْرَمِ بِالنَّصِّ كَالنَّزْدِ، أَوْ مَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَالشَّطْرَنْجِ، أَوْ مِثْلِهِ عِنْدَ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ كَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، أَوْ دُونَهُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَنَحْوُ كِتَابَةِ الْبَدْعِ الْمُخَالَفَةِ لِلْسُّنَّةِ تَصْنِيفًا أَوْ نَسْخًا، إِلَّا مَقْرُونًا بِرَدِّهَا وَنَقْضِهَا، وَكِتَابَةُ الزُّورِ وَالظُّلْمِ، وَالْحُكْمِ الْجَائِرِ، وَالْقَذْفِ وَالتَّشْيِيبِ بِالنِّسَاءِ الْأَجَانِبِ، وَكِتَابَةُ مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَسَبَتْ عَلَيْهِ مَالًا ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَانَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، مِمَّا يَكْسِبُونَ وَكَذَلِكَ كِتَابَةُ الْمُفْتِي عَلَى الْفَتَوَى مَا يَخَالِفُ حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا، فَالْإِثْمُ مَوْضُوعٌ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ: فَكَالْعَبِ وَاللَّعِبِ الَّذِي لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَكِتَابَةُ مَا لَا فَائِدَةَ فِي كِتَابَتِهِ، وَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالْمُسْتَحَبُّ: كِتَابَةُ كُلِّ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ فِي الدِّينِ، أَوْ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِ، وَالْإِحْسَانُ بِيَدِهِ بَأَنْ يَعِينَ صَانِعًا، أَوْ يَصْنَعَ لِأَخْرَقٍ، أَوْ يُفْرِغَ مِنْ دَلْوِهِ

فِي دَلْوِ الْمُسْتَسْقَى، أَوْ يَحْمِلَ لَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، أَوْ يُمَسِّكَهَا حَتَّى يُحْمَلَ عَلَيْهَا،
أَوْ يُعَاوَنَهُ بِيَدِهِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَمِنْهُ لَمَسُ الرُّكْنِ بِيَدِهِ فِي
الطَّوَافِ، وَفِي تَقْبِيلِهَا بَعْدَ اللَّمَسِ قَوْلَانِ.
وَالْمَبَاحُ مَا لَا مَضَرَّةَ فِيهِ وَلَا ثَوَابَ.

وَأَمَّا الْمَشْيُ الْوَاجِبُ: فَالْمَشْيُ إِلَى الْجُمُعَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ فِي أَصَحِّ
الْقَوْلَيْنِ لِبَضْعَةِ وَعِشْرِينَ دَلِيلًا مَذْكُورَةً فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَالْمَشْيُ
حَوْلَ الْبَيْتِ لِلطَّوَافِ الْوَاجِبِ، وَالْمَشْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بِنَفْسِهِ أَوْ
بِمَرْكُوبِهِ، وَالْمَشْيُ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ، وَالْمَشْيُ إِلَى صَلَاةِ
رَحْمِهِ، وَبِرِّ وَالِدَيْهِ، وَالْمَشْيُ إِلَى مَجَالِسِ الْعِلْمِ الْوَاجِبِ طَلَبُهُ وَتَعَلُّمُهُ،
وَالْمَشْيُ إِلَى الْحَجِّ إِذَا قَرَّبَتِ الْمَسَافَةُ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهِ ضَرَرٌ.

وَالْحَرَامُ: الْمَشْيُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْ رَجُلِ الشَّيْطَانِ، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٤]، قَالَ مُقَاتِلٌ: اسْتَعْنُ
عَلَيْهِمْ بِرُكْبَانِ جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ، فَكُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ
مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ.

وَكَذَلِكَ تَتَعَلَّقُ هَذِهِ الْأَحْكَامُ الْخَمْسُ بِالرُّكُوبِ أَيْضًا.

فَوَاجِبُهُ: فِي الرُّكُوبِ فِي الْغَزْوِ، وَالْجِهَادِ، وَالْحَجِّ الْوَاجِبِ.

وَمُسْتَحَبُّهُ: فِي الرُّكُوبِ الْمُسْتَحَبِّ مِنْ ذَلِكَ، وَلِطَلَبِ الْعِلْمِ، وَصِلَةِ

الرَّحِم، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَفِي الْوُقُوفِ بَعْرَفَةٌ نَزَاعٌ هَلِ الرُّكُوبُ فِيهِ أَفْضَلُ، أَمْ عَلَى الْأَرْضِ؟، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الرُّكُوبَ أَفْضَلُ إِذَا تَضَمَّنَ مَصْلَحَةً مِنْ تَعْلِيمٍ لِلْمَنَاسِكِ، وَاقْتِدَاءٍ بِهِ، وَكَانَ أَعُونَ عَلَى الدُّعَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الدَّابَّةِ.

وَحَرَامُهُ: الرُّكُوبُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

وَمَكْرُوهُهُ: الرُّكُوبُ لِلْهُوِّ وَاللَّعِبِ، وَكُلُّ مَا تَرَكُهُ خَيْرٌ مِنْ فِعْلِهِ.

وَمُبَاحُهُ: الرُّكُوبُ لِمَا لَمْ يَتَضَمَّنْ فَوْتَ أَجْرٍ، وَلَا تَحْصِيلَ وَزْرِ.

فَهَذِهِ خَمْسُونَ مَرْتَبَةً عَلَى عَشْرَةِ أَشْيَاءَ: الْقَلْبُ، وَاللِّسَانُ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ، وَالْأَنْفُ، وَالْفَمُ، وَالْيَدُ، وَالرَّجُلُ، وَالْفَرْجُ، وَالِاسْتِوَاءُ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ.

مَرَاتِبُ التَّمَحِيصِ:

وَهَذَا التَّمَحِيصُ يَكُونُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ:

بِالتَّوْبَةِ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَعَمَلِ الْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، وَالْمَصَائِبِ الْمَكْفِرَةِ، فَإِنْ مَحَّصَتْهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ وَخَلَّصَتْهُ كَانَ مِنَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ، يُبَشِّرُونَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ ﴿ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى

أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾
[فُصِّلَتْ: ٣٠-٣٢].

وَأِنْ لَمْ تَفْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ بِتَمْحِصِهِ وَتَخْلِصِهِ، فَلَمْ تَكُنِ التَّوْبَةُ نَصُوحًا وَهِيَ الْعَامَّةُ الشَّامِلَةُ الصَّادِقَةُ وَلَمْ يَكُنِ الْاسْتِغْفَارُ النَّافِعُ، لَا اسْتِغْفَارَ مَنْ فِي يَدِهِ قَدْحُ السُّكْرِ، وَهُوَ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِلَى فِيهِ، وَلَمْ تَكُنِ الْحَسَنَاتُ فِي كَمِّيَّتِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا وَافِيَةً بِالتَّكْفِيرِ، وَلَا الْمَصَائِبُ، وَهَذَا إِمَّا لِعَظَمِ الْجَنَايَةِ، وَإِمَّا لِضَعْفِ الْمُحْصِصِ، وَإِمَّا لِهَمٍّ - مُحْصَصٍ فِي الْبَرْزَخِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: صَلَاةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْجِنَازَةِ عَلَيْهِ، وَاسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ، وَشَفَاعَتُهُمْ فِيهِ.

الثَّانِي: تَمْحِصُهُ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَرَوْعَةِ الْفِتَانِ، وَالْعَصْرَةِ وَالِانْتِهَارِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ.

الثَّلَاثُ: مَا يَهْدِي إِخْوَانُهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِ مِنْ هَدَايَا الْأَعْمَالِ، مِنَ الصَّدَقَةِ عَنْهُ، وَالْحَجِّ، وَالصِّيَامِ عَنْهُ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَنْهُ، وَالصَّلَاةِ، وَجَعَلَ ثَوَابَ ذَلِكَ لَهُ، وَقَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى وُصُولِ الصَّدَقَةِ وَالِدُعَاءِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، وَمَا عَدَاهُمَا فِيهِ اخْتِلَافٌ، وَالْأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ بِوُصُولِ الْحَجِّ، وَأَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ: إِنَّمَا يَصِلُ إِلَيْهِ ثَوَابُ الْإِنْفَاقِ،

وَأَحْمَدُ وَمَنْ وَافَقَهُ مَذْهَبُهُمْ فِي ذَلِكَ أَوْسَعُ الْمَذَاهِبِ، يَقُولُونَ: يَصِلُ إِلَيْهِ ثَوَابُ جَمِيعِ الْقُرْبِ، بِدَنِّيَّهَا وَمَالِيَّهَا، وَالْجَامِعُ لِلْأَمْرَيْنِ .

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ « يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٌ أَبْرَهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ »، قَالَ: « نَعَمْ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ » ^(١)، وَقَدْ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ » ^(٢) .

فَإِنْ لَمْ تَفِ هَذِهِ بِالْتَّمَحِيصِ، مُحْصَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ فِي الْمَوْقِفِ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ، وَشِدَّةُ الْمَوْقِفِ، وَشَفَاعَةُ الشُّفَعَاءِ، وَعَفْوُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

فَإِنْ لَمْ تَفِ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ بِتَمَحِيصِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ دُخُولِ الْكَبِيرِ، رَحْمَةً فِي حَقِّهِ لِيَتَخَلَّصَ وَيَتَمَحَّصَ، وَيَتَطَهَّرَ فِي النَّارِ، فَتَكُونَ النَّارُ طَهْرَةً لَهُ وَتَمَحِيصًا لِحَبِثِهِ، وَيَكُونُ مُكْتَهُ فِيهَا عَلَى حَسَبِ كَثْرَةِ الْحَبِثِ وَقِلَّتِهِ، وَشِدَّتِهِ وَضَعْفِهِ وَتَرَاكُمِهِ، فَإِذَا خَرَجَ حَبِثُهُ وَصَفِيَّ ذَهَبُهُ، وَصَارَ خَالِصًا طَيِّبًا، أَخْرَجَ مِنَ النَّارِ، وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ .

(١) (ضَعِيفٌ) ضَعَّفَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (١١٠١) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٥٢)، وَمُسْلِمٌ (١١٤٧) .

تأمل إلى عظمة من عصيت :

مَنْ كَمَلَتْ عَظْمَةُ الْحَقِّ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ عَظُمَتْ عِنْدَهُ مُخَالَفَتُهُ، لِأَنَّ مُخَالَفَةَ الْعَظِيمِ لَيْسَتْ كَمُخَالَفَةِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ وَحَقِيقَتَهَا، وَفَقَّرَهَا الذَّاتِيَّ إِلَى مَوْلَاهَا الْحَقِّ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفْسٍ، وَشِدَّةَ حَاجَتِهَا إِلَيْهِ، عَظُمَتْ عِنْدَهُ جِنَايَةُ الْمُخَالَفَةِ لِمَنْ هُوَ شَدِيدُ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفْسٍ.

وَأَيْضًا فَإِذَا عَرَفَ حَقَارَتَهَا مَعَ عِظَمِ قَدْرِ مَنْ خَالَفَهُ عَظُمَتْ الْجِنَايَةُ عِنْدَهُ، فَشَمَّرَ فِي التَّخْلُصِ مِنْهَا، وَبَحَسَبَ تَصْذِيقَهُ بِالْوَعِيدِ وَيَقِينَهُ بِهِ، يَكُونُ تَشْمِيرُهُ فِي التَّخْلُصِ مِنَ الْجِنَايَةِ الَّتِي تَلْحَقُ بِهِ.

الْمُنْتَفِعُونَ بِالآيَاتِ :

وَمَدَارُ السَّعَادَةِ، وَقُطْبُ رَحَاهَا عَلَى التَّصْذِيقِ بِالْوَعِيدِ، فَإِذَا تَعَطَّلَ مِنْ قَلْبِهِ التَّصْذِيقُ بِالْوَعِيدِ خَرَبَ خَرَابًا لَا يُرْجَى مَعَهُ فَلَاحُ الْبَتَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ لِمَنْ صَدَّقَ بِالْوَعِيدِ، وَخَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُقْصُودُونَ بِالْإِنْذَارِ، وَالْمُنْتَفِعُونَ بِالْآيَاتِ دُونَ مَنْ عَدَاهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هُود: ١٠٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ [٤٥]، [النَّازِعَات: ٤٥]، وَقَالَ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]،

وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ أَهْلَ النَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هُمُ الْمَصْدُقُونَ بِالْوَعِيدِ،
الْحَائِفُونَ مِنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنْسُكِّنَكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (١٤) [إِبْرَاهِيم: ١٤].

التَّوْبَةُ وَسَطٌ بَيْنَ مُحَاسَبَتَيْنِ:

التَّوْبَةُ بَيْنَ مُحَاسَبَتَيْنِ، مُحَاسَبَةٍ قَبْلَهَا، تَقْتَضِي وَجُوبَهَا، وَمُحَاسَبَةٍ بَعْدَهَا،
تَقْتَضِي حِفْظَهَا، فَالتَّوْبَةُ مُحْفُوفَةٌ بِمُحَاسَبَتَيْنِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى الْمُحَاسَبَةِ قَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾
[الحشر: ١٨]، فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ الْعَبْدَ أَنْ يَنْظُرَ مَّا قَدَّمَ لِغَدٍ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ
مُحَاسَبَةَ نَفْسِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَالنَّظَرَ هَلْ يَصْلُحُ مَّا قَدَّمَهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ بِهِ أَوْ
لَا يَصْلُحُ؟.

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا النَّظَرِ مَّا يُوجِبُهُ وَيَقْتَضِيهِ، مِنْ كَمَالِ الْإِسْتِعْدَادِ
لِيَوْمِ الْمَعَادِ، وَتَقْدِيمِ مَّا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَيُبَيِّضُ وَجْهَهُ عِنْدَ اللَّهِ،
وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ
أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزِينُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ
﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، أَوْ قَالَ:
عَلَى مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ» (١).

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْقِيَامَةِ بَابِ «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ...».

سوء الظن بالنفس :

وَأَمَّا سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ فَإِنَّمَا احتَاجَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ
يَمْنَعُ مِنْ كَمَالِ التَّفَتِيشِ وَيَلْبَسُ عَلَيْهِ، فَيَرَى الْمَسَاوِيَ مُحَاسِنَ، وَالْعُيُوبَ
كَمَا لَا، فَإِنَّ الْمُحِبَّ يَرَى مَسَاوِيَ مُحْبُوبِهِ وَعُيُوبَهُ كَذَلِكَ.

فَعَيْنُ الرِّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْذِي الْمَسَاوِيَا
وَلَا يُسِيءُ الظَّنُّ بِنَفْسِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَمَنْ أَحْسَنَ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ فَهُوَ
مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِنَفْسِهِ.

الرضا بالطاعة :

رِضَاءُ الْعَبْدِ بِطَاعَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ، وَجَهْلِهِ بِحُقُوقِ
الْعُبُودِيَّةِ، وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ - جَلَّ جَلَالُهُ - وَيَلِيقُ أَنْ
يُعَامَلَ بِهِ.

وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ جَهْلَهُ بِنَفْسِهِ وَصِفَاتِهَا وَأَفَاتِهَا وَعُيُوبَ عَمَلِهِ،
وَجَهْلَهُ بِرَبِّهِ وَحُقُوقِهِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ بِهِ، يَتَوَلَّدُ مِنْهَا رِضَاءُ بِطَاعَتِهِ،
وَإِحْسَانُ ظَنِّهِ بِهَا، وَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَجَبِ وَالْكَبْرِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ
أَكْبَرُ مِنَ الْكِبَائِرِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الزَّنا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ
وَنَحْوِهَا.

فَالرَّضَا بِالطَّاعَةِ مِنْ رَعُونَاتِ النَّفْسِ وَحِمَاقَتِهَا.

وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقِيبَ
الطَّاعَاتِ، لَشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرَكَ الْقِيَامَ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ
بَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمْرُ لَمَا أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ
الْعُبُودِيَّةِ، وَلَا رَضِيَهَا لِسَيِّدِهِ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَفَدَهُ وَحُجَّاجَ بَيْتِهِ بِأَنْ يَسْتَغْفِرُوهُ عُقِيبَ
إِفَاضَتِهِمْ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَهُوَ أَجَلُ الْمَوَاقِفِ وَأَفْضَلُهَا، فَقَالَ ﴿فَإِذَا
أَفْضَضْتُمْ مِنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ
الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ
الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

قَالَ الْحَسَنُ: مَدُّوا الصَّلَاةَ إِلَى السَّحَرِ، ثُمَّ جَلَسُوا يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ
-عَزَّ وَجَلَّ-، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ
إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ،
وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» ^(١)، وَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى
بِالِاسْتِغْفَارِ بَعْدَ آدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَالْقِيَامِ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ أَعْبَائِهَا، وَقَضَاءِ

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٩١)، وَأَبُو دَاوُدَ (١٥١٣).

فَرَضَ الْحَجَّ، وَاقْتَرَبَ أَجَلَهُ، فَقَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [النصر].

وَمِنْ هَاهُنَا فَهَمَّ عُمَرُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّ هَذَا أَجَلَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْلَمَهُ بِهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ عُقِيبَ آدَاءِ مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَكَانَ إِعْلَامٌ بِأَنَّكَ قَدْ آدَيْتَ مَا عَلَيْكَ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ شَيْءٌ، فَاجْعَلْ خَاتِمَتَهُ الْاسْتِغْفَارَ، كَمَا كَانَ خَاتِمَةَ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَقِيَامِ اللَّيْلِ، وَخَاتِمَةَ الْوُضُوءِ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ بَعْدَ فَرَاغِهِ «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (١).

«اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ» (٢).

فَهَذَا شَأْنٌ مَنْ عَرَفَ مَا يَنْبَغِي لِلَّهِ، وَيَلِيقُ بِجَلَالِهِ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِيَّةِ وَشَرَائِطِهَا، لَا جَهْلَ أَصْحَابِ الدَّعَاوِي وَشَطَحَاتِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: مَتَى رَضِيتَ نَفْسَكَ وَعَمَلَكَ لِلَّهِ، فَاْعَلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ

(١) (صَحِيحٌ): رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢٠٥٩).

(٢) (صَحِيحٌ): رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٤٨).

راض به، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّ نَفْسَهُ مَأْوَى كُلِّ عَيْبٍ وَشَرٍّ، وَعَمَلَهُ عُرْضَةٌ
لِكُلِّ آفَةٍ وَنَقْصٍ، كَيْفَ يَرْضَى اللَّهُ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ؟.

وَلِلَّهِ دُرُّ الشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ حَيْثُ يَقُولُ: مَنْ تَحَقَّقَ بِالْعُبُودِيَّةِ نَظَرَ أَفْعَالَهُ
بَعَيْنِ الرِّيَاءِ، وَأَحْوَالَهُ بَعَيْنِ الدَّعْوَى، وَأَقْوَالَهُ بَعَيْنِ الْاِفْتِرَاءِ، وَكُلَّمَا
عَظُمَ الْمَطْلُوبُ فِي قَلْبِكَ، صَغُرَتْ نَفْسُكَ عِنْدَكَ، وَتَضَاعَلَتِ الْقِيَمَةُ
الَّتِي تَبْذُلُهَا فِي تَحْصِيلِهِ، وَكُلَّمَا شَهِدْتَ حَقِيقَةَ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ،
وَعَرَفْتَ اللَّهَ، وَعَرَفْتَ النَّفْسَ، وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا مَعَكَ مِنَ الْبُضَاعَةِ لَا
يَصْلُحُ لِلْمَلِكِ الْحَقِّ، وَلَوْ جِئْتَ بِعَمَلِ الثَّقَلَيْنِ خَشِيتَ عَاقِبَتَهُ وَإِنَّمَا يَقْبَلُهُ
بِكْرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ، وَيُثِيبُكَ عَلَيْهِ أَيْضًا بِكْرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ.

التَّغْيِيرُ بِالْمَعْصِيَةِ:

أَنَّ تَغْيِيرَكَ لِأَخِيكَ بِذَنْبِهِ أَعْظَمُ إِثْمًا مِنْ ذَنْبِهِ وَأَشَدُّ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، لِمَا
فِيهِ مِنْ صَوْلَةِ الطَّاعَةِ، وَتَرْكِةِ النَّفْسِ، وَشُكْرِهَا، وَالْمُنَادَاةِ عَلَيْهَا بِالْبَرَاءَةِ
مِنَ الذَّنْبِ، وَأَنَّ أَخَاكَ بَاءَ بِهِ، وَلَعَلَّ كَسْرَتَهُ بِذَنْبِهِ، وَمَا أَحْدَثَ لَهُ مِنْ
الذَّلَّةِ وَالْخُضُوعِ، وَالْإِزْرَاءِ عَلَى نَفْسِهِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ مَرَضِ الدَّعْوَى،
وَالْكِبَرِ وَالْعُجْبِ، وَوُقُوفِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ نَاكِسَ الرَّأْسِ، خَاشِعَ الطَّرْفِ،
مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ أَنْفَعُ لَهُ، وَخَيْرٌ مِنْ صَوْلَةِ طَاعَتِكَ، وَتَكْثُرِكَ بِهَا وَالْاِعْتِدَادِ
بِهَا، وَالْمِنَّةِ عَلَى اللَّهِ وَخَلْقِهِ بِهَا، فَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْعَاصِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؟!

وَمَا أَقْرَبَ هَذَا الْمَدْلُ مِنْ مَقْتِ اللَّهِ، فَذَنْبٌ تَذَلُّ بِهِ لَدَيْهِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَةٍ تُدَلُّ بِهَا عَلَيْهِ، وَإِنَّكَ أَنْ تَبَيْتَ نَائِمًا وَتُصْبِحَ نَادِمًا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبَيْتَ قَائِمًا وَتُصْبِحَ مُعْجَبًا، فَإِنَّ الْمُعْجَبَ لَا يَصْعَدُ لَهُ عَمَلٌ، وَإِنَّكَ إِنْ تَضَحَّكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِي وَأَنْتَ مُدَلٌّ، وَأَيْنُ الْمُذْنِبِينَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ زَجَلِ الْمُسَبِّحِينَ الْمُدِّينَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَسْقَاهُ بِهَذَا الذَّنْبِ دَوَاءً اسْتَخْرَجَ بِهِ دَاءَ قَاتِلًا هُوَ فِيكَ وَلَا تَشْعُرُ.

فَلِلَّهِ فِي أَهْلِ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ أَسْرَارٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَلَا يُطَالِعُهَا إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ، فَيَعْرِفُونَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا تَنَالَهُ مَعَارِفُ الْبَشَرِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِذَا زَنْتَ أُمَّةً أَحَدِكُمْ، فَلْيُقِمَّ عَلَيْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثْرَبْ » ^(١)، أَيُ: لَا يُعَيَّرُ، مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِإِخْوَتِهِ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، فَإِنَّ الْمِيزَانَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالْحُكْمَ لِلَّهِ، فَالْسَّوْطُ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ هَذَا الْعَاصِي بِيَدِ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ، وَالْقَصْدُ إِقَامَةُ الْحَدِّ لَا التَّغْيِيرُ وَالتَّثْرِيبُ، وَلَا يَأْمَنُ كَرَّاتِ الْقَدَرِ وَسَطَوْتُهُ إِلَّا أَهْلُ الْجَهْلِ بِاللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَا أَعْلَمُ الْخَلْقَ بِهِ، وَأَقْرَبَهُمْ إِلَيْهِ وَسِيلَةً: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وَقَالَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢١٥٢)، وَمُسْلِمٌ (١٧٠٣) .

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

وَكَانَتْ عَامَّةٌ يَمِينُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ " (١) .

وَقَالَ : " مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزَيِّغَهُ أَرَاغَهُ " (٢) ، ثُمَّ قَالَ : " اللَّهُمَّ مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ " (٣) ، " اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ " (٤) .

حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى التَّوْبَةِ :

وَمَنْزِلُ التَّوْبَةِ أَوَّلُ الْمَنَازِلِ ، وَأَوْسَطُهَا ، وَآخِرُهَا ، فَلَا يُفَارِقُهُ الْعَبْدُ السَّالِكُ ، وَلَا يَزَالُ فِيهِ إِلَى الْمَمَاتِ ، وَإِنْ ارْتَحَلَ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ ارْتَحَلَ بِهِ ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ وَنَزَلَ بِهِ ، فَالتَّوْبَةُ هِيَ بَدَايَةُ الْعَبْدِ وَنَهَايَتُهُ ، وَحَاجَتُهُ إِلَيْهَا فِي النَّهَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ ، كَمَا أَنَّ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا فِي الْبَدَايَةِ كَذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣١] ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي سُورَةِ مَدِينَةٍ ، خَاطَبَ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٦١٧-٦٦٢٨) .

(٢) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَهَ» (١٦٥) .

(٣) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٧٣٩) .

(٤) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٤) .

اللَّهُ بِهَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَخِيَارَ خَلْقِهِ أَنْ يُتُوبُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ، وَهَجَرَتِهِمْ وَجَهَادِهِمْ، ثُمَّ عَلَّقَ الْفَلَاحَ بِالتَّوْبَةِ تَعْلِيقَ الْمُسَبَّبِ بِسَبَبِهِ، وَأَتَى بِأَدَاةٍ لَعَلَّ الْمُشْعِرَةَ بِالترَّجِي، إِيدَانًا بِأَنْتَكُمْ إِذَا تَبَّيْتُمْ كُنْتُمْ عَلَى رَجَاءِ الْفَلَاحِ، فَلَا يَرْجُو الْفَلَاحَ إِلَّا التَّائِبُونَ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.

وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ :

قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحُجُرَات: ١١]، قَسَمَ الْعِبَادَ إِلَى تَائِبٍ وَظَالِمٍ، وَمَا تَمَّ قَسَمُ ثَالِثِ الْبَتَّةِ، وَأَوْقَعَ اسْمَ الظَّالِمِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْهُ، لَجْهَلِهِ بِرَبِّهِ وَبِحَقِّهِ، وَبَعِيبِ نَفْسِهِ وَأَفَاتِ أَعْمَالِهِ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً »^(١)، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يُعَدُّونَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ -مِائَةَ مَرَّةً- »^(٢)، وَمَا صَلَّى صَلَاةً قَطُّ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إِلَى آخِرِهَا، إِلَّا قَالَ فِيهَا: « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي »^(٣).

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (١٥١٥).

(٢) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٧٣١).

(٣) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩٦٩).

وَصَحَّ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(١) .

تَعْرِيفُ التَّوْفِيقِ وَالْخُذْلَانِ :

أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ عَلَى أَنَّ الْخُذْلَانَ: أَنْ يَكِلَكَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِكَ، وَيُخَلِّي بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، وَالتَّوْفِيقَ: أَنْ لَا يَكِلَكَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِكَ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ التَّخْلِيَةِ - بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذَّنْبِ وَخُذْلَانِكَ حَتَّى وَقَعْتَهُ - حِكْمٌ وَأَسْرَارٌ .

الْفَرْحُ بِالْمَعْصِيَةِ :

الْفَرْحُ بِالْمَعْصِيَةِ دَلِيلٌ عَلَى شِدَّةِ الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَالْجَهْلُ بِقَدْرِ مَنْ عَصَاهُ، وَالْجَهْلُ بِسُوءِ عَاقِبَتِهَا وَعِظَمِ خَطَرِهَا، فَفَرَحُهُ بِهَا غَطَى عَلَيْهِ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَفَرَحُهُ بِهَا أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِ مِنْ مُوَاقَعَتِهَا، وَالْمُؤْمِنُ لَا تَتِمُّ لَهُ لَذَّةُ بِمَعْصِيَةِ أَبَدًا، وَلَا يَكْمُلُ بِهَا فَرَحُهُ، بَلْ لَا يُبَاشِرُهَا إِلَّا وَالْحُزْنَ مُخَالِطًا لِقَلْبِهِ، وَلَكِنَّ سُكْرَ الشَّهْوَةِ يَحْجِبُهُ عَنِ الشُّعُورِ بِهِ، وَمَتَى خَلَّى قَلْبُهُ مِنْ هَذَا الْحُزَنِ، وَاشْتَدَّتْ غِبْطَتُهُ وَسُرُورُهُ فَلْيَتَّهَمِ إِيْمَانَهُ، وَلْيَبْكْ عَلَى مَوْتِ قَلْبِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ حَيًّا لَأَحْزَنَهُ ارْتِكَابُهُ لِلذَّنْبِ، وَغَاظَهُ وَصَعَبَ عَلَيْهِ، وَلَا يُحِسُّ الْقَلْبُ بِذَلِكَ، فَحَيْثُ لَمْ يُحِسَّ بِهِ فَمَا لَجُرْحٍ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٧٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٦) بِلَفْظٍ آخَرَ .

بِمَيِّتٍ إِيْلَامٍ.

الإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى :

الإِصْرَارُ: هُوَ الاسْتِقْرَارُ عَلَى الْمُخَالَفَةِ، وَالْعَزْمُ عَلَى الْمُعَاوَدَةِ، وَذَلِكَ ذَنْبٌ آخَرُ، لَعَلَّهُ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الْأَوَّلِ بِكَثِيرٍ، وَهَذَا مِنْ عُقُوبَةِ الذَّنْبِ أَنَّهُ يُوجِبُ ذَنْبًا أَكْبَرَ مِنْهُ، ثُمَّ الثَّانِي كَذَلِكَ، ثُمَّ الثَّلَاثُ كَذَلِكَ، حَتَّى يَسْتَحْكَمَ الْهَلَاكُ.

فَالِإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى، وَالْقُعُودُ عَنْ تَدَارُكِ الْفَارِطِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِصْرَارٌ وَرِضًا بِهَا، وَطُمَأْنِينَةٌ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ عَلَامَةٌ الْهَلَاكِ، وَأَشَدُّ مِنْ هَذَا كُلُّهُ الْمَجَاهَرَةُ بِالذَّنْبِ مَعَ تَيَقُّنِ نَظَرِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ إِلَيْهِ، فَإِنْ آمَنَ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَأَقْدَمَ عَلَى الْمَجَاهَرَةِ فَعَظِيمٌ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْهِ فَكُفْرٌ، وَانْسِلَاخٌ مِنَ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ.

فَهُوَ دَائِرَتَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: بَيْنَ قَلَّةِ الْحَيَاءِ وَمَجَاهَرَةِ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِنْسِلَاخِ مِنَ الدِّينِ، فَلِذَلِكَ يُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ التَّوْبَةِ تَيَقُّنُهُ أَنَّ اللَّهَ كَانَ نَاطِرًا - وَلَا يَزَالُ - إِلَيْهِ مُطَّلِعًا عَلَيْهِ، يَرَاهُ جَهْرَةً عِنْدَ مُوَاقَعَةِ الذَّنْبِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَصَحُّ إِلَّا مِنْ مُسْلِمٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ جَاحِدًا لَهُ، فَتَوْبَتُهُ دُخُولُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِقْرَارُهُ بِصِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ :

فَحَقِيقَةُ التَّوْبَةِ: هِيَ النَّدَمُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي، وَالْإِقْلَاعُ عَنْهُ فِي الْحَالِ، وَالْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَالثَّلَاثَةُ تَجْتَمِعُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ التَّوْبَةُ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَنْدَمُ، وَيَقْلَعُ، وَيَعَزِّمُ.

فَحِينَئِذٍ يَرْجِعُ إِلَى الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا، وَهَذَا الرُّجُوعُ هُوَ حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ.

عَلَامَاتُ قَبُولِ التَّوْبَةِ :

فَالتَّوْبَةُ الْمَقْبُولَةُ الصَّحِيحَةُ لَهَا عَلَامَاتٌ:

مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلُهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يَزَالُ الْخَوْفُ مُصَاحِبًا لَهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَخَوْفُهُ مُسْتَمِرٌّ إِلَى أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَ الرُّسُلِ لِقَبْضِ رُوحِهِ أَنْ ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠]، فَهَنَّاكَ يَزُولُ الْخَوْفُ.

وَمِنْهَا: انْخِلَاعُ قَلْبِهِ، وَتَقَطُّعُهُ نَدَمًا وَخَوْفًا، وَهَذَا عَلَى قَدَرِ عَظَمِ الْجَنَائِيَةِ وَصِغَرِهَا، وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عُيَيْنَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَزَالُ

بَيْنَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴿١١٠﴾ [التَّوْبَةُ: ١١٠]، قَالَ: تَقَطُّعُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ مِنَ الْعُقُوبَةِ الْعَظِيمَةِ يُوجِبُ انْصِدَاعَ الْقَلْبِ وَانْخِلَاعَهُ، وَهَذَا هُوَ تَقَطُّعُهُ، وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ، لِأَنَّهُ يَتَقَطَّعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَخَوْفًا مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَطَّعْ قَلْبُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا فَرَطَ حَسْرَةً وَخَوْفًا، تَقَطَّعَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ، وَعَايَنَ ثَوَابَ الْمُطِيعِينَ، وَعِقَابَ الْعَاصِينَ، فَلَا بُدَّ مَنْ تَقَطَّعَ الْقَلْبُ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ.

وَمِنْ مُوجِبَاتِ التَّوْبَةِ الصَّحِيحَةِ أَيْضًا: كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ تَحْصُلُ لِلْقَلْبِ لَا يُشَبِّهُهَا شَيْءٌ، وَلَا تَكُونُ لَغَيْرِ الْمَذْنِبِ، لَا تَحْصُلُ بِجُوعٍ، وَلَا رِيَاضَةٍ، وَلَا حُبِّ مُجَرَّدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ أَمْرٌ وَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ، تَكْسُرُ الْقَلْبَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ كَسْرَةً تَامَةً، قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، وَأَلْقَتْهُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ طَرِيحًا ذَلِيلًا خَاشِعًا، كَحَالِ عَبْدٍ جَانِ أَبَقَ مِنْ سَيِّدِهِ، فَأُخِذَ فَأُخْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُنْجِيهِ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ بُدًّا وَلَا عَنْهُ غَنَاءً، وَلَا مِنْهُ مَهْرَبًا، وَعَلِمَ أَنَّ حَيَاتَهُ وَسَعَادَتَهُ وَفَلَاحَهُ وَنَجَاحَهُ فِي رِضَاهُ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ إِحَاطَةَ سَيِّدِهِ بِتَفَاصِيلِ جَنَائِيَتِهِ، هَذَا مَعَ حُبِّهِ لِسَيِّدِهِ، وَشِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَعِلْمِهِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وَقُوَّةِ سَيِّدِهِ، وَذُلِّهِ وَعِزِّ سَيِّدِهِ.

الْحَذَرُ مِنَ الْاعْتِدَادِ بِالطَّاعَةِ :

وَأَكْثَرُ النَّاسِ مِنَ الْمُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْكِبَائِرِ الْحَسِيَّةِ وَالْقَاذُورَاتِ فِي كِبَائِرٍ مِثْلِهَا أَوْ أَعْظَمَ مِنْهَا أَوْ دُونَهَا، وَلَا يَخْطُرُ بِقُلُوبِهِمْ أَنَّهَا ذُنُوبٌ لِيَتُوبُوا مِنْهَا، فَعِنْدَهُمْ - مِنَ الْإِزْرَاءِ عَلَى أَهْلِ الْكِبَائِرِ وَاحْتِقَارِهِمْ، وَصَوْلَةِ طَاعَتِهِمْ، وَمَنْتَتِهِمْ عَلَى الْخَلْقِ بِلِسَانِ الْحَالِ، وَاقْتِضَاءِ بَوَاطِنِهِمْ لِتَعْظِيمِ الْخَلْقِ لَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ، اقْتِضَاءٌ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ غَيْرِهِمْ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ - مَا هُوَ أَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ، وَأَبْعَدُ لَهُمْ عَنْ بَابِهِ مِنْ كِبَائِرٍ أَوْلَيْكَ، فَإِنْ تَدَارَكَ اللَّهُ أَحَدَهُمْ بِقَاذُورَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ يُوقِعُهُ فِيهَا لِيَكْسِرَ بِهَا نَفْسَهُ، وَيَعْرِفَهُ قُدْرَهُ، وَيَذَلَّهُ بِهَا، وَيُخْرِجَ بِهَا صَوْلَةَ الطَّاعَةِ مِنْ قَلْبِهِ، فَهِيَ رَحْمَةٌ فِي حَقِّهِ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا تَدَارَكَ أَصْحَابَ الْكِبَائِرِ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَإِقْبَالٍ بِقُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ رَحْمَةٌ فِي حَقِّهِمْ، وَإِلَّا فَكِلَاهُمَا عَلَى خَطَرٍ.

مِنْ لَطَائِفِ التَّوْبَةِ :

أَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَ الْبَصِيرَةِ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الْخَطِيئَةُ فَلَهُ نَظَرٌ إِلَى خَمْسَةِ أُمُورٍ: أَحَدُهَا: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيُحَدِّثَ لَهُ ذَلِكَ الْإِعْتِرَافَ بِكُونِهَا خَطِيئَةً، وَالْإِقْرَارَ عَلَى نَفْسِهِ بِالذَّنْبِ.

الثَّانِي: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَيُحَدِّثَ لَهُ ذَلِكَ خَوْفًا وَخَشْيَةً، تَحْمِلُهُ عَلَى التَّوْبَةِ.

الثالث: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى تَمَكُّنِ اللَّهِ لَهُ مِنْهَا، وَتَخْلِيَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، وَتَقْدِيرِهَا عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَعَصَمَهُ مِنْهَا، فَيُحَدِّثُ لَهُ ذَلِكَ أَنْوَاعًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، وَتُوجِبُ لَهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ عُبُودِيَّةَ بِهِذِهِ الْأَسْمَاءِ، لَا تَحْصُلُ بِدُونِ لَوَازِمِهَا الْبَتَّةَ .

الرابع: النَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ الْجَنَائَةِ وَمَصْدَرِهَا، وَهُوَ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَيُفِيدُهُ نَظَرُهُ إِلَيْهَا أُمُورًا.

منها: أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهَا جَاهِلَةٌ ظَالِمَةٌ، وَأَنَّ الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ يَصْدُرُ عَنْهُمَا كُلُّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ قَبِيحٍ، وَمِنْ وَصْفِهِ الْجَهْلَ وَالظُّلْمَ لَا مَطْمَعَ فِي اسْتِقَامَتِهِ وَاعْتِدَالِهِ الْبَتَّةَ، فَيُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ بَذْلَ الْجُهِدِ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي يُخْرِجُهَا بِهِ عَنْ وَصْفِ الْجَهْلِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُخْرِجُهَا بِهِ عَنْ وَصْفِ الظُّلْمِ، وَمَعَ هَذَا فَجَهْلُهَا أَكْثَرُ مِنْ عِلْمِهَا، وَظُلْمُهَا أَعْظَمُ مِنْ عَدْلِهَا.

فَحَقِيقُ بَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ أَنْ يَرْغَبَ إِلَى خَالِقِهَا وَفَاطِرِهَا أَنْ يَقِيَهَا شَرَّهَا، وَأَنْ يُؤْتِيَهَا تَقْوَاهَا وَيُزَكِّيَهَا، فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ زَكَاةِهَا، فَإِنَّهُ رَبُّهَا وَمَوْلَاهَا، وَأَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَإِنَّهُ إِنْ وَكَلَهُ إِلَيْهَا هَلَكَ، فَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ إِلَّا حَيْثُ وَكَلَ إِلَى نَفْسِهِ.

الخامس : نَظَرُهُ إِلَى الْأَمْرِ لَهُ بِالْمَعْصِيَةِ ، الْمَزِينُ لَهُ فِعْلُهَا ، الْحَاضِرُ لَهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ شَيْطَانُهُ الْمُوَكَّلُ بِهِ .

فَيَفِيدُهُ النَّظَرُ إِلَيْهِ وَمَلَا حَظَّتُهُ ، اتَّخَذَهُ عَدُوًّا ، وَكَمَالَ الْاِخْتِرَازِ مِنْهُ ، وَالتَّحْفُظِ وَالْيَقَظَةِ ، وَالْاِنتِبَاهِ لِمَا يُرِيدُ مِنْهُ عَدُوُّهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ فِي عُقْبَةٍ مِنْ سَبْعِ عُقْبَاتٍ ، بَعْضُهَا أَضْعَبُ مِنْ بَعْضٍ ، لَا يَنْزِلُ مِنْهُ مِنَ الْعُقْبَةِ الشَّاقَّةِ إِلَى مَا دُونَهَا إِلَّا إِذَا عَجَزَ عَنِ الظَّفْرِ بِهِ فِيهَا .

الإِشْتِغَالُ بِاللَّهِ :

الإِشْتِغَالُ بِاللَّهِ وَالْغَفْلَةُ عَمَّا سِوَاهُ؛ هُوَ الْمَطْلَبُ الْأَعْلَى ، وَالْمَقْصِدُ الْأَسْنَى .

فَرَحُ اللَّهِ بِتَوْبَةِ التَّائِبِ :

ومنها : السِّرُّ الْأَعْظَمُ ، الَّذِي لَا تَقْتَحِمُهُ الْعِبَارَةُ ، وَلَا تَجَسُّرُ عَلَيْهِ الْإِشَارَةُ ، وَلَا يُنَادِي عَلَيْهِ مُنَادِي الْإِيْمَانِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، بَلْ شَهِدَتْهُ قُلُوبُ خَوَاصِّ الْعِبَادِ ، فَازْدَادَتْ بِهِ مَعْرِفَةً لِرَبِّهَا وَمَحَبَّةً لَهُ ، وَطَمَإْنِينَةً بِهِ وَشَوْقًا إِلَيْهِ ، وَلَهْجًا بِذِكْرِهِ ، وَشُهُودًا لِرَبِّهِ ، وَلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَمُطَالَعَةً لِسِرِّ الْعُبُودِيَّةِ ، وَإِشْرَافًا عَلَى حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَهُوَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ - حِينَ

يَتُوبُ إِلَيْهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ، كَانَ عَلَى رَاحِلَةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ - مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ - اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ «^(١)»، هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ.

وَفِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوَاعِدِ الْعِلْمِ: أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي يَجْرِي عَلَى لِسَانِ الْعَبْدِ خَطَأً مِنْ فَرَحٍ شَدِيدٍ، أَوْ غَيْظٍ شَدِيدٍ، وَنَحْوِهِ، لَا يُؤَاخَذُ بِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا كَافِرًا بِقَوْلِهِ: «أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ».

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَأْثِيرَ الْغَضَبِ فِي عَدَمِ الْقَصْدِ يَصِلُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ، أَوْ أَعْظَمَ مِنْهَا، فَلَا يَنْبَغِي مُوَاخَذَةُ الْغَضْبَانِ بِمَا صَدَرَ مِنْهُ فِي حَالِ شِدَّةِ غَضَبِهِ مِنْ نَحْوِ هَذَا الْكَلَامِ، وَلَا يَقَعُ طَلَاقُهُ بِذَلِكَ، وَلَا رَدُّهُ، وَقَدْ نَصَّ الْإِمَامُ أَحْمَدٌ عَلَى تَفْسِيرِ الْإِغْلَاقِ فِي قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ »^(٢)، بَأَنَّهُ الْغَضَبُ، وَفَسَّرَهُ بِهِ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَفَسَّرُوهُ بِالْإِكْرَاهِ وَالْجُنُونِ.

قَالَ شَيْخُنَا: وَهُوَ يَعْمُ هَذَا كُلُّهُ، وَهُوَ مِنَ الْغَلَقِ، لِإِغْلَاقِ قَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْفَتَحْ قَلْبُهُ لِمَعْنَى مَا قَالَهُ.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٧).

(٢) (حَسَنٌ) حَسَنَةُ الْعَلَامَةِ الْأَلْبَانِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١٩١٩).

وَالْقَصْدُ: أَنَّ هَذَا الْفَرَحَ لَهُ شَأْنٌ لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ إِهْمَالُهُ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ وَلَا يَطَّلُعُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَلِيقُ بِعِزِّ جَلَالِهِ.

عناية الله بالنوع الإنساني :

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - اخْتَصَّ نَوْعَ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ بِأَنْ كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ، وَشَرَّفَهُ، وَخَلَقَهُ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ، وَخَصَّهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَقُرْبِهِ وَإِكْرَامِهِ بِمَا لَمْ يُعْطِهِ غَيْرُهُ، وَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ وَمَا بَيْنَهُمَا، حَتَّى مَلَائِكَتُهُ - الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ قُرْبِهِ - اسْتَخْدَمَهُمْ لَهُ، وَجَعَلَهُمْ حَفَظَةً لَهُ فِي مَنَامِهِ وَيَقْظَتِهِ، وَظَعْنَهُ وَإِقَامَتِهِ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ كُتُبَهُ، وَأَرْسَلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، وَخَاطَبَهُ وَكَلَّمَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَاتَّخَذَ مِنْهُمْ الْخَلِيلَ وَالْكَلِيمَ، وَالْأَوْلِيَاءَ وَالْخَوَاصَّ وَالْأَخْبَارَ، وَجَعَلَهُمْ مَعْدِنَ أَسْرَارِهِ، وَمَحَلَّ حِكْمَتِهِ، وَمَوْضِعَ حُبِّهِ، وَخَلَقَ لَهُمُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَخَلَقَ الْأَمْرَ، وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ مَدَارُهُ عَلَى النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ، فَإِنَّهُ خُلَاصَةُ الْخَلْقِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَعَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ.

فَلِلْإِنْسَانِ شَأْنٌ لَيْسَ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَدْ خَلَقَ أَبَاهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَظْهَرَ فَضْلَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَطَرَدَ إِبْلِيسَ عَنْ

قُرْبِهِ، وَأَبْعَدَهُ عَنْ بَابِهِ، إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لَهُ مَعَ السَّاجِدِينَ، وَاتَّخَذَهُ عَدُوًّا لَهُ.
فَالْمُؤْمِنُ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَخَيْرَةُ اللَّهِ مِنَ
الْعَالَمِينَ، فَإِنَّهُ خَلَقَهُ لِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ، وَلِيَتَوَاتَرَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، وَلِيَخْصَّهُ
مِنْ كَرَامَتِهِ وَفَضْلِهِ بِمَا لَمْ تَنْلُهُ أُمْنِيَّتُهُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِهِ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ،
لِيَسْأَلَهُ مِنَ الْمَوَاهِبِ وَالْعَطَايَا الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، الَّتِي
لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مُحَبَّتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَإِثَارِهِ عَلَى مَا سِوَاهُ.

جُودُ اللَّهِ وَكَرَمُهُ :

فَهُوَ الْجَوَادُ لِذَاتِهِ، وَجُودُ كُلِّ جَوَادٍ خَلَقَهُ اللَّهُ، وَيَخْلُقُهُ أَبَدًا أَقَلُّ مِنْ
ذَرَّةٍ بِالْقِيَاسِ إِلَى جُودِهِ، فَلَيْسَ الْجَوَادُ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا هُوَ، وَجُودُ كُلِّ
جَوَادٍ فَمِنْ جُودِهِ، وَمَحَبَّتُهُ لِلْجُودِ وَالْإِعْطَاءِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْبِرِّ وَالْإِنْعَامِ
وَالْإِفْضَالِ فَوْقَ مَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْخَلْقِ، أَوْ يَدُورُ فِي أَوْهَامِهِمْ، وَفَرَحُهُ
بِعَطَائِهِ وَجُودِهِ وَإِفْضَالِهِ أَشَدُّ مِنْ فَرَحِ الْآخِذِ بِمَا يُعْطَاهُ وَيَأْخُذُهُ، أَحْوَجُ
مَا هُوَ إِلَيْهِ أَعْظَمُ مَا كَانَ قَدْرًا .

رَحْمَةُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ :

وَهَذَا مَوْضِعُ الْحِكَايَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ
شُرُودٌ وَإِبَاقٌ مِنْ سَيِّدِهِ، فَرَأَى فِي بَعْضِ السَّكَّكِ بَابًا قَدْ فُتِحَ، وَخَرَجَ
مِنْهُ صَبِيٌّ يَسْتَعِيْثُ وَيَبْكِي، وَأُمُّهُ خَلْفَهُ تَطْرُدُهُ، حَتَّى خَرَجَ، فَأَغْلَقَتْ

الْبَابَ فِي وَجْهِهِ وَدَخَلْتُ، فَذَهَبَ الصَّبِيُّ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ وَقَفَ مُفَكِّرًا، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَأْوَى غَيْرَ الْبَيْتِ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْهُ، وَلَا مَنْ يُثْوِيهِ غَيْرَ وَالِدَتِهِ، فَرَجَعَ مَكْسُورَ الْقَلْبِ حَزِينًا، فَوَجَدَ الْبَابَ مُرْتَجًا، فَتَوَسَّدَهُ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ وَنَامَ، فَخَرَجَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَمْ تَمْلِكْ أَنْ رَمَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، وَالتَزَمَتْهُ تُقَبِّلُهُ وَتَبْكِي، وَتَقُولُ: يَا وَلَدِي، أَيْنَ تَذْهَبُ عَنِّي؟، وَمَنْ يُثْوِيكَ سِوَايَ؟، أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تُخَالِفْنِي، وَلَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَى خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ بِكَ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكَ، وَإِرَادَتِي الْخَيْرَ لَكَ؟، ثُمَّ أَخَذَتْهُ وَدَخَلْتُ.

فَتَأَمَّلْ قَوْلَ الْأُمِّ: لَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَى خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا» ^(١)، وَأَيْنَ تَقَعُ رَحْمَةُ الْوَالِدَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؟.

فَإِذَا أَغْضَبَهُ الْعَبْدُ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدْ اسْتَدْعَى مِنْهُ صَرْفَ تِلْكَ الرَّحْمَةِ عَنْهُ، فَإِذَا تَابَ إِلَيْهِ فَقَدْ اسْتَدْعَى مِنْهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَأَوَّلَى بِهِ.

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٩٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٤).

العُقُوبَةُ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ :

اعْتَرَفُ الْعَبْدُ بِقِيَامِ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ ، أَطَاعَ أَمْرَ عَصَى ،
فَإِنَّ حُجَّةَ اللَّهِ قَامَتْ عَلَى الْعَبْدِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ ،
وَبُلُوغِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَتَمَكُّنِهِ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ ، سَوَاءً عَلِمَ أَمْ جَهِلَ ، فَكُلُّ مَنْ
تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ ، فَقَصَرَ عَنْهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ ، فَقَدْ
قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ
عَلَيْهِ ، فَإِذَا عَاقَبَهُ عَلَى ذَنْبِهِ عَاقَبَهُ بِحُجَّتِهِ عَلَى ظُلْمِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٥] ، وَقَالَ : ﴿ كَلَّمَآ
أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۚ ﴾ ٨ ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الْمُلْكُ: ٨-٩] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ١١٧ ﴿ [هُود: ١١٧] .



تَدْرُجُ الشَّيْطَانُ فِي الْإِغْوَاءِ

وَلَهُ سَبْعُ عَقَبَاتٍ



عَقْبَةُ الْكُفْرِ :

العَقْبَةُ الْأُولَى : عَقْبَةُ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِدِينِهِ وَلِقَائِهِ ، وَبِصِفَاتِ كَمَالِهِ ، وَبِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَفَرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْعَقْبَةِ بَرُدَتْ نَارُ عَدَاوَتِهِ وَاسْتَرَاخَ ، فَإِنْ اقْتَحَمَ هَذِهِ الْعَقْبَةَ وَنَجَا مِنْهَا بِبَصِيرَةِ الْهُدَايَةِ ، وَسَلِمَ مَعَهُ نُورُ الْإِيمَانِ طَلَبَهُ عَلَى .

عَقْبَةُ الْبِدْعَةِ :

العَقْبَةُ الثَّانِيَّةُ : وَهِيَ عَقْبَةُ الْبِدْعَةِ ، إِمَّا بِاعْتِقَادِ خِلَافِ الْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ ، وَإِمَّا بِالتَّعَبُّدِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ مِنَ الْأَوْضَاعِ وَالرُّسُومِ الْمُحَدَّثَةِ فِي الدِّينِ ، الَّتِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَالْبِدْعَتَانِ فِي الْغَالِبِ مُتَلَازِمَتَانِ ، قَلَّ أَنْ تَنْفَكَ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : تَزَوَّجَتْ بَدْعَةُ الْأَقْوَالِ بِبَدْعَةِ الْأَعْمَالِ ، فَاشْتَغَلَ الزَّوْجَانِ بِالْعُرْسِ ، فَلَمْ يَفْجَأْهُمُ إِلَّا وَأَوْلَادُ الزَّنَا يَعْيشُونَ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، تَضِجُ مِنْهُمْ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ شَيْخُنَا : تَزَوَّجَتِ الْحَقِيقَةُ الْكَافِرَةَ بِالْبِدْعَةِ الْفَاجِرَةِ ، فَتَوَلَّدَ بَيْنَهُمَا خُسْرَانُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَإِنْ قَطَعَ هَذِهِ الْعُقْبَةَ ، وَخَلَصَ مِنْهَا بِنُورِ السُّنَّةِ ، وَاعْتَصَمَ مِنْهَا بِحَقِيقَةِ الْمُتَابَعَةِ ، وَمَا مَضَى عَلَيْهِ السَّلَفُ الْأَخْيَارُ ، مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَسْمَحَ الْأَعْصَارُ الْمُتَأَخِّرَةُ بِوَاحِدٍ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ ! فَإِنْ سَمَحَتْ بِهِ نَصَبَ لَهُ أَهْلُ الْبِدْعِ الْحَبَائِلَ ، وَبَغْوَهُ الْغَوَائِلَ ، وَقَالُوا : مُبْتَدِعٌ مُحْدَثٌ ، فِإِذَا وَفَّقَهُ اللَّهُ لِقَطْعِ هَذِهِ الْعُقْبَةِ طَلَبَهُ عَلَى :

عُقْبَةُ الْكِبَائِرِ :

العُقْبَةُ الثَّلَاثَةُ : وَهِيَ عُقْبَةُ الْكِبَائِرِ ، فَإِنْ ظَفَرَ بِهِ فِيهَا زَيْنَهَا لَهُ ، وَحَسَنَهَا فِي عَيْنِهِ ، وَسَوَّفَ بِهِ ، وَفَتَحَ لَهُ بَابَ الْإِرْجَاءِ ، وَقَالَ لَهُ : الْإِيْمَانُ هُوَ نَفْسُ التَّصْدِيقِ ، فَلَا تَقْدَحُ فِيهِ الْأَعْمَالُ ، وَرُبَّمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِهِ وَأَذْنُهُ كَلِمَةً طَالَمَا أَهْلَكَ بِهَا الْخَلْقَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : لَا يَضُرُّ مَعَ التَّوْحِيدِ ذَنْبٌ ، كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشِّرْكِ حَسَنَةٌ ، وَالظُّفْرُ بِهِ فِي عُقْبَةِ الْبِدْعَةِ أَحَبُّ إِلَيْهِ ، لِمُنَاقَضَتِهَا الدِّينَ ، وَدَفْعِهَا لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ، وَصَاحِبِهَا لَا يَتُوبُ مِنْهَا ، وَلَا يَرْجِعُ عَنْهَا ، بَلْ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَيْهَا ، وَلِتَضْمَنِ الْقَوْلَ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ ، وَمُعَادَاةَ صَرِيحِ السُّنَّةِ ، وَمُعَادَاةَ أَهْلِهَا ، وَالْاجْتِهَادَ عَلَى

إِطْفَاءُ نُورِ السُّنَّةِ ، وَتَوَلِيَّةٌ مِنْ عَزْلِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَعَزْلٌ مِنْ وَلَاهٍ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَاعْتِبَارٌ مَا رَدَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَرَدٌّ مَا اعْتَبَرَهُ ، وَمُوَالَاةٌ مَنْ عَادَاهُ ، وَمُعَادَاةٌ مَنْ وَالَاهُ ، وَإِثْبَاتٌ مَا نَفَاهُ ، وَنَفْيٌ مَا أَثْبَتَهُ ، وَتَكْذِيبُ الصَّادِقِ ، وَتَصْذِيقُ الْكَاذِبِ ، وَمُعَارَضَةُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، وَقَلْبُ الْحَقَائِقِ بِجَعْلِ الْحَقِّ بَاطِلًا ، وَالْبَاطِلِ حَقًّا ، وَالْإِلْحَادُ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَتَعْمِيَةُ الْحَقِّ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَطَلَبُ الْعِوَجِ لِصِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَفَتْحُ بَابِ تَبْدِيلِ الدِّينِ جُمْلَةً .

فَإِنَّ الْبَدَعَ تَسْتَدْرِجُ بِصَغِيرِهَا إِلَى كَبِيرِهَا ، حَتَّى يَنْسَلِخَ صَاحِبُهَا مِنَ الدِّينِ ، كَمَا تَنْسَلُ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ ، فَمَفَاسِدُ الْبَدَعِ لَا يَقِفُ عَلَيْهَا إِلَّا أَرْبَابُ الْبَصَائِرِ ، وَالْعَمِيَانُ ضَالُّونَ فِي ظُلْمَةِ الْعَمَى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] .

فَإِنْ قَطَعَ هَذِهِ الْعُقْبَةَ بِعِصْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، أَوْ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ تُنْجِيهِ مِنْهَا ، طَلَبَهُ عَلَى :

عُقْبَةُ الصَّغَائِرِ :

الْعُقْبَةُ الرَّابِعَةُ : وَهِيَ عُقْبَةُ الصَّغَائِرِ ، فَكَالَ لَهُ مِنْهَا بِالْقُفْزَانِ ، وَقَالَ : مَا عَلَيْكَ إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ مَا غَشِيَتْ مِنَ اللَّمَمِ ، أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهَا تُكْفَرُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ وَبِالْحَسَنَاتِ ، وَلَا يَزَالُ يَهْوُنُ عَلَيْهِ أَمْرُهَا حَتَّى

يُصْرَّ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ مُرْتَكِبُ الْكَبِيرَةِ الْخَائِفُ الْوَجِلُ النَّادِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ ، فَالْإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ أَقْبَحُ مِنْهُ ، وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ الْإِصْرَارِ ، وَقَدْ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، ثُمَّ ضَرَبَ لَذَلِكَ مَثَلًا بِقَوْمٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَعْوَزَهُمُ الْحَطْبُ ، فَجَعَلَ هَذَا يَحْيَى بَعُودًا ، وَهَذَا بَعُودًا ، حَتَّى جَمَعُوا حَطْبًا كَثِيرًا ، فَأَوْقَدُوا نَارًا ، وَأَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ ، فَكَذَلِكَ فَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ تَجْتَمِعُ عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ يَسْتَهِينُ بِشَأْنِهَا حَتَّى تُهْلِكَهُ » (١) .

عَقَبَةُ الْمُبَاحَاتِ :

العقبة الخامسة : وَهِيَ عَقَبَةُ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا حَرَجَ عَلَى فَاعِلِهَا ، فَشَغَلَهُ بِهَا عَنْ الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَعَنْ الاجْتِهَادِ فِي التَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِ ، ثُمَّ طَمَعَ فِيهِ أَنْ يَسْتَدْرِجَهُ مِنْهَا إِلَى تَرْكِ السُّنَنِ ، ثُمَّ مِنْ تَرْكِ السُّنَنِ إِلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ ، وَأَقْلَى مَا يُنَالُ مِنْهُ تَفْوِيتُهُ الْأَرْبَاحَ ، وَالْمَكَاسِبَ الْعَظِيمَةَ ، وَالْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ ، وَلَوْ عَرَفَ السَّعْرَ لَمَا فَوَّتَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْقُرْبَاتِ ، وَلَكِنَّهُ جَاهِلٌ بِالسَّعْرِ .

فَإِنْ نَجَا مِنْ هَذِهِ الْعَقَبَةِ بِبَصِيرَةٍ تَامَّةٍ وَنُورٍ هَادٍ ، وَمَعْرِفَةٍ بِقَدْرِ الطَّاعَاتِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا ، وَقِلَّةِ الْمَقَامِ عَلَى الْمِئْنَاءِ ، وَخَطَرِ التَّجَارَةِ ،

(١) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٣٨٩) .

وَكَرَّمَ الْمُشْتَرِي ، وَقَدَّرَ مَا يُعَوِّضُ بِهِ التُّجَّارَ ، فَبَخَلَ بِأَوْقَاتِهِ ، وَضَنَّ
بَأَنْفَاسِهِ أَنْ تَذْهَبَ فِي غَيْرِ رِبْحٍ ، طَلَبَهُ الْعَدُوُّ عَلَى :

عَقِبَةُ الْأَعْمَالِ الْمَرْجُوحَةِ الْمَفْضُولَةِ :

العَقِبَةُ السَّادِسَةُ : وَهِيَ عَقِبَةُ الْأَعْمَالِ الْمَرْجُوحَةِ الْمَفْضُولَةِ مِنَ
الطَّاعَاتِ ، فَأَمَرُهُ بِهَا ، وَحَسَنَهَا فِي عَيْنِهِ ، وَزَيَّنَهَا لَهُ ، وَأَرَاهَا مَا فِيهَا مِنَ
الْفَضْلِ وَالرَّبْحِ ، لِيَشْغَلَهُ بِهَا عَمَّا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا ، وَأَعْظَمُ كَسْبًا وَرِبْحًا ،
لأنَّهُ لَمَّا عَجَزَ عَنْ تَحْسِيرِهِ أَصْلَ الثَّوَابِ ، طَمَعَ فِي تَحْسِيرِهِ كَمَالَهُ وَفَضْلَهُ ،
وَدَرَجَاتِهِ الْعَالِيَةِ ، فَشَغَلَهُ بِالْمَفْضُولِ عَنِ الْفَاضِلِ ، وَبِالْمَرْجُوحِ عَنِ
الرَّاجِحِ ، وَبِالْمَحْبُوبِ لِلَّهِ عَنِ الْأَحَبِّ إِلَيْهِ ، وَبِالْمَرْضِيِّ عَنِ الْأَرْضَى لَهُ .
وَلَكِنْ أَيْنَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْعَقِبَةِ ؟ ، فَهُمْ الْأَفْرَادُ فِي الْعَالَمِ ، وَالْأَكْثَرُونَ
قَدْ ظَفَرَ بِهِمْ فِي الْعُقَبَاتِ الْأُولِ .

فَإِنْ نَجَا مِنْهَا بِفَقْهِهِ فِي الْأَعْمَالِ وَمَرَاتِبِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَنَازِلِهَا فِي الْفَضْلِ ،
وَمَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ عَالِيهَا وَسَافِلِهَا ، وَمَفْضُولِهَا وَفَاضِلِهَا ،
وَرَأْسِهَا وَمَرْءُوسِهَا ، وَسَيِّدِهَا وَمَسُودِهَا ، فَإِنَّ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ
سَيِّدًا وَمَسُودًا ، وَرَأْسًا وَمَرْءُوسًا ، وَذُرْوَةً وَمَا دُونَهَا ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ
الصَّحِيحِ سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ ، أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي ، لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنْتَ « (١) الْحَدِيثَ ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرَ « الْجِهَادُ ذُرْوَةُ سَنَامِ الْأَمْرِ » (٢) ،
وَفِي الْأَثَرِ الْآخِرِ « إِنَّ الْأَعْمَالَ تَفَاخَرَتْ » (٣) ، فَذَكَرَ كُلُّ عَمَلٍ مِنْهَا مَرَّتَيْتَهُ
وَفَضْلَهُ ، وَكَانَ لِلصَّدَقَةِ مَزِيَّةٌ فِي الْفَخْرِ عَلَيْهِنَّ ، وَلَا يَقْطَعُ هَذِهِ الْعُقْبَةُ
إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَالصِّدْقِ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ ، السَّائِرِينَ عَلَى جَادَةِ التَّوْفِيقِ
، قَدْ أَنْزَلُوا الْأَعْمَالَ مَنَازِلَهَا ، وَأَعْطَوْا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

فَإِذَا نَجَا مِنْهَا لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ عُقْبَةٌ يَطْلُبُهُ الْعَدُوُّ عَلَيْهَا سِوَى وَاحِدَةٍ لَا
بُدَّ مِنْهَا ، وَلَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا رُسُلُ اللَّهِ وَأَنْبِيَآؤُهُ ، وَأَكْرَمُ الْخَلْقِ
عَلَيْهِ .

عُقْبَةُ تَسْلِيْطِ جُنْدِهِ عَلَيْهِ :

الْعُقْبَةُ السَّابِعَةُ : وَهِيَ عُقْبَةُ تَسْلِيْطِ جُنْدِهِ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى ، بِالْيَدِ
وَاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ ، عَلَى حَسَبِ مَرَّتَيْتِهِ فِي الْخَيْرِ ، فَكُلَّمَا عَلَتْ مَرَّتَيْتَهُ
أَجْلَبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ بَخِيلِهِ وَرَجَلِهِ ، وَظَاهَرَ عَلَيْهِ بِجُنْدِهِ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ
حَزْبَهُ وَأَهْلَهُ بِأَنْوَاعِ التَّسْلِيْطِ ، وَهَذِهِ الْعُقْبَةُ لَا حِيلَةَ لَهُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا ،
فَإِنَّهُ كَلَّمَا جَدَّ فِي الْإِسْتِقَامَةِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَالْقِيَامِ لَهُ بِأَمْرِهِ ، جَدَّ الْعَدُوُّ
فِي إِغْرَاءِ السُّفَهَاءِ بِهِ ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْعُقْبَةِ قَدْ لَبَسَ لَأَمَةَ الْحَرْبِ ، وَأَخَذَ

(١) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٦) .

(٢) (صَحِيْحٌ) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيْحِ مُسْنَدِ التِّرْمِذِيِّ» (٢١١٠) .

(٣) (صَحِيْحٌ) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ : صَحِيْحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ .

فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ ، فَعُبُودِيَّتُهُ فِيهَا عُبُودِيَّةُ خَوَاصِّ الْعَارِفِينَ ، وَهِيَ تُسَمَّى عُبُودِيَّةَ الْمُرَاغَمَةِ ، وَلَا يَنْتَبَهُ لَهَا إِلَّا أُولُو الْبَصَائِرِ التَّامَّةِ ، وَلَا شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُرَاغَمَةٍ وَلِيَّهِ لِعَدُوِّهِ ، وَإِغَاظَتِهِ لَهُ ، وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ :

أَحَدُهَا : قَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النِّسَاءُ : ١٠٠] ، سَمَّى الْمُهَاجِرَ الَّذِي يَهَاجِرُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مُرَاغِمًا يُرَاغِمُ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ مَنْ وَلِيَّهِ مُرَاغَمَةُ عَدُوِّهِ ، وَإِغَاظَتُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التَّوْبَةُ : ١٢٠] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي مِثْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَتْبَاعِهِ ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الْفَتْحُ : ٢٩] ، فَمُغَايِظَةُ الْكُفَّارِ غَايَةُ مُحَبُّوْبَةٍ لِلرَّبِّ مَطْلُوبَةٌ لَهُ ، فَمُوَافَقَتُهُ فِيهَا مِنْ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَشَرَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْمُصَلِّي إِذَا سَهَا فِي صَلَاتِهِ سَجْدَتَيْنِ ، وَقَالَ : « إِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ تَامَةً كَانَتْ تُرْغِمَانِ أَنْفَ الشَّيْطَانِ » ^(١) - وَفِي

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٧١) .

رَوَايَةٌ - « تَرْغِيماً لِلشَّيْطَانِ » ^(١) ، وَسَمَّاها الْمُرْغَمَتَيْنِ .

فَمَنْ تَعَبَّدَ اللَّهُ بِمُرَاغَمَةِ عَدُوِّهِ ، فَقَدْ أَخَذَ مِنَ الصَّدِيقِيَّةِ بِسَهْمٍ وَافِرٍ ، وَعَلَى قَدَرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَمُؤَالَاتِهِ وَمُعَادَاتِهِ لِعَدُوِّهِ يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنْ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةِ ، وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةِ حُمِدَ التَّبَخُّرُ بَيْنَ الصَّفَيْنِ ، وَالْخِيَلَاءُ وَالتَّبَخُّرُ عِنْدَ صَدَقَةِ السَّرِّ ، حَيْثُ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهُ ، لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ إِرْغَامِ الْعَدُوِّ ، وَبَذَلِ مُحَبُّوبِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

وَهَذَا بَابٌ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ ، وَمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ وَلَذَّتْهُ بَكَى عَلَى أَيَّامِهِ الْأَوَّلِ .

وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وَصَاحِبُ هَذَا الْمَقَامِ إِذَا نَظَرَ إِلَى الشَّيْطَانِ ، وَلَا حَظَّهُ فِي الذَّنْبِ ، رَاغَمَهُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ ، فَأَحْدَثَتْ لَهُ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةُ عُبُودِيَّةً أُخْرَى .

فَهَذِهِ بُذَّةٌ مِنْ بَعْضِ لَطَائِفِ أَسْرَارِ التَّوْبَةِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِهَا ، فَلَعَلَّكَ لَا تَظْفَرُ بِهَا فِي مُصَنَّفِ آخِرِ الْبَتَّةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

اِسْتِقْلَالُ الْمَعْصِيَةِ وَاسْتِكْثَارُ الطَّاعَةِ :

اِسْتِقْلَالُ الْمَعْصِيَةِ ذَنْبٌ ، كَمَا أَنَّ اِسْتِكْثَارَ الطَّاعَةِ ذَنْبٌ ، وَالْعَارِفُ مَنْ صَغُرَتْ حَسَنَاتُهُ فِي عَيْنِهِ ، وَعَظُمَتْ ذُنُوبُهُ عِنْدَهُ ، وَكُلَّمَا صَغُرَتْ

(١) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٩٠١) .

الْحَسَنَاتُ فِي عَيْنِكَ كَبُرَتْ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَلِمًا كَبُرَتْ وَعَظُمَتْ فِي قَلْبِكَ
 قَلْتُ وَصَغُرْتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَسَيِّئَاتِكَ بِالْعَكْسِ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَحَقَّهُ
 وَمَا يَنْبَغِي لِعَظَمَتِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ تَلَاشَتْ حَسَنَاتُهُ عِنْدَهُ، وَصَغُرَتْ
 جَدًّا فِي عَيْنِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِمَّا يَنْجُو بِهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَأَنَّ الَّذِي يَلِيقُ
 بِعِزَّتِهِ، وَيَصْلُحُ لَهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ أَمْرٌ آخَرُ، وَكَلِمًا اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَقْلَلَهَا
 وَاسْتَصْغَرَهَا، لِأَنَّهُ كَلِمًا اسْتَكْثَرَ مِنْهَا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ
 وَالْقُرْبُ مِنْهُ، فَشَاهَدَ قَلْبُهُ مِنْ عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَجَلَالَهُ مَا يَسْتَصْغِرُ مَعَهُ
 جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، وَلَوْ كَانَتْ أَعْمَالُ الثَّقَلَيْنِ، وَإِذَا كَثُرَتْ فِي عَيْنِهِ وَعَظُمَتْ دَلَّ
 عَلَى أَنَّهُ مُحْجُوبٌ عَنِ اللَّهِ، غَيْرُ عَارِفٍ بِهِ وَبِمَا يَنْبَغِي لَهُ، وَبِحَسَبِ هَذِهِ
 الْمَعْرِفَةِ وَمَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ يَسْتَكْثِرُ ذُنُوبَهُ وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِهِ، لِمُشَاهَدَتِهِ الْحَقِّ
 وَمُسْتَحَقَّهُ، وَتَقْصِيرِهِ فِي الْقِيَامِ بِهِ، وَإِقَاعِهِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ الْمُوَافِقِ لِمَا
 يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيَرْضَاهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

إِذَا عَرَفَ هَذَا، فَاسْتَقْلَالَ الْعَبْدُ الْمَعْصِيَةَ عَيْنُ الْجُرْأَةِ عَلَى اللَّهِ، وَجَهْلُ
 بِقَدْرِ مَنْ عَصَاهُ وَبِقَدْرِ حَقِّهِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُبَارَزَةً لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَصْغَرَ الْمَعْصِيَةَ
 وَاسْتَقْلَلَهَا هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا، وَخَفَّتْ عَلَى قَلْبِهِ، وَذَلِكَ نَوْعُ مُبَارَزَةٍ.

إِضَاعَةُ الْوَقْتِ :

وَالْقَصْدُ أَنَّ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ الصَّحِيحِ يَدْعُو إِلَى دَرْكِ النَّقِصَةِ، إِذْ

صَاحِبُ حَفْظِهِ مُتَرَقٍّ عَلَى دَرَجَاتِ الْكَمَالِ، فَإِذَا أَضَاعَهُ لَمْ يَقِفْ مَوْضِعَهُ، بَلْ يَنْزِلُ إِلَى دَرَجَاتٍ مِنَ النِّقْصِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي تَقَدُّمٍ فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ وَلَا بُدَّ، فَالْعَبْدُ سَائِرٌ لَا وَقِفٌ، فَإِمَّا إِلَى فَوْقَ، وَإِمَّا إِلَى أَسْفَلَ، إِمَّا إِلَى أَمَامٍ وَإِمَّا إِلَى وَرَاءَ، وَلَيْسَ فِي الطَّبِيعَةِ وَلَا فِي الشَّرِيعَةِ وَقُوفُ الْبَتَّةِ، مَا هُوَ إِلَّا مَرَّاحِلُ تُطَوُّى أَسْرَعَ طَيِّ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، فَمُسْرِعٌ وَمُبْطِئٌ، وَمُتَقَدِّمٌ وَمُتَأَخِّرٌ، وَلَيْسَ فِي الطَّرِيقِ وَقِفُ الْبَتَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَخَالَفُونَ فِي جِهَةِ الْمَسِيرِ، وَفِي السَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ ﴿ إِنَّمَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦ ﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧ ﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧] ، وَلَمْ يَذْكُرْ وَقِفًا، إِذْ لَا مَنْزِلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَلَا طَرِيقَ لِسَالِكٍ إِلَى غَيْرِ الدَّارَيْنِ الْبَتَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَى هَذِهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ إِلَى تِلْكَ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ. فَإِنْ قُلْتَ: كُلُّ مُجِدِّ فِي طَلَبِ شَيْءٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعْزِضَ لَهُ وَقْفَةٌ وَفُتُورٌ، ثُمَّ يَنْهَضَ إِلَى طَلَبِهِ.

قُلْتُ: لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ صَاحِبَ الْوَقْفَةِ لَهُ حَالَانِ: إِمَّا أَنْ يَقِفَ لِيُجَمِّ نَفْسَهُ، وَيُعِدَّهَا لِلسَّيْرِ، فَهَذَا وَقْفَتُهُ سَيْرٌ، وَلَا تَضُرُّهُ الْوَقْفَةُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شَرَّةً، وَلِكُلِّ شَرِّ فِتْرَةً.

وَإِمَّا أَنْ يَقِفَ لِدَاعِ دَعَاةٍ مِنْ وَرَائِهِ، وَجَاذِبِ جَذْبَةٍ مِنْ خَلْفِهِ، فَإِنْ أَجَابَهُ آخِرُهُ وَلَا بُدَّ، فَإِنْ تَدَارَكَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى سَبْقِ الرِّكْبِ لَهُ

وَعَلَى تَأْخُرِهِ، نَهَضَ نَهْضَةَ الْغَضْبَانِ الْآسِفِ عَلَى الْإِنْقِطَاعِ، وَوَثَبَ وَجَمَزَ
وَأَشْتَدَّ سَعْيًا لِيَلْحَقَ الرَّكْبَ، وَإِنْ اسْتَمَرَّ مَعَ دَاعِيِ التَّأْخُرِ، وَأَصْغَى إِلَيْهِ
لَمْ يَرْضَ بَرْدَهُ إِلَى حَالَتِهِ الْأُولَى مِنَ الْغَفْلَةِ، وَإِجَابَةِ دَاعِيِ الْهَوَى، حَتَّى
يُرُدَّهُ إِلَى أَسْوَأَ مِنْهَا وَأَنْزَلَ دَرَكًا، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّكْسَةِ الشَّدِيدَةِ عُقِيبَ
الْإِبْلَالِ مِنَ الْمَرَضِ، فَإِنَّهَا أَخْطَرُ مِنْهُ وَأَضْعَبُ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنْ تَدَارَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا الْعَبْدَ بِجَذْبَةٍ مِنْهُ مِنْ يَدِ
عَدُوِّهِ وَتَخْلِيصُهُ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي تَأْخُرٍ إِلَى الْمَمَاتِ، رَاجِعُ الْقَهْقَرَى، نَاكِصُ
عَلَى عَقْبِيهِ، أَوْ مُوَلِّ ظَهْرَهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ.

لَا شَيْءَ أَضُرُّ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ إِضَاعَةِ وَقْتِهِ مَعَ اللَّهِ :

الْمُرَاقَبَةُ تُعْطِي نُورًا كَاشِفًا لِحَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَإِضَاعَةُ الْوَقْتِ
تُغْطِي ذَلِكَ النُّورَ، وَتُكَدِّرُ عَيْنَ الصُّحْبَةِ مَعَ اللَّهِ، فَإِنَّ صَاحِبَ الْوَقْتِ
مَعَ صُحْبَةِ اللَّهِ، وَلَهُ مَعَ اللَّهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، بِحَسَبِ حِفْظِهِ وَقْتِهِ مَعَ اللَّهِ،
فَإِنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ، فَإِذَا أَضَاعَ وَقْتَهُ كَدَّرَ عَيْنَ هَذِهِ الْمَعِيَّةِ
الْخَاصَّةِ، وَتَعَرَّضَ لِقَطْعِ هَذِهِ الصُّحْبَةِ، فَلَا شَيْءَ أَضُرُّ عَلَى الْعَارِفِ بِاللَّهِ
مِنْ إِضَاعَةِ وَقْتِهِ مَعَ اللَّهِ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ بِالرُّجُوعِ أَنْ تَسْتَمِرَّ
الْإِضَاعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَتَكُونَ حَسْرَتُهُ وَنَدَامَتُهُ أَعْظَمَ مِنْ حَسْرَةِ
غَيْرِهِ وَنَدَامَتِهِ، وَحِجَابُهُ عَنِ اللَّهِ أَشَدَّ مِنْ حِجَابِ مَنْ سِوَاهُ، وَيَكُونُ

حَالُهُ شَبِيهَا بِحَالِ قَوْمٍ يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ، حَتَّى إِذَا عَايَنُوهَا وَشَاهَدُوهَا مَا فِيهَا، صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ عَنْهَا إِلَى النَّارِ، فَإِذَنْ تَوْبَةُ الْخَوَاصِّ تَكُونُ مِنْ تَضْيِيعِ أَوْقَاتِهِمْ مَعَ اللَّهِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى هَذِهِ الْأُمُورِ .

تَأْخِيرُ التَّوْبَةِ ذَنْبٌ تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ :

وَنَذْكُرُ نُبْذًا تَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ التَّوْبَةِ، تَشْتَدُّ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا، وَلَا يَلِيقُ بِالْعَبْدِ جَهْلُهَا.

مِنْهَا: أَنَّ الْمُبَادَرَةَ إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ فَرَضٌ عَلَى الْفَوْرِ، وَلَا يُجُوزُ تَأْخِيرُهَا، فَمَتَى أَخْرَهَا عَصَى بِالتَّأْخِيرِ، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ بَقِيَ عَلَيْهِ تَوْبَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ تَوْبَتُهُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَقَلَّ أَنْ تَخْطُرَ هَذِهِ بِبَالِ التَّائِبِ، بَلْ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَلَا يُنْجِي مِنْ هَذَا إِلَّا تَوْبَةٌ عَامَّةٌ، مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِي عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا جَهْلُهُ إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ عَاصٍ بِتَرْكِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَالْمَعْصِيَةُ فِي حَقِّهِ أَشَدُّ .

وَفِي صَحِيحِ ابْنِ حَبَّانَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «الشَّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَكَيْفَ الْخَلَاصُ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟»، قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ

أَشْرَكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ» (١) .

فَهَذَا طَلَبُ الْإِسْتِغْفَارِ مِمَّا يَعْلَمُهُ اللَّهُ أَنَّهُ ذَنْبٌ، وَلَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ:
«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ
بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَايَا وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ
عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ،
وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (٢) .

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي كُلَّهُ، دِقَّةً وَجِلَّةً، خَطَاةً
وَعَمْدَةً، سِرًّا وَعَلَانِيَةً، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» (٣) .

فَهَذَا التَّعْمِيمُ وَهَذَا الشُّمُولُ لِتَأْتِيَ التَّوْبَةُ عَلَى مَا عَلِمَهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ
وَمَا لَمْ يَعْلَمَهُ.

التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ دُونَ آخَرٍ :

وَالَّذِي عِنْدِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَصِحُّ مِنْ ذَنْبٍ، مَعَ
الْإِصْرَارِ عَلَى آخَرٍ مِنْ نَوْعِهِ، وَأَمَّا التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ، مَعَ مُبَاشَرَةِ آخَرٍ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ (٧١٦)، وَأَبُو يَعْلَى (٥٨)، وَصَحَّحَهُ
الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٧٣١).

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٩٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٧١٩) .

(٣) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٣) وَأَبُو دَاوُدَ (٨٧٨) .

لَا تَعْلُقَ لَهُ بِهِ، وَلَا هُوَ مِنْ نَوْعِهِ فَتَصَحَّ، كَمَا إِذَا تَابَ مِنَ الرَّبَا، وَلَمْ يَتَّبِ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ مَثَلًا، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ مِنَ الرَّبَا صَحِيحَةٌ، وَأَمَّا إِذَا تَابَ مِنْ رَبَا الْفَضْلِ، وَلَمْ يَتَّبِ مَنْ رَبَا النَّسِيئَةِ وَأَصَرَ عَلَيْهِ، أَوْ بِالْعَكْسِ، أَوْ تَابَ مِنْ تَنَاوُلِ الْحَشِيشَةِ وَأَصَرَ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ، أَوْ بِالْعَكْسِ فَهَذَا لَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ، وَهُوَ كَمَنْ يَتُوبُ عَنِ الزَّنا بِامْرَأَةٍ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الزَّنا بِغَيْرِهَا غَيْرَ تَائِبٍ مِنْهَا، أَوْ تَابَ مِنْ شُرْبِ عَصِيرِ الْعِنَبِ الْمُسْكِرِ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى شُرْبِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْرِبَةِ الْمُسْكِرَةِ، فَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَتَّبِ مِنَ الذَّنْبِ، وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنْ نَوْعٍ مِنْهُ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ، بِخِلَافِ مَنْ عَدَلَ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ أُخْرَى غَيْرِهَا فِي الْجِنْسِ.

لَا يُبْطِلُ الذَّنْبُ الْآخِرُ التَّوْبَةَ السَّابِقَةَ :

أَنَّ التَّوْبَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ حَسَنَةً، وَمُعَاوَدَةَ الذَّنْبِ سَيِّئَةً، فَلَا تُبْطِلُ مُعَاوَدَتُهُ هَذِهِ الْحَسَنَةَ، كَمَا لَا تُبْطِلُ مَا قَارَنَهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ.

قَالُوا: وَهَذَا عَلَى أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَظْهَرُ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ يَكُونُ فِيهِ وَلَايَةٌ لِلَّهِ وَعَدَاوَةٌ مِنْ وَجْهَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ، وَيَكُونُ مُحْبُوبًا لِلَّهِ مَبْغُوضًا لَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَيْضًا، بَلْ يَكُونُ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ، وَيَكُونُ إِلَى أَحَدِهِمَا أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى الْآخَرِ، فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

مَنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴿١٦﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وَقَالَ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، أَثْبَتَ لَهُمُ الْإِيمَانَ بِهِ مَعَ مُقَارَنَةِ الشَّرِكِ، فَإِنْ كَانَ مَعَ هَذَا الشَّرِكِ تَكْذِيبُ لِرُسُلِهِ لَمْ يَنْفَعَهُمْ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ تَصْدِيقُ لِرُسُلِهِ، وَهُمْ مُرْتَكِبُونَ لِأَنْوَاعِ مِنَ الشَّرِكِ لَا تَخْرِجُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَهَؤُلَاءِ مُسْتَحِقُّونَ لِلْوَعِيدِ أَعْظَمَ مِنْ اسْتِحْقَاقِ أَرْبَابِ الْكِبَائِرِ.

وَشَرَكُهُمْ قِسْمَانِ: شَرِكٌ خَفِيٌّ، وَشَرِكٌ جَلِيٌّ، فَالْخَفِيُّ قَدْ يُغْفَرُ، وَأَمَّا الْجَلِيُّ فَلَا يُغْفَرُهُ اللَّهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ.

وَبِهَذَا الْأَصْلِ أَثْبَتَ أَهْلُ السُّنَّةِ دُخُولَ أَهْلِ الْكِبَائِرِ النَّارِ ثُمَّ خُرُوجَهُمْ مِنْهَا وَدُخُولَهُمُ الْجَنَّةَ، لِمَا قَامَ بِهِمْ مِنَ السَّبَبِينَ.

فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَمَعَاوِدُ الذَّنْبِ مَبْغُوضٌ لِلَّهِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوَدَةِ الذَّنْبِ، مُحْبُوبٌ لَهُ مِنْ جِهَةِ تَوْبَتِهِ وَحَسَنَاتِهِ السَّابِقَةِ، فَيُرْتَّبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ سَبَبٍ أَثَرُهُ وَمُسَبِّبُهُ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، وَلَا يَظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

تَوْبَةُ الْعَاجِزِ عَنِ الذَّنْبِ :

وَمِنْ أَحْكَامِهَا أَنَّ الْعَاصِيَ إِذَا حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَسْبَابِ الْمَعْصِيَةِ، وَعَجَزَ عَنْهَا بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ وَقُوعُهَا مِنْهُ، هَلْ تَصِحُّ تَوْبَتُهُ؟، وَهَذَا كَالْكَاذِبِ

وَالْقَاذِفَ ، وَشَاهِدَ الزُّورِ إِذَا قُطِعَ لِسَانُهُ ، وَالزَّانِيَ إِذَا جُبَّ ، وَالسَّارِقَ إِذَا أُتِيَ عَلَى أَطْرَافِهِ الْأَرْبَعَةِ ، وَالْمُزُورَ إِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ ، وَمَنْ وَصَلَ إِلَى حَدٍّ بَطَلَتْ مَعَهُ دَوَاعِيهِ إِلَى مَعْصِيَةٍ كَانَ يَرْتَكِبُهَا .

فَفِي هَذَا قَوْلَانِ لِلنَّاسِ :

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : لَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِمَّنْ يُمَكِّنُهُ الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ ، فَالتَّوْبَةُ مِنَ الْمُمْكِنِ ، لَا مِنَ الْمُسْتَحِيلِ ، وَلِهَذَا لَا تُتَصَوَّرُ التَّوْبَةُ مِنْ نَقْلِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا ، وَتَنْشِيفِ الْبَحَارِ ، وَالطَّيْرَانِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَنَحْوِهِ .

قَالُوا : وَلِأَنَّ التَّوْبَةَ مُخَالَفَةٌ دَاعِيِ النَّفْسِ ، وَإِجَابَةٌ دَاعِيِ الْحَقِّ ، وَلَا دَاعِيِ لِلنَّفْسِ هُنَا ، إِذْ يُعْلَمُ اسْتِحَالَةُ الْفِعْلِ مِنْهَا .

قَالُوا : وَلِأَنَّ هَذَا كَالْمُكْرَهِ عَلَى التَّرْكِ ، الْمَحْمُولِ عَلَيْهِ قَهْرًا ، وَمِثْلُ هَذَا لَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ .

قَالُوا : وَمِنَ الْمُسْتَقَرِّ فِي فِطْرِ النَّاسِ وَعُقُوبِهِمْ أَنَّ تَوْبَةَ الْمَفَالِيسِ وَأَصْحَابِ الْجَوَائِحِ تَوْبَةٌ غَيْرُ مُعْتَبَرَةٍ ، وَلَا يُحْمَدُونَ عَلَيْهَا ، بَلْ يُسَمُّونَهَا تَوْبَةً إِفْلَاسٍ ، وَتَوْبَةً جَائِحَةٍ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

وَرُحْتُ عَنْ تَوْبَةٍ سَائِلًا وَجَدْتُهَا تَوْبَةً إِفْلَاسٍ

التَّحُلُّ مِنَ الْمَظَالِمِ :

وَمِنْ أَحْكَامِهَا : أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ مُتَضَمِّنَةً لِحَقِّ آدَمِيٍّ أَنْ يُخْرَجَ التَّائِبُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، إِمَّا بِأَدَائِهِ وَإِمَّا بِاسْتِحْلَالِهِ مِنْهُ بَعْدَ إِعْلَامِهِ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا مَالِيًّا أَوْ جَنَائَةً عَلَى بَدَنِهِ أَوْ بَدَنِ مَوْرُوثِهِ ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ كَانَ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ مَالٍ أَوْ عَرَضٍ ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ » (١) .

لَا يُشْتَرَطُ فِي التَّوْبَةِ إِعْلَامُ الْأَخِ بِمَا نَالَ مِنْ عَرَضِهِ :

وَالْقَوْلُ الْآخِرُ : أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ الْإِعْلَامُ بِمَا نَالَ مِنْ عَرَضِهِ وَقَدْفَهُ وَاعْتِيَابَهُ ، بَلْ يَكْفِي تَوْبَتُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ، وَأَنْ يَذْكُرَ الْمُغْتَابَ وَالْمَقْدُوفَ فِي مَوَاضِعِ غَيْبَتِهِ وَقَدْفَهُ بِضِدِّ مَا ذَكَرَهُ بِهِ مِنَ الْغَيْبَةِ ، فَيُبَدِّلَ غَيْبَتَهُ بِمَدْحِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ مُحَاسِنِهِ ، وَقَدْفَهُ بِذِكْرِ عَفَّتِهِ وَإِحْصَانِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ بِقَدْرِ مَا اغْتَابَهُ .

وَهَذَا اخْتِيَارُ شَيْخِنَا أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - .

وَاحْتَجَّ أَصْحَابُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِأَنْ إِعْلَامَهُ مَفْسَدَةً مُحَضَّةً لَا تَتَضَمَّنُ مَصْلَحَةً ، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا أَذًى وَحَقًّا وَغَمًّا ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَرِيحًا قَبْلَ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٤٩) ، وَمُسْلِمٌ (٦٥٣٤) .

سَمَاعِهِ ، فَإِذَا سَمِعَهُ رَبِّمَا لَمْ يَضْبِرْ عَلَى حَمْلِهِ ، وَأَوْرَثَتْهُ ضَرَرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ
بَدَنِهِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلِّ

وَمَا كَانَ هَكَذَا فَإِنَّ الشَّارِعَ لَا يُبِيحُهُ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُوجِبَهُ وَيَأْمُرَ بِهِ .
قَالُوا : وَرَبِّمَا كَانَ إِعْلَامُهُ بِهِ سَبَبًا لِلْعَدَاوَةِ وَالْحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَائِلِ ،
فَلَا يَصْنَعُو لَهُ أَبَدًا ، وَيُورِثُهُ عِلْمُهُ بِهِ عَدَاوَةً وَبَغْضَاءً مُوَلَّدَةً لِشَرِّ أَكْبَرَ مِنْ
شَرِّ الْغِيْبَةِ وَالْقَذْفِ ، وَهَذَا ضِدُّ مَقْصُودِ الشَّارِعِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ ،
وَالْتِرَاحِمِ وَالتَّعَاطُفِ وَالتَّحَابِّ .

قَالُوا : وَالْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ وَجَنَائَاتِ الْأَبْدَانِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ قَدْ يَنْتَفِعُ بِهَا إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِ ، فَلَا يَجُوزُ إِخْفَاؤُهَا عَنْهُ ،
فَإِنَّهُ مُحَضُّ حَقِّهِ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ إِلَيْهِ ، بِخِلَافِ الْغِيْبَةِ وَالْقَذْفِ ، فَإِنَّهُ
لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ يَنْفَعُهُ يُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ إِلَّا إِضْرَارُهُ وَتَهْيِيجُهُ فَقَطْ ، فَقِيَاسُ
أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ مِنْ أَفْسَادِ الْقِيَاسِ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ إِذَا أَعْلَمَهُ بِهَا لَمْ تُؤْذِهِ ، وَلَمْ تُهْجِ مِنْهُ غَضَبًا وَلَا عَدَاوَةً ،
بَلْ رَبِّمَا سَرَّهُ ذَلِكَ وَفَرِحَ بِهِ ، بِخِلَافِ إِعْلَامِهِ بِهَا مَزَقَ بِهِ عِرْضَهُ طُولَ
عُمُرِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، مِنْ أَنْوَاعِ الْقَذْفِ وَالْغِيْبَةِ وَالْهَجْوِ ، فَاعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا

بِالْآخِرِ عِتْبَارٌ فَاسِدٌ ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي الْقَوْلَيْنِ كَمَا رَأَيْتَ ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ .

إِذَا نَزَلَ الْعَبْدُ بِالذَّنْبِ ارْتَقَى بِالتَّوْبَةِ :

وَمِنْ أَحْكَامِهَا : أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ فَهَلْ يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ
عَلَيْهِ قَبْلَ الذَّنْبِ مِنَ الدَّرَجَةِ الَّتِي حَطَّ عَنْهَا الذَّنْبُ ، أَوْ لَا يَرْجِعُ
إِلَيْهَا؟ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ .

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَرْجِعُ إِلَى دَرَجَتِهِ ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ تَجِبُ الذَّنْبَ بِالْكُلِّيَّةِ ،
وَتُصَيِّرُهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ، وَالْمُقْتَضَى لِدَرَجَتِهِ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ ، فَعَادَ إِلَيْهَا بِالتَّوْبَةِ .

قَالُوا : لِأَنَّ التَّوْبَةَ حَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ ، فَإِذَا كَانَ ذَنْبُهُ قَدْ
حَطَّ عَنْ دَرَجَتِهِ ، فَحَسَنَتُهُ بِالتَّوْبَةِ رَقَّتْهُ إِلَيْهَا ، وَهَذَا كَمَنْ سَقَطَ فِي
بُئْرٍ ، وَلَهُ صَاحِبٌ شَفِيقٌ ، أَذْلَى إِلَيْهِ حَبْلًا تَمَسَّكَ بِهِ حَتَّى رَقِيَ مِنْهُ إِلَى
مَوْضِعِهِ ، فَهَكَذَا التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مِثْلُ هَذَا الْقَرِينِ الصَّالِحِ ،
وَالْأَخِ الشَّفِيقِ .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : لَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ وَحَالِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وُقُوفٍ ،
وَأِنَّمَا كَانَ فِي صُعُودٍ ، فَبِالذَّنْبِ صَارَ فِي نُزُولٍ وَهُبُوطٍ ، فَإِذَا تَابَ نَقَصَ
عَلَيْهِ ذَلِكَ الْقَدْرُ الَّذِي كَانَ مُسْتَعِدًّا بِهِ لِلتَّرَقِّيِّ .

قَالُوا : وَمِثْلُ هَذَا مِثْلُ رَجُلَيْنِ سَائِرَيْنِ عَلَى طَرِيقِ سَيْرٍ وَاحِدًا ، ثُمَّ عَرَضَ لِأَحَدِهِمَا مَا رَدَّهُ عَلَى عَقِبِهِ أَوْ أَوْقَفَهُ ، وَصَاحِبُهُ سَائِرٌ ، فَإِذَا اسْتَقَالَ هَذَا رُجُوعَهُ وَوَقَفْتُهُ ، وَسَارَ بِإِثَرِ صَاحِبِهِ لَمْ يَلْحَقْهُ أَبَدًا ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا سَارَ مَرَحَلَةً تَقَدَّمَ ذَاكَ أُخْرَى .

قَالُوا : وَالْأَوَّلُ يَسِيرُ بِقُوَّةِ أَعْمَالِهِ وَإِيمَانِهِ ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ سَيْرًا ازْدَادَتْ قُوَّتُهُ ، وَذَلِكَ الْوَاقِفُ الَّذِي رَجَعَ قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّةُ سَيْرِهِ وَإِيمَانِهِ بِالْوُقُوفِ وَالرُّجُوعِ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَحْكِي هَذَا الْخِلَافَ ، ثُمَّ قَالَ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ لَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَيْهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا ، فَيَصِيرُ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الذَّنْبِ ، وَكَانَ دَاوُدُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ .

قَالَ : وَهَذَا بِحَسَبِ حَالِ التَّائِبِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ ، وَجَدَّ وَعَزَمِهِ ، وَحَذَرِهِ وَتَشْمِيرِهِ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِمَّا كَانَ لَهُ قَبْلَ الذَّنْبِ عَادَ خَيْرًا مِمَّا كَانَ وَأَعْلَى دَرَجَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُ عَادَ إِلَى مِثْلِ حَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ دُونَهُ لَمْ يَعُدْ إِلَى دَرَجَتِهِ ، وَكَانَ مُنْحَطًا عَنْهَا ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ فَضْلُ النَّزَاعِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

تَفْضِيلُ الطَّائِعِ عَلَى التَّائِبِ تَوْبَةً نَصُوحًا :

الذَّنْبُ بِمَنْزِلَةِ شُرْبِ السُّمِّ ، وَالتَّوْبَةُ تَرْيَاقُهُ وَدَوَاؤُهُ ، وَالطَّاعَةُ هِيَ الصِّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ ، وَصِحَّةٌ وَعَافِيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ خَيْرٌ مِنْ صِحَّةٍ تَخْلَلَهَا مَرَضٌ وَشُرْبُ سُمٍّ أَفَاقَ مِنْهُ ، وَرُبَّمَا أَدْيَا بِهِ إِلَى التَّلَفِ أَوْ الْمَرَضِ أَبَدًا .

الذَّنْبُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ :

الذَّنْبُ قَدْ يَكُونُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ إِذَا اقْتَرَنَتْ بِهِ التَّوْبَةُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ: قَدْ يَعْمَلُ الْعَبْدُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَيَعْمَلُ الطَّاعَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا النَّارَ ، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَعْمَلُ الذَّنْبَ فَلَا يَزَالُ نُصِبَ عَيْنَيْهِ ، إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَى ذَكَرَ ذَنْبَهُ ، فَيُحَدِّثُ لَهُ انْكَسَارًا ، وَتَوْبَةً ، وَاسْتِغْفَارًا ، وَنَدَمًا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ نَجَاتِهِ ، وَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ ، فَلَا تَزَالُ نُصِبَ عَيْنَيْهِ ، إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ وَإِنْ مَشَى ، كُلَّمَا ذَكَرَهَا أَوْرَثَتْهُ عُجْبًا وَكِبْرًا وَمِنَّةً ، فَتَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ ، فَيَكُونُ الذَّنْبُ مُوجِبًا لِرُتْبِ طَاعَاتٍ وَحَسَنَاتٍ ، وَمُعَامَلَاتٍ قَلْبِيَّةٍ ، مِنْ خَوْفِ اللَّهِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ ، وَالْإِطْرَاقِ بَيْنَ يَدَيْهِ مُنْكَسًا رَأْسَهُ خَجَلًا ، بَاكِيًا نَادِمًا ، مُسْتَقِيلًا رَبَّهُ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَثَارِ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ طَاعَةٍ تُوجِبُ لَهُ صَوْلَةً ، وَكِبْرًا ، وَازْدِرَاءً بِالنَّاسِ ، وَرُؤْيِيَتِهِمْ بَعَيْنِ الْإِحْتِقَارِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الذَّنْبَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُ إِلَى

النَّجَاةَ وَالْفَوْزَ مِنْ هَذَا الْمُعْجَبِ بِطَاعَتِهِ ، الصَّائِلِ بِهَا ، الْمَانِّ بِهَا ، وَبِحَالِهِ عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَعِبَادِهِ ، وَإِنْ قَالَ بِلِسَانِهِ خِلَافَ ذَلِكَ ، فَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَكَادُ يُعَادِي الْخَلْقَ إِذَا لَمْ يُعَظِّمُوهُ وَيَرْفَعُوهُ ، وَيَخْضَعُوا لَهُ ، وَيَجِدُ فِي قَلْبِهِ بَغْضَةً لِمَنْ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ ، وَلَوْ فَتَشَ نَفْسُهُ حَقَّ التَّفْتِيشِ لَرَأَى فِيهَا ذَلِكَ كَامِنًا ، وَلِهَذَا تَرَاهُ عَاتِبًا عَلَى مَنْ لَمْ يُعَظِّمَهُ وَيَعْرِفْ لَهُ حَقَّهُ ، مُتَطَلِّبًا لَعَيْبِهِ فِي قَالِبِ حَمِيَّةِ اللَّهِ ، وَغَضَبَ لَهُ ، وَإِذَا قَامَ بِمَنْ يُعَظِّمُهُ وَيَحْتَرِمُهُ ، وَيَخْضَعُ لَهُ مِنَ الذُّنُوبِ أَضْعَافَ مَا قَامَ بِهِذَا فَتَحَ لَهُ بَابَ الْمَعَادِيرِ وَالرَّجَاءِ ، وَأَغْمَضَ عَنْهُ عَيْنَهُ وَسَمِعَهُ ، وَكَفَّ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ ، وَقَالَ : بَابُ الْعِصْمَةِ عَنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مَسْدُودٌ ، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَّ ذُنُوبَ مَنْ يُعَظِّمُهُ تُكَفِّرُ بِإِجْلَالِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَإِكْرَامِهِ إِيَّاهُ .

التَّوْبَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا يُفَسِّرُ التَّوْبَةَ بِالْعَزْمِ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَ الذَّنْبَ ، وَبِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ فِي الْحَالِ ، وَبِالنَّدَمِ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي ، وَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ آدَمِيٍّ فَلَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ رَابِعٍ ، وَهُوَ التَّحَلُّلُ مِنْهُ .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ بَعْضُ مُسَمِّيِ التَّوْبَةِ بَلْ شَرَطُهَا ، وَإِلَّا فَالتَّوْبَةُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - كَمَا تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ - تَتَضَمَّنُ الْعَزْمَ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَالتَّزَامِهِ فَلَا يَكُونُ بِمُجَرَّدِ الْإِقْلَاعِ وَالْعَزْمِ وَالنَّدَمِ تَائِبًا ، حَتَّى

يُوجَدُ مِنْهُ الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ ، وَالْإِثْيَانُ بِهِ ، هَذَا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ ، وَهِيَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ ، لَكِنَّهَا إِذَا قُرِنَتْ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَتْ عِبَارَةً عَمَّا ذَكَرُوهُ ، فَإِذَا أُفْرِدَتْ تَضَمَّنَتْ الْأَمْرَيْنِ ، وَهِيَ كَلْفِظَةُ التَّقْوَى الَّتِي تَقْتَضِي عِنْدَ إِفْرَادِهَا فِعْلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَتَرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَتَقْتَضِي عِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ الْإِنْتِهَاءَ عَنِ الْمَحْظُورِ .

فَإِنَّ حَقِيقَةَ التَّوْبَةِ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِالتَّزَامِ فِعْلَ مَا يُحِبُّ ، وَتَرَكَ مَا يَكْرَهُ ، فَهِيَ رُجُوعٌ مِنْ مَكْرُوهٍ إِلَى مُحَبُّوبٍ ، فَالرَّجُوعُ إِلَى الْمُحَبُّوبِ جُزْءٌ مُسَمَّاهَا ، وَالرَّجُوعُ عَنِ الْمَكْرُوهِ الْجُزْءُ الْآخَرُ ، وَلِهَذَا عَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ الْمُطْلَقَ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرَكَ الْمَحْظُورَ بِهَا ، فَقَالَ ﴿ وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٣١] ، فَكُلُّ تَائِبٍ مُفْلِحٌ ، وَلَا يَكُونُ مُفْلِحًا إِلَّا مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحُجُرَات : ١١] ، وَتَارَكَ الْمَأْمُورَ ظَالِمٌ ، كَمَا أَنَّ فَاعِلَ الْمَحْظُورِ ظَالِمٌ ، وَزَوَالَ اسْمِ الظُّلْمِ عَنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّوْبَةِ الْجَامِعَةِ لِلْأَمْرَيْنِ ، فَالنَّاسُ قِسْمَانِ : تَائِبٌ وَظَالِمٌ لَيْسَ إِلَّا ، فَالتَّائِبُونَ هُمُ ﴿ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّكِينُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التَّوْبَةُ : ١١٢] ، فَحِظْ حُدُودَ اللَّهِ جُزْءَ التَّوْبَةِ ، وَالتَّوْبَةُ هِيَ مَجْمُوعُ هَذِهِ

الأُمُور ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ تَائِبًا لِرُجُوعِهِ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ مِنْ نَهْيِهِ ، وَإِلَى طَاعَتِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ .

التَّوْبَةُ هِيَ الدِّينُ كُلُّهُ :

فَإِذَا التَّوْبَةُ هِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي مُسَمًى التَّوْبَةِ وَبِهَذَا اسْتَحَقَّ التَّائِبُ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ .

فَإِذَا التَّوْبَةُ هِيَ الرُّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَى مَا يُحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَيَدْخُلُ فِي مُسَمَّاهَا الْإِسْلَامُ ، وَالْإِيمَانُ ، وَالْإِحْسَانُ ، وَتَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَقَامَاتِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ غَايَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، وَبَدَايَةُ الْأَمْرِ وَخَاتِمَتُهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي وُجِدَ لِأَجْلِهَا الْخَلْقُ ، وَالْأَمْرُ وَالتَّوْحِيدُ جُزْءٌ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ جُزْؤُهَا الْأَعْظَمُ الَّذِي عَلَيْهِ بِنَاؤُهَا .

وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ قَدْرَ التَّوْبَةِ وَلَا حَقِيقَتَهَا ، فَضَلًا عَنِ الْقِيَامِ بِهَا عِلْمًا وَعَمَلًا وَحَالًا ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى مُحَبَّتَهُ لِلتَّوَّابِينَ إِلَّا وَهُمْ خَوَاصُّ الْخَلْقِ لَدَيْهِ .

وَلَوْلَا أَنَّ التَّوْبَةَ اسْمٌ جَامِعٌ لِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنِ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ذَلِكَ الْفَرَحَ الْعَظِيمَ ، فَجَمِيعُ مَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ هُوَ تَفَاصِيلُ التَّوْبَةِ وَآثَارُهَا .

التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ :

وَأَمَّا الْإِسْتِغْفَارُ فَهُوَ نَوْعَانِ : مُفْرَدٌ ، وَمَقْرُونٌ بِالتَّوْبَةِ ، فَاْلْمُفْرَدُ : كَقَوْلِ
نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝۱۰ ﴾
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝۱۱ ﴾ [نوح: ١٠-١١] ، وَكَقَوْلِ صَالِحٍ - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝۱ ﴾
[النمل: ٤٦] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ۝۱۹۹ ﴾ [البقرة: ١٩٩] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝۳۲ ﴾ [الأنفال:
٣٣] ، وَالْمَقْرُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ
مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۝۳ ﴾ [هود:
٣] ، وَقَوْلِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ : ﴿ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝۵۲ ﴾ [هود: ٥٢] ، وَقَوْلِ صَالِحٍ
- عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ
أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
فَأَسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝۶۱ ﴾ [هود: ٦١] ، وَقَوْلِ
شُعَيْبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ
رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝۹۰ ﴾ [هود: ٩٠] .

فَالَاِسْتِغْفَارُ الْمَفْرَدُ كَالْتَّوْبَةِ ، بَلْ هُوَ التَّوْبَةُ بِعَيْنِهَا ، مَعَ تَضَمُّنِهِ طَلَبُ
 الْمَغْفَرَةِ مِنَ اللَّهِ ، وَهُوَ مَحْوُ الذَّنْبِ ، وَإِزَالَةُ أَثَرِهِ ، وَوَقَايَةُ شَرِّهِ ، لَا كَمَا ظَنَّهُ
 بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا السِّرُّ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتُرُ عَلَى مَنْ يَغْفِرُ لَهُ وَمَنْ لَا يَغْفِرُ لَهُ ،
 وَلَكِنَّ السِّرَّ لَازِمٌ مُسَمَّاهَا أَوْ جُزْؤُهُ ، فَدَلَّالَتُهَا عَلَيْهِ إِمَّا بِالتَّضَمُّنِ وَإِمَّا
 بِاللُّزُومِ .

وَحَقِيقَتُهَا وَقَايَةُ شَرِّ الذَّنْبِ ، وَمِنْهُ الْمَغْفَرُ ، لِمَا يَبْقِي الرَّأْسَ مِنَ الْأَذَى ،
 وَالسِّرُّ لَازِمٌ لِهَذَا الْمَعْنَى ، وَإِلَّا فَالْعِمَامَةُ لَا تُسَمَّى مَغْفَرًا ، وَلَا الْقُبْعُ
 وَنَحْوُهُ مَعَ سِتْرِهِ ، فَلَا بُدَّ فِي لَفْظِ الْمَغْفَرِ مِنَ الْوَقَايَةِ ، وَهَذَا الْإِسْتِغْفَارُ
 هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ الْعَذَابَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
 يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ مُسْتَغْفِرًا ، وَأَمَّا مَنْ
 أَصَرَ عَلَى الذَّنْبِ ، وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ مَغْفِرَتَهُ ، فَهَذَا لَيْسَ بِإِسْتِغْفَارٍ مُطْلَقٍ ،
 وَهَذَا لَا يَمْنَعُ الْعَذَابَ ، فَالْإِسْتِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ ، وَالتَّوْبَةُ تَتَضَمَّنُ
 الْإِسْتِغْفَارَ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَدْخُلُ فِي مُسَمًّى الْآخَرِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ .

وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِالْأُخْرَى ، فَالْإِسْتِغْفَارُ : طَلَبُ
 وَقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَى ، وَالتَّوْبَةُ : الرَّجُوعُ وَطَلَبُ وَقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافُهُ فِي
 الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ .

فَهَا هُنَا ذَنْبَانِ : ذَنْبٌ قَدْ مَضَى ، فَالْإِسْتِغْفَارُ مِنْهُ : طَلَبُ وَقَايَةِ شَرِّهِ ،

وَذَنْبٌ يُخَافُ وَقُوعُهُ ، فَالتَّوْبَةُ : الْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَفْعَلَهُ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ يَتَنَاوَلُ النَّوْعَيْنِ رُجُوعٌ إِلَيْهِ لِيَقِيَهُ شَرَّ مَا مَضَى ، وَرُجُوعٌ إِلَيْهِ لِيَقِيَهُ شَرَّ مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَذْنِبَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَكِبَ طَرِيقًا تُؤَدِّيهِ إِلَى هَلَاكِهِ ، وَلَا تَوْصِلُهُ إِلَى الْمَقْصُودِ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ أَنْ يُوَلِّيَهَا ظَهْرَهُ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي فِيهَا نَجَاتُهُ ، وَالَّتِي تُوَصِّلُهُ إِلَى مَقْصُودِهِ ، وَفِيهَا فَلَاحُهُ .

فَهَاذَا أَمْرَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا : مُفَارَقَةُ شَيْءٍ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى غَيْرِهِ ،
فَخُصَّتِ التَّوْبَةُ بِالرُّجُوعِ ، وَالِاسْتِغْفَارُ بِالمُفَارَقَةِ ، وَعِنْدَ إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا يَتَنَاوَلُ الْأَمْرَيْنِ ، وَلِهَذَا جَاءَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الْأَمْرُ بِهِمَا مُرْتَبًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هُود: ٩٠] فَإِنَّهُ الرُّجُوعُ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَاطِلِ .

وَأَيْضًا فَلَا اسْتِغْفَارَ مِنْ بَابِ إِزَالَةِ الضَّرَرِ ، وَالتَّوْبَةُ طَلَبُ جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ ، فَاَلْمَغْفَرَةُ أَنْ يَقِيَهُ شَرَّ الذَّنْبِ ، وَالتَّوْبَةُ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ هَذِهِ الْوَقَايَةِ مَا يُحِبُّهُ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَسْتَلْزِمُ الْآخَرَ عِنْدَ إِفْرَادِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ :

وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِذِكْرِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَحَقِيقَتِهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٨﴾
 [التَّحْرِيمُ: ٨]، فَجَعَلَ وَقَايَةَ شَرِّ السَّيِّئَاتِ - وَهُوَ تَكْفِيرُهَا - بِزَوَالِ مَا
 يَكْرَهُ الْعَبْدُ، وَدُخُولِ الْجَنَّاتِ - وَهُوَ حُصُولُ مَا يُحِبُّ الْعَبْدُ - مُنَوِّطًا
 بِحُصُولِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالنَّصُوحُ عَلَى وَزْنِ فِعُولِ الْمَعْدُولِ بِهِ عَنْ
 فَاعِلٍ قَصْدًا لِلْمُبَالَغَةِ، كَالشُّكُورِ وَالصَّبُورِ، وَأَصْلُ مَادَّةِ (ن ص ح)
 لِحُلَاصِ الشَّيْءِ مِنَ الْغَشِّ وَالشَّوَابِ الْغَرِيبَةِ، وَهُوَ مُلَاقٍ فِي الْاِشْتِقَاقِ
 الْأَكْبَرَ لِنَصَحٍ إِذَا خَلَصَ، فَالنُّصْحُ فِي التَّوْبَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْمَشُورَةِ تَخْلِيصُهَا
 مِنْ كُلِّ غَشٍّ وَنَقْصٍ وَفَسَادٍ، وَإِيقَاعُهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَالنُّصْحُ
 ضِدُّ الْغَشِّ.

وَقَدْ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ عَنْهَا، وَمَرَجَعُهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ
 أَنْ يُتُوبَ مِنَ الذَّنْبِ ثُمَّ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ، كَمَا لَا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هِيَ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ نَادِمًا عَلَى مَا مَضَى، مُجْمِعًا
 عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ فِيهِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: أَنْ يَسْتَغْفَرَ بِاللِّسَانِ، وَيَنْدَمَ بِالْقَلْبِ،
 وَيُمْسِكَ بِالْبَدَنِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: تَوْبَةٌ نَصُوحًا، تَنْصَحُونَ
 بِهَا أَنْفُسَكُمْ، جَعَلَهَا بِمَعْنَى نَاصِحَةٍ لِلتَّائِبِ، كَضَرْبِ الْمَعْدُولِ عَنْ
 ضَارِبٍ.

وَأَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يُجْعَلُونَهَا بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، أَيْ قَدْ نَصَحَ فِيهَا التَّائِبُ وَلَمْ يَشْبَهْهَا بِغَشٍّ، فَهِيَ إِمَّا بِمَعْنَى مَنْصُوحٍ فِيهَا، كَرُكُوبَةٍ وَحُلُوبَةٍ، بِمَعْنَى مَرْكُوبَةٍ وَمَحْلُوبَةٍ، أَوْ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ، أَيْ نَاصِحَةٌ كَخَالِصَةٍ وَصَادِقَةٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ: يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الْإِسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِقْلَاعُ بِالْأَبْدَانِ، وَإِضْهَارُ تَرْكِ الْعُودِ بِالْجَنَانِ، وَمُهَاجَرَةُ سَيِّئِ الْإِخْوَانِ.

قُلْتُ: النَّصِيحُ فِي التَّوْبَةِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ:

الْأَوَّلُ: تَعْمِيمُ جَمِيعِ الذُّنُوبِ وَاسْتِغْرَاقُهَا بِهَا بِحَيْثُ لَا تَدْعُ ذَنْبًا إِلَّا تَنَاوَلْتَهُ.

وَالثَّانِي: إِجْمَاعُ الْعَزْمِ وَالصِّدْقِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهَا، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى عِنْدَهُ تَرَدُّدٌ، وَلَا تَلَوُّمٌ وَلَا انْتِظَارٌ، بَلْ يَجْمَعُ عَلَيْهَا كُلَّ إِرَادَتِهِ وَعَزِيمَتِهِ مُبَادِرًا بِهَا.

الثَّالِثُ: تَخْلِيصُهَا مِنَ الشَّوَائِبِ وَالْعِلَلِ الْقَادِحَةِ فِي إِخْلَاصِهَا، وَوُقُوعُهَا لِمَحْضِ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ، وَالرَّغْبَةِ فِيهِ لَدَيْهِ، وَالرَّهْبَةِ مِمَّا عِنْدَهُ، لَا كَمَنْ يَتُوبُ لِحِفْظِ جَاهِهِ وَحُرْمَتِهِ، وَمَنْصَبِهِ وَرِيَاسَتِهِ، وَلِحِفْظِ حَالِهِ، أَوْ لِحِفْظِ قُوَّتِهِ وَمَالِهِ، أَوْ اسْتِدْعَاءِ حَمْدِ النَّاسِ، أَوْ الْهَرَبِ مِنْ ذَمِّهِمْ، أَوْ لِئَلَّا يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ السُّفَهَاءُ، أَوْ لِقَضَاءِ نَهْمَتِهِ مِنَ الدُّنْيَا،

أَوْ لِإِفْلَاسِهِ وَعَجْزِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي تَقْدَحُ فِي صِحَّتِهَا وَخُلُوصِهَا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

فَالْأَوَّلُ يَتَعَلَّقُ بِمَا يُتُوبُ مِنْهُ، وَالثَّالِثُ يَتَعَلَّقُ بِمَنْ يُتُوبُ إِلَيْهِ، وَالْأَوْسَطُ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ التَّائِبِ وَنَفْسِهِ، فَنُصِّحُ التَّوْبَةَ الصَّدْقَ فِيهَا، وَالْإِخْلَاصَ، وَتَعْمِيمُ الذُّنُوبِ بِهَا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ تَسْتَلْزِمُ الْاِسْتِغْفَارَ وَتَتَضَمَّنُهُ، وَتَمْحُو جَمِيعَ الذُّنُوبِ، وَهِيَ أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الْفَرْقُ بَيْنَ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ :

وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُمَا مُقْتَرِنَيْنِ ، وَذِكْرُ كَلَا مِنْهُمَا مُنْفَرِدًا عَنِ الْآخَرِ ، فَالْمُقْتَرِنَانِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٩٣] ، وَالْمُنْفَرِدُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [مُحَمَّدٌ : ٢] ، وَقَوْلِهِ فِي الْمَغْفِرَةِ ﴿ وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ ﴾ [مُحَمَّدٌ : ١٥] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٤٧] ، وَنَظَائِرِهِ .

فَهَا هُنَا أَرْبَعَةُ أُمُورٍ : ذُنُوبٌ ، وَسَيِّئَاتٌ ، وَمَغْفِرَةٌ ، وَتَكْفِيرٌ :

فَالذُّنُوبُ : الْمُرَادُ بِهَا الْكِبَائِرُ ، وَالْمُرَادُ بِالسَّيِّئَاتِ : الصَّغَائِرُ ، وَهِيَ مَا تَعْمَلُ فِيهِ الْكَفَّارَةُ ، مِنَ الْخَطَا وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ ، وَلِهَذَا جُعِلَ لَهَا التَّكْفِيرُ ، وَمِنْهُ أَخَذَتِ الْكَفَّارَةُ ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَلَا عَمَلٌ فِي الْكِبَائِرِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ ، فَلَا تَعْمَلُ فِي قَتْلِ الْعَمَدِ ، وَلَا فِي الْيَمِينِ الْغُمُوسِ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَأَبِي حَنِيفَةَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ السَّيِّئَاتِ هِيَ الصَّغَائِرُ وَالتَّكْفِيرُ لَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِ اجْتَنَبُوا كَبَائِرَ مَا نُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (٢١) [النساء: ٣١] ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَقُولُ : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ؛ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ » (١) .

وَلَفْظُ الْمَغْفِرَةِ أَكْمَلُ مِنْ لَفْظِ التَّكْفِيرِ وَلِهَذَا كَانَ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَالتَّكْفِيرُ مَعَ الصَّغَائِرِ ، فَإِنَّ لَفْظَ الْمَغْفِرَةِ يَتَضَمَّنُ الْوَقَايَةَ وَالْحَفْظَ ، وَلَفْظُ التَّكْفِيرِ يَتَضَمَّنُ السَّرَّ وَالْإِزَالَهَ ، وَعِنْدَ الْإِفْرَادِ يَدْخُلُ كُلُّ مَنِهَا فِي الْآخَرِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَفَّرْنَاهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [مُحَمَّد: ٢] ، يَتَنَاوَلُ

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٣) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢١٤) .

صَغَائِرَهَا وَكَبَائِرَهَا ، وَمَحْوَهَا وَوَقَايَةَ شَرِّهَا ، بَلِ التَّكْفِيرُ الْمَفْرُدُ يَتَنَاوَلُ
أَسْوَأَ الْأَعْمَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
عَمِلُوا ﴾ [الزُّمَرُ: ٣٥] .

وَإِذَا فَهِمَ هَذَا فَهِمَ السِّرَّ فِي الْوَعْدِ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ
وَالنَّصَبِ وَالْوَصَبِ بِالتَّكْفِيرِ دُونَ الْمَغْفِرَةِ ، كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ
« مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلَا غَمٍّ وَلَا أَذًى - حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا - إِلَّا
كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » ^(١) ، فَإِنَّ الْمَصَائِبَ لَا تَسْتَقِلُّ بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ
، وَلَا تُغْفَرُ الذُّنُوبُ جَمِيعُهَا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ ، أَوْ بِحَسَنَاتٍ تَتَضَاعَلُ وَتَتَلَاشَى
فِيهَا الذُّنُوبُ ، فَهِيَ كَالْبَحْرِ لَا يَتَغَيَّرُ بِالْجَنَفِ ، وَإِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ
يَحْمِلِ الْخَبَثَ .

أَنْهَارُ أَهْلِ الذُّنُوبِ :

فَلَأَهْلُ الذُّنُوبِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ عِظَامٌ يَتَطَهَّرُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِنْ لَمْ
تَفِ بِطَهْرِهِمْ طَهَّرُوا فِي نَهْرِ الْجَحِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : نَهْرُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ ،
وَنَهْرُ الْحَسَنَاتِ الْمُسْتَغْرَقَةِ لِلْأَوْزَارِ الْمُحِيطَةِ بِهَا ، وَنَهْرُ الْمَصَائِبِ الْعَظِيمَةِ
الْمُكْفِرَةِ ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ خَيْرًا أَدْخَلَهُ أَحَدَ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الثَّلَاثَةِ ،
فَوَرَدَ الْقِيَامَةَ طَيِّبًا طَاهِرًا ، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى التَّطْهِيرِ الرَّابِعِ .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٤١ - ٥٦٤٢) ، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧٣) .

تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَحْفُوفَةٌ بِتَوْبَةِ مَنْ اللَّهُ :

وَتَوْبَةُ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ مَحْفُوفَةٌ بِتَوْبَةِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ قَبْلُهَا، وَتَوْبَةُ مَنْهُ بَعْدَهَا، فَتَوْبَتُهُ بَيْنَ تَوْبَتَيْنِ مِنْ رَبِّهِ، سَابِقَةٌ وَلَا حَقَّةَ، فَإِنَّهُ تَابَ عَلَيْهِ أَوَّلًا إِذَا وَتَوَفَّقًا وَإِلْهَامًا، فَتَابَ الْعَبْدُ، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ثَانِيًا، قَبُولًا وَإِثَابَةً، قَالَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التَّوْبَةُ: ١١٧-١١٨]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ تَوْبَتَهُ عَلَيْهِمْ سَبَقَتْ تَوْبَتَهُمْ، وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ تَائِبِينَ، فَكَانَتْ سَبَبًا مُّقْتَضِيًا لِتَوْبَتِهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا مَا تَابُوا حَتَّى تَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَالْحُكْمُ يَنْتَفِي لَانْتِفَاءِ عَلَيْهِ.

وَنَظِيرُ هَذَا هِدَايَتُهُ لِعَبْدِهِ قَبْلَ الْإِهْتِدَاءِ، فَيَهْتَدِي بِهَدَايَتِهِ، فَتُوجِبُ لَهُ تِلْكَ الْهَدَايَةُ هَدَايَةً أُخْرَى يُشِيبُهُ اللَّهُ بِهَا هَدَايَةً عَلَى هَدَايَتِهِ، فَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْهُدَى الْهُدَى بَعْدَهُ، كَمَا أَنَّ مِنْ عُقُوبَةِ الضَّلَالَةِ الضَّلَالَةُ بَعْدَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [مُحَمَّد: ١٧]، أَوَّلًا فَاهْتَدَوْا، فَزَادَهُمْ هُدًى ثَانِيًا، وَعَكْسُهُ فِي أَهْلِ الزَّيْغِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾

أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴿ [الصَّف: ٥] ، فَهَذِهِ الْإِزَاغَةُ الثَّانِيَةُ عُقُوبَةٌ لَهُمْ عَلَى زَيْغِهِمْ.

وَهَذَا الْقَدْرُ مِنْ سِرِّ اسْمِيهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، فَهُوَ الْمَعْدُّ، وَهُوَ الْمَمْدُّ، وَمِنْهُ السَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ، وَهُوَ الَّذِي يُعِيدُ مَنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِهِ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ» ^(١) ، وَالْعَبْدُ تَوَّابٌ، وَاللَّهُ تَوَّابٌ، فَتَوْبَةُ الْعَبْدِ رُجُوعُهُ إِلَى سَيِّدِهِ بَعْدَ الْإِبَاقِ، وَتَوْبَةُ اللَّهِ نَوْعَانِ: إِذْنٌ وَتَوْفِيقٌ، وَقَبُولٌ وَإِمْدَادٌ.

بَدَايَةُ التَّوْبَةِ وَنَهَايَتُهَا :

وَالتَّوْبَةُ لَهَا مَبْدَأٌ وَمُنْتَهَى، فَمَبْدَوُهَا الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِسُلُوكِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي نَصَبَهُ لِعِبَادِهِ، مُوصِلًا إِلَى رِضْوَانِهِ، وَأَمْرُهُمْ بِسُلُوكِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٣] ، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿ [الشُّورَى: ٥٣] ، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ ٢٤ ﴿ [الْحَجَّ: ٢٤] .

وَنَهَايَتُهَا الرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي الْمَعَادِ، وَسُلُوكِ صِرَاطِهِ الَّذِي نَصَبَهُ مُوصِلًا

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٦) وَأَبُو دَاوُدَ (٨٧٢) .

إِلَى جَنَّتِهِ، فَمَنْ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالتَّوْبَةِ رَجَعَ إِلَيْهِ فِي الْمَعَادِ
بِالثَّوَابِ، وَهَذَا هُوَ أَحَدُ التَّأْوِيلَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تَابَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [٧١] [الْفُرْقَان : ٧١] قَالَ
الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ: ﴿يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ يَعُودُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ، مَتَابًا
حَسَنًا يُفْضَلُ عَلَى غَيْرِهِ فَالتَّوْبَةُ الْأُولَى - وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ -
رُجُوعٌ عَنِ الشَّرِّ، وَالثَّانِيَّةُ: رُجُوعٌ إِلَى اللَّهِ لِلْجَزَاءِ وَالْمُكَافَأَةِ.

أَقْسَامُ الذُّنُوبِ :

وَالذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ
السَّلَفِ وَبِالِاعْتِبَارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ
عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ
يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النَّجْم: ٣٢]، وَفِي الصَّحِيحِ
عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ،
وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا
اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ » ^(١).

تَعْرِيفُ اللَّمَمِ :

اللَّمَمُ صَغَائِرُ الذُّنُوبِ، كَالنَّظَرَةِ، وَالْغَمَزَةِ، وَالْقُبْلَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ،

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٣٣) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢١٤) .

هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَمَسْرُوقٍ، وَالشَّعْبِيِّ، وَلَا يُنَافِي هَذَا قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى: «إِنَّهُ يُلِمُّ بِالْكَبِيرَةِ ثُمَّ لَا يَعُودُ إِلَيْهَا»، فَإِنَّ اللَّمَمَ إِمَّا أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَيَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ، كَمَا قَالَ الْكَلْبِيُّ، أَوْ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَلْحَقَا مَنْ ارْتَكَبَ الْكَبِيرَةَ مَرَّةً وَاحِدَةً - وَلَمْ يُصِرَّ عَلَيْهَا، بَلْ حَصَلَتْ مِنْهُ فَلْتَةٌ فِي عُمُرِهِ - بِاللَّمَمِ، وَرَأَى أَنَّهَا إِنَّمَا تَتَغَلَّظُ وَتَكْبُرُ وَتَعْظُمُ فِي حَقِّ مَنْ تَكَرَّرَتْ مِنْهُ مَرَارًا عَدِيدَةً، وَهَذَا مِنْ فَهْمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَغَوَّرَ عُلُومِهِمْ.

الْأَحَادِيثُ وَأَقْوَالُ السَّلَفِ فِي الْكِبَائِرِ :

وَأَمَّا الْكِبَائِرُ فَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِيهَا اخْتِلَافًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَبَايُنٍ وَتَضَادٍّ، وَأَقْوَاهُمْ مُتَقَارِبَةٌ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «الْكِبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغُمُوسُ» (١).

وَفِيهِمَا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٦٧٥) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٠٢٤) .

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ - ثَلَاثًا - قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا - فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ » (١).

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شَرْحِبِيلَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، « أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ، قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الْفُرْقَان: ٦٨] (٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ ؟، قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ،

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٥٤) ، وَمُسْلِمٌ (٨٧) .

(٢) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤٧٧) ، وَمُسْلِمٌ (٨٦) .

وَقَذَفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» (١).

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: « مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قَالُوا: وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ » (٢).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: « إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ: اسْتِطَالَةَ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ » (٣).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ الْكَبَائِرِ أَسْبَغُ هُنَّ؟، قَالَ: هُنَّ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ أَقْرَبُ، إِلَّا أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ الْإِسْتِغْفَارِ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ الْإِضْرَارِ، وَقَالَ: كُلُّ شَيْءٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٦٦)، وَمُسْلِمٌ (٨٩).

(٢) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٧٣)، وَمُسْلِمٌ (٩٠).

(٣) (صَحِيحُ) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢٢٠٣) حَدِيثًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا: « إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا ... ».

كَبِيرَةً، مَنْ عَمِلَ شَيْئًا مِنْهَا فَلَيْسَتْغْفِرَ اللَّهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِدُ فِي النَّارِ مَنْ
الْأُمَّةِ إِلَّا مَنْ كَانَ رَاجِعًا عَنِ الْإِسْلَامِ، أَوْ جَاحِدًا فَرِيضَةً، أَوْ مُكَذِّبًا
بِالْقَدَرِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ
النِّسَاءِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَجَتَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا نُنْهَوْنَ عَنْهُ
نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النِّسَاءِ: ٣١]، فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَلْحَةَ: هِيَ كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ، أَوْ غَضَبٍ، أَوْ لَعْنَةٍ، أَوْ عَذَابٍ.

الأحوال والصفات التي تكون معها الكبيرة صغيرة وبالعكس:

وَهَاهُنَا أَمْرٌ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهُ، وَهُوَ أَنَّ الْكَبِيرَةَ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهَا - مِنْ
الْحَيَاءِ وَالْخَوْفِ، وَالِاسْتِعْظَامِ لَهَا - مَا يُلْحِقُهَا بِالصَّغَائِرِ، وَقَدْ يَقْتَرِنُ
بِالصَّغِيرَةِ - مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ، وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ، وَتَرْكِ الْخَوْفِ، وَالِاسْتِهْوَائَةِ
بِهَا - مَا يُلْحِقُهَا بِالْكِبَائِرِ، بَلْ يَجْعَلُهَا فِي أَعْلَى رُتَبِهَا.

وَهَذَا أَمْرٌ مَرَّجَعُهُ إِلَى مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ قَدْرُ زَائِدٍ عَلَى مُجَرَّدِ
الْفِعْلِ، وَالْإِنْسَانُ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ غَيْرِهِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ يُعْفَى لِلْمُحِبِّ، وَلِصَاحِبِ الْإِحْسَانِ الْعَظِيمِ، مَا لَا
يُعْفَى لِغَيْرِهِ، وَيُسَامَحُ بِمَا لَا يُسَامَحُ بِهِ غَيْرُهُ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: انْظُرْ

إِلَى مُوسَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَمَى الْأَلْوَاحَ الَّتِي فِيهَا كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي كَتَبَهُ بِيَدِهِ فَكَسَرَهَا، وَجَرَّ بِلَحِيَةِ نَبِيِّ مِثْلِهِ، وَهُوَ هَارُونَ، وَلَطَمَ عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ فَفَقَّأَهَا، وَعَاتَبَ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَفَعَهُ عَلَيْهِ، وَرَبُّهُ تَعَالَى يَحْتَمِلُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيُحِبُّهُ وَيُكْرِمُهُ وَيُذِلُّهُ، لِأَنَّهُ قَامَ لِلَّهِ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ الْعَظِيمَةِ فِي مُقَابَلَةِ أَعْدَى عَدُوِّ لَهُ، وَصَدَعَ بِأَمْرِهِ، وَعَالَجَ أُمَّتِي الْقِبْطَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ كَالشَّعْرَةِ فِي الْبَحْرِ.

وَانْظُرْ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْمَقَامَاتُ الَّتِي لِمُوسَى، غَاظَبَ رَبُّهُ مَرَّةً، فَأَخَذَهُ وَسَجَنَهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ لَهُ مَا احْتَمَلَ لِمُوسَى، وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ إِذَا أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ الْإِحْسَانِ وَالْمَحَاسِنِ مَا يَشْفَعُ لَهُ، وَبَيْنَ مَنْ إِذَا أَتَى بِذَنْبٍ جَاءَتْ مُحَاسِنُهُ بِكُلِّ شَفِيعٍ، كَمَا قِيلَ:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مُحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

فَالْأَعْمَالُ تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَتُذَكِّرُ بِهِ إِذَا وَقَعَ فِي الشَّدَائِدِ، قَالَ تَعَالَى عَنْ ذِي النُّونِ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤٤) [الصَّافَّاتِ: ١٤٣-١٤٤]، وَفِرْعَوْنُ لَمَّا لَمْ تَكُنْ لَهُ سَابِقَةُ خَيْرٍ تَشْفَعُ لَهُ وَقَالَ: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ﴾

بَنُو إِسْرَئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : ﴿ ءَأَكْنَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يُونُسُ : ٩٠-٩١].

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « إِنْ مَا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ - مِنَ التَّسْبِيحِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ - يَتَعَاطَفُنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، هُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيَّ النَّحْلِ، يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَفَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟ » (١).

وَلِهَذَا مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ أَفْلَحَ وَلَمْ يُعَذَّبْ، وَوَهَبَتْ لَهُ سَيِّئَاتُهُ لِأَجْلِ حَسَنَاتِهِ، وَلِأَجْلِ هَذَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِ التَّوْحِيدِ مَا لَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِ الْإِشْرَاقِ، لِأَنَّهُ قَدْ قَامَ بِهِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ مَا اقْتَضَى أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَيُسَامَحَهُ مَا لَا يُسَامَحُ بِهِ الْمُشْرِكُ، وَكَمَا كَانَ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ أَعْظَمَ، كَانَتْ مَغْفَرَةُ اللَّهِ لَهُ أَتَمَّ، فَمَنْ لَقِيَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا الْبَتَّةَ غَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ كُلَّهَا، كَأَنَّهُ مَا كَانَتْ، وَلَمْ يُعَذَّبْ بِهَا.

وَلَسْنَا نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ بِذُنُوبِهِ، وَيُعَذَّبُ عَلَى مِقْدَارِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْهَا، وَلَا تَنَافِي بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ لِمَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا قَدَّمَ نَاهُ.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهَ ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣٠٧١) .

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ :

اعْلَمْ أَنَّ أَشْعَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ وَغُيُومِهَا بِقَدْرِ قُوَّةِ ذَلِكَ الشُّعَاعِ وَضَعْفِهِ، فَلَهَا نُورٌ، وَتَفَاوُتُ أَهْلِهَا فِي ذَلِكَ النُّورِ - قُوَّةً، وَضَعْفًا - لَا يُخْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِهِ كَالشَّمْسِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْكَوْكَبِ الدَّرِّيِّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْمَشْعَلِ الْعَظِيمِ.

وَأَخْرُ كَالسَّرَاجِ الْمُضِيِّ، وَأَخْرُ كَالسَّرَاجِ الضَّعِيفِ.

وَلِهَذَا تَظْهَرُ الْأَنْوَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَيَّانِهِمْ، وَيَبَيِّنُ أَيْدِيهِمْ، عَلَى هَذَا الْمَقْدَارِ، بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، وَمَعْرِفَةً وَحَالًا.

وَكَلَّمَا عَظُمَ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَاشْتَدَّ أَحْرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رَبِّمَا وَصَلَ إِلَى حَالٍ لَا يُصَادِفُ مَعَهَا شُبْهَةً وَلَا شَهْوَةً، وَلَا ذَنْبًا، إِلَّا أَحْرَقَهُ، وَهَذَا حَالُ الصَّادِقِ فِي تَوْحِيدِهِ، الَّذِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، فَأَيُّ ذَنْبٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ دَنَتْ مِنْ هَذَا النُّورِ أَحْرَقَهَا، فَسَاءَ إِيْمَانُهُ قَدْ حُرِسَتْ بِالنُّجُومِ مِنْ كُلِّ سَارِقٍ لِحَسَنَاتِهِ، فَلَا يَنَالُ مِنْهَا السَّارِقُ إِلَّا عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا لِلْبَشَرِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ

وَعَلِمَ مَا سُرِقَ مِنْهُ اسْتَنْقَذَهُ مِنْ سَارِقِهِ، أَوْ حَصَلَ أَضْعَافُهُ بِكَسْبِهِ، فَهُوَ هَكَذَا أَبَدًا مَعَ لُصُوصِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، لَيْسَ كَمَنْ فَتَحَ لَهُمْ خِزَانَتَهُ، وَوَلَّى الْبَابَ ظَهْرَهُ.

وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ مُجَرَّدَ إِقْرَارِ الْعَبْدِ بَأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، كَمَا كَانَ عِبَادُ الْأَصْنَامِ مُقَرِّينَ بِذَلِكَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، بَلِ التَّوْحِيدُ يَتَضَمَّنُ - مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَمَالِ الْأَنْقِيَادِ لَطَاعَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَى بِجَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَنْعِ، وَالْعَطَاءِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ - مَا يُحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْمَعَاصِي، وَالْإِضْرَارِ عَلَيْهَا، وَمَنْ عَرَفَ هَذَا عَرَفَ قَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ » ^(١) ، وَقَوْلُهُ: « لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ^(٢) ، وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى ظَنُّهَا بَعْضُهُمْ مَنْسُوخَةً، وَظَنُّهَا بَعْضُهُمْ قِيلَتْ قَبْلَ وَرُودِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَاسْتِقْرَارِ الشَّرْعِ، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى نَارِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَفَّارِ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُم الدُّخُولَ بِالْخُلُودِ، وَقَالَ: الْمَعْنَى لَا يَدْخُلُهَا خَالِدًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢٥)، وَمُسْلِمٌ (٣٣)، (٢٦٣) .

(٢) (صَحِيحُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٨)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٠٩١) .

مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ.

وَالشَّارِعُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا
بِمَجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ، فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالْإِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ
الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِالسِّتِّهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاهِدِينَ لَهَا
فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ اللِّسَانِ،
وَقَوْلِ الْقَلْبِ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، وَالتَّصَدِيقِ بِهَا، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا
تَضَمَّنَتْهُ - مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُنْفِيَّةِ عَنْ غَيْرِ
اللَّهِ، الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، الَّتِي يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُهَا لِغَيْرِهِ، وَقِيَامُ هَذَا الْمَعْنَى بِالْقَلْبِ
عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَيَقِينًا، وَحَالًا - مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ قَائِلِهَا عَلَى النَّارِ، وَكُلُّ
قَوْلٍ رَتَّبَ الشَّارِعُ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ التَّامُّ،
كَقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ
مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ - أَوْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ - وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ
الْبَحْرِ » ^(١)، وَلَيْسَ هَذَا مُرْتَبًا عَلَى مُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ.

نَعَمْ مَنْ قَالَهَا بِلِسَانِهِ، غَافِلًا عَنْ مَعْنَاهَا، مُعْرِضًا عَنْ تَدَبُّرِهَا، وَلَمْ
يُوَاطِئْ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، وَلَا عَرَفَ قَدْرَهَا وَحَقِيقَتَهَا، رَاجِعًا مَعَ ذَلِكَ ثَوَابَهَا،
حُطَّتْ مِنْ خَطَايَاهُ بِحَسَبِ مَا فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُورِهَا
وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ، فَتَكُونُ صُورَةُ الْعَمَلَيْنِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٩١) وَالتِّرْمِذِيُّ (٥١٢) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا فِي التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالرَّجُلَانِ يَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.
وَتَأْمَلْ حَدِيثَ الْبُطَاقَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَيُقَابِلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبُطَاقَةُ وَتَطْيِشُ السَّجَلَاتُ، فَلَا يُعَذَّبُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحِّدٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الْبُطَاقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ، وَلَكِنَّ السِّرَّ الَّذِي ثَقُلَ بِطَاقَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَطَاشَتْ لِأَجْلِهِ السَّجَلَاتُ لَمَّا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَرْبَابِ الْبُطَاقَاتِ، انْفَرَدَتْ بِطَاقَتِهِ بِالثَّقَلِ وَالرَّزَانَةِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ زِيَادَةَ الْإِيضَاحِ لِهَذَا الْمَعْنَى، فَانْظُرْ إِلَى ذِكْرِ مَنْ قَلْبُهُ مَلَأَ بِمَحَبَّتِكَ، وَذَكَرَ مَنْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْكَ غَافِلٌ سَاهٍ، مَشْغُولٌ بِغَيْرِكَ، قَدْ انْجَذَبَتْ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَى مَحَبَّةِ غَيْرِكَ، وَإِثَارِهِ عَلَيْكَ، هَلْ يَكُونُ ذِكْرُهُمَا وَاحِدًا؟، أَمْ هَلْ يَكُونُ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ هُمَا بِهِذِهِ الْمَثَابَةِ، أَوْ عَبْدَاكَ، أَوْ زَوْجَتَاكَ، عِنْدَكَ سَوَاءٌ؟.

وَتَأْمَلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ قَاتِلِ الْمِائَةِ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيْمَانِ الَّتِي لَمْ تَشْغَلْهُ عِنْدَ السِّيَاقِ عَنِ السَّيْرِ إِلَى الْقَرْيَةِ، وَحَمَلَتُهُ - وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ - عَلَى أَنْ جَعَلَ يَنْوُءُ بِصَدْرِهِ، وَيُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَهَذَا أَمْرٌ آخَرُ، وَإِيْمَانٌ

آخِرُ، وَلَا جَرَمَ أَنْ أَلْحَقَ بِالْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ، وَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا قَامَ بِقَلْبِ الْبَغِيِّ الَّتِي رَأَتْ ذَلِكَ الْكَلْبَ - وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ يَأْكُلُ الثَّرَى - فَقَامَ بِقَلْبِهَا ذَلِكَ الْوَقْتُ - مَعَ عَدَمِ الْآلَةِ، وَعَدَمِ الْمُعِينِ وَعَدَمِ مَنْ تُرَائِيهِ بِعَمَلِهَا - مَا حَمَلَهَا عَلَى أَنْ غَرَّرَتْ بِنَفْسِهَا فِي نُزُولِ الْبُئْرِ، وَمَلَأَ الْمَاءَ فِي خُفِّهَا، وَلَمْ تَعْبَأْ بِتَعَرُّضِهَا لِلتَّلَفِ، وَحَمَلَهَا خُفُّهَا بِفِيهَا، وَهُوَ مَلَأْنٌ، حَتَّى أَمَكَّنَهَا الرُّقْيُ مِنَ الْبُئْرِ، ثُمَّ تَوَاضَعُهَا لِهَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِضَرْبِهِ، فَأَمْسَكَتْ لَهُ الْخُفَّ بِيَدِهَا حَتَّى شَرَبَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْجُوَ مِنْهُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَأَحْرَقَتْ أَنْوَارُ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّوْحِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا مِنَ الْبَغَاءِ، فَغَفِرَ لَهَا.

فَهَكَذَا الْأَعْمَالُ وَالْعُمَالُ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْغَافِلُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْإِكْسِيرِ الْكِيمَاوِيِّ، الَّذِي إِذَا وُضِعَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ عَلَى قَنَاطِيرٍ مِنْ نُحَاسٍ الْأَعْمَالِ قَلْبَهَا ذَهَبًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

عُلُو الْمَنْزِلَةِ تُوْجِبُ زِيَادَةَ الْإِنْتِبَاهِ :

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ ذَكَرْتُمْ أَنَّ الْمُحِبَّ يُسَامَحُ بِمَا لَا يُسَامَحُ بِهِ غَيْرُهُ، وَيُعْفَى لِلْوَلِيِّ عَمَّا لَا يُعْفَى لِسِوَاهُ، وَكَذَلِكَ الْعَالَمُ أَيْضًا، يُغْفَرُ لَهُ مَا لَا يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ، كَمَا رَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ - مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - إِذَا جَمَعَ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي

صَعِيدٌ وَاحِدٌ، قَالَ لِلْعُلَمَاءِ: إِنِّي كُنْتُ أُعْبَدُ بِفَتْوَاكُمْ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْلُطُونَ كَمَا يَخْلُطُ النَّاسُ، وَإِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعَذِّبَكُمْ، أَذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» ^(١)، هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ، وَقَدْ رُوِيَ مُسْنَدًا وَمُرْسَلًا.

فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ صَحِيحٌ، وَهُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ، وَلَكِنْ مَاذَا تَصْنَعُونَ بِالْعُقُوبَةِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي وَرَدَ التَّهْدِيدُ بِهَا فِي حَقِّ أَوْلَئِكَ إِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ مَا يُكْرَهُ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَبْنَنَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) [الْإِسْرَاءُ: ٧٤-٧٥]، أَيْ لَوْ لَا تَبَيَّنَتْ لَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَلَوْ فَعَلْتَ لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ، أَيْ ضَاعَفْنَا لَكَ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) [الْحَاقَّةُ: ٤٤-٤٦]، أَيْ لَوْ أَتَى بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِيَمِينِهِ، وَقَطَعْنَا نِيَاطَ قَلْبِهِ وَأَهْلَكْنَاهُ، وَقَدْ أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنَ الرُّكُونِ إِلَى أَعْدَائِهِ بِذَرَّةٍ مِنْ قَلْبِهِ، وَمِنَ التَّقْوَلِ عَلَيْهِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٣٨١) .

سُبْحَانَهُ، وَكَمْ مِنْ رَاكِنٍ إِلَى أَعْدَائِهِ وَمُتَقَوِّلٍ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ قَدْ أَمْهَلَهُ
وَلَمْ يَعْبَأْ بِهِ، كَأَرْبَابِ الْبَدْعِ كُلِّهِمْ، الْمُتَقَوِّلِينَ عَلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَدِينِهِ.
وَمَا ذَكَرْتُمْ فِي قِصَّةِ يُونُسَ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسَامَحْ بِغَضَبَةٍ،
وَسُجِنَ لِأَجْلِهَا فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَيَكْفِي حَالُ أَبِي الْبَشْرِ حَيْثُ لَمْ يُسَامَحْ
بِلُقْمَةٍ، وَكَانَتْ سَبَبَ إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ.

فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذَا أَيْضًا حَقٌّ، وَلَا تَنَافِي بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَإِنَّ مَنْ
كَمَلَتْ عَلَيْهِ نِعْمَةُ اللَّهِ، وَاخْتَصَّهُ مِنْهَا بِمَا لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ غَيْرُهُ فِي إِعْطَائِهِ
مِنْهَا مَا حُرِّمَهُ غَيْرُهُ، فَحُبِّي بِالْإِنْعَامِ، وَخُصَّ بِالْإِكْرَامِ، وَخُصَّ بِمَزِيدِ
التَّقَرُّبِ، وَجُعِلَ فِي مَنْزِلَةِ الْوَلِيِّ الْحَبِيبِ، اقْتَضَتْ حَالَهُ مِنْ حِفْظِ مَرْتَبَةِ
الْوِلَايَةِ وَالْقُرْبِ وَالِاخْتِصَاصِ بِأَنْ يُرَاعِيَ مَرْتَبَتَهُ مِنْ أَدْنَى مُشَوِّشٍ
وَقَاطِعٍ، فَلَشِدَّةُ الْاِعْتِنَاءِ بِهِ، وَمَزِيدِ تَقَرُّبِهِ، وَاتِّخَاذِهِ لِنَفْسِهِ، وَاصْطِفَائِهِ
عَلَى غَيْرِهِ، تَكُونُ حُقُوقٌ وَلِيٍّ وَسَيِّدَةٍ عَلَيْهِ أَتَمَّ، وَنِعْمُهُ عَلَيْهِ أَكْمَلَ،
وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ فَوْقَ الْمَطْلُوبِ مِنْ غَيْرِهِ، فَهُوَ إِذَا غَفَلَ وَأَخْلَ بِمُقْتَضَى
مَرْتَبَتِهِ نُبَّهَ بِمَا لَمْ يُنَبَّهْ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ الْبَرَّانِيُّ، مَعَ كَوْنِهِ يُسَامَحُ بِمَا لَمْ يُسَامَحْ بِهِ
ذَلِكَ أَيْضًا، فَيَجْتَمِعُ فِي حَقِّهِ الْأَمْرَانِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ مَعْرِفَةَ اجْتِمَاعِهِمَا، وَعَدَمَ تَنَاقُضِهِمَا، فَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِهِ،
فَإِنَّ الْمَلِكَ يُسَامَحُ خَاصَّتُهُ وَأَوْلِيَائِهِ بِمَا لَمْ يُسَامَحْ بِهِ مَنْ لَيْسَ فِي مَنْزِلَتِهِمْ،

وَيَأْخُذُهُمْ، وَيُؤَدِّبُهُمْ بِمَا لَمْ يَأْخُذْ بِهِ غَيْرُهُمْ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا شَوَاهِدَ هَذَا وَهَذَا، وَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

وَأَنْتَ إِذَا كَانَ لَكَ عَبْدَانِ، أَوْ وَلَدَانِ، أَوْ زَوْجَتَانِ، أَحَدُهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الْآخَرِ، وَأَقْرَبُ إِلَى قَلْبِكَ، وَأَعَزُّ عَلَيْكَ عَامَلْتَهُ بِهِذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَاجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ الْمُعَامَلَتَانِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَحُبِّكَ لَهُ، وَعِزَّتِهِ عَلَيْكَ، فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى كَمَالِ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ، وَإِتِّمَامِ نِعْمَتِكَ عَلَيْهِ اقْتَضَتْ مُعَامَلَتَهُ بِمَا لَا تُعَامِلُ بِهِ مَنْ دُونَهُ، مِنَ التَّنْبِيهِ وَعَدَمِ الْإِهْمَالِ، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى إِحْسَانِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَكَ، وَطَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ، وَكَمَالِ عُبودِيَّتِهِ وَنُصْحِهِ وَهَبَّتْ لَهُ وَسَاحَتُهُ، وَعَفَوْتَ عَنْهُ، بِمَا لَا تَفْعَلُهُ مَعَ غَيْرِهِ، فَالْمُعَامَلَتَانِ بِحَسَبِ مَا مِنْكَ وَمَا مِنْهُ.

وَقَدْ ظَهَرَ اعْتِبَارُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ، حَيْثُ جَعَلَ حَدَّ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالتَّزْوُجِ إِذَا تَعَدَّاهُ إِلَى الزَّنا الرَّجْمَ، وَحَدَّ مَنْ لَمْ يُعْطِهِ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْجَلْدَ، وَكَذَلِكَ ضَاعَفَ الْحَدَّ عَلَى الْحُرِّ الَّذِي قَدْ مَلَكَهُ نَفْسُهُ، وَأَتَمَّ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مَمْلُوكًا لغيرِهِ، وَجَعَلَ حَدَّ الْعَبْدِ الْمُنْقُوصِ بِالرَّقِّ، الَّذِي لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذِهِ النِّعْمَةُ نِصْفَ ذَلِكَ.

فَسُبْحَانَ مَنْ بَهَرَتْ حِكْمَتُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَجَزَائِهِ عُقُولَ الْعَالَمِينَ، وَشَهِدَتْ بِأَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.

لِلَّهِ سِرٌّ تَحْتَ كُلِّ لَطِيفَةٍ فَأَخُو الْبَصَائِرِ غَائِصٌ يَتَمَلَّقُ

فِي أَجْناسٍ مَا يُتَابُ مِنْهُ :

وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ اسْمَ التَّائِبِ حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْهَا.

وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ جِنْسًا مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، هِيَ أَجْناسُ
الْمُحَرَّمَاتِ: الْكُفْرُ، وَالشِّرْكُ، وَالنَّفَاقُ، وَالْفُسُوقُ، وَالْعُصْيَانُ، وَالْإِثْمُ،
وَالْعُدْوَانُ، وَالْفَحْشَاءُ، وَالْمُنْكَرُ، وَالْبَغْيُ، وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ،
وَاتِّبَاعُ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَهَذِهِ الْاثْنَا عَشَرَ جِنْسًا عَلَيْهَا مَدَارُ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَإِلَيْهَا انْتِهَاءُ
الْعَالَمِ بِأَسْرِهِمْ إِلَّا أَتْبَاعَ الرُّسُلِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ
يَكُونُ فِي الرَّجُلِ أَكْثَرُهَا وَأَقْلَاهَا، أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا، وَقَدْ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَقَدْ
لَا يَعْلَمُ.

فَالْتَوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ بِالتَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَالتَّحَصُّنِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ
مُوَاقَعَتِهَا، وَإِنَّمَا يُمَكِّنُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا لِمَنْ عَرَفَهَا.

وَنَحْنُ نَذْكُرُهَا، وَنَذْكُرُ مَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ وَمَا افْتَرَقَتْ، لِنَتَّبِينَ حُدُودَهَا
وَحَقَائِقَهَا، وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ لِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، كَمَا وَفَّقَ لَهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ.

وَهَذَا الْفَصْلُ مِنْ أَنْفَعِ فُصُولِ الْكِتَابِ، وَالْعَبْدُ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ.

الْكُفْرُ :

فَأَمَّا الْكُفْرُ فَتَوَعَّانٌ: كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَكُفْرٌ أَصْغَرُ.

فَالْكُفْرُ الْأَكْبَرُ هُوَ الْمَوْجِبُ لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ.

وَالْأَصْغَرُ مُوجِبٌ لِمُتَحَقِّقِ الْوَعِيدِ دُونَ الْخُلُودِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى - وَكَانَ مِمَّا يُتْلَى فَنُسخَ لَفْظُهُ - « لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ ، فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ » ^(١)، وَقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْحَدِيثِ : « اثْنَتَانِ فِي أُمَّتِي ، هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ » ^(٢)، وَقَوْلُهُ فِي السُّنَنِ : « مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبْرِهَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » ^(٣)، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ « مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ » ^(٤)، وَقَوْلِهِ : « لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » ^(٥).

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٦٨) ، وَمُسْلِمٌ (٦٢) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٦٧) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٠٠١) .

(٣) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١٣٥) ، وَابْنُ مَاجَةَ (٦٣٩) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ وَابْنِ مَاجَةَ» (٥٢٢) .

(٤) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤٠٨/٢) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٩٣٩) .

(٥) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٧٤١) ، وَمُسْلِمٌ (٦٦) .

وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَامَّةِ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، بَلْ إِذَا فَعَلَهُ فَهُوَ بِهِ كُفْرٌ، وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَكَذَلِكَ قَالَ طَاوُسٌ، وَقَالَ عَطَاءٌ: هُوَ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ جَاحِدًا لَهُ، وَهُوَ قَوْلُ عِكْرَمَةَ، وَهُوَ تَأْوِيلُ مَرْجُوْحٍ، فَإِنَّ نَفْسَ جُحُودِهِ كُفْرٌ، سَوَاءٌ حَكَمَ أَوْ لَمْ يَحْكَمْ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى تَرْكِ الْحُكْمِ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالَ: وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْحُكْمُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، وَهَذَا تَأْوِيلُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكِنَانِيِّ، وَهُوَ أَيْضًا بَعِيدٌ، إِذِ الْوَعِيدُ عَلَى نَفْيِ الْحُكْمِ بِالْمَنْزَلِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ تَعْطِيلَ الْحُكْمِ بِجَمِيعِهِ وَبِبَعْضِهِ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ، تَعُمُّدًا مِنْ غَيْرِ جَهْلِ بِهِ وَلَا خَطَأً فِي التَّأْوِيلِ، حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ عَنِ الْعُلَمَاءِ عُمُومًا.

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرِهِمَا، وَهُوَ بَعِيدٌ، وَهُوَ خِلَافُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، فَلَا يُصَارُ إِلَيْهِ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ جَعَلَهُ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحُكْمَ بغيرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ يَتَنَاوَلُ الْكُفْرَيْنِ، الْأَصْغَرَ وَالْأَكْبَرَ بِحَسَبِ حَالِ الْحَاكِمِ، فَإِنَّهُ إِنْ اعْتَقَدَ وَجُوبَ الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَعَدَلَ عَنْهُ عَضِيَانًا، مَعَ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، فَهَذَا كُفْرٌ أَصْغَرُ، وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ، وَأَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِ، مَعَ تَيَقُّنِهِ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ، فَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَإِنْ جَهِلَهُ وَأَخْطَأَهُ فَهَذَا مُخْطِئٌ، لَهُ حُكْمُ الْمُخْطِئِينَ.

وَالْقَصْدُ أَنَّ الْمَعَاصِيَ كُلَّهَا مِنْ نَوْعِ الْكُفْرِ الْأَصْغَرِ، فَإِنَّهَا ضِدُّ الشُّكْرِ، الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ بِالطَّاعَةِ، فَالْسَّعْيُ إِمَّا شُكْرٌ، وَإِمَّا كُفْرٌ، وَإِمَّا ثَالِثٌ، لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْكُفْرُ الْأَكْبَرُ :

وَأَمَّا الْكُفْرُ الْأَكْبَرُ، فَخَمْسَةُ أَنْوَاعٍ: كُفْرٌ تَكْذِيبٌ، وَكُفْرٌ اسْتِكْبَارٌ وَإِبَاءٌ مَعَ التَّصْدِيقِ، وَكُفْرٌ إِعْرَاضٍ، وَكُفْرٌ شَكٍّ، وَكُفْرٌ نِفَاقٍ.

فَأَمَّا كُفْرُ التَّكْذِيبِ : فَهُوَ اعْتِقَادُ كَذِبِ الرُّسُلِ، وَهَذَا الْقِسْمُ قَلِيلٌ فِي الْكُفَّارِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَيْدَى رُسُلَهُ، وَأَعْطَاهُمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ وَالْآيَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ مَا أَقَامَ بِهِ الْحُجَّةَ، وَأَزَالَ بِهِ الْمَعْذِرَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وَقَالَ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ

الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

وَإِنْ سُمِّيَ هَذَا كُفْرًا تَكْذِيبًا أَيْضًا فَصَحِيحٌ، إِذْ هُوَ تَكْذِيبٌ بِاللِّسَانِ.
وَأَمَّا كُفْرُ الْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ؛ فَنَحْنُ كُفْرُ إِبْلِيسَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَجْحَدْ أَمْرَ اللَّهِ
وَلَا قَابِلَهُ بِالْإِنْكَارِ، وَإِنَّمَا تَلَقَّاهُ بِالْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَمِنْ هَذَا كُفْرُ
مَنْ عَرَفَ صِدْقَ الرَّسُولِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْقُدْ لَهُ
إِبَاءً وَاسْتِكْبَارًا، وَهُوَ الْغَالِبُ عَلَى كُفْرِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ، كَمَا حَكَى اللَّهُ
تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا
عَبِيدُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وَقَوْلِ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ: ﴿ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴾ ﴿١١﴾
[الشَّمْسُ: ١١]، وَهُوَ كُفْرُ الْيَهُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا
عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة: ٨٩]، وَقَالَ ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وَهُوَ كُفْرُ أَبِي طَالِبٍ أَيْضًا، فَإِنَّهُ صَدَّقَهُ وَلَمْ
يَشْكُ فِي صِدْقِهِ، وَلَكِنْ أَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَتَعْظِيمُ آبَائِهِ أَنْ يَرْغَبَ عَنْ
مِلَّتِهِمْ، وَيَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ.

وَأَمَّا كُفْرُ الْإِعْرَاضِ؛ فَإِنْ يُعْرَضَ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ عَنِ الرَّسُولِ، لَا
يُصَدِّقُهُ وَلَا يُكَذِّبُهُ، وَلَا يُؤَالِيهِ وَلَا يُعَادِيهِ، وَلَا يُضْغِي إِلَى مَا جَاءَ بِهِ

الْبَتَّةَ، كَمَا قَالَ أَحَدُ بَنِي عَبْدِ يَا لَيْلٍ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:
«وَاللَّهِ أَقُولُ لَكَ كَلِمَةً، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَأَنْتَ أَجَلٌ فِي عَيْنِي مِنْ أَنْ أَرُدَّ
عَلَيْكَ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَأَنْتَ أَحَقَرُ مِنْ أَنْ أَكَلِّمَكَ» .

وَأَمَّا كُفْرُ الشَّكِّ : فَإِنَّهُ لَا يَجْزِمُ بِصِدْقِهِ وَلَا يُكَذِّبُهُ، بَلْ يَشُكُّ فِي أَمْرِهِ،
وَهَذَا لَا يَسْتَمِرُّ شُكُّهُ إِلَّا إِذَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْإِعْرَاضَ عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ
صَدَقِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جُمْلَةً، فَلَا يَسْمَعُهَا وَلَا يَلْتَفِتُ
إِلَيْهَا، وَأَمَّا مَعَ التَّفَاتِهِ إِلَيْهَا، وَنَظَرِهِ فِيهَا فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَهُ شَكٌّ، لِأَنَّهَا
مُسْتَلْزِمَةٌ لِلصِّدْقِ، وَلَا سِيَّامًا بِمَجْمُوعِهَا، فَإِنَّ دَلَالَتَهَا عَلَى الصِّدْقِ
كَدَلَالَةِ الشَّمْسِ عَلَى النَّهَارِ.

وَأَمَّا كُفْرُ النِّفَاقِ : فَهُوَ أَنْ يُظْهَرَ بِلِسَانِهِ الْإِيمَانُ، وَيَنْطَوِي بِقَلْبِهِ عَلَى
التَّكْذِيبِ، فَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ الْأَكْبَرُ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ أَقْسَامِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى.

كُفْرُ الْجُحُودِ :

وَكُفْرُ الْجُحُودِ نَوْعَانِ : كُفْرٌ مُطْلَقٌ عَامٌّ، وَكُفْرٌ مُقَيَّدٌ خَاصٌّ.

فَالْمُطْلَقُ : أَنْ يَجْحَدَ جُمْلَةَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَإِرْسَالَهُ الرَّسُولَ.

وَالْخَاصُّ الْمُقَيَّدُ أَنْ يَجْحَدَ فَرْضًا مِنْ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ، أَوْ تَحْرِيمَ مُحَرَّمٍ

مِنْ مُحَرَّمَاتِهِ، أَوْ صِفَةٍ وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، أَوْ خَبَرًا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، عَمْدًا، أَوْ تَقْدِيمًا لِقَوْلٍ مَنْ خَالَفَهُ عَلَيْهِ لِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ.

وَأَمَّا جَحْدُ ذَلِكَ جَهْلًا، أَوْ تَأْوِيلًا يُعْذَرُ فِيهِ صَاحِبُهُ فَلَا يُكْفَرُ صَاحِبُهُ بِهِ، كَحَدِيثِ الَّذِي جَحَدَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يَحْرِقُوهُ وَيَذَرُوهُ فِي الرِّيحِ، وَمَعَ هَذَا « فَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَرَحِمَهُ لَجْهَلِهِ » ^(١)، إِذْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلَهُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ، وَلَمْ يَجْحَدْ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى إِعَادَتِهِ عِنَادًا أَوْ تَكْذِيبًا.

الشُّرْكُ :

وَأَمَّا الشُّرْكُ، فَهُوَ نَوْعَانِ: أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ، فَلَا أَكْبَرَ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ، وَهُوَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً، يُجِبُّهُ كَمَا يُجِبُّ اللَّهَ، وَهُوَ الشُّرْكُ الَّذِي تَضَمَّنَ تَسْوِيَةَ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا لَا إِلَهَ لَهُمْ فِي النَّارِ ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ^(٩٨) [الشُّعْرَاءُ : ٩٧-٨٩] ، مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ، وَأَنَّ إِلَهَهُمْ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ، وَلَا تُحْيِي وَلَا تُمِيتُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ التَّسْوِيَةُ فِي الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ كَمَا هُوَ حَالُ أَكْثَرِ مُشْرِكِي الْعَالَمِ، بَلْ كُلُّهُمْ يُجِبُّونَ مَعْبُودَاتِهِمْ وَيُعْظَمُونَهَا وَيُؤَالُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ - بَلْ أَكْثَرُهُمْ - يُجِبُّونَ إِلَهَتَهُمْ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٨١)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٧) .

أَعْظَمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِذِكْرِهِمْ أَعْظَمَ مِنْ اسْتِبْشَارِهِمْ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَيَغْضَبُونَ لِمُنْتَقَصِ مَعْبُودِيهِمْ وَأَهْلَتِهِمْ - مِنَ الْمَشَايخ - أَعْظَمَ مِمَّا يَغْضَبُونَ إِذَا انْتَقَصَ أَحَدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِذَا انْتَهَكَتْ حُرْمَةُ مِنْ حُرْمَاتِ أَهْلَتِهِمْ وَمَعْبُودَاتِهِمْ غَضِبُوا غَضَبَ اللَّيْثِ إِذَا حَرَدَ، وَإِذَا انْتَهَكَتْ حُرْمَاتُ اللَّهِ لَمْ يَغْضَبُوا لَهَا، بَلْ إِذَا قَامَ الْمُتَنَهَكُ لَهَا بِإِطْعَامِهِمْ شَيْئًا رَضُوا عَنْهُ، وَلَمْ تَنْكَرْ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَقَدْ شَاهَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَغَيْرُنَا مِنْهُمْ جَهْرَةً، وَتَرَى أَحَدَهُمْ قَدْ اتَّخَذَ ذِكْرَ إِلَهِهِ وَمَعْبُودِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَلَى لِسَانِهِ دَيْدَنًا لَهُ إِنْ قَامَ وَإِنْ قَعَدَ، وَإِنْ عَثَرَ وَإِنْ مَرَضَ وَإِنْ اسْتَوْحَشَ، فَذَكَرُ إِلَهِهِ وَمَعْبُودِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَهُوَ لَا يُنْكِرُ ذَلِكَ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ بَابُ حَاجَتِهِ إِلَى اللَّهِ، وَشَفِيعُهُ عِنْدَهُ، وَوَسِيلَتُهُ إِلَيْهِ.

وَهَكَذَا كَانَ عِبَادُ الْأَصْنَامِ سَوَاءً، وَهَذَا الْقَدْرُ هُوَ الَّذِي قَامَ بِقُلُوبِهِمْ، وَتَوَارَثَهُ الْمُشْرِكُونَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ أَهْلَتِهِمْ، فَأُولَئِكَ كَانَتْ أَهْلَتُهُمْ مِنَ الْحَجَرِ وَغَيْرِهِمْ اتَّخَذُوهَا مِنَ الْبَشَرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، حَاكِيًا عَنْ أَسْلَافٍ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٣]، ثُمَّ شَهِدَ عَلَيْهِم بِالْكَفْرِ وَالْكَذِبِ، وَأَخْبَرَ

أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾
[الزُّمَرُ : ٣] .

فَهَذِهِ حَالُ مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا، يَزْعُمُ أَنَّهُ يَقْرِبُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا أَعَزَّ
مَنْ يَخْلُصُ مِنْ هَذَا ؟ بَلْ مَا أَعَزَّ مَنْ لَا يُعَادِي مَنْ أَنْكَرَهُ ! .

وَالَّذِي فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَسَلَفِهِمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ
اللَّهِ، وَهَذَا عَيْنُ الشِّرْكِ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ وَأَبْطَلَهُ،
وَأَخْبَرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا لِمَنْ أָذَنَ اللَّهُ أَنْ
يَشْفَعَ فِيهِ، وَرَضِيَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ، وَهُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ، الَّذِينَ لَمْ يَتَّخِذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْذُنُ لِمَنْ شَاءَ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، حَيْثُ
لَمْ يَتَّخِذْهُمْ شُفَعَاءَ مِنْ دُونِهِ، فَيَكُونُ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ مَنْ يَأْذُنُ اللَّهُ
لَهُ صَاحِبُ التَّوْحِيدِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ شَفِيعًا مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ .

وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ هِيَ الشَّفَاعَةُ الصَّادِرَةُ عَنْ إِذْنِهِ
لِمَنْ وَحَّدَهُ، وَالَّتِي نَفَاهَا اللَّهُ هِيَ الشَّفَاعَةُ الشَّرَكِيَّةُ، الَّتِي فِي قُلُوبِ
الْمُشْرِكِينَ، الْمُتَّخِذِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ، فَيَعَامِلُونَ بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ
مِنْ شَفَاعَتِهِمْ، وَيَفُوزُ بِهَا الْمُوَحِّدُونَ .

وَتَأْمَلْ قَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ - وَقَدْ سَأَلَهُ مَنْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ - قَالَ :

«أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» ^(١)، كَيْفَ جَعَلَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا شَفَاعَتُهُ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ، عَكْسَ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ تُنَالُ بِاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَهُمْ شُفَعَاءَ، وَعِبَادَتِهِمْ وَمُؤَالَاتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَقَلَبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا فِي زَعْمِهِمُ الْكَاذِبَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ سَبَبَ الشَّفَاعَةِ هُوَ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ، فَحِينَئِذٍ يَأْذَنُ اللَّهُ لِلشَّافِعِ أَنْ يُشَفِّعَ.

المشرك :

وَمِنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِ اعْتِقَادُهُ أَنَّ مَنْ اتَّخَذَهُ وَلِيًّا أَوْ شَفِيعًا أَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُ، وَيَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا يَكُونُ خَوَاصُّ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُمْ مَنْ وَالَاهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وَفِي الْفَصْلِ الثَّانِي: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وَبَقِيَ فَصْلٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا التَّوْحِيدَ، وَاتِّبَاعَ الرَّسُولِ، وَعَنْ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ يَسْأَلُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَلِمَتَانِ يُسْأَلُ عَنْهُمَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ: مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٩٩).

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَصُولٍ، تَقْطَعُ شَجَرَةَ الشُّرْكِ مِنْ قَلْبِ مَنْ وَعَاهَا وَعَقَلَهَا لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذُنُ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، وَلَا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا تَوْحِيدَهُ، وَاتِّبَاعَ رَسُولِهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ شُرْكَ الْعَادِلِينَ بِهِ غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وَأَصْحُ الْقَوْلَيْنِ أَنَّهُمْ يَعْدِلُونَ بِهِ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْمُوَالَاةِ وَالْمَحَبَّةِ، كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) [الشُّعَرَاءُ: ٩٧-٩٨]، وَكَمَا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَتَرَى الْمُشْرِكَ يُكَذِّبُ حَالَهُ وَعَمَلَهُ قَوْلَهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: لَا نُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَلَا نُسَوِّيهِمْ بِاللَّهِ، ثُمَّ يَغْضَبُ لَهُمْ وَلِحُرْمَاتِهِمْ - إِذَا انْتَهَكْتَ - أَعْظَمَ مِمَّا يَغْضَبُ لِلَّهِ، وَيَسْتَبْشِرُ بِذِكْرِهِمْ، وَيَتَبَشَّشُ بِهِ، سَيِّئًا إِذَا ذَكَرَ عَنْهُمْ مَا لَيْسَ فِيهِمْ مِنْ إِغَاثَةِ اللَّهْفَاتِ، وَكَشْفِ الْكُرْبَاتِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ، وَأَنَّهُمُ الْبَابُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَإِنَّكَ تَرَى الْمُشْرِكَ يَفْرَحُ وَيَسُرُّ وَيَحْنُ قَلْبُهُ، وَتَهَيِّجُ مِنْهُ لَوَاعِجُ التَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ لَهُمْ وَالْمُوَالَاةِ، وَإِذَا ذَكَرْتَ لَهُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَجَرَّدْتَ تَوْحِيدَهُ لِحَقَّتْهُ وَخَشَتْهُ، وَضِيقٌ، وَحَرَجٌ وَرَمَاكَ بِنَقْصِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي لَهُ، وَرُبَّمَا عَادَاكَ.

رَأَيْنَا وَاللَّهِ مِنْهُمْ هَذَا عَيَانًا، وَرَمَوْنَا بَعْدَ أَوْتِهِمْ، وَبَعُغُوا لَنَا الْغَوَائِلَ،
وَاللَّهُ مُخْزِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَمْ تَكُنْ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا، كَمَا قَالَ
إِخْوَانُهُمْ: عَابَ أَهْمَتْنَا، فَقَالَ هَؤُلَاءِ: تَنْقَضُتُمْ مَشَائِخُنَا، وَأَبْوَابَ حَوَائِجِنَا
إِلَى اللَّهِ، وَهَكَذَا قَالَ النَّصَارَى لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، لَمَّا قَالَ
لَهُمْ: «إِنَّ الْمَسِيحَ عَبْدُ اللَّهِ»، قَالُوا: تَنْقَضَتِ الْمَسِيحَ وَعِبَتُهُ، وَهَكَذَا قَالَ
أَشْبَاهُ الْمُشْرِكِينَ لِمَنْ مَنَعَ اتِّخَاذَ الْقُبُورِ أَوْثَانًا تُعْبَدُ، وَمَسَاجِدَ تُقْصَدُ،
وَأَمَرَ بِزِيَارَتِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَدْنَى اللَّهُ فِيهِ وَرَسُولُهُ، قَالُوا: تَنْقَضَتِ
أَصْحَابَهَا.

الشُّرْكُ الْأَصْغَرُ :

وَأَمَّا الشُّرْكُ الْأَصْغَرُ فَكَيْسِيرُ الرِّيَاءِ ، وَالتَّصَنُّعُ لِلْخَلْقِ ، وَالْحَلْفُ
بِغَيْرِ اللَّهِ ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: « مَنْ
حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ » ^(١) ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ : مَا شَاءَ اللَّهُ
وَشِئْتُ ، وَهَذَا مِنْ اللَّهِ وَمِنْكَ ، وَإِنَّا بِاللَّهِ وَبِكَ ، وَمَا لِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ ،
وَأَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ ، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ يَكُنْ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ يَكُونُ
هَذَا شُرْكًَا أَكْبَرَ ، بِحَسَبِ قَائِلِهِ وَمَقْصِدِهِ ، وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ قَالَ لَهُ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَمَا شِئْتُ : « أَجَعَلْتَنِي

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١٥٣٥) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ
سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٢٤١) .

لِلَّهِ نَدًا؟ قُلْ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ» ^(١) ، وَهَذَا اللَّفْظُ أَخَفُّ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَلْفَافِ .

وَمِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِكِ : سُجُودُ الْمُرِيدِ لِلشَّيْخِ ، فَإِنَّهُ شَرِكٌ مِنَ السَّاجِدِ وَالْمُسْجُودِ لَهُ ، وَالْعَجَبُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ هَذَا بِسُجُودٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ وَضْعُ الرَّأْسِ قُدَّامَ الشَّيْخِ احْتِرَامًا وَتَوَاضُعًا ، فَيُقَالُ لَهُؤُلَاءِ : وَلَوْ سَمَّيْتُمُوهُ مَا سَمَّيْتُمُوهُ ، فَحَقِيقَةُ السُّجُودِ وَضْعُ الرَّأْسِ لِمَنْ يُسْجَدُ لَهُ ، وَكَذَلِكَ السُّجُودُ لِلصَّنَمِ ، وَلِلشَّمْسِ ، وَلِلنَّجْمِ ، وَلِلْحَجَرِ ، كُلُّهُ وَضْعُ الرَّأْسِ قُدَّامَهُ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ : رُكُوعُ الْمُتَعَمِّمِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عِنْدِ الْمَلَاقَاةِ ، وَهَذَا سُجُودٌ فِي اللُّغَةِ ، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا ﴾ [البقرة: ٥٨] ، أَيِ مُنْحِنِينَ ، وَإِلَّا فَلَا يُمَكِّنُ الدُّخُولُ بِالْجَنْبَةِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ : سَجَدَتِ الْأَشْجَارُ ، إِذَا أَمَّالَتْهَا الرِّيحُ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ حَلْقُ الرَّأْسِ لِلشَّيْخِ ، فَإِنَّهُ تَعَبُّدٌ لَغَيْرِ اللَّهِ ، وَلَا يُتَعَبَّدُ بِحَلْقِ الرَّأْسِ إِلَّا فِي النُّسُكِ لِلَّهِ خَاصَّةً .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ التَّوْبَةُ لِلشَّيْخِ ، فَإِنَّهَا شَرِكٌ عَظِيمٌ ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ ، كَالصَّلَاةِ ، وَالصِّيَامِ ، وَالْحَجِّ ، وَالنُّسُكِ ، فَهِيَ خَالِصٌ حَقٌّ لِلَّهِ .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ (٧٨٧) ، صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (١٣٩) .

وَفِي الْمُسْنَدِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَتَى بِأَسِيرٍ ، فَقَالَ :
اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ ، وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ » ^(١) .

فَالْتَوْبَةُ عِبَادَةٌ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ ، كَالسُّجُودِ وَالصَّيَامِ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ : النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ شَرُّهُ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْحَلْفِ
بِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِذَا كَانَ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ ، فَكَيْفَ بِمَنْ نَذَرَ لِغَيْرِ
اللَّهِ ؟ ، مَعَ أَنَّ فِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - « النَّذْرُ حَلْفَةٌ » ^(٢) .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ : الْخَوْفُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ ، وَالْعَمَلُ
لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَالْإِنَابَةُ وَالْخُضُوعُ ، وَالذُّلُّ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَابْتِغَاءُ الرِّزْقِ مِنْ عِنْدِ
غَيْرِهِ ، وَحَمْدُ غَيْرِهِ عَلَى مَا أُعْطِيَ ، وَالْغُنْيَةُ بِذَلِكَ عَنْ حَمْدِهِ سُبْحَانَهُ ،
وَالذَّمُّ وَالسَّخَطُ عَلَى مَا لَمْ يَقْسِمْهُ ، وَلَمْ يَجْرِ بِهِ الْقَدَرُ ، وَإِضَافَةُ نِعَمِهِ إِلَى
غَيْرِهِ ، وَاعْتِقَادُ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَوْنِ مَا لَا يَشَاؤُهُ .

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ : طَلَبُ الْحَوَائِجِ مِنَ الْمَوْتَى ، وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِمْ ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهِمْ .

(١) (ضَعِيفٌ) : رَوَاهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
فِي «الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» (٣٧٠٥) .

(٢) (ضَعِيفٌ) : ضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» (٥٩٨٩) بِلَفْظٍ
مُخْتَلَفٍ .

وَهَذَا أَصْلُ شَرِّ الْعَالَمِ ، فَإِنَّ الْمَيِّتَ قَدْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ
لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، فَضْلًا عَمَّنِ اسْتَعَاثَ بِهِ وَسَأَلَهُ قَضَاءَ حَاجَتِهِ ،
أَوْ سَأَلَهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ إِلَى اللَّهِ فِيهَا ، وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِ بِالشَّافِعِ وَالْمَشْفُوعِ
لَهُ عِنْدَهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ لَمْ
يَجْعَلِ اسْتِعَاثَتَهُ وَسُؤَالَهُ سَبَبًا لِإِذْنِهِ ، وَإِنَّمَا السَّبَبُ لِإِذْنِهِ كَمَا لِالتَّوْحِيدِ ،
فَجَاءَ هَذَا الْمُشْرِكُ بِسَبَبٍ يَمْنَعُ الْإِذْنَ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ اسْتَعَانَ فِي
حَاجَةٍ بِمَا يَمْنَعُ حُصُولَهَا ، وَهَذِهِ حَالَةُ كُلِّ مُشْرِكٍ ، وَالْمَيِّتُ مُحْتَاجٌ إِلَى
مَنْ يَدْعُو لَهُ ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ ، كَمَا أَوْصَانَا النَّبِيُّ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا زُرْنَا قُبُورَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ نَتَرَحَّمْ عَلَيْهِمْ ، وَنَسْأَلَ لَهُمُ
الْعَافِيَةَ وَالْمَغْفِرَةَ ، فَعَكَسَ الْمُشْرِكُونَ هَذَا ، وَزَارُواهُمْ زِيَارَةَ الْعِبَادَةِ ،
وَاسْتَقْضَاءِ الْحَوَائِجِ ، وَالِاسْتِعَاثَةَ بِهِمْ ، وَجَعَلُوا قُبُورَهُمْ أَوْثَانًا تُعْبَدُ ،
وَسَمَّوْا قَصْدَهَا حَجًّا ، وَاتَّخَذُوا عِنْدَهَا الْوُقُوفَةَ وَحَلَقَ الرَّأْسِ ، فَجَمَعُوا
بَيْنَ الشِّرْكِ بِالْمَعْبُودِ الْحَقِّ ، وَتَغْيِيرِ دِينِهِ ، وَمُعَادَاةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ، وَنِسْبَةِ
أَهْلِهِ إِلَى التَّنْقِصِ لِلْأَمْوَاتِ ، وَهُمْ قَدْ تَنَقَّصُوا الْخَالِقَ بِالشِّرْكِ ، وَأَوْلِيَاءَهُ
الْمُؤَحِّدِينَ لَهُ ، الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا بِذَمِّهِمْ وَعَيْنِهِمْ وَمُعَادَاتِهِمْ ،
وَتَنَقَّصُوا مَنْ أَشْرَكُوا بِهِ غَايَةَ التَّنْقِصِ ، إِذْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ رَاضُونَ مِنْهُمْ
بِهَذَا ، وَأَنَّهُمْ أَمْرُوهُمْ بِهِ ، وَأَنَّهُمْ يُوَالُونَهُمْ عَلَيْهِ ، وَهُؤُلَاءِ هُمْ أَعْدَاءُ

الرُّسُلَ وَالتَّوْحِيدَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَمَا أَكْثَرَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ ! وَلِلَّهِ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿ [إِبْرَاهِيمُ: ٣٥-٣٦] .

وَمَا نَجَا مِنْ شَرِّ هَذَا الشَّرِّ الْأَكْبَرِ إِلَّا مَنْ جَرَّدَ تَوْحِيدَهُ لِلَّهِ ، وَعَادَى الْمُشْرِكِينَ فِي اللَّهِ ، وَتَقَرَّبَ بِمَقْتِهِمْ إِلَى اللَّهِ ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَلِيَّهُ وَإِلَهَهُ وَمَعْبُودَهُ ، فَجَرَّدَ حُبَّهُ لِلَّهِ ، وَخَوْفَهُ لِلَّهِ ، وَرَجَاءَهُ لِلَّهِ ، وَذُلَّهُ لِلَّهِ ، وَتَوَكُّلَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَاسْتِعَانَتَهُ بِاللَّهِ ، وَالتَّجَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاسْتِغَاثَتَهُ بِاللَّهِ ، وَأَخْلَصَ قَصْدَهُ لِلَّهِ ، مُتَّبِعًا لِأَمْرِهِ ، مُتَطَلِّبًا لِمَرْضَاتِهِ ، إِذَا سَأَلَ سَأَلَ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَانَ اسْتَعَانَ بِاللَّهِ ، وَإِذَا عَمَلَ عَمَلَ لِلَّهِ ، فَهُوَ لِلَّهِ ، وَبِاللَّهِ ، وَمَعَ اللَّهِ .
وَالشَّرِّ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ ، لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ .

وَلَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُ أَنْوَاعَهُ لَا تَسَعُ الْكَلَامُ أَعْظَمَ اتِّسَاعٍ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُسَاعِدَ بَوْضُوحَ كِتَابٍ فِيهِ ، وَفِي أَقْسَامِهِ ، وَأَسْبَابِهِ وَمَبَادِيهِ ، وَمَضَرَّتِهِ ، وَمَا يَنْدَفِعُ بِهِ .

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَجَا مِنْهُ وَمِنَ التَّعْطِيلِ وَهُمَا الدَّاءَانِ اللَّذَانِ هَلَكَتَ بِهِمَا الْأُمَمُ فَمَا بَعْدَهُمَا أَيْسَرُ مِنْهُمَا ، وَإِنْ هَلَكَتَ بِهِمَا فَبِسَبِيلٍ مِّنْ هَلَكَ ، وَلَا أَسَى عَلَى الْهَالِكِينَ .

النفاق :

وَأَمَّا النِّفَاقُ : فَالِدَاءُ الْعُضَالِ الْبَاطِنِ، الَّذِي يَكُونُ الرَّجُلُ مُمْتَلِكًا مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ خَفِيَ عَلَى النَّاسِ، وَكَثِيرًا مَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ، فَيَزْعُمُ أَنَّهُ مُصْلِحٌ وَهُوَ مُفْسِدٌ. وَهُوَ نَوْعَانِ: أَكْبَرُ، وَأَصْغَرُ.

فَالْأَكْبَرُ : يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ فِي دَرَكِهَا الْأَسْفَلِ، وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ لِلْمُسْلِمِينَ إِيْمَانَهُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُنْسَلِخٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مُكَذِّبٌ بِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ أَنْزَلَهُ عَلَى بَشَرٍ جَعَلَهُ رَسُولًا لِلنَّاسِ، يَهْدِيهِمْ بِإِذْنِهِ، وَيُنْذِرُهُمْ بِأَسْأَةِ، وَيُخَوِّفُهُمْ عِقَابَهُ.

فضح الله المنافقين :

وَقَدْ هَتَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَجَلَّى لِعِبَادِهِ أُمُورَهُمْ، لِيَكُونُوا مِنْهَا وَمِنْ أَهْلِهَا عَلَى حَذَرٍ، وَذَكَرَ طَوَائِفَ الْعَالَمِ الثَّلَاثَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَفَّارَ، وَالْمُنَافِقِينَ، فَذَكَرَ فِي الْمُؤْمِنِينَ أَرْبَعَ آيَاتٍ، وَفِي الْكَفَّارِ آيَتَيْنِ، وَفِي الْمُنَافِقِينَ ثَلَاثَ عَشْرَةِ آيَةً، لِكَثْرَتِهِمْ وَعُمُومِ الْإِبْتِلَاءِ بِهِمْ، وَشِدَّةِ فِتْنَتِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فَإِنَّ بَلِيَّةَ الْإِسْلَامِ بِهِمْ شَدِيدَةٌ جِدًّا، لِأَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إِلَيْهِ، وَإِلَى نَصْرَتِهِ

وَمُؤَالَاتِهِ، وَهُمْ أَعْدَاؤُهُ فِي الْحَقِيقَةِ، يُخْرِجُونَ عَدَاوَتَهُ فِي كُلِّ قَالِبٍ يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهُ عِلْمٌ وَإِصْلَاحٌ، وَهُوَ غَايَةُ الْجَهْلِ وَالْإِفْسَادِ.

فَلِلَّهِ كَمٌ مِنْ مَعْقِلٍ لِلْإِسْلَامِ قَدْ هَدَمُوهُ ؟ ! ، وَكَمٌ مِنْ حِصْنٍ لَهُ قَدْ قَلَعُوا أَسَاسَهُ وَخَرَّبُوهُ ؟ ! ، وَكَمٌ مِنْ عِلْمٍ لَهُ قَدْ طَمَسُوهُ ؟ ! ، وَكَمٌ مِنْ لُؤَاءٍ لَهُ مَرْفُوعٌ قَدْ وَضَعُوهُ ؟ ! ، وَكَمٌ ضَرَبُوا بِمَعَاوِلِ الشُّبْهِ فِي أُصُولِ غَرَاسِهِ لِيَقْلَعُوهَا ؟ ! ، وَكَمٌ عَمَّوْا عُيُونَ مَوَارِدِهِ بِأَرَائِهِمْ لِيَدْفِنُوهَا وَيَقْطَعُوهَا ؟ ! .

مِحْنَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ :

فَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ مِنْهُمْ فِي مِحْنَةٍ وَبَلِيَّةٍ، وَلَا يَزَالُ يَطْرُقُهُ مِنْ شُبْهِهِمْ سَرِيَّةٌ بَعْدَ سَرِيَّةٍ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ مُصْلِحُونَ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢) ﴿ [البقرة: ١٢] ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨) ﴿ [الصف: ٨] .

اجْتِمَاعُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى مُفَارَقَةِ الْقُدَى :

اتَّفَقُوا عَلَى مُفَارَقَةِ الْوَحْيِ، فَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْإِهْتِدَاءِ بِهِ مُجْتَمِعُونَ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَا أَجَلَ ذَلِكَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.

خُلُو قُلُوبِهِمْ مِنْ مَعَالِمِ الْإِيمَانِ :

دَرَسَتْ مَعَالِمُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ فَلْيَسُوا يَعْرِفُونَهَا، وَدَثَرَتْ مَعَاهِدُهُ عِنْدَهُمْ فَلْيَسُوا يَعْمُرُونَهَا، وَأَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ النَّيِّرَةُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فَلْيَسُوا يُجِبُونَهَا، وَكَسَفَتْ شَمْسُهُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ ظُلَمِ آرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ فَلْيَسُوا يُبْصِرُونَهَا، لَمْ يَقْبَلُوا هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ، وَلَمْ يَرْفَعُوا بِهِ رَأْسًا، وَلَمْ يَرَوْا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ إِلَى آرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ بِأَسَاءٍ، خَلَعُوا نُصُوصَ الْوَحْيِ عَنْ سُلْطَنَةِ الْحَقِيقَةِ، وَعَزَلُوهَا عَنْ وَلَايَةِ الْيَقِينِ، وَشَنُّوا عَلَيْهَا غَارَاتِ التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ، فَلَا يَزَالُ يُخْرَجُ عَلَيْهَا مِنْهُمْ كَمِينَ بَعْدَ كَمِينَ، نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ نُزُولَ الضَّيْفِ عَلَى أَقْوَامٍ لَثَامٍ، فَقَابَلُوهَا بِغَيْرِ مَا يَنْبَغِي لَهَا مِنَ الْقَبُولِ وَالْإِكْرَامِ، وَتَلَقَّوْهَا مِنْ بَعِيدٍ، وَلَكِنْ بِالْدَّفْعِ فِي الصُّدُورِ مِنْهَا وَالْأَعْجَازِ.

وَقَالُوا: مَا لَكَ عِنْدَنَا مِنْ عُبُورٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَعَلَى سَبِيلِ الْاجْتِيَازِ، أَعَدُّوا لِدَفْعِهَا أَصْنَافَ الْعُدَدِ وَضُرُوبَ الْقَوَانِينِ، وَقَالُوا لِمَا حَلَّتْ بِسَاحَتِهِمْ: مَا لَنَا وَلِظَوَاهِرِ لَفْظِيَّةٍ لَا تُفِيدُنَا شَيْئًا مِنَ الْيَقِينِ، وَعَوَائِمُهُمْ قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ خَلْفَنَا مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ بِهَا مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِينَ، وَأَقْوَمُ بِطَرَائِقِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَأَوَّلِكَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ السَّدَاجَةُ وَسَلَامَةُ الصُّدُورِ، وَلَمْ يَتَفَرَّغُوا لِتَمْهِيدِ قَوَاعِدِ النَّظَرِ، وَلَكِنْ صَرَفُوا هِمَمَهُمْ إِلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ، فَطَرِيقَةُ الْمُتَأَخِّرِينَ

أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، وَطَرِيقَةُ السَّلَفِ الْمَاضِينَ أَجْهَلُ، لَكِنَّهَا أَسْلَمُ.

أَنْزَلُوا نُصُوصَ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنَ مَنَزَلَةَ الْخَلِيفَةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، اسْمُهُ عَلَى السَّكَّةِ وَفِي الْخُطْبَةِ فَوْقَ الْمَنَابِرِ مَرْفُوعٌ، وَالْحُكْمُ النَّافِذُ لِغَيْرِهِ، فَحُكْمُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ وَلَا مَسْمُوعٍ.

لَبَسُوا ثِيَابَ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْخُسْرَانِ، وَالْغِلِّ وَالْكُفْرَانِ، فَالظَّوَاهِرُ ظَوَاهِرُ الْأَنْصَارِ، وَالْبَوَاطِنُ قَدْ تَحَيَّزَتْ إِلَى الْكُفَّارِ، فَالْسِتُّهُمْ أَلْسِنَةُ الْمُسَالِمِينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْمُحَارِبِينَ، ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

بِضَاعَتُهُمُ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرُ :

رَأْسُ مَا هُمْ الْخَدِيعَةُ وَالْمَكْرُ، وَبِضَاعَتُهُمُ الْكَذِبُ وَالْخَتَرُ، وَعِنْدَهُمُ الْعَقْلُ الْمَعِيشِيُّ أَنَّ الْفَرِيقَيْنِ عَنْهُمْ رَاضُونَ، وَهُمْ بَيْنَهُمْ آمِنُونَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

فَسَادُ قُلُوبِهِمْ :

قَدْ نَهَكَتْ أَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ قُلُوبَهُمْ فَأَهْلَكَتَهَا، وَغَلَبَتْ الْقُصُودُ السَّيِّئَةُ عَلَى إِرَادَاتِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ فَأَفْسَدَتْهَا، فَفَسَادُهُمْ قَدْ تَرَامَى إِلَى الْهَلَاكِ، فَعَجَزَ عَنْهُ الْأَطِبَّاءُ الْعَارِفُونَ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ

مَرْضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة: ١٠] .

مَنْ عَلَقَتْ مَخَالِبُ شُكُوكِهِمْ بِأَدِيمِ إِيْمَانِهِ مَزَقَتْهُ كُلَّ تَمْزِيقٍ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَرُّ فِتْنَتِهِمْ بِقَلْبِهِ أَلْقَاهُ فِي عَذَابِ الْحَرِيقِ، وَمَنْ دَخَلَتْ شُبُهَاتُ تَلْبِيسِهِمْ فِي مَسَامِعِهِ حَالَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ التَّصَدِيقِ، فَفَسَادُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَثِيرٌ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ [البقرة: ١١-١٢-١٣] .

أَصْحَابُ ظَوَاهِر :

الْمُتَمَسِّكُ عِنْدَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ صَاحِبُ ظَوَاهِرٍ، مَبْخُوسٌ حَظُّهُ مِنَ الْمَعْقُولِ، وَالِدَائِرُ مَعَ النَّصُوصِ عِنْدَهُمْ كَحِمَارٍ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، فَهَمُّهُ فِي حَمْلِ الْمَنْقُولِ، وَبِضَاعَةُ تَاجِرِ الْوَحْيِ لَدَيْهِمْ كَاسِدَةٌ، وَمَا هُوَ عِنْدَهُمْ بِمَقْبُولٍ، وَأَهْلُ الْإِتْبَاعِ عِنْدَهُمْ سُفَهَاءُ فَهُمْ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ بِهِمْ يَتَطَيَّرُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ [البقرة: ١٣-١٤-١٥] .

أَصْحَابُ وُجُود :

لِكُلِّ مِنْهُمْ وَجْهَانِ، وَجْهٌ يَلْقَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَجْهٌ يَنْقَلِبُ بِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ، وَلَهُ لِسَانَانِ: أَحَدُهُمَا يَقْبَلُهُ بِظَاهِرِهِ الْمُسْلِمُونَ،

وَالْآخِرُ يَتَرَجِّمُ بِهِ عَنْ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤].

إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ :

قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اسْتِهْزَاءً بِأَهْلِيهَا وَاسْتَحْقَارًا، وَأَبَوْا أَنْ يُنْقَادُوا لِحُكْمِ الْوَحْيَيْنِ فَرَحًا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ إِلَّا سِتْكَثَارُ مِنْهُ أَشْرًا وَاسْتِكْبَارًا، فَتَرَاهُمْ أَبَدًا بِالْمُتَمَسِّكِينَ بِصَرِيحِ الْوَحْيِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥].

خَرَجُوا فِي طَلَبِ التَّجَارَةِ الْبَائِرَةِ فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ، فَكَبُّوا مَرَاقِبَ الشُّبْهِ وَالشُّكُوكِ تَجَرَّى بِهِمْ فِي مَوْجِ الْخَيَالَاتِ، فَلَعِبَتْ بِسُفْنِهِمُ الرِّيحُ الْعَاصِفُ، فَالْقَتْهَا بَيْنَ سُفْنِ الْهَالِكِينَ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦].

أَضَاءَتْ لَهُمْ نَارُ الْإِيمَانِ فَأَبْصَرُوا فِي ضَوْئِهَا مَوَاقِعَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، ثُمَّ طَفِيَ ذَلِكَ النُّورُ، وَبَقِيَ نَارٌ تَأْجِجُ ذَاتَ هَبٍّ وَاشْتِعَالٍ، فَهُمْ بِتِلْكَ النَّارِ مُعَذِّبُونَ، وَفِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ يَعْمَهُونَ ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

لَا تَفْقَهُ قُلُوبُهُمْ وَلَا تَعْي:

أَسْمَاعُ قُلُوبِهِمْ قَدْ أَثْقَلَهَا الْوَقْرُ، فَهِيَ لَا تَسْمَعُ مُنَادِيَ الْإِيمَانِ،
وَعُيُونُ بَصَائِرِهِمْ عَلَيْهَا غِشَاوَةُ الْعَمَى، فَهِيَ لَا تُبْصِرُ حَقَائِقَ الْقُرْآنِ،
وَأَلْسِنَتُهُمْ بِهَا خَرَسٌ عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ بِهِ لَا يَنْطِقُونَ ﴿صُمُّ بَكْمُ عُمَى
فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

صَابَ عَلَيْهِمْ صَيْبُ الْوَحْيِ، وَفِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، فَلَمْ
يَسْمَعُوا مِنْهُ إِلَّا رَعْدَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّكَالِيفِ الَّتِي وُظِّفَتْ عَلَيْهِمْ
فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ، فَجَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ،
وَجَدُّوا فِي الْهَرَبِ، وَالطَّلَبُ فِي آثَارِهِمْ وَالصِّيَاحُ، فَنُودِيَ عَلَيْهِمْ عَلَى
رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَكُشِفَتْ حَالُهُمْ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ، وَضُرِبَ لَهُمْ مَثَلَانِ
بِحَسَبِ حَالِ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْهُنَّ: الْمُنَاطِرِينَ، وَالْمُقَلِّدِينَ، فَقِيلَ ﴿أَوْ
كَصِيبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

ضَعُفَتْ أَبْصَارُ بَصَائِرِهِمْ عَنْ احْتِمَالِ مَا فِي الصَّيْبِ مِنْ بَرْقِ أَنْوَارِهِ
وَضِيَاءِ مَعَانِيهِ، وَعَجَزَتْ أَسْمَاعُهُمْ عَنْ تَلْقَى رُغُودٍ وَعُودِهِ وَأَوَامِرِهِ
وَنَوَاهِيهِ، فَقَامُوا عِنْدَ ذَلِكَ حَيَارَى فِي أَوْدِيَةِ التِّيهِ، لَا يَنْتَفِعُ بِسَمْعِهِ
السَّامِعُ، وَلَا يَهْتَدِي بِبَصَرِهِ الْبَصِيرُ، ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا

أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ٢٠].

علاماتكم:

لَهُمْ عِلَامَاتٌ يُعْرِفُونَ بِهَا مُبَيَّنَةٌ فِي السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، بَادِيَةٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا مِنْ أَهْلِ بَصَائِرِ الْإِيمَانِ، قَامَ بِهِمْ -وَاللَّهِ- الرِّيَاءُ، وَهُوَ أَفْبَحُ مَقَامٍ قَامَهُ الْإِنْسَانُ، وَقَعَدَ بِهِمْ الْكَسَلُ عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنْ أَوَامِرِ الرَّحْمَنِ، فَأَصْبَحَ الْإِخْلَاصُ عَلَيْهِمْ لَذَلِكَ ثَقِيلًا ﴿١٤٢﴾ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

أَحَدُهُمْ كَالشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعْرِ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَسْتَقِرُّ مَعَ إِحْدَى الْفَتَتَيْنِ ^(١)، فَهُمْ وَاقِفُونَ بَيْنَ الْجَمْعَيْنِ، يَنْظُرُونَ أَيْهِمْ أَقْوَى وَأَعَزُّ قَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ [النساء: ١٤٣].

يَكِيدُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ :

يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ، قَالُوا: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَأَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَ لَأَعْدَاءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ النُّصْرَةِ نَصِيبٌ، قَالُوا: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ عَقْدَ

(١) يُشِيرُ إِلَى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٨٤).

الْإِخَاءَ بَيْنَنَا مُحْكَمٌ، وَأَنَّ النَّسَبَ بَيْنَنَا قَرِيبٌ ؟ ، فَيَا مَنْ يُرِيدُ مَعْرِفَتَهُمْ، خُذْ صِفَاتِهِمْ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَا تَحْتَاجُ بَعْدَهُ دَلِيلًا ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ [النِّسَاء: ١٤١].

لَقُمَ مَنْطِقُ :

يُعْجِبُ السَّامِعَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ لِحَلَاوَتِهِ وَلِينِهِ ، وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ كَذِبِهِ وَمَيِّنِهِ ، فَتَرَاهُ عِنْدَ الْحَقِّ نَائِمًا ، وَفِي الْبَاطِلِ عَلَى الْأَقْدَامِ ، فَخُذْ وَصْفَهُمْ مِنْ قَوْلِ الْقُدُّوسِ السَّلَامِ: ﴿٢٠٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ [البَقَرَةُ: ٢٠٤].

لَا يَأْتِي مِنْهُمْ إِلَّا الْفَسَادُ :

أَوْامِرُهُمُ الَّتِي يَأْمُرُونَ بِهَا أَتْبَاعَهُمْ مُتَضَمِّنَةٌ لِفَسَادِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَنَوَاهِيهِمْ عَمَّا فِيهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ ، وَأَحَدُهُمْ تَلْقَاهُ بَيْنَ جَمَاعَةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالزُّهْدِ وَالْاجْتِهَادِ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ [البَقَرَةُ: ٢٠٥].

فَهُمْ جَنْسٌ بَعْضُهُ يُشَبِّهُ بَعْضًا، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ بَعْدَ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ بَعْدَ أَنْ يَتْرُكُوهُ، وَيَبْخُلُونَ بِالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ أَنْ
يُنْفِقُوهُ، كَمْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِنِعَمِهِ فَأَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِهِ وَنَسُوهُ؟، وَكَمْ كَشَفَ
حَالَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَجْتَنِبُوهُ؟ فَاسْمَعُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿الْمُنْفِقُونَ
وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) [التوبة: ٦١].

يَنْفِرُونَ مِنَ الْحَقِّ:

إِنْ حَاكَمْتَهُمْ إِلَى صَرِيحِ الْوَحْيِ وَجَدْتَهُمْ عَنْهُ نَافِرِينَ، وَإِنْ دَعَوْتَهُمْ
إِلَى حُكْمِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَيْتَهُمْ عَنْهُ
مُعْرِضِينَ، فَلَوْ شَهِدْتَ حَقَائِقَهُ لَرَأَيْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهُدَى أَمَدًا بَعِيدًا،
وَرَأَيْتَهَا مُعْرِضَةً عَنِ الْوَحْيِ إِعْرَاضًا شَدِيدًا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا
إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا﴾ (٦١) [النساء: ٦١].

فَكَيْفَ لَهُمْ بِالْفَلَاحِ وَالْهُدَى! بَعْدَمَا أُصِيبُوا فِي عُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ؟
وَأَنَّى لَهُمُ التَّخَلُّصُ مِنَ الضَّلَالِ وَالرَّدَى! وَقَدْ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِإِيمَانِهِمْ؟
فَمَا أَخْسَرَ تِجَارَتَهُمُ الْبَائِرَةَ! وَقَدْ اسْتَبَدَّلُوا بِالرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ حَرِيقًا

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢] .

نَشَبَ زُقُومُ الشُّبْهِ وَالشُّكُوكِ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ لَهُ مُسِيغًا
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ

وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣] .

تَبَّاهُمْ، مَا أَبْعَدَهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِيْمَانِ ! وَمَا أَكْذَبَ دَعْوَاهُمْ لِلتَّحْقِيقِ
وَالْعُرْفَانِ، فَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ وَأَتْبَاعُ الرَّسُولِ فِي شَأْنٍ، لَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ جَلَّ
جَلَالُهُ فِي كِتَابِهِ بِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ قَسَمًا عَظِيمًا، يَعْرِفُ مَضْمُونَهُ أَوَّلُو
الْبَصَائِرِ، فَقُلُوبُهُمْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ إِجْلَالًا لَهُ وَتَعْظِيمًا، فَقَالَ تَعَالَى تَحْذِيرًا
لَأَوْلِيَائِهِ، وَتَنْبِيْهًا عَلَى حَالِ هَؤُلَاءِ وَتَفْهِيمًا ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

تَسْبِقُ يَمِينُ أَحَدِهِمْ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْتَرِضَ عَلَيْهِ، لِعِلْمِهِ أَنَّ قُلُوبَ
أَهْلِ الْإِيْمَانِ لَا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، فَيَتَبَرَّأُ بِيَمِينِهِ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِهِ وَكَشَفَ مَا
لَدَيْهِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيْبَةِ يَكْذِبُونَ، وَيَحْلِفُونَ لِيَحْسَبَ السَّامِعُ أَنَّهُمْ
صَادِقُونَ، ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٢] .

تَبَّاهُمْ ! بَرَزُوا إِلَى الْبَيْدَاءِ مَعَ رَكْبِ الْإِيمَانِ، فَلَمَّا رَأَوْا طُولَ الطَّرِيقِ
وَبُعْدَ الشُّقَّةِ نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَرَجَعُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِطِيبِ
الْعَيْشِ وَلَذَّةِ الْمَنَامِ فِي دِيَارِهِمْ، فَمَا مُتَّعُوا بِهِ وَلَا بَتَلَكَ الْهَجْعَةُ انْتَفَعُوا، فَمَا
هُوَ إِلَّا أَنْ صَاحَ بِهِمُ الصَّائِحُ فَقَامُوا عَنْ مَوَائِدِ أَطْعَمَتِهِمْ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ
مَا شَبِعُوا، فَكَيْفَ حَالُهُمْ عِنْدَ اللَّقَاءِ ؟ ، وَقَدْ عَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا، وَعَمُوا
بَعْدَمَا عَايَنُوا الْحَقَّ وَأَبْصَرُوا ﴿ ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [الْمُنَافِقُونَ : ٣].

حُسْنُ الْمَظْهَرِ مَعَ تَتَبُعِ الْجَوْهَرِ :

أَحْسَنُ النَّاسِ أَجْسَامًا، وَأَخْلَبُهُمْ لِسَانًا، وَالْأَطْفُهُمْ بَيَانًا، وَأَخْبَثُهُمْ
قُلُوبًا، وَأَضْعَفُهُمْ جَنَانًا، فَهُمْ كَالْخَشَبِ الْمُسْنَدَةِ الَّتِي لَا ثَمَرَ لَهَا، قَدْ
قَلَعَتْ مِنْ مَغَارِسِهَا فَتَسَانَدَتْ إِلَى حَائِطٍ يُقِيمُهَا، لئَلَّا يَطَّأَهَا السَّالِكُونَ
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ
خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْذَرَهُمْ قَتْلَهُمُ اللَّهُ إِنِّي
يُؤْفَكُونَ ﴾ [الْمُنَافِقُونَ : ٤].

يُؤَخَّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا الْأَوَّلِ إِلَى شَرْقِ الْمَوْتَى فَالْصُّبْحُ عِنْدَ
طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْعَصْرُ عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَيَنْقُرُونَهَا نَقْرَ الْغُرَابِ، إِذْ هِيَ
صَلَاةُ الْأَبْدَانِ، لَا صَلَاةُ الْقُلُوبِ، وَيَلْتَفِتُونَ فِيهَا التِّفَاتِ الثَّعْلَبِ، إِذْ

يَتَيَقَّنُ أَنَّهُ مَطْرُودٌ مَطْلُوبٌ، وَلَا يَشْهَدُونَ الْجَمَاعَةَ، بَلْ إِنْ صَلَّى أَحَدُهُمْ فِي الْبَيْتِ أَوْ الدُّكَّانِ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّيَمَنَ خَانَ، هَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ لِلْخَلْقِ، وَتِلْكَ مُعَامَلَتُهُمْ لِلْخَالِقِ، فَخُذْ وَصَفَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْمَطْفِئِينَ، وَآخِرِ السَّمَاءِ وَالطَّارِقِ فَلَا يُنَبِّئُكَ عَنْ أَوْصَافِهِمْ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٧٣﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣] فَمَا أَكْثَرُهُمْ! وَهُمْ الْأَقْلُونَ، وَمَا أَجْبَرَهُمْ! وَهُمْ الْأَذْلُونَ، وَمَا أَجْهَلَهُمْ! وَهُمْ الْمُتَعَالِمُونَ، وَمَا أَغْرَهُمْ بِاللَّهِ! إِذْ هُمْ بِعَظَمَتِهِ جَاهِلُونَ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ٥٦﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٦].

إِنْ أَصَابَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَافِيَةٌ وَنَصْرٌ وَظُهُورٌ سَاءَ هُمْ ذَلِكَ وَغَمَّهُمْ، وَإِنْ أَصَابَهُمْ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ وَامْتِحَانٌ يَمَحِّصُ بِهِ ذُنُوبَهُمْ، وَيُكَفِّرُ بِهِ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَفْرَحَهُمْ ذَلِكَ وَسَرَّهُمْ، وَهَذَا يُحَقِّقُ إِرْثَهُمْ وَإِرْثَ مَنْ عَدَاهُمْ، وَلَا يَسْتَوِي مَنْ مَوْرُوثُهُ الْمُنَافِقُونَ: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُّوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٠-٥١].

وَقَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ السَّلَفَيْنِ الْمُخْتَلَفَيْنِ، وَالْحَقُّ لَا يَنْدَفِعُ بِمُكَابَرَةِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالتَّخْلِيطِ : ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنُهُ تَسَوَّهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكُمْ سَيِّئُهُ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [١٢٠] [آلِ عِمْرَانَ : ١٢٠].

لَا يُؤْمِنُونَ لِفَسَادِ بَاطِنِهِمْ :

كَرِهَ اللَّهُ طَاعَاتِهِمْ، لَحَبَثَ قُلُوبَهُمْ وَفَسَادَ نِيَّاتِهِمْ، فَتَبَّطَّهُمْ عَنْهَا وَأَقْعَدَهُمْ، وَأَبْغَضَ قُرْبَهُمْ مِنْهُ وَجِوَارَهُ، لِمِيلِهِمْ إِلَى أَعْدَائِهِ، فَطَرَدَهُمْ عَنْهُ وَأَبْعَدَهُمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْ وَحْيِهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَأَشَقَّاهُمْ وَمَا أَسْعَدَهُمْ، وَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِحُكْمِ عَدَلٍ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونُوا مِنَ التَّائِبِينَ، فَقَالَ تَعَالَى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [٤٦] [التَّوْبَةُ : ٤٦] ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَتَهُ فِي تَثْبِيطِهِمْ وَإِقْعَادِهِمْ، وَطَرَدِهِمْ عَنْ بَابِهِ وَإِبْعَادِهِمْ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ لُطْفِهِ بِأَوْلِيَائِهِ وَإِسْعَادِهِمْ، فَقَالَ، وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِئَكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِئَكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [٤٧] [التَّوْبَةُ : ٤٧].

ثَقُلُ الْحَقُّ لَدَيْهِمْ :

ثَقُلَتْ عَلَيْهِمُ النَّصُوصُ فَكَرِهُوهَا، وَأَعْيَاهُمْ حَمْلُهَا فَالْقَوْهَا عَنْ
 أَكْتَاْفِهِمْ وَوَضَعُوهَا، وَتَقَلَّتْ مِنْهُمْ السُّنَنُ أَنْ يَحْفَظُوهَا فَأَهْمَلُوهَا،
 وَصَالَتْ عَلَيْهِمُ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَوَضَعُوا لَهَا قَوَانِينَ رَدُّوَهَا بِهَا
 وَدَفَعُوهَا، وَقَدْ هَتَكَ اللَّهُ أَسْتَارَهُمْ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ، وَضَرَبَ لِعِبَادِهِ
 أَمْثَالَهُمْ، وَأَعْلَمَ أَنَّهُ كُلَّمَا انْقَرَضَ مِنْهُمْ طَوَائِفُ خَلْفَهُمْ أَمْثَالُهُمْ، فَذَكَرَ
 أَوْصَافَهُمْ، لِأَوْلِيَائِهِ لِيَكُونُوا مِنْهَا عَلَى حَذَرٍ، وَيَبَيِّنَهَا لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿ ذَلِكِ
 بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ [مُحَمَّد: ٩] .

هَذَا شَأْنٌ مَنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ النَّصُوصُ، فَرَأَاهَا حَائِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَدْعَتِهِ
 وَهَوَاهُ، فَهِيَ فِي وَجْهِهِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ، فَبَاعَهَا بِمُحَصَّلٍ مِنَ
 الْكَلَامِ الْبَاطِلِ، وَاسْتَبَدَلَ مِنْهَا بِالْفُصُوصِ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ أَفْسَدَ
 عَلَيْهِمْ إِعْلَانَهُمْ وَإِسْرَارَهُمْ ﴿ ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا
 نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [٢٦]
 فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴾ [٢٧]
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ
 أَعْمَلَهُمْ ﴾ [مُحَمَّد: ٢٦-٢٨] .

تَعْرِفُكُمْ بِسِيمَاهُمْ :

أَسْرُوا سَرَائِرَ النِّفَاقِ، فَأَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتِ الْوُجُوهِ مِنْهُمْ، وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ، وَوَسَمَهُمْ لِأَجْلِهَا بِسِيَاءٍ لَا يَخْفُونَ بِهَا عَلَى أَهْلِ الْبَصَائِرِ وَالْإِيمَانِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِذْ كَتَمُوا كُفْرَهُمْ وَأَظْهَرُوا إِيْمَانَهُمْ رَاجُوا عَلَى الصِّيَارِفِ وَالثَّقَادِ، كَيْفَ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قَدْ كَشَفَهَا لَكُمْ ؟ ﴿٢٩﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ [مُحَمَّد : ٢٩-٣٠].

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعُوا لِيَوْمِ التَّلَاقِ، وَتَجَلَّى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِلْعِبَادِ وَقَدْ كُشِفَ عَنْ سَاقِ ؟ ، وَدُعُوا إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٣﴾ خَشَعَةً أَبْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ [الْقَلَم : ٤٣].

تَسَاقُطُهُمْ عَلَى الْجِسْرِ :

أَمْ كَيْفَ بِهِمْ إِذَا حُشِرُوا إِلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ ؟ وَهُوَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدٌ مِنَ الْحَسَامِ، وَهُوَ دَخَضٌ مَزَلَّةٌ، مُظْلِمٌ لَا يَقْطَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا بِنُورٍ يُبْصَرُ بِهِ مَوَاطِئُ الْأَقْدَامِ، فَقُسِّمَتْ بَيْنَ النَّاسِ الْأَنْوَارُ، وَهُمْ عَلَى قَدَرٍ تَفَاوُتِهَا فِي الْمُرُورِ وَالذَّهَابِ، وَأُعْطُوا نُورًا ظَاهِرًا مَعَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، كَمَا كَانُوا بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ يَأْتُونَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ، فَلَمَّا

تَوَسَّطُوا الْجِسْرَ عَصَفَتْ عَلَى أَنْوَارِهِمْ أَهْوِيَةُ النَّفَاقِ، فَأَطْفَأَتْ مَا بَأْيَدِيهِمْ
 مِنَ الْمَصَابِيحِ، فَوَقَفُوا حَيَارَى لَا يَسْتَطِيعُونَ الْمُرُورَ، فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
 أَهْلِ الْإِيمَانِ بَسُورٌ لَهُ بَابٌ، وَلَكِنْ قَدْ حِيلَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ الْمَفَاتِيحِ، بَاطِنُهُ
 الَّذِي يَلِي الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَمَا يَلِيهِمْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْعَذَابُ وَالنَّقْمَةُ،
 يُنَادُونَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ وَفْدِ الْإِيمَانِ، وَمَشَاعِلُ الرِّكَبِ تُلَوِّحُ عَلَى بُعْدِ
 كَالنُّجُومِ، تَبْدُو لِنَازِلِ الْإِنْسَانِ أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ لِنَتِمَكَّنَ فِي
 هَذَا الْمَضِيقِ مِنَ الْعُبُورِ، فَقَدْ طُفِئَتْ أَنْوَارُنَا، وَلَا جَوَازَ الْيَوْمِ إِلَّا بِمُصْبَاحِ
 مِنَ النُّورِ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا حَيْثُ قُسِّمَتْ الْأَنْوَارُ،
 فَهَيْهَاتَ الْوُقُوفُ لِأَحَدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمِضْمَارِ! كَيْفَ نَلْتَمِسُ الْوُقُوفَ فِي
 هَذَا الْمَضِيقِ؟، فَهَلْ يَلْوِي الْيَوْمَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ؟، وَهَلْ
 يَلْتَفِتُ الْيَوْمَ رَفِيقٌ إِلَى رَفِيقٍ؟، فَذَكِّرُوهُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ مَعَهُمْ وَصُحْبَتِهِمْ
 لَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ، كَمَا يُذَكِّرُ الْغَرِيبُ صَاحِبَ الْوَطَنِ بِصُحْبَتِهِ لَهُ فِي
 الْأَسْفَارِ، أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ نَصُومٌ كَمَا تَصُومُونَ، وَنُصَلِّي كَمَا تُصَلُّونَ، وَنَقْرَأُ
 كَمَا تَقْرَأُونَ، وَنَتَصَدَّقُ كَمَا تَتَصَدَّقُونَ، وَنَحُجُّ كَمَا تَحُجُّونَ؟ فَمَا الَّذِي
 فَرَّقَ بَيْنَنَا الْيَوْمَ، حَتَّى انْفَرَدْتُمْ دُونَنَا بِالْمُرُورِ؟ ﴿١٤﴾ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
 أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ
 الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُولَئِكَ التَّارُ

هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الحديد: ١٤-١٥].

هُم كَثِيرٌ - لَا كَثَرُهُمُ اللَّهُ - :

لَا تَسْتَطِلُّ أَوْصَافَ الْقَوْمِ، فَالْمَتْرُوكُ وَاللَّهُ أَكْثَرُ مِنَ الْمَذْكُورِ، كَادَ الْقُرْآنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ فِي شَأْنِهِمْ، لِكَثْرَتِهِمْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَفِي أَجْوَافِ الْقُبُورِ، فَلَا خَلَتْ بَقَاعُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ لَيْلًا يَسْتَوْحِشُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الطَّرِيقَاتِ، وَتَتَعَطَّلُ بِهِمْ أَسْبَابُ الْمَعَاشِ، وَتَخْطَفُهُمُ الْوُحُوشُ وَالسَّبَاعُ فِي الْفَلَوَاتِ، سَمِعَ حُذَيْفَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَهْلِكَ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ هَلَكَ الْمُنَافِقُونَ لَأَسْتَوْحِشْتُمْ فِي طَرِيقَاتِكُمْ مِنْ قِلَّةِ السَّالِكِ.

خَوْفُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنَ النِّفَاقِ :

تَاللَّهِ لَقَدْ قَطَعَ خَوْفُ النِّفَاقِ قُلُوبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، لِعِلْمِهِمْ بِدَقِّهِ وَجَلِّهِ وَتَفَاصِيلِهِ وَجُمْلِهِ، سَاءَتْ ظُنُونُهُمْ بِنُفُوسِهِمْ حَتَّى خَشَوْا أَنْ يَكُونُوا مِنْ جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِحُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا حُذَيْفَةُ، نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أَزْكِي بَعْدَكَ أَحَدًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَذْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّ

إِيمَانُهُ كَأَيِّمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَذَكَرَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: مَا أَمْنُهُ إِلَّا مُنَافِقٌ، وَمَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَقَدْ ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ، قِيلَ: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟، قَالَ: أَنْ يَرَى الْبَدَنُ خَاشِعًا وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ.

تَاللَّهِ لَقَدْ مِلْتُ قُلُوبَ الْقَوْمِ إِيْمَانًا وَيَقِينًا، وَخَوْفُهُمْ مِنَ النِّفَاقِ شَدِيدٌ، وَهُمْهُمْ لَذَلِكَ ثَقِيلٌ، وَسِوَاهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانَهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، وَهُمْ يَدْعُونَ أَنَّ إِيْمَانَهُمْ كَأَيِّمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْبُتُ النِّفَاقُ :

زَرَعَ النِّفَاقَ يَنْبُتُ عَلَى سَاقَتَيْنِ: سَاقِيَةِ الْكَذِبِ، وَسَاقِيَةِ الرِّيَاءِ، وَمَخْرَجُهُمَا مِنْ عَيْنَيْنِ: عَيْنِ ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ، وَعَيْنِ ضَعْفِ الْعَزِيمَةِ، فَإِذَا تَمَّتْ هَذِهِ الْأَرْكَانُ الْأَرْبَعُ اسْتَحْكَمَ نَبَاتُ النِّفَاقِ وَبُنْيَانُهُ، وَلَكِنَّهُ بِمَدَارِجِ السُّيُولِ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، فَإِذَا شَاهَدُوا سَيْلَ الْحَقَائِقِ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ، وَكُشِفَ الْمُسْتُورُ، وَبُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، تَبَيَّنَ حِينئذٍ لِمَنْ كَانَتْ بَضَاعَتُهُ النِّفَاقَ أَنَّ حَوَاصِلَهُ الَّتِي حَصَلَهَا كَانَتْ كَالسَّرَابِ ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[النور: ٣٩] .

قُلُوبِهِمْ عَنِ الْخَيْرَاتِ لَاهِيَةً، وَأَجْسَادُهُمْ إِلَيْهَا سَاعِيَةً، وَالْفَاحِشَةَ فِي
فَجَاجِهِمْ فَاشِيَةً، وَإِذَا سَمِعُوا الْحَقَّ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ قَاسِيَةً،
وَإِذَا حَضَرُوا الْبَاطِلَ وَشَهِدُوا الزُّورَ انْفَتَحَتْ أَبْصَارُ قُلُوبِهِمْ، وَكَانَتْ
أَذَانُهُمْ وَاعِيَةً

فَهَذِهِ - وَاللَّهِ - أَمَارَاتُ النِّفَاقِ، فَاحْذَرُهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ
بِكَ الْقَاضِيَةَ، إِذَا عَاهَدُوا لَمْ يَفُوا، وَإِنْ وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِنْ قَالُوا لَمْ
يُنْصِفُوا، وَإِنْ دُعُوا إِلَى الطَّاعَةِ وَقَفُوا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ صَدَفُوا، وَإِذَا دَعَتْهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ إِلَى أَغْرَاضِهِمْ أَسْرَعُوا
إِلَيْهَا وَانْصَرَفُوا، فَذَرَهُمْ وَمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهُوَانِ، وَالْخِزْيِ
وَالْخُسْرَانِ، فَلَا تَتَّقِ بَعْهُودَهُمْ، وَلَا تَطْمَئِنَّ إِلَى وَعُودِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِيهَا
كَاذِبُونَ، وَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مُخَالِفُونَ ﴿٧٥﴾ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ
مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي
قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٥-٧٧].

الْفُسُوقُ :

وَأَمَّا الْفُسُوقُ: فَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْعَانِ: مُفْرَدٌ مُّطْلَقٌ، وَمَقْرُونٌ بِالْعِصْيَانِ.

وَالْمُفْرَدُ نَوْعَانِ أَيْضًا؛ فَسُوقُ كُفْرٍ، يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَفُسُوقٌ لَا يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَالْمَقْرُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وَالْمُفْرَدُ الَّذِي هُوَ فَسُوقُ كُفْرٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [٢٦] الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ [البقرة: ٢٦-٢٧]، وَقَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [١٩] [البقرة: ٩٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فَهَذَا كُلُّهُ فَسُوقُ كُفْرٍ.

وَأَمَّا الْفُسُوقُ الَّذِي لَا يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ [الحجرات: ٦].

فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ بَعْدَ الْوُقْعَةِ مُصَدِّقًا، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِمَقْدَمِهِ تَلَقَّوْهُ، تَعْظِيمًا

لَأْمُرَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَحَدَّثَهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ ، فَهَابَهُمْ فَرَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَالَ : إِنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مَنَعُوا صَدَقَاتِهِمْ ، وَأَرَادُوا قَتْلِي ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهُمْ أَنَّ يَغْزَوْهُمْ ، فَبَلَغَ الْقَوْمَ رُجُوعَهُ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، سَمِعْنَا بِرَسُولِكَ ، فَخَرَجْنَا نَتَلَقَّاهُ وَنُكْرِمُهُ ، وَنُؤَدِّي إِلَيْهِ مَا قَبَلْنَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ ، فَبَدَأَ لَهُ فِي الرُّجُوعِ ، فَخَشِينَا أَنَّهُ إِنَّمَا رَدَّهُ مِنَ الطَّرِيقِ كِتَابٌ جَاءَ مِنْكَ لَغَضَبِ غَضَبَتِهِ عَلَيْنَا ، وَإِنَّا نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ ، فَاتَّهَمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَبَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ خُفِيَّةً فِي عَسْكَرٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْفِيَ عَلَيْهِمْ قُدُومَهُ ، وَقَالَ لَهُ : انْظُرْ ، فَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى إِيْمَانِهِمْ فَخُذْ مِنْهُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ تَرَ ذَلِكَ فَاسْتَغْمِلْ فِيهِمْ مَا تَسْتَغْمِلُ فِي الْكُفَّارِ ، ففَعَلَ ذَلِكَ خَالِدٌ ، وَوَفَاهُمْ ، فَسَمِعَ مِنْهُمْ أَذَانَ صَلَاتِي الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، فَأَخَذَ مِنْهُمْ صَدَقَاتِهِمْ ، وَلَمْ يَرِ مِنْهُمْ إِلَّا الطَّاعَةَ وَالْخَيْرَ ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَنَزَلَ ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ ^(١) [الحُجُرَات : ٦] .

وَالنَّبَأُ هُوَ الْخَبَرُ الْغَائِبُ عَنِ الْمُخْبَرِ إِذَا كَانَ لَهُ شَأْنٌ ، وَالتَّبَيُّنُ طَلَبُ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٧٩) ، وَالتَّبَرَانِيُّ فِي « الْكَبِيرِ » (٣٣٩٥) .

بَيَانِ حَقِيقَتِهِ وَالْإِحَاطَةِ بِهَا عِلْمًا.

فَائِدَةٌ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ :

وَهَاهُنَا فَائِدَةٌ لَطِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِرَدِّ خَبَرِ الْفَاسِقِ وَتَكْذِيبِهِ وَرَدِّ شَهَادَتِهِ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِالتَّبَيُّنِ، فَإِنْ قَامَتْ قَرَائِنٌ وَأَدِلَّةٌ مِنْ خَارِجٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ عُمَلًا بِدَلِيلِ الصِّدْقِ، وَلَوْ أَخْبَرَ بِهِ مَنْ أَخْبَرَ، فَهَكَذَا يَنْبَغِي الْاعْتِمَادُ فِي رَوَايَةِ الْفَاسِقِ وَشَهَادَتِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْفَاسِقِينَ يَصْدُقُونَ فِي أَخْبَارِهِمْ وَرَوَايَاتِهِمْ وَشَهَادَاتِهِمْ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَتَحَرَّى الصِّدْقَ غَايَةَ التَّحَرِّيِ، وَفِسْقُهُ مِنْ جِهَاتٍ أُخْرَى، فَمِثْلُ هَذَا لَا يُرَدُّ خَبَرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَلَوْ رُدَّتْ شَهَادَةُ مِثْلِ هَذَا وَرَوَايَتُهُ لَتَعَطَّلَتْ أَكْثَرُ الْحُقُوقِ، وَبَطَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ فِسْقُهُ مِنْ جِهَةِ الْإِعْتِقَادِ وَالرَّأْيِ، وَهُوَ مُتَحَرِّ لِلصِّدْقِ، فَهَذَا لَا يُرَدُّ خَبَرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ.

وَأَمَّا مَنْ فِسْقُهُ مِنْ جِهَةِ الْكَذِبِ فَإِنْ كَثُرَ مِنْهُ وَتَكَرَّرَ، بَحِثْ يَغْلِبُ كَذِبُهُ عَلَى صِدْقِهِ، فَهَذَا لَا يُقْبَلُ خَبَرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَإِنْ نَدَّرَ مِنْهُ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ، فَفِي رَدِّ شَهَادَتِهِ وَخَبَرِهِ بِذَلِكَ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ، وَهُمَا رَوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - .

وَالْمَقْصُودُ ذِكْرُ الْفُسُوقِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ إِلَى الْكُفْرِ.

التَّوْبَةُ مِنَ الْفُسُوقِ :

وَالْفُسُوقُ الَّذِي تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ أَعَمُّ مِنَ الْفُسُوقِ الَّذِي تُرَدُّ بِهِ الرِّوَايَةُ وَالشَّهَادَةُ.

وَكَلَامُنَا الْآنَ فِيمَا تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ، وَهُوَ قِسْمَانِ: فَسُقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ، وَفِسُقٌ مِنْ جِهَةِ الْإِعْتِقَادِ.

فَفِسْقُ الْعَمَلِ نَوْعَانِ: مَقْرُونٌ بِالْعِصْيَانِ وَمُفْرَدٌ.

فَالْمَقْرُونُ بِالْعِصْيَانِ: هُوَ ارْتِكَابُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالْعِصْيَانُ: هُوَ عِصْيَانُ أَمْرِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التَّحْرِيمِ: ٦]، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ١٢ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ١٣ [طه: ٩٢-٩٣]، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَمَرْتُكَ أَمْرًا جَازِمًا فَعَصَيْتَنِي فَأَصْبَحْتَ مَسْلُوبَ الْإِمَارَةِ نَادِمًا

فَالْفِسْقُ أَخْصُّ بَارْتِكَابِ النَّهْيِ، وَلِهَذَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وَالْمَعْصِيَةُ أَخْصُّ بِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَيُطْلَقُ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فَسَمِيَ مُخَالَفَتُهُ لِلْأَمْرِ فِسْقًا، وَقَالَ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى فَسَمِيَ ارْتِكَابَهُ

لِلنَّهْيِ مَعْصِيَةٍ، فَهَذَا عِنْدَ الْإِفْرَادِ، فَإِذَا اقْتَرْنَا كَانَ أَحَدُهُمَا لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ،
وَالْآخَرُ لِمُخَالَفَةِ النَّهْيِ.

وَالْتَّقْوَى اتِّقَاءُ مَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ، وَبِتَحْقِيقِهَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنَ الْفُسُوقِ
وَالْعِصْيَانِ، بَأَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، يَرْجُو ثَوَابَ
اللَّهِ، وَيَتْرُكُ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، يَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ.

وَفُسُقُ الْإِعْتِقَادِ كَفَسُقِ أَهْلِ الْبَدْعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيُوجِبُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ، وَلَكِنْ
يَنْفُونَ كَثِيرًا مِمَّا أَثَبَتَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، جَهْلًا وَتَأْوِيلًا، وَتَقْلِيدًا لِلشُّيُوخِ،
وَيُثَبِّتُونَ مَا لَمْ يُثَبِّتْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَذَلِكَ.

وَهَؤُلَاءِ كَالْخَوَارِجِ الْمَارِقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الرَّوَافِضِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالْمُعْتَزَلَةِ،
وَكَثِيرٌ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ لَيْسُوا غُلَاةً فِي التَّجَهُمِ.
وَأَمَّا غَالِيَةُ الْجَهْمِيَّةِ فَكَغُلَاةِ الرَّافِضَةِ، لَيْسَ لِلطَّائِفَتَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ
نَصِيبٌ.

وَلِذَلِكَ أَخْرَجَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ مِنَ الثَّنَتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً،
وَقَالُوا: هُمْ مُبَايِنُونَ لِلْمِلَّةِ.

وَلَيْسَ مَقْصُودُنَا الْكَلَامَ فِي أَحْكَامِ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ تَحْقِيقُ
التَّوْبَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْعَشْرَةِ.

فَالْتَوْبَةُ مِنْ هَذَا الْفُسُوقِ؛ بِإِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَرَسُولُهُ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ وَلَا تَمْثِيلٍ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْهُ وَنَزَّهَهُ عَنْهُ رَسُولُهُ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَتَلَقِّيِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ مِنْ مِشْكَاتِ الْوَحْيِ، لَا مِنْ آرَاءِ الرِّجَالِ وَنَتَائِجِ أَفْكَارِهِمُ الَّتِي هِيَ مَنْشَأُ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ.

شُرُوطُ تَوْبَةِ الْفُسَّاقِ مِنْ جِهَةِ الْإِعْتِقَادِ :

فَتَوْبَةُ هَؤُلَاءِ الْفُسَّاقِ مِنْ جِهَةِ الْإِعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ بِمَحْضِ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَلَا يُكْتَفَى مِنْهُمْ بِذَلِكَ أَيْضًا حَتَّى يُبَيِّنُوا فَسَادَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ، إِذِ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ هِيَ بِفِعْلٍ ضِدِّهِ، وَلِهَذَا شَرَطَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَوْبَةِ الْكَاتِمِينَ ﴿ مَا أُنْزِلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾ الْبَيَانَ، لِأَنَّ ذَنْبَهُمْ لَمَّا كَانَ بِالْكَتْمَانِ، كَانَتْ تَوْبَتُهُمْ مِنْهُ بِالْبَيَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أُنْزِلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ (١٦٠) [البقرة : ١٥٩-١٦٠] ، وَذَنْبُ الْمُتَبَدِّعِ فَوْقَ ذَنْبِ الْكَاتِمِ، لِأَنَّ ذَاكَ كَتَمَ الْحَقَّ، وَهَذَا كَتَمَهُ وَدَعَا إِلَّا خِلَافَهُ، فَكُلُّ مُتَبَدِّعٍ كَاتِمٌ وَلَا يَنْعَكِسُ.

شُرُوطُ تَوْبَةِ الْمُنَافِقِينَ :

وَشَرَطُ فِي تَوْبَةِ الْمُنَافِقِ الْإِخْلَاصَ؛ لِأَنَّ ذَنْبَهُ بِالرِّيَاءِ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾
 (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ
 لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
 عَظِيمًا (١٤٦) [النساء: ١٤٥-١٤٦].

شُرُوطُ تَوْبَةِ الْقَاذِفِ :

تَوْبَةُ الْقَاذِفِ إِكْذَابُهُ نَفْسَهُ، لِأَنَّهُ ضَدَّ الذَّنْبَ الَّذِي ارْتَكَبَهُ، وَهَتَكَ بِهِ
 عَرْضَ الْمُسْلِمِ الْمُحْصَنِ، فَلَا تَحْصُلُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِإِكْذَابِهِ نَفْسَهُ، لِيَنْتَفِيَ
 عَنِ الْمَقْذُوفِ الْعَارِ الَّذِي أَحْلَقَهُ بِهِ بِالْقَذْفِ، وَهُوَ مَقْصُودُ التَّوْبَةِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّ تَوْبَتَهُ أَنْ يَقُولَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنَ الْقَذْفِ، وَيَعْتَرِفَ
 بِتَحْرِيمِهِ، فَقَوْلٌ ضَعِيفٌ لِأَنَّ هَذَا لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْمَقْذُوفِ، وَلَا
 يَحْصُلُ لَهُ بِهِ بَرَاءَةٌ عَرْضِهِ مِمَّا قَذَفَهُ بِهِ، فَلَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُ التَّوْبَةِ مِنْ
 هَذَا الذَّنْبِ، فَإِنَّ فِيهِ حَقِّينَ: حَقًّا لِلَّهِ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْقَذْفِ، فَتَوْبَتُهُ مِنْهُ
 بِاسْتِغْفَارِهِ، وَاعْتِرَافِهِ بِتَحْرِيمِ الْقَذْفِ، وَنَدَمِهِ عَلَيْهِ، وَعَزْمِهِ عَلَى أَنْ لَا
 يَعُودَ، وَحَقًّا لِلْعَبْدِ، وَهُوَ إِحْلَاقُ الْعَارِ بِهِ، فَتَوْبَتُهُ مِنْهُ بِتَكْذِيبِهِ نَفْسَهُ،
 فَالتَّوْبَةُ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ بِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ.

تَوْبَةُ السَّارِقِ :

وَاخْتَلَفَ فِي تَوْبَةِ السَّارِقِ إِذَا قَطَعَتْ يَدُهُ، هَلْ مِنْ شَرْطِهَا ضَمَانُ

الْعَيْنِ الْمَسْرُوقَةِ لِرَبِّهَا ؟ .

وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ تَوْبَتِهِ أَدَاؤُهَا إِلَيْهِ، إِذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً بِعَيْنِهَا، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا إِذَا كَانَتْ تَالِفَةً، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ: مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِهِ ضَمَانُهَا لِمَالِكِهَا، وَيَلْزَمُهُ ذَلِكَ، مُوسِرًا كَانَ أَوْ مُعْسِرًا .

الإثم والعُدوان :

وَأَمَّا الإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ فَهُمَا قَرِينَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] ، وَكُلُّهُمَا مِنْهَا إِذَا أُفْرِدَ تَضَمَّنَ الْآخَرَ، فَكُلُُّ إِثْمٍ عُدْوَانٌ، إِذْ هُوَ فِعْلٌ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، أَوْ تَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ عُدْوَانٌ عَلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَكُلُُّ عُدْوَانٍ إِثْمٌ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِهِ صَاحِبُهُ، وَلَكِنْ عِنْدَ اقْتِرَانِهِمَا فَهُمَا شَيْئَانِ بِحَسَبِ مُتَعَلِّقِهِمَا وَوَضْفِهِمَا.

تَعْرِيفُ الْإِثْمِ :

فَالْإِثْمُ: مَا كَانَ مُحَرَّمَ الْجَنْسِ كَالْكَذِبِ، وَالزَّانَا، وَشَرْبِ الْخَمْرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْعُدْوَانُ مَا كَانَ مُحَرَّمَ الْقَدْرِ وَالزِّيَادَةِ.

تَعْرِيفُ الْعُدْوَانِ :

فَالْعُدْوَانُ: تَعَدِّي مَا أُبِيحَ مِنْهُ إِلَى الْقَدْرِ الْمُحَرَّمِ وَالزِّيَادَةِ، كَالِاعْتِدَاءِ

فِي أَخْذِ الْحَقِّ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ، إِمَّا بِأَنْ يَتَعَدَّى عَلَى مَالِهِ، أَوْ بَدَنِهِ أَوْ عَرَضِهِ، فَإِذَا غَضِبَهُ خَشَبَةً لَمْ يَرْضَ عَوَضَهَا إِلَّا دَارَهُ، وَإِذَا أَتْلَفَ عَلَيْهِ شَيْئًا أَتْلَفَ عَلَيْهِ أَضْعَافَهُ، وَإِذَا قَالَ فِيهِ كَلِمَةً قَالَ فِيهِ أَضْعَافَهَا، فَهَذَا كُلُّهُ عُدْوَانٌ وَتَعَدُّ لِلْعَدْلِ .

أنواع العُدْوَان :

وَهَذَا الْعُدْوَانُ نَوَعَانِ: عُدْوَانٌ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَعُدْوَانٌ فِي حَقِّ الْعَبْدِ، فَالْعُدْوَانُ فِي حَقِّ اللَّهِ كَمَا إِذَا تَعَدَّى مَا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْوَطْءِ الْحَلَالِ فِي الْأَزْوَاجِ وَالْمَمْلُوكَاتِ إِلَى مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ مِنْ سِوَاهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥-٧] ، وَكَذَلِكَ تَعَدَّى مَا أُبِيحَ لَهُ مِنْهُ قَدْرٌ مُّعَيَّنٌ، فَتَعَدَّاهُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ، فَهُوَ مِنَ الْعُدْوَانِ، كَمَنْ أُبِيحَ لَهُ إِسَاعَةُ الْغُصَّةِ بِجُرْعَةٍ مِنْ خَمْرٍ، فَتَنَاولَ الْكَأْسَ كُلَّهَا، أَوْ أُبِيحَ لَهُ نَظَرُ الْخُطْبَةِ، وَالسَّوْمِ، وَالشَّهَادَةِ، وَالْمُعَامَلَةِ، وَالْمُدَاوَاةَ، فَأَطْلَقَ عِنَانَ طَرَفِهِ فِي مَيَادِينِ مُحَاسِنِ الْمُنْظُورِ، وَأَسَامَ طَرَفَ نَاضِرِهِ فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ وَالزُّهُورِ، فَتَعَدَّى الْمُبَاحَ إِلَى الْقَدْرِ الْمُحْظُورِ، وَحَامَ حَوْلَ الْحِمَى الْمُحُوطِ الْمُخْجُورِ، فَصَارَ ذَا بَصَرٍ حَائِرٍ، وَقَلْبٍ عَنْ مَكَانِهِ طَائِرٍ.

الفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ :

وَأَمَّا الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ فَالْفَحْشَاءُ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ قَدْ حُذِفَ تَجْرِيدًا لِقَصْدِ الصِّفَةِ، وَهِيَ الْفَعْلَةُ الْفَحْشَاءُ، وَالْخَصْلَةُ الْفَحْشَاءُ، وَهِيَ مَا ظَهَرَ قُبْحُهَا لِكُلِّ أَحَدٍ، وَاسْتَفْحَشَهُ كُلُّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ، وَلِهَذَا فُسِّرَتْ بِالزَّنا وَاللُّوَاطِ، وَسَمَّاها اللهُ فَاحِشَةً لِتَنَاهِيَ قُبْحَهُمَا، وَكَذَلِكَ الْقَبِيحُ مِنَ الْقَوْلِ يُسَمَّى فُحْشًا، وَهُوَ مَا ظَهَرَ قُبْحُهُ جِدًّا مِنْ السَّبِّ الْقَبِيحِ، وَالْقَذْفِ وَنَحْوِهِ.

وَأَمَّا الْمُنْكَرُ فَصِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ أَيْضًا، أَيْ الْفِعْلُ الْمُنْكَرُ، وَهُوَ الَّذِي تَسْتَنْكِرُهُ الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ، وَنَسَبَتْهُ إِلَيْهَا كَنِسَبَةِ الرَّائِحَةِ الْقَبِيحَةِ إِلَى حَاسَةِ الشَّمِّ، وَالْمَنْظَرِ الْقَبِيحِ إِلَى الْعَيْنِ، وَالطَّعْمِ الْمُسْتَكْرَهُ إِلَى الذَّوْقِ، وَالصَّوْتِ الْمُسْتَنْكَرِ إِلَى الْأُذُنِ، فَمَا اشْتَدَّ انْكَارُ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ لَهُ فَهُوَ فَاحِشَةٌ، كَمَا فُحِشَ انْكَارُ الْحَوَاسِّ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُدْرَكَاتِ.

فَالْمُنْكَرُ لَهَا مَا لَمْ تَعْرِفْهُ وَلَمْ تَأْلَفْهُ، وَالْقَبِيحُ الْمُسْتَكْرَهُ لَهَا الَّذِي تَشْتَدُّ نَفَرَتِهَا عَنْهُ هُوَ الْفَاحِشَةُ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَاحِشَةُ الزَّنا، وَالْمُنْكَرُ مَا لَمْ يُعْرِفْ فِي شَرِيعَةٍ وَلَا سُنَّةٍ.

فَتَأَمَّلْ تَفْرِيقَهُ بَيْنَ مَا لَمْ يُعْرِفْ حُسْنُهُ وَلَمْ يُؤْلَفْ، وَبَيْنَ مَا اسْتَقَرَّ قُبْحُهُ فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ.

التَّوْبَةُ مِنَ الْبِدْعِ :

فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدْعِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ فَلَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدْعِ.

وَأَنْتَ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهَا بِدْعَةٌ، أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً، فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَحْضُرُ عَلَيْهَا ؟ فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا إِلَّا بِتَضَلُّعِهِ مِنَ السُّنَّةِ، وَكَثْرَةِ اطِّلاعِهِ عَلَيْهَا، وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا، وَلَا تَرَى صَاحِبَ بِدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا.

فَإِنَّ السُّنَّةَ بِالذَّاتِ تَحَقُّقُ الْبِدْعَةِ، وَلَا تَقُومُ لَهَا، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسُهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَابٌ كُلُّ بِدْعَةٍ، وَأَزَالَتْ ظُلْمَةَ كُلِّ ضَلَالَةٍ، إِذْ لَا سُلْطَانَ لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَى الْعَبْدُ الْفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَيُعِينُهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ ظُلُمَتِهَا إِلَى نُورِ السُّنَّةِ، إِلَّا الْمُتَابِعَةُ، وَالْهَجْرَةُ بِقَلْبِهِ كُلِّ وَقْتٍ إِلَى اللَّهِ، بِالِاسْتِعَانَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَصَدَقَ اللَّجْأُ إِلَى اللَّهِ، وَالْهَجْرَةُ إِلَى رَسُولِهِ، بِالْحَرَصِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

التَّوْبَةُ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ الَّتِي تَعَذَّرَ رَدُّهَا :

وَأَمَّا فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ فَيُتَصَوَّرُ فِي مَسَائِلَ :

إِحْدَاهَا: مَنْ غَضِبَ أَمْوَالًا ثُمَّ تَابَ وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ رَدُّهَا إِلَى أَصْحَابِهَا أَوْ إِلَى وَرَثَتِهِمْ لِجَهْلِهِ بِهِمْ أَوْ لَانْقِرَاضِهِمْ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ، فَاخْتَلَفَ فِي تَوْبَةِ مِثْلِ هَذَا.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَا تَوْبَةَ لَهُ إِلَّا بِأَدَاءِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ إِلَى أَرْبَابِهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ قَدْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ فَقَدْ تَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ، وَالْقِصَاصُ أَمَامَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَيْسَ إِلَّا.

قَالُوا: فَإِنَّ هَذَا حَقٌّ لَادِمِيٍّ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَتْرُكُ مِنْ حُقُوقِ عِبَادِهِ شَيْئًا، بَلْ يَسْتَوْفِيهَا لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَلَا يُجَاوِزُهُ ظُلْمٌ ظَالِمٌ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَوْ لُطْمَةً وَلَوْ كَلِمَةً وَلَوْ رَمِيَّةً بِحَجَرٍ.

قَالُوا: وَأَقْرَبُ مَا لِهَذَا فِي تَدَارُكِ الْفَارِطِ مِنْهُ أَنْ يُكْثَرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ لِيَتِمَكَّنَ مِنَ الْوَفَاءِ مِنْهَا يَوْمَ لَا يَكُونُ الْوَفَاءُ بِدِينَارٍ وَلَا بِدِرْهَمٍ فَيَتَجَرَّ تِجَارَةً يُمَكِّنُهُ الْوَفَاءُ مِنْهَا، وَمِنْ أَنْفَعِ مَا لَهُ: الصَّبْرُ عَلَى ظُلْمِ غَيْرِهِ لَهُ وَأَذَاهُ وَغَيْبَتِهِ وَقَذْفِهِ، فَلَا يَسْتَوْفِي حَقَّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا يُقَابِلُهُ لِإِحْيَالِ خَصَمِهِ عَلَيْهِ إِذَا أَفْلَسَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنَّهُ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ مَا عَلَيْهِ يَسْتَوْفِي أَيْضًا مَا لَهُ،

وَقَدْ يَتَسَاوَيَانِ، وَقَدْ يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ مَا بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يُوقَفُ أَمْرُهَا وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا الْبَتَّةَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَدْفَعُهَا إِلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ؛ لِأَنَّهُ وَكِيلُ أَرْبَابِهَا فَيَحْفَظُهَا لَهُمْ، وَيَكُونُ حُكْمُهَا حُكْمَ الْأَمْوَالِ الضَّائِعَةِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لِهَذَا وَلَمْ يُغْلَقْهُ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا عَنْ مُذْنِبٍ، وَتَوْبَتُهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ عَنْ أَرْبَابِهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ اسْتِيفَاءِ الْحُقُوقِ كَانَ لَهُمُ الْخِيَارُ بَيْنَ أَنْ يُحِيزُوا مَا فَعَلَ وَتَكُونَ أَجُورُهَا لَهُمْ، وَبَيْنَ أَنْ لَا يُحِيزُوا وَيَأْخُذُوا مِنْ حَسَنَاتِهِ بِقَدْرِ أَمْوَالِهِمْ وَيَكُونَ ثَوَابُ تِلْكَ الصَّدَقَةِ لَهُ إِذْ لَا يُبْطَلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ثَوَابُهَا، وَلَا يَجْمَعُ لِأَرْبَابِهَا بَيْنَ الْعَوَضِ وَالْمُعَوِّضِ، فَيَغْرِمُهُ إِيَّاهَا وَيَجْعَلُ أَجْرَهَا لَهُمْ وَقَدْ غَرَّمَ مِنْ حَسَنَاتِهِ بِقَدْرِهَا.

وَهَذَا مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كَمَا هُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمُعَاوِيَةَ، وَحَجَّاجِ بْنِ الشَّاعِرِ، فَقَدْ رَوَى أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ اشْتَرَى مِنْ رَجُلٍ جَارِيَةً وَدَخَلَ يَزْنُ لَهُ الثَّمَنَ، فَذَهَبَ رَبُّ الْجَارِيَةِ، فَانْتَظَرَهُ حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ عَوْدِهِ، فَتَصَدَّقَ بِالثَّمَنِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ رَبِّ الْجَارِيَةِ فَإِنْ رَضِيَ فَلَا أَجْرَ لَهُ، وَإِنْ أَبَى فَلَا أَجْرَ لِي وَلَهُ مِنْ حَسَنَاتِي بِقَدْرِهِ، وَغَلَّ

رَجُلٌ مِنَ الْغَنِيْمَةِ ثُمَّ تَابَ فَجَاءَ بِمَا غَلَّهُ إِلَى أَمِيرِ الْجَيْشِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ وَقَالَ: كَيْفَ لِي بِإِيصَالِهِ إِلَى الْجَيْشِ وَقَدْ تَفَرَّقُوا؟ ، فَاتَى حَجَّاجُ بْنُ الشَّاعِرِ فَقَالَ: يَا هَذَا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْجَيْشَ وَأَسْمَاءَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ، فَادْفَعْ خُمْسَهُ إِلَى صَاحِبِ الْخُمْسِ وَتَصَدَّقْ بِالْبَاقِي عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُوَصِّلُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ أَوْ كَمَا قَالَ فَفَعَلَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ مُعَاوِيَةَ قَالَ: لَأَنْ أَكُونَ أَفْتِيْنِكَ بِذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نِصْفِ مُلْكِي.

في العوض المحرم يُتَصَدَّقُ بِهِ :

المسألة الثانية : إذا عَاوَضَ غَيْرُهُ مُعَاوِضَةً مُحَرَّمَةً ، وَقَبَضَ الْعِوَضَ كَالزَّانِيَةِ وَالْمَغْنَى وَبَاعَ الْخَمْرَ وَشَاهِدَ الزُّورَ وَنَحْوَهُمْ ثُمَّ تَابَ وَالْعِوَضُ بِيَدِهِ .

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَرُدُّهُ إِلَى مَالِكِهِ إِذْ هُوَ عَيْنُ مَالِهِ ، وَلَمْ يَقْبِضْهُ بِإِذْنِ الشَّارِعِ وَلَا حَصَلَ لِرَبِّهِ فِي مُقَابَلَتِهِ نَفْعٌ مُبَاحٌ .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : بَلْ تَوْبَتُهُ بِالتَّصَدُّقِ بِهِ ، وَلَا يَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ أَخَذَهُ مِنْهُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، وَهُوَ أَصَوْبُ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّ قَابِضَهُ إِنَّمَا قَبِضَهُ بِبَذْلِ مَالِكِهِ لَهُ وَرِضَاهُ بِبَذْلِهِ ، وَقَدْ اسْتَوْفَى عِوَضَهُ الْمُحَرَّمَ ، فَكَيْفَ يَجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمَعْوِضِ؟ ، وَكَيْفَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مَالًا قَدْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ ، وَرَضِيَ بِإِخْرَاجِهِ فِيمَا يَسْتَعِينُ بِهِ

عَلَيْهَا ثَانِيًا وَثَالِثًا ؟ ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا مُحَضُّ إِعَاتِهِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ؟ ،
وَهَلْ يُنَاسِبُ هَذَا مُحَاسِنَ الشَّرْعِ أَنْ يُقْضَى لِلزَّانِي بِكُلِّ مَا دَفَعَهُ إِلَى مَنْ
زَنَى بِهَا ، وَيُؤْخَذَ مِنْهَا ذَلِكَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فَيُعْطَاهُ وَقَدْ نَالَ عَوَضَهُ ؟ .

وَهَبْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ لَمْ يَمْلِكْهُ الْآخِذُ ، فَمَلَكَ صَاحِبُهُ قَدْ زَالَ عَنْهُ
بِإِعْطَائِهِ لِمَنْ أَخَذَهُ ، وَقَدْ سَلَّمَ لَهُ مَا فِي قُبَالَتِهِ مِنَ النَّفْعِ ، فَكَيْفَ يُقَالُ :
مَلِكُهُ بَاقٍ عَلَيْهِ وَيَجِبُ رَدُّهُ إِلَيْهِ ؟ ، وَهَذَا بِخِلَافِ أَمْرِهِ بِالصَّدَقَةِ بِهِ فَإِنَّهُ
قَدْ أَخَذَهُ مِنْ وَجْهِ خَبِيثٍ بَرَضِيَ صَاحِبُهُ وَبَذَلَهُ لَهُ بِذَلِكَ ، وَصَاحِبُهُ قَدْ
رَضِيَ بِإِخْرَاجِهِ عَنْ مَلِكِهِ بِذَلِكَ ، وَأَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ فَكَانَ أَحَقَّ الْوُجُوهِ
بِهِ صَرْفُهُ فِي الْمَصْلَحَةِ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا مَنْ قَبَضَهُ وَيُخَفِّفُ عَنْهُ الْإِثْمَ وَلَا
يُقَوِّى الْفَاجِرُ بِهِ وَيُعَانُ ، وَيُجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ .

وَهَكَذَا تَوْبَةُ مَنْ اخْتَلَطَ مَالُهُ الْحَلَالُ بِالْحَرَامِ ، وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَمْيِيزُهُ أَنْ
يَتَصَدَّقَ بِقَدْرِ الْحَرَامِ وَيُطَيَّبَ بَاقِي مَالِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فِي تَوْبَةِ الْغَاصِبِ وَتَعَذُّرِ رَدِّهِ عَلَيْهِ :

إِذَا غَصَبَ مَالًا وَمَاتَ رَبُّهُ وَتَعَذَّرَ رَدُّهُ عَلَيْهِ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ رَدُّهُ إِلَى وَارِثِهِ ،
فَإِنْ مَاتَ الْوَارِثُ رَدُّهُ إِلَى وَارِثِهِ وَهَلَّمَ جَرًّا ، فَإِنْ لَمْ يَرُدَّهُ إِلَى رَبِّهِ وَلَا
إِلَى أَحَدٍ وَرَثَتِهِ فَهَلْ تَكُونُ الْمَطَالَبَةُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ لِلْمَوْرُوثِ إِذْ هُوَ رَبُّهُ
الْأَصْلِيُّ وَقَدْ غَصَبَهُ عَلَيْهِ أَوْ لِلْوَارِثِ الْآخِرِ إِذِ الْحَقُّ قَدْ انْتَقَلَ إِلَيْهِ ؟ .

فِيهِ قَوْلَانِ لِلْفَقَهَاءِ ، وَهُمْ وَجْهَانِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ .
وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ : الْمَطَالِبَةُ لِلْمُورُوثِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْوَرَثَةِ ، إِذْ كُلُّ
مِنْهُمْ قَدْ كَانَ يَسْتَحِقُّهُ وَيَجِبُ عَلَيْهِ الدَّفْعُ إِلَيْهِ فَقَدْ ظَلَمَهُ بِتَرْكِ إِعْطَائِهِ مَا
وَجَبَ عَلَيْهِ دَفْعُهُ إِلَيْهِ ، فَيَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْمَطَالِبَةُ فِي الْآخِرَةِ لَهُ .
فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ بِالتَّوْبَةِ مِنْ حُقُوقِ هَؤُلَاءِ .

قِيلَ : طَرِيقُ التَّوْبَةِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْهُمْ بِمَا لَمْ تَجْرِي مَنَافِعُ ثَوَابِهِ عَلَيْهِمْ
بِقَدْرِ مَا فَاتَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ مَنَفَعَةِ ذَلِكَ الْمَالِ لَوْ صَارَ إِلَيْهِ مُتَحَرِّيًا
لِلْمُمْكِنِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَكَذَا لَوْ تَطَاوَلَتْ عَلَى الْمَالِ سُنُونَ ، وَقَدْ كَانَ
يُمْكِنُ رَبُّهُ أَنْ يُنَمِّيَهُ بِالرِّبْحِ ، فَتَوْبَتُهُ بِأَنْ يُخْرِجَ الْمَالَ وَمِقْدَارَ مَا فَوَّتَهُ مِنْ
رِبْحِ مَالِهِ .

فَإِنْ كَانَ قَدْ رِبَحَ فِيهِ بِنَفْسِهِ ، فَقِيلَ : الرِّبْحُ كُلُّهُ لِلْمَالِكِ ، وَهُوَ قَوْلُ
الشَّافِعِيِّ وَظَاهِرُ مَذْهَبِ أَحْمَدَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ .

وَقِيلَ : كُلُّهُ لِلْغَاصِبِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ .
وَكَذَلِكَ لَوْ أَوْدَعَهُ مَالًا فَاتَّجَرَ بِهِ وَرِبَحَ ، فَرِبْحُهُ لَهُ دُونَ مَالِكِهِ عِنْدَهُمَا
وَضَمَانُهُ عَلَيْهِ .

وَفِيهَا قَوْلٌ ثَالِثٌ : أَنَّهَا شَرِيكَانِ فِي الرِّبْحِ ، وَهُوَ رَوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَاخْتِيَارُ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَهُوَ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ ، فَتُضَمُّ حِصَّةُ

الْمَالِكِ مِنَ الرَّبْحِ إِلَى أَصْلِ الْمَالِ وَيُتَصَدَّقُ بِذَلِكَ .

تُوبَةُ الْقَاتِلِ :

إِذَا تَابَ الْقَاتِلُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ، وَسَلَّمْ نَفْسَهُ طَوْعًا إِلَى الْوَارِثِ لِيَسْتَوْفِيَ مِنْهُ حَقَّ مَوْرُوْثِهِ سَقَطَ عَنْهُ الْحَقَّانِ، وَبَقِيَ حَقُّ الْمَوْرُوْثِ لَا يُضَيِّعُهُ اللَّهُ، وَيَجْعَلُ مِنْ تَمَامِ مَغْفِرَتِهِ لِلْقَاتِلِ تَعْوِضَ الْمَقْتُولِ ؛ لِأَنَّ مُصِيبَتَهُ لَمْ تَنْجَبِرْ بِقَتْلِ قَاتِلِهِ، وَالتَّوْبَةُ النَّصُوْحُ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا، فَيَعْوِضُ هَذَا عَنْ مَظْلَمَتِهِ، وَلَا يُعَاقَبُ هَذَا لِكَمَالِ تَوْبَتِهِ، وَصَارَ هَذَا كَالْكَافِرِ الْمُحَارَبِ لِلَّهِ وَلِرَّسُوْلِهِ إِذَا قَتَلَ مُسْلِمًا فِي الصَّفِّ ثُمَّ أَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُعْوِضُ هَذَا الشَّهِيدَ الْمَقْتُولَ، وَيَغْفِرُ لِلْكَافِرِ بِإِسْلَامِهِ وَلَا يُؤَاخِذُهُ بِقَتْلِ الْمُسْلِمِ ظُلْمًا فَإِنَّ هَذَا التَّوْبَةَ لِمَا قَبْلَهَا كَهَذَا الْإِسْلَامِ لِمَا قَبْلَهُ.

وَعَلَى هَذَا إِذَا سَلَّمَ نَفْسَهُ وَانْقَادَ فَعَفَا عَنْهُ الْوَلِيُّ وَتَابَ الْقَاتِلُ تَوْبَةً نَصُوْحًا فَاللَّهُ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيَعْوِضُ الْمَقْتُولَ.

فَهَذَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ نَظَرُ الْعَالَمِ وَاجْتِهَادُهُ، وَالْحُكْمُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْعَلِيمُ ﴿ ٧٨ ﴾ [النمل: ٧٨] .

في مشاهد الخلق في المعصية :

وهي ثلاثة عشر مشهداً :

- ١ - مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة.
- ٢ - ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة.
- ٣ - ومشهد الجبر.
- ٤ - ومشهد القدر.
- ٥ - ومشهد الحكمة.
- ٦ - ومشهد التوفيق والخذلان.
- ٧ - ومشهد التوحيد.
- ٨ - ومشهد الأسماء والصفات.
- ٩ - ومشهد الإيثار وتعدد شواهد.
- ١٠ - ومشهد الرحمة.
- ١١ - ومشهد العجز والضعف.
- ١٢ - ومشهد الذل والافتقار.
- ١٣ - ومشهد المحبة والعبودية.

فَالْأَرْبَعَةُ الْأَوَّلُ لِلْمُنْحَرِفِينَ، وَالثَّانِيَةُ الْبَوَاقِي لِأَهْلِ الْإِسْتِقَامَةِ،
وَأَعْلَاهَا الْمَشْهَدُ الْعَاشِرُ.

وَهَذَا الْفَصْلُ مِنْ أَجْلِ فُصُولِ الْكِتَابِ وَأَنْفَعِهَا لِكُلِّ أَحَدٍ، وَهُوَ
حَقِيقٌ بِأَنْ تُنْتَنِي عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ، وَلَعَلَّكَ لَا تَظْفَرُ بِهِ فِي كِتَابٍ سِوَاهُ إِلَّا مَا
ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِنَا الْمُسَمَّى « سَفَرُ الْهَجْرَتَيْنِ فِي طَرِيقِ السَّعَادَتَيْنِ ».

١ - مَشْهَدُ الْحَيَوَانِيَّةِ :

فَأَمَّا مَشْهَدُ الْحَيَوَانِيَّةِ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ : فَمَشْهَدُ الْجُهَالِ الَّذِينَ لَا فَرْقَ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ الْحَيَوَانَ إِلَّا فِي اعْتِدَالِ الْقَامَةِ وَنُطْقِ اللِّسَانِ، لَيْسَ هُمُومُهُمْ
إِلَّا مُجَرَّدَ نَيْلِ الشَّهْوَةِ بِأَيِّ طَرِيقٍ أَفْضَتْ إِلَيْهَا، فَهَؤُلَاءِ نَفُوسُهُمْ نَفُوسُ
حَيَوَانِيَّةٍ لَمْ تَتَرَقَّ عَنْهَا إِلَى دَرَجَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَضْلًا عَنْ دَرَجَةِ الْمَلَائِكَةِ،
فَهَؤُلَاءِ حَالُهُمْ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ تُذَكَّرَ، وَهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ مُتَفَاوِتُونَ بِحَسَبِ
تَفَاوُتِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي هُمْ عَلَى أَخْلَاقِهَا وَطِبَاعِهَا.

فَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ كَلْبِيَّةٌ، لَوْ صَادَفَ جِيْفَةً تُشْبِعُ أَلْفَ كَلْبٍ لَوَقَعَ
عَلَيْهَا وَحَمَاهَا مِنْ سَائِرِ الْكِلَابِ وَنَبَحَ كُلُّ كَلْبٍ يَدْنُو مِنْهَا، فَلَا تَقْرُبُهَا
الْكِلَابُ إِلَّا عَلَى كُرْهِ مِنْهُ وَغَلَبَةٍ، وَلَا يَسْمَحُ لِكَلْبٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا وَهُمْ
شَبْعُ بَطْنِهِ مِنْ أَيِّ طَعَامٍ اتَّفَقَ: مَيْتَةٌ أَوْ مُذَكَّى، خَبِيثٌ أَوْ طَيِّبٌ، وَلَا
يَسْتَحِي مِنْ قَبِيحٍ، إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرُكُهُ يَلْهَثُ، إِنْ أَطْعَمَتْهُ

بَصْبَصَ بَذَنِبِهِ وَدَارَ حَوْلَكَ، وَإِنْ مَنَعْتَهُ هَرَّكَ وَنَبَحَكَ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ حَمَارِيَّةٌ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لِلْكَدِّ وَالْعَلَفِ، كُلَّمَا زِيدَ فِي عَلَفِهِ زِيدَ فِي كَدِّهِ، أَبْكَكُمْ الْحَيَوَانَ وَأَقْلُهُ بِصِيرَةٍ، وَلِهَذَا مَثَلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ مَنْ حَمَلَهُ كِتَابَهُ فَلَمْ يَحْمِلْهُ مَعْرِفَةً وَلَا فِقْهًا وَلَا عَمَلًا، وَمَثَلُ الْكَلْبِ عَالَمِ السُّوءِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا وَأَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَفِي هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ أَسْرَارٌ عَظِيمَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا.

وَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ سَبْعِيَّةٌ غَضَبِيَّةٌ هَمَّتْهُ الْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ وَقَهَرُهُمْ بِهَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ قُدْرَتُهُ، طَبِيعَتُهُ تَتَقَاضَى ذَلِكَ كَتَقَاضِي طَبِيعَةِ السَّبْعِ لَمَّا يَصْدُرُ مِنْهُ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ فَارِيَّةٌ فَاسِقٌ بِطَبِيعِهِ مُفْسِدٌ لَمَّا جَاوَرَهُ، تَسْبِيحُهُ بِلِسَانِ الْحَالِ: سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَهُ لِلْفَسَادِ.

وَمِنْهُمْ : مَنْ نَفْسُهُ عَلَى نَفُوسِ ذَوَاتِ السُّمُومِ وَالْحِمَاتِ ، كَالْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ وَغَيْرِهِمَا، وَهَذَا الضَّرْبُ هُوَ الَّذِي يُؤْذِي بَعِيْنَهُ فَيَدْخُلُ الرَّجُلُ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقَدْرَ، وَالْعَيْنُ وَحْدَهَا لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا وَإِنَّمَا النَّفْسُ الْخَبِيْثَةُ السُّمِّيَّةُ تَكَيَّفَتْ بِكَيْفِيَّةِ غَضَبِيَّةٍ مَعَ شِدَّةِ حَسَدٍ وَإِعْجَابٍ، وَقَابَلَتْ الْمَعِيْنَ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ وَغَفْلَةٍ وَهُوَ أَغْزَلُ مِنْ سِلَاحِهِ فَلَدَغَتْهُ كَالْحَيَّةِ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى مَوْضِعٍ مَكْشُوفٍ مِنْ بَدَنِ الْإِنْسَانِ فَتَنْهَشُهُ، فَإِمَّا عَطَبٌ وَإِمَّا أَذَى،

وَلِهَذَا لَا يَتَوَقَّفُ أَذَى الْعَائِنِ عَلَى الرُّؤْيَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ بَلْ إِذَا وُصِفَ لَهُ الشَّيْءُ الْغَائِبُ عَنْهُ وَصَلَ إِلَيْهِ أَذَاهُ وَالذَّنْبُ لَجْهَلِ الْمَعِينِ وَغَفْلَتِهِ وَغَرَّتِهِ عَنْ حَمْلِ سِلَاحِهِ كُلِّ وَقْتٍ، فَالْعَائِنُ لَا يُؤَثِّرُ فِي شَاكِي السِّلَاحِ كَالْحَيَّةِ إِذَا قَابَلَتْ دِرْعًا سَابِغًا عَلَى جَمِيعِ الْبَدَنِ لَيْسَ فِيهِ مَوْضِعٌ مَكْشُوفٌ، فَحَقٌّ عَلَى مَنْ أَرَادَ حَفْظَ نَفْسِهِ وَحِمَايَتَهَا أَنْ لَا يَزَالَ مُتَدَرِّعًا مُتَحَصِّنًا لَا بَسًا أَدَاةَ الْحَرْبِ مُوَظَّبًا عَلَى أَوْرَادِ التَّعَوُّذَاتِ وَالتَّحْصِينَاتِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ وَالَّتِي فِي السُّنَّةِ.

حُكْمُ مَنْ عُرِفَ الرَّجُلُ بِالْأَذَى بِالْعَيْنِ :

وَإِذَا عُرِفَ الرَّجُلُ بِالْأَذَى بِالْعَيْنِ سَاغَ بَلْ وَجَبَ حَبْسُهُ وَإِفْرَادُهُ عَنِ النَّاسِ وَيُطْعَمُ وَيُسْقَى حَتَّى يَمُوتَ، ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ نَصِيحَةِ الْمُسْلِمِينَ وَدَفْعِ الْأَذَى عَنْهُمْ، وَلَوْ قِيلَ فِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَعِيدًا مِنْ أَصُولِ الشَّرْعِ.

٢- مَشْهَدُ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ :

مَشْهَدُ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ وَلَوَازِمِ الْخَلْقَةِ: كَمَشْهَدِ زَنَادَقَةِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ الْخَلْقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَأَنَّ تَرْكِيبَ الْإِنْسَانِ مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ وَامْتِزَاجِهَا وَاخْتِلَاطِهَا كَمَا يَقْتَضِي

بَغْيٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَخُرُوجُهُ عَنِ الْاِعْتِدَالِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ هَذِهِ الْأَخْلَاطِ ، فَكَذَلِكَ تَرْكِيبُهُ مِنَ الْبَدَنِ وَالنَّفْسِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْاَخْلَاطِ الْحَيَوَانِيَّةِ تَتَقَاضَاهُ اَثَارُ هَذِهِ الْخَلْقَةِ وَرُسُومُ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ ، وَلَا تَنْقَهَرُ إِلَّا بِقَاهِرٍ إِمَّا مِنْ نَفْسِهِ وَإِمَّا مِنْ خَارِجٍ عَنْهُ ، وَأَكْثَرُ النَّوعِ الْإِنْسَانِي لَيْسَ لَهُ قَاهِرٌ مِنْ نَفْسِهِ فَاحْتِيَاجُهُ إِلَى قَاهِرٍ فَوْقَهُ يُدْخِلُهُ تَحْتَ سِيَاسَةِ وَإِيَالَةٍ يَنْتَظِمُ بِهَا أَمْرُهُ ضَرُورَةً كَحَاجَتِهِ إِلَى مَصَالِحِهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ .

وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْعَاقِلَ مَتَى كَانَ لَهُ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ قَاهِرٌ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَمْرِ غَيْرِهِ وَنَهْيِهِ وَضَبْطِهِ .

٣- مَشْهَدُ أَصْحَابِ الْجَبْرِ :

مَشْهَدُ أَصْحَابِ الْجَبْرِ : وَهُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ مَجْبُورُونَ عَلَى أَفْعَالِهِمْ ، وَأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِغَيْرِ قُدْرَتِهِمْ ، بَلْ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّهَا أَفْعَالُهُمُ الْبَتَّةَ . يَقُولُونَ : إِنَّ أَحَدَهُمْ غَيْرُ فَاعِلٍ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا قَادِرٍ ، وَأَنَّ الْفَاعِلَ فِيهِ غَيْرُهُ وَالْمَحْرُكُ لَهُ سِوَاهُ ، وَأَنَّهُ آلَةٌ مُحَضَّةٌ ، وَحَرَكَاتُهُ بِمَنْزِلَةِ هُبُوبِ الرِّيَّاحِ ، وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ .

وَهَؤُلَاءِ إِذَا أَنْكَرَتْ عَلَيْهِمْ أَفْعَالُهُمْ اِحتَجُّوا بِالْقَدَرِ ، وَحَمَلُوا ذُنُوبَهُمْ عَلَيْهِ .

٤- مَشْهَدُ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ:

مَشْهَدُ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ: يَشْهَدُونَ أَنَّ هَذِهِ الْجَنَايَاتِ وَالذُّنُوبَ هُمْ الَّذِينَ أَحْدَثُوهَا، وَأَنَّهَا وَاقَعَتْ بِمَشِيئَتِهِمْ دُونَ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُقَدِّرْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكْتُبْهُ، وَلَا شَاءَ، وَلَا خَلَقَ أَفْعَالَهُمْ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا وَلَا يُضِلَّهُ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْبَيَانِ، لَا أَنَّهُ يُلْهِمُهُ الْهُدَى وَالضَّلَالَ، وَالْفُجُورَ وَالتَّقْوَى، فَيَجْعَلُ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ.

وَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي مُلْكِ اللَّهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ يَشَاءُ مَا لَا يَكُونُ، وَأَنَّ الْعِبَادَ خَالِقُونَ لِأَفْعَالِهِمْ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللَّهِ.

٥- مَشْهَدُ الْحِكْمَةِ:

وَهُوَ أَحَدُ مَشَاهِدِ أَهْلِ الْإِسْتِقَامَةِ: مَشْهَدُ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ مَشْهَدُ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي تَقْدِيرِهِ عَلَى عَبْدِهِ مَا يُبْغِضُهُ سُبْحَانَهُ وَيَكْرَهُهُ، وَيَلُومُ وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَعَصَمَهُ مِنْهُ، وَلَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعْصِي قَسْرًا، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَهُوَ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا عَبَثًا وَلَا سُدىً، وَأَنَّهُ لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي كُلِّ مَا قَدَرَهُ وَقَضَاهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، وَحِكْمَةٍ بَاهِرَةٍ تَعْجِزُ الْعُقُولُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِكُنْهَيْهَا، وَتَكِلُ

الْأَلْسُنُ عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهَا.

٦ - مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ :

وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ انْفِرَادَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْخَلْقِ وَالْحُكْمِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ مَقْهُورُونَ تَحْتَ قَبْضَتِهِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَرَاغَهُ، فَالْقُلُوبُ بِيَدِهِ، وَهُوَ مُقَلِّبُهَا وَمُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَ وَكَيْفَ أَرَادَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي آتَى نَفُوسَ الْمُؤْمِنِينَ تَقْوَاهَا، وَهُوَ الَّذِي هَدَاهَا وَزَكَّاهَا، وَأَلْهَمَ نَفُوسَ الْفَجَّارِ فُجُورَهَا وَأَشَقَّاهَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ وَحُكْمَتِهِ، هَذَا فَضْلُهُ وَعَطَاؤُهُ، وَمَا فَضْلُ الْكَرِيمِ بِمَمْنُونٍ، وَهَذَا عَدْلُهُ وَقَضَاؤُهُ ﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣]

٧ - مَشْهَدُ التَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ :

وَهُوَ مِنْ تَمَامِ هَذَا الْمَشْهَدِ وَفُرُوعِهِ، وَلَكِنْ أُفْرِدَ بِالذِّكْرِ لِحَاجَةِ الْعَبْدِ إِلَى شُهُودِهِ وَانْتِفَاعِهِ بِهِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ أَنَّ التَّوْفِيقَ هُوَ أَنْ لَا يَكِلَكَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِكَ، وَأَنَّ الْخِذْلَانَ هُوَ أَنْ يَخْلِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ، فَالْعَبِيدُ مُتَقَلِّبُونَ بَيْنَ تَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِهِ، بَلِ الْعَبْدُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ

يَنَالُ نَصِيبَهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، فَيُطِيعُهُ وَيُرْضِيهِ، وَيَذْكُرُهُ وَيَشْكُرُهُ بِتَوْفِيقِهِ لَهُ ثُمَّ يَعْصِيهِ وَيُخَالِفُهُ وَيُسْخِطُهُ وَيَغْفُلُ عَنْهُ بِخِذْلَانِهِ لَهُ، فَهُوَ دَائِرٌ بَيْنَ تَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِهِ، فَإِنْ وَفَّقَهُ فَبَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِنْ خَذَلَهُ فَبِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَهُوَ الْمُحْمُودُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، لَهُ أَتَمُّ حَمْدٍ وَأَكْمَلُهُ، وَلَمْ يَمْنَعْ الْعَبْدُ شَيْئًا هُوَ لَهُ، وَإِنَّمَا مَنَعَهُ مَا هُوَ مُجَرَّدُ فَضْلِهِ وَعَطَائِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُهُ وَأَيْنَ يَجْعَلُهُ ؟ .

٨- مَشْهُدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ :

وَهُوَ مِنْ أَجْلِ الْمَشَاهِدِ، وَهُوَ أَعْلَى مِمَّا قَبْلَهُ وَأَوْسَعُ.
وَالْمَطْلَعُ عَلَى هَذَا الْمَشْهُدِ: مَعْرِفَةُ تَعَلُّقِ الْوُجُودِ خَلْقًا وَأَمْرًا بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الْعُلَا، وَارْتِبَاطِهِ بِهَا، وَإِنْ كَانَ الْعَالَمُ بِمَا فِيهِ مِنْ بَعْضِ آثَارِهَا وَمُقْتَضِيَّاتِهَا.

وَهَذَا مِنْ أَجْلِ الْمَعَارِفِ وَأَشْرَفِهَا، وَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ لَهُ صِفَةٌ خَاصَّةٌ، فَإِنَّ أَسْمَاءَهُ أَوْصَافٌ مَدْحٍ وَكَمَالٍ، وَكُلُّ صِفَةٍ لَهَا مُقْتَضَى وَفِعْلٌ إِمَّا لَازِمٌ، وَإِمَّا مُتَعَدٍّ، وَلِذَلِكَ الْفِعْلُ تَعَلَّقُ بِمَفْعُولٍ هُوَ مِنْ لَوَازِمِهِ، وَهَذَا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، كُلُّ ذَلِكَ آثَارُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَمُوجِبَاتُهَا.

٩- مشهود زيادة الإيمان :

وَهَذَا مِنْ أَلْفِ الْمَشَاهِدِ، وَأَخْصَّهَا بِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، وَلَعَلَّ سَامِعَهُ يُبَادِرُ إِلَى إنْكَارِهِ، وَيَقُولُ: كَيْفَ يَشْهَدُ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي؟ وَلَا سِيَّامًا ذُنُوبَ الْعَبْدِ وَمَعَاصِيهِ، وَهَلْ ذَلِكَ إِلَّا مُنْقَصٌ لِلْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا حَاصِلٌ مِنَ التِّفَاتِ الْعَارِفِ إِلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ وَإِلَى تَرْتُّبِ آثَارِهَا عَلَيْهَا، وَتَرْتُّبِ هَذِهِ الْآثَارِ عَلَيْهَا عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَبُرْهَانٌ مِنْ بَرَاهِينِ صِدْقِ الرُّسُلِ، وَصِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ، فَإِنَّ الرُّسُلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَمَرُوا الْعِبَادَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ ظَوَاهِرُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ، فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَنَهَوْهُمْ عَمَّا فِيهِ فُسَادٌ ظَوَاهِرُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَأَخْبَرُوهُمْ عَنِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنَّهُ يُحِبُّ كَذًا وَكَذًا، وَيُثِيبُ عَلَيْهِ بِكَذَا وَكَذَا، وَأَنَّهُ يُبَغِضُ كَيْتَ وَكَيْتَ، وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ، وَأَنَّهُ إِذَا أُطِيعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ شَكَرَ عَلَيْهِ بِالْإِمْدَادِ وَالزِّيَادَةِ، وَالنَّعَمِ، فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ، وَوَجَدَ الْعَبْدُ زِيَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ فِي حَالِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ إِذَا خُولِفَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، تَرْتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ النِّقْصِ، وَالْفُسَادِ، وَالضَّعْفِ، وَالذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ، وَالْحَقَارَةِ، وَضِيقِ الْعَيْشِ وَتَنَكُّدِ الْحَيَاةِ مَا تَرْتَّبَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ

صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧] .

وَقَالَ ﴿٩٨﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴿٩٩﴾ [النحل: ٣٠] ،
وَقَالَ تَعَالَى ﴿١٠٠﴾ وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿١٠١﴾ [هود: ٣] ، وَقَالَ تَعَالَى :
﴿١٠٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿١٠٣﴾ [طه: ١٢٤] ، وَفُسِّرَتِ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ بِعَذَابِ
الْقَبْرِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِهِ
الَّذِي أَنزَلَهُ، فَلَهُ مِنْ ضَيْقِ الصَّدْرِ، وَنَكْدِ الْعَيْشِ، وَكَثْرَةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ
الْحِرْصِ وَالتَّعَبِ عَلَى الدُّنْيَا، وَالتَّحَسُّرِ عَلَى فَوَاتِهَا قَبْلَ حُصُولِهَا وَبَعْدَ
حُصُولِهَا، وَالْأَلَامِ الَّتِي فِي خِلَالِ ذَلِكَ مَا لَا يَشْعُرُ بِهِ الْقَلْبُ، لِسُكْرَتِهِ،
وَانْغِمَاسِهِ فِي السُّكْرِ، فَهُوَ لَا يَضْحُو سَاعَةً إِلَّا أَحْسَّ وَشَعَرَ بِهَذَا الْأَلَمِ،
فَبَادَرَ إِلَى إِزَالَتِهِ بِسُكْرٍ ثَانٍ، فَهُوَ هَكَذَا مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَأَيُّ عِيشَةٍ أَضْيَقُ مِنْ
هَذِهِ لَوْ كَانَ لِلْقَلْبِ شُعُورٌ؟ .

حَالُ قُلُوبِ أَهْلِ الْبِدْعِ :

فَقُلُوبُ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَالْمُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرْآنِ، وَأَهْلِ الْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ، وَأَهْلِ الْمَعَاصِي فِي جَحِيمٍ قَبْلَ الْجَحِيمِ الْأَكْبَرِ، وَقُلُوبُ الْأَبْرَارِ فِي نَعِيمٍ قَبْلَ النَّعِيمِ الْأَكْبَرِ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ [الْإِنْفِطَارُ: ١٣-١٤]، هَذَا فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَ، لَيْسَ مُخْتَصًّا بِالْدارِ الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ تَمَامُهُ وَكَمَالُهُ وَظُهُورُهُ: إِنَّمَا هُوَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَفِي الْبَرْزَخِ دُونَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطُّور: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ [النَّمْلُ: ٧١-٧٢].

وَفِي هَذِهِ الدَّارِ دُونَ مَا فِي الْبَرْزَخِ، وَلَكِنْ يَمْنَعُ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِهِ الْاسْتِغْرَاقُ فِي سَكْرَةِ الشَّهَوَاتِ، وَطَرَحُ ذَلِكَ عَنِ الْقَلْبِ، وَعَدَمُ التَّفَكُّرِ فِيهِ.

وَالْعَبْدُ قَدْ يُصِيبُهُ أَلَمٌ حَسِّيٌّ فَيَطْرَحُهُ عَنْ قَلْبِهِ، وَيَقْطَعُ التَّفَاتَةَ عَنْهُ، وَيَجْعَلُ إِقْبَالَهِ عَلَى غَيْرِهِ، لِئَلَّا يَشْعُرَ بِهِ جُمْلَةً، فَلَوْ زَالَ عَنْهُ ذَلِكَ الْإِلْتِفَاتُ، لَصَاحَ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، فَمَا الظَّنُّ بِعَذَابِ الْقُلُوبِ وَآلَمِهَا ؟ !

لَذَّةُ الطَّاعَاتِ :

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْحَسَنَاتِ وَالطَّاعَاتِ آثَارًا مَحْبُوبَةً لَذِيذَةً طَيِّبَةً، لَذَّتْهَا فَوْقَ لَذَّةِ الْمَعْصِيَةِ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، لَا نِسْبَةَ لَهَا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ لِلْسَيِّئَاتِ وَالْمَعَاصِي آثَارًا مَكْرُوهَةً، وَحَزَازَاتٍ تُرْبِي عَلَى لَذَّةِ تَنَاوُلِهَا بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَزِيَادَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلْسَيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَهَذَا يَعْرِفُهُ صَاحِبُ الْبَصِيرَةِ، وَيَشْهَدُهُ مَنْ نَفْسِهِ وَمِنْ غَيْرِهِ.

عَاقِبَةُ الْمَعَاصِي :

فَمَا حَصَلَ لِلْعَبْدِ حَالٌ مَكْرُوهَةٌ قَطُّ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَغْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشُّورَى : ٣٠] ، وَقَالَ لِحَيَّارِ خَلْقِهِ وَأَصْحَابِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٦٥] ،

وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾

[النساء : ٧٩] .

وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ هُنَا النِّعَمُ وَالْمَصَائِبُ الَّتِي تُصِيبُ الْعَبْدَ مِنَ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ «مَا أَصَبْتَ» .

فَكُلُّ نَقْصٍ وَبَلَاءٍ وَشَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَسَبَبُهُ الذُّنُوبُ، وَمُخَالَفَةُ أَوْامِرِ الرَّبِّ، فَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَرٌّ قَطُّ إِلَّا الذُّنُوبُ وَمُوجِبَاتُهَا.

وَأَثَارُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ أَمْرٌ مَشْهُودٌ فِي الْعَالَمِ، لَا يُنْكِرُهُ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ، بَلْ يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ.

١٠ - مَشْهُدُ الرَّحْمَةِ :

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَقَعَ فِي الذَّنْبِ خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ تِلْكَ الْغِلْظَةُ وَالْقَسْوَةُ، وَالْكِفْيَةُ الْغَضَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لَمَنْ صَدَرَ مِنْهُ ذَنْبٌ، حَتَّى لَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ لِأَهْلِكَهُ، وَرُبَّمَا دَعَا اللَّهُ عَلَيْهِ أَنْ يَهْلِكَهُ وَيَأْخُذَهُ، غَضَبًا مِنْهُ لِلَّهِ، وَحِرْصًا عَلَى أَنْ لَا يَعْصِي، فَلَا يَجِدُ فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْمُذْنِبِينَ الْخَاطِئِينَ، وَلَا يَرَاهُمْ إِلَّا بَعِينَ الْاِحْتِقَارِ وَالْاِزْدِرَاءِ، وَلَا يَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِلِسَانِ الطَّعْنِ فِيهِمْ، وَالْعَيْبِ لَهُمْ وَالذَّمِّ، فَإِذَا جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَقَادِيرُ وَخَلَّى وَنَفْسَهُ اسْتَعَاثَ اللَّهُ وَالتَّجَأَ إِلَيْهِ، وَتَمَلَّلَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَمَلُّلَ السَّلِيمِ، وَدَعَاهُ دُعَاءَ

المُضْطَرُّ، فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْغِلْظَةُ عَلَى الْمُذْنِبِينَ رِقَّةً، وَتِلْكَ الْقَسَاوَةُ عَلَى الْخَاطِئِينَ رَحْمَةً وَلِينًا، مَعَ قِيَامِهِ بِحُدُودِ اللَّهِ، وَتَبَدَّلَ دُعَاؤُهُ عَلَيْهِمْ دُعَاءَ لَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ وَظِيفَةً مِنْ عُمْرِهِ، يَسْأَلُ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ. فَمَا أَنْفَعُهُ لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ ! وَمَا أَعْظَمَ جَدْوَاهُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

١١ - مَشْهَدُ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ :

وَهُوَ مَشْهَدُ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ، وَأَنَّهُ أَعْجَزُ شَيْءٍ عَنْ حِفْظِ نَفْسِهِ وَأَضْعَفُهُ، وَأَنَّهُ لَا قُوَّةَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا حَوْلَ إِلَّا بِرَبِّهِ، فَيَشْهَدُ قَلْبُهُ كَرِيشَةً مُلْقَاةً بِأَرْضِ فَلَاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَيَشْهَدُ نَفْسُهُ كَرَائِبِ سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ تَهِيجُ بِهَا الرِّيحُ وَتَتَلَاعَبُ بِهَا الْأَمْوَاجُ، تَرْفَعُهَا تَارَةً، وَتَخْفِضُهَا تَارَةً أُخْرَى، تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَدَرِ، وَهُوَ كَالْآلَةِ طَرِيحًا بَيْنَ يَدَيْ وَلِيِّهِ، مُلْقَى بِبَابِهِ، وَاضِعًا خَدَّهُ عَلَى ثَرَى أَعْتَابِهِ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْجَهْلُ وَالظُّلْمُ وَآثَارُهُمَا وَمُقْتَضِيَاتُهُمَا، فَالْهَلَاكُ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ شَرَاكٍ نَعْلَهُ كَشَاةٌ مُلْقَاةٌ بَيْنَ الذَّنَابِ وَالسَّبَاعِ، لَا يَرُدُّهَا عَنْهَا إِلَّا الرَّاعِي، فَلَوْ تَخَلَّى عَنْهَا طَرْفَةً عَيْنٍ لَتَقَاسَمُوهَا أَعْضَاءً.

وَهَكَذَا حَالُ الْعَبْدِ مُلْقَى بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَإِنْ حَمَاهُ مِنْهُمْ وَكَفَّهُمْ عَنْهُ لَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَإِنْ تَخَلَّى عَنْهُ وَوَكَّلَهُ

إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ لَمْ يَنْقَسِمَ عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ نَصِيبٌ مَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ.

١٢ - مَشْهَدُ الذُّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ وَالْخُضُوعِ :

وَهُوَ مَشْهَدُ الذُّلِّ، وَالْإِنْكَسَارِ، وَالْخُضُوعِ، وَالْإِفْتِقَارِ لِلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَيَشْهَدُ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَاتِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ضَرُورَةً تَامَّةً، وَافْتِقَارًا تَامًّا إِلَى رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ، وَمَنْ بِيَدِهِ صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ، وَهُدَاهُ وَسَعَادَتُهُ، وَهَذِهِ الْحَالُ الَّتِي تَحْصُلُ لِقَلْبِهِ لَا تَنَالُ الْعِبَارَةُ حَقِيقَتَهَا، وَإِنَّمَا تُدْرِكُ بِالْخُصُولِ، فَيَحْصُلُ لِقَلْبِهِ كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ لَا يُشَبِّهُهَا شَيْءٌ، بِحَيْثُ يَرَى نَفْسَهُ كَالْإِنَاءِ الْمَرْضُوضِ تَحْتَ الْأَرْجْلِ، الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ، وَلَا بِهِ وَلَا مِنْهُ، وَلَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَلَا يُرْغَبُ فِي مِثْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلانْتِفَاعِ إِلَّا بِجَبْرِ جَدِيدٍ مِنْ صَانِعِهِ وَفَيْمِهِ، فَحِينَئِذٍ يَسْتَكْثِرُ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ مَا مِنْ رَبِّهِ إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَرَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ قَلِيلًا مِنْهُ وَلَا كَثِيرًا، فَأَيُّ خَيْرٍ لَهُ مِنَ اللَّهِ اسْتَكْثَرَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ قَدْرَهُ دُونَهُ، وَأَنَّ رَحْمَةَ رَبِّهِ هِيَ الَّتِي اقْتَضَتْ ذِكْرَهُ بِهِ، وَسَيَاقَتَهُ إِلَيْهِ، وَاسْتَقَلَّ مَا مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ لِرَبِّهِ، وَرَأَاهَا وَلَوْ سَاوَتْ طَاعَاتِ الثَّقَلَيْنِ مِنْ أَقَلِّ مَا يَنْبَغِي لِرَبِّهِ عَلَيْهِ، وَاسْتَكْثَرَ قَلِيلَ مَعَاصِيهِ وَذُنُوبِهِ، فَإِنَّ الْكَسْرَةَ الَّتِي حَصَلَتْ لِقَلْبِهِ أَوْجَبَتْ لَهُ هَذَا كُلَّهُ.

١٣ - مَشْهَدُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ :

وَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا السَّالِكُونَ، وَأَمَّهَا الْقَاصِدُونَ، وَلَحَظَ إِلَيْهَا الْعَامِلُونَ.

وَهُوَ مَشْهَدُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالِابْتِهَاجُ بِهِ، وَالْفَرَحُ وَالسُّرُورُ بِهِ، فَتَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ قَلْبُهُ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ جَوَارِحُهُ وَيَسْتَوِلِي ذِكْرُهُ عَلَى لِسَانِ مُحِبِّهِ وَقَلْبِهِ، فَتَصِيرُ خَطَرَاتُ الْمَحَبَّةِ مَكَانَ خَطَرَاتِ الْمَعْصِيَةِ، وَإِرَادَاتُ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَإِلَى مَرْضَاتِهِ مَكَانَ إِرَادَةِ مَعَاصِيهِ وَمَسَاطِطِهِ، وَحَرَكَاتُ اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ بِالطَّاعَاتِ مَكَانَ حَرَكَاتِهَا بِالْمَعَاصِي، قَدْ اِمْتَلَأَ قَلْبُهُ مِنْ مُحَبَّتِهِ، وَلَهَجَ لِسَانُهُ بِذِكْرِهِ، وَانْقَادَتِ الْجَوَارِحُ لَطَاعَتِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكُسْرَةَ الْخَاصَّةَ لَهَا تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي الْمَحَبَّةِ لَا يُعْبَرُ عَنْهُ.

وَيُحْكِي عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ، أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَبْوَابِ الطَّاعَاتِ كُلِّهَا، فَمَا دَخَلْتُ مِنْ بَابٍ إِلَّا رَأَيْتُ عَلَيْهِ الزَّحَامَ، فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الدُّخُولِ، حَتَّى جِئْتُ بَابَ الذُّلِّ وَالْإِفْتِقَارِ، فَإِذَا هُوَ أَقْرَبُ بَابٍ إِلَيْهِ وَأَوْسَعُهُ، وَلَا مُزَاحِمَ فِيهِ وَلَا مُعَوِّقَ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَضَعْتُ قَدَمِي فِي عَتَبَتِهِ، فَإِذَا هُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخَذَ بِيَدِي وَأَدْخَلَنِي عَلَيْهِ.

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، فَلْيَلْزَمْ عَتَبَةَ الْعُبُودِيَّةِ.

مَنْزِلَةُ الْإِنَابَةِ :

قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَنْ نَزَلَ مِنْ مَنْزِلِ التَّوْبَةِ وَقَامَ فِي مَقَامِهَا نَزَلَ فِي جَمِيعِ مَنْازِلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ الْكَامِلَةَ مُتَضَمِّنَةٌ لَهَا، وَهِيَ مُنْدرَجَةٌ فِيهَا، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ إِفْرَادِهَا بِالذِّكْرِ وَالتَّفْصِيلِ، تَبَيُّنًا لِحَقَائِقِهَا وَخَوَاصِّهَا وَشُرُوطِهَا.

فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ فِي مَنْزِلِ التَّوْبَةِ نَزَلَ بَعْدَهُ مَنْزِلُ الْإِنَابَةِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَأَثْنَى عَلَى خَلِيلِهِ بِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ [الزُّمَرُ: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴾ [هُود: ٧٥] ، وَأَخْبَرَ أَنَّ آيَاتِهِ إِنَّمَا يَتَبَصَّرُ بِهَا وَيَتَذَكَّرُ أَهْلُ الْإِنَابَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴾ [ق: ٦] ، إِلَى أَنْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ [غَافِر: ١٣] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [الرُّوم: ٣١] .

﴿ مُنِيبِينَ ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَكِنِّ فِي قَوْلِهِ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ [الرُّوم: ٣٠] ، لِأَنَّ هَذَا الْخُطَابَ لَهُ وَلَا مَتَّهِ، أَيْ أَقِمْ وَجْهَكَ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .

الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا تَتِمُّ بِالطَّاعَةِ :

لَمَّا كَانَ التَّائِبُ قَدْ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ بِالْإِعْتِذَارِ وَالْإِقْلَاعِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ،
كَانَ مِنْ تَتَمَّةِ ذَلِكَ رُجُوعُهُ إِلَيْهِ بِالْإِجْتِهَادِ ، وَالنُّصْحِ فِي طَاعَتِهِ ، كَمَا
قَالَ : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] ،
وَقَالَ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾ [البقرة : ١٦٠] ، فَلَا تَنْفَعُ تَوْبَةُ
وَبَطَالَةٍ ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْبَةٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، تَرُكُ لِمَا يَكْرَهُ ، وَفِعْلُ لِمَا يُحِبُّ ،
تَحُلُّ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَتَحُلُّ بِطَاعَتِهِ .

عَلَامَاتُ الْإِنَابَةِ :

وَمِنْ عَلَامَاتِ الْإِنَابَةِ تَرْكُ الاسْتِهَانَةِ بِأَهْلِ الْغَفْلَةِ وَالْخَوْفِ عَلَيْهِمْ ،
مَعَ فَتْحِكَ بَابِ الرَّجَاءِ لِنَفْسِكَ ، فَتَرْجُو لِنَفْسِكَ الرَّحْمَةَ ، وَتَخْشَى عَلَى
أَهْلِ الْغَفْلَةِ النَّقْمَةَ ، وَلَكِنْ ارْجُ لَهُمُ الرَّحْمَةَ ، وَاخْشَ عَلَى نَفْسِكَ النَّقْمَةَ ،
فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ مُسْتَهِينًا بِهِمْ مَاقَتًا لَهُمْ لَانْكَشَافِ أَحْوَالِهِمْ لَكَ ، وَرُؤْيَةِ
مَا هُمْ عَلَيْهِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ أَشَدَّ مَقْتًا مِنْكَ لَهُمْ ، وَكُنْ أَرْجَى لَهُمْ لِرَحْمَةِ
اللَّهِ مِنْكَ لِنَفْسِكَ .

قَالَ بَعْضُ السَّالِفِ : لَنْ تَفْقَهُ كُلَّ الْفَقْهِ حَتَّى تَمُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللَّهِ ،
ثُمَّ تَرْجِعَ إِلَى نَفْسِكَ فَتَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا .

وَهَذَا الْكَلَامُ لَا يَفْقَهُ مَعْنَاهُ إِلَّا الْفَقِيهُ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَإِنَّ مَنْ شَهِدَ حَقِيقَةَ

الخلق، وَعَجَزَهُمْ وَضَعْفَهُمْ وَتَقْصِيرَهُمْ، بَلْ تَفْرِيطُهُمْ، وَإِضَاعَتَهُمْ
لِحَقِّ اللَّهِ، وَإِقْبَالَهُمْ عَلَى غَيْرِهِ، وَبَيْعَهُمْ حَظَّهُمْ مِنْ اللَّهِ بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ مِنْ
هَذَا الْعَاجِلِ الْفَاني لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ مَقْتِهِمْ، وَلَا يُمَكِّنُهُ غَيْرُ ذَلِكَ الْبَتَّةَ،
وَلَكِنْ إِذَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَحَالِهِ وَتَقْصِيرِهِ، وَكَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ
كَانَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مَقْتًا وَاسْتِهَانَةً، فَهَذَا هُوَ الْفَقِيهُ.

حُظُوظُ النَّفْسِ :

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمْ فِي النُّفُوسِ مِنْ عِلَلٍ وَأَغْرَاضٍ وَحُظُوظٍ تَمْنَعُ
الْأَعْمَالُ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ خَالِصَةً، وَأَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ؟ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْعَمَلَ
حَيْثُ لَا يَرَاهُ بَشَرُ الْبَتَّةَ، وَهُوَ غَيْرُ خَالِصٍ لِلَّهِ، وَيَعْمَلُ الْعَمَلَ وَالْعُيُونُ
قَدْ اسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ نَطاقًا، وَهُوَ خَالِصٌ لَوَجْهِ اللَّهِ، وَلَا يُمَيِّزُ هَذَا إِلَّا
أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَأَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ الْعَالِمُونَ بِأَدْوَائِهَا وَعِلَلِهَا.

وُصُولُ أَثَرِ الْعَمَلِ إِلَى الْقَلْبِ :

فَبَيْنَ الْعَمَلِ وَبَيْنَ الْقَلْبِ مَسَافَةٌ، وَفِي تِلْكَ الْمَسَافَةِ قُطَاعٌ تَمْنَعُ وَصُولَ
الْعَمَلِ إِلَى الْقَلْبِ، فَيَكُونُ الرَّجُلُ كَثِيرَ الْعَمَلِ، وَمَا وَصَلَ مِنْهُ إِلَى قَلْبِهِ
مَحَبَّةٌ وَلَا خَوْفٌ وَلَا رَجَاءٌ، وَلَا زُهْدٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا رَغْبَةٌ فِي الْآخِرَةِ،
وَلَا نُورٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا
قُوَّةَ فِي أَمْرِهِ، فَلَوْ وَصَلَ أَثَرُ الْأَعْمَالِ إِلَى قَلْبِهِ لَاسْتَنَارَ وَأَشْرَقَ، وَرَأَى

الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَحْوَالِ.

عَوَائِقُ فِي طَرِيقِ وَصُولِ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ :

بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الرَّبِّ مَسَافَةٌ، وَعَلَيْهَا قُطَاعٌ تَمْنَعُ وَصُولَ الْعَمَلِ إِلَيْهِ، مِنْ كِبَرٍ وَإِعْجَابٍ وَإِذْلَالٍ، وَرُؤْيَا الْعَمَلِ، وَنِسْيَانِ الْمُنَّةِ، وَعِلَلٍ خَفِيَّةٍ لَوْ اسْتَقْصَى فِي طَلِبِهَا لَرَأَى الْعَجَبَ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى سَتَرُهَا عَلَى أَكْثَرِ الْعُمَّالِ، إِذْ لَوْ رَأَوْهَا وَعَايَنُوهَا لَوَقَعُوا فِيهَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا، مِنْ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ وَالِاسْتِحْسَارِ، وَتَرْكِ الْعَمَلِ، وَخُودِ الْعَزْمِ، وَفُتُورِ الْهِمَّةِ، وَلِهَذَا لَمَّا ظَهَرَتْ « رِعَايَةُ » أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ الْمَحَاسِبِيِّ وَاشْتَغَلَ بِهَا الْعِبَادُ عَطَّلَتْ مِنْهُمْ مَسَاجِدُ كَانُوا يَعْمُرُونَهَا بِالْعِبَادَةِ، وَالطَّبِيبُ الْحَادِثُ يَعْلَمُ كَيْفَ يُطَبِّبُ النُّفُوسَ، فَلَا يَعْمُرُ قَصْرًا وَيَهْدِمُ مِصْرًا.

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِالآيَاتِ :

قَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿ (٣٧) ﴾ [ق]

: [٣٦-٣٧] .

وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ، فَذَلِكَ الَّذِي لَا قَلْبَ لَهُ، فَهَذَا لَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ذِكْرِي فِي حَقِّهِ.

الثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ مُسْتَعِدٌّ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَمِعٍ لِلآيَاتِ الْمَتْلُوءَةِ الَّتِي يُخْبِرُ بِهَا اللَّهُ عَنِ الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ إِمَّا لِعَدَمِ وُرُودِهَا، أَوْ لَوْصُولِهَا إِلَيْهِ وَلَكِنَّ قَلْبَهُ مَشْغُولٌ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَهُوَ غَائِبٌ الْقَلْبُ، لَيْسَ حَاضِرًا، فَهَذَا أَيْضًا لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرِي مَعَ اسْتِعْدَادِهِ وَوُجُودِ قَلْبِهِ.

الثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيٌّ الْقَلْبُ مُسْتَعِدٌّ، ثَلَيْتَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ، فَأَصْغَى بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَى السَّمْعَ وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهَمٍّ مَا يَسْمَعُهُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ، مُلِقِ السَّمْعِ، فَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ الْمَتْلُوءَةِ وَالْمَشْهُودَةِ.

فَالْأَوَّلُ: بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ.

وَالثَّانِي: بِمَنْزِلَةِ الْبَصِيرِ الطَّامِحِ بِبَصَرِهِ إِلَى غَيْرِ جِهَةِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ، فَكِلَاهُمَا لَا يَرَاهُ.

وَالثَّالِثُ: بِمَنْزِلَةِ الْبَصِيرِ الَّذِي قَدْ حَدَّقَ إِلَى جِهَةِ الْمَنْظُورِ، وَأَتْبَعَهُ بِصَرِّهِ، وَقَابَلَهُ عَلَى تَوْسِطٍ مِنَ الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَرَاهُ. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ.

تَأْثِيرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ :

مِنْ تَجَرِّبَاتِ السَّالِكِينَ الَّتِي جَرَّبُوهَا فَأَلْفَوْهَا صَحِيحَةً أَنَّ مَنْ أَدْمَنَ «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» أَوْرَثَهُ ذَلِكَ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ .

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - شَدِيدَ اللَّهْجِ بِهَا جَدًّا ، وَقَالَ لِي يَوْمًا : لِهَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ وَهُمَا « الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ » تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ ، وَكَانَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمَا الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : مَنْ وَاطَبَ عَلَى أَرْبَعِينَ مَرَّةً كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ سُنَّةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، بَرَحْتِكَ أَسْتَعِثُّ» حَصَلَتْ لَهُ حَيَاةُ الْقَلْبِ ، وَلَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ .

وَمَنْ عَلِمَ عُبُودِيَّاتِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالِدُعَاءَ بِهَا ، وَسَرَّ ارْتِبَاطَهَا بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، وَبِمَطَالِبِ الْعَبْدِ وَحَاجَاتِهِ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ ، فَإِنَّ كُلَّ مَطْلُوبٍ يُسْأَلُ بِالْمُنَاسِبِ لَهُ ، فَتَأَمَّلْ أَدْعِيَةَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ تَجِدْهَا كَذَلِكَ .

خُطُورَةُ اتِّبَاعِ الْهَوَى :

وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَغْرَاضِ ، وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْهَوَى وَالْانْقِيَادُ لِدَاعِي النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يَطْمِسُ نُورَ الْعَقْلِ ، وَيُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ ، وَيَصُدُّ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَيُضِلُّ عَنِ

الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ ، فَلَا تَحْصُلُ بَصِيرَةُ الْعِبْرَةِ مَعَهُ الْبَتَّةَ ، وَالْعَبْدُ إِذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَدَ رَأْيُهُ وَنَظَرُهُ ، فَأَرَتْهُ نَفْسُهُ الْحَسَنَ فِي صُورَةِ الْقَبِيحِ ، وَالْقَبِيحَ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ ، فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ، فَأَنَّى لَهُ الْإِنْتِفَاعُ بِالتَّذَكُّرِ ، أَوْ بِالتَّفَكُّرِ ، أَوْ بِالْعِظَةِ ؟ .

قِصْرُ الْأَمَلِ :

فَأَمَّا قِصْرُ الْأَمَلِ : فَهُوَ الْعِلْمُ بِقُرْبِ الرَّحِيلِ ، وَسُرْعَةِ انْقِضَاءِ مُدَّةِ الْحَيَاةِ ، وَهُوَ مِنْ أَنْفَعِ الْأُمُورِ لِلْقَلْبِ ، فَإِنَّهُ يَبْعَثُهُ عَلَى مُعَاصَفَةِ الْأَيَّامِ ، وَانْتِهَازِ الْفُرْصِ الَّتِي تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، وَمُبَادَرَةِ طَيِّ صَحَائِفِ الْأَعْمَالِ ، وَيُثِيرُ سَاكِنَ عِزَمَاتِهِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، وَيُحْيِيهِ عَلَى قِضَاءِ جِهَازِ سَفَرِهِ ، وَتَدَارُكِ الْفَارِطِ ، وَيَزَهِّدُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيُرَغِّبُهُ فِي الْآخِرَةِ .

أَسَاسُ قِصْرِ الْأَمَلِ :

وَقِصْرُ الْأَمَلِ بِنَاؤُهُ عَلَى أَمْرَيْنِ : تَيَقُّنُ زَوَالِ الدُّنْيَا وَمُفَارَقَتِهَا ، وَتَيَقُّنُ لِقَاءِ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا وَدَوَامِهَا ، ثُمَّ يُقَايَسُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَيُؤْثِرُ أَوْلَاهُمَا بِالْإِيثَارِ .

سَيْرُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ :

اعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَيَكْشِفُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَنَهْجِهِ ، وَأَفَاتِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ ، وَقِطَاعِ الطَّرِيقِ

بُنُورِهِ وَحَيَاتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَصِحَّتِهِ وَعِزِّهِ، وَسَلَامَةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَغَيْبَةِ الشَّوَاعِلِ وَالْقَوَاطِعِ عَنْهُ، وَهَذِهِ الْخُمْسَةُ تُطْفِئُ نُورَهُ، وَتُعَوِّرُ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ، وَتَثْقُلُ سَمْعَهُ، إِنْ لَمْ تَصُمَّهُ وَتُبْكِمَهُ وَتُضَعِفُ قُوَّاهُ كُلَّهَا، وَتُوَهِّنُ صِحَّتَهُ وَتُفْتِرَ عِزِّمَتَهُ، وَتُوقِفُ هِمَّتَهُ، وَتُنَكِّسُهُ إِلَى وَرَائِهِ، وَمَنْ لَا شُعُورَ لَهُ بِهَذَا فَمَيِّتُ الْقَلْبِ، وَمَا لُجْرَحَ بِمَيِّتٍ إِيْلَامٌ، فَهِيَ عَائِقَةٌ لَهُ عَنْ نُبْلِ كَمَالِهِ، قَاطِعَةٌ لَهُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَجَعَلَ نَعِيمُهُ وَسَعَادَتُهُ وَابْتِهَاجُهُ وَلَذَّتُهُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

نَعِيمُ الْقَلْبِ :

فَإِنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ وَلَا لَذَّةَ، وَلَا ابْتِهَاجَ، وَلَا كَمَالَ، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالطَّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِهِ، وَالْفَرَحِ وَالِابْتِهَاجِ بِقُرْبِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ، فَهَذِهِ جَنَّتُهُ الْعَاجِلَةُ، كَمَا أَنَّ لَا نَعِيمَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا فَوْزَ إِلَّا بِجَوَارِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ، فَلَهُ جَنَّتَانِ لَا يَدْخُلُ الثَّانِيَةَ مِنْهُمَا إِنْ لَمْ يَدْخُلِ الْأُولَى.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: إِنْ فِي الدُّنْيَا جَنَّةٌ، مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ، أَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ: مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، قَالُوا: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشُّوقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ أَوْ نَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ.

وَكُلُّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ يَشْهَدُ هَذَا وَيَعْرِفُهُ ذَوْقًا.

وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْخَمْسَةُ: قَاطِعَةٌ عَنْ هَذَا، حَائِلَةٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَهُ، عَائِقَةٌ لَهُ عَنْ سَيْرِهِ، وَمُحْدِثَةٌ لَهُ أَمْرًا وَعِلَلًا إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهَا الْمَرِيضُ خِيفَ عَلَيْهِ مِنْهَا.

مُفْسِدَاتُ الْقَلْبِ :

١ - الْخُلْطَةُ :

فَإِذَا مَا تَوَثَّرَ كَثْرَةُ الْخُلْطَةِ: فَاِمْتَلَأَ الْقَلْبُ مِنْ دُخَانِ أَنْفَاسِ بَنِي آدَمَ حَتَّى يَسْوَدَّ، يُوجِبُ لَهُ تَشَتُّبًا وَتَفَرُّقًا، وَهَمًّا وَغَمًّا، وَضَعْفًا، وَحَمَلًا لِمَا يَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ مِنْ مُؤْنَةِ قُرْنَاءِ السُّوءِ ، وَإِضَاعَةٍ مَصَالِحِهِ، وَالِاشْتِغَالِ عَنْهَا بِهِمْ وَبِأُمُورِهِمْ، وَتَقْسُّمِ فِكْرِهِ فِي أَوْدِيَةِ مَطَالِبِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ، فَمَاذَا يَبْقَى مِنْهُ لِلَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ؟.

ضَرُورَةُ الْخُلْطَةِ فِي الدِّينِ :

وَكَمْ جَلَبَتْ خُلْطَةُ النَّاسِ مِنْ نِقْمَةٍ، وَدَفَعَتْ مِنْ نِعْمَةٍ؟ ، وَأَنْزَلَتْ

مِنْ مَحَنَةٍ، وَعَظَلَتْ مِنْ مَنَحَةٍ، وَأَحَلَّتْ مِنْ رَزِيَّةٍ، وَأَوْقَعَتْ فِي بَلِيَّةٍ ؟ ،
وَهَلْ آفَةُ النَّاسِ إِلَّا النَّاسُ ؟ ، وَهَلْ كَانَ عَلَى أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْوَفَاةِ
أَضَرٌّ مِنْ قُرْنَاءِ السُّوءِ ؟ ، لَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى حَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ
تُوجِبُ لَهُ سَعَادَةَ الْأَبَدِ.

الْخُلْطَةُ النَّافِعَةُ وَضَوَابِطُهَا :

وَالضَّابِطُ النَّافِعُ فِي أَمْرِ الْخُلْطَةِ أَنْ يُخَالِطَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ كَالْجُمُعَةِ
وَالْجَمَاعَةِ، وَالْأَعْيَادِ وَالْحَجِّ، وَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَالْجِهَادَ ، وَالنَّصِيحَةَ
وَيَعْتَرِهُمُ فِي الشَّرِّ، وَفُضُولِ الْمُبَاحَاتِ، فَإِنْ دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى خُلْطَتِهِمْ
فِي الشَّرِّ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ اعْتِزَالُهُمْ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَنْ يُوَافِقَهُمْ، وَلْيَصْبِرْ عَلَى
أَذَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا بَدَّ أَنْ يُؤْذَوْهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرٌ، وَلَكِنْ أَذَى
يَعْقُبُهُ عِزٌّ وَمَحَبَّةٌ لَهُ وَتَعْظِيمٌ، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ مِنْهُمْ وَمِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ، وَمُوَافَقَتُهُمْ يَعْقُبُهَا ذُلٌّ وَبُغْضٌ لَهُ، وَمَقْتٌ، وَذَمٌّ مِنْهُمْ وَمِنْ
الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَالصَّبْرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً، وَأَحْمَدُ مَالًا، وَإِنْ دَعَتْ
الْحَاجَةُ إِلَى خُلْطَتِهِمْ فِي فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ، فَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَقْلِبَ ذَلِكَ
الْمَجْلِسَ طَاعَةً لِلَّهِ إِنْ أَمَكَنَهُ، وَيُشَجِّعْ نَفْسَهُ وَيُقَوِّي قَلْبَهُ، وَلَا يَلْتَفِتْ
إِلَى الْوَارِدِ الشَّيْطَانِيِّ الْقَاطِعِ لَهُ عَنْ ذَلِكَ، بِأَنْ هَذَا رِيَاءٌ وَمَحَبَّةٌ لِإِظْهَارِ

عِلْمَكَ وَحَالَكَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلْيُحَارِبْهُ، وَلْيَسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَيُؤَثِّرْ فِيهِمْ
مِنْ الْخَيْرِ مَا أَمَكَنَهُ.

٢- التَّمَنِّي:

وَهُوَ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي يَرْكَبُهُ مَفَالِيسُ الْعَالَمِ، كَمَا
قِيلَ: إِنَّ الْمُنَى رَأْسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ، وَبِضَاعَةُ رُكَّابِهِ مَوَاعِيدُ الشَّيَاطِينِ،
وَخَيَالَاتُ الْمُحَالِ وَالْبُهْتَانِ، فَلَا تَزَالُ أَمْوَاجُ الْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ، وَالْخَيَالَاتُ
الْبَاطِلَةِ، تَتَلَاعَبُ بِرَاكِبِهِ كَمَا تَتَلَاعَبُ الْكَلَابُ بِالْجَيْفَةِ، وَهِيَ بِضَاعَةُ كُلِّ
نَفْسٍ مَهِينَةٍ خَسِيسَةٍ سُفْلِيَّةٍ، لَيْسَتْ لَهَا هَمَّةٌ تَنَالُ بِهَا الْحَقَائِقَ الْخَارِجِيَّةَ،
بَلْ اعْتَاضَتْ عَنْهَا بِالْأَمَانِيِّ الذَّهَبِيَّةِ، وَكُلُّ بِحَسَبِ حَالِهِ مِنْ مُتَمَنَّيٍّ
لِلْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَلِلضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَالتَّطَوُّافِ فِي الْبُلْدَانِ، أَوْ
لِلْأَمْوَالِ وَالْأَثْمَانِ، أَوْ لِلنِّسْوَانِ وَالْمُرْدَانِ، فَيُمَثِّلُ الْمُتَمَنِّي صُورَةَ مَطْلُوبِهِ
فِي نَفْسِهِ وَقَدْ فَازَ بِوُصُولِهَا، وَالتَّدْبِ بِالظَّفَرِ بِهَا، فَيَبْنِي هُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ إِذْ
اسْتَيْقَظَ فَإِذَا يَدُهُ وَالْحَصِيرُ.

وَصَاحِبُ الْهَمَّةِ الْعَلِيَّةِ أَمَانِيهِ حَائِمَةٌ حَوْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ
الَّذِي يُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ، وَيُذْنِيهِ مِنْ جَوَارِهِ.

فَأَمَانِيٌّ هَذَا إِيْمَانٌ وَنُورٌ وَحِكْمَةٌ، وَأَمَانِيٌّ أَوْلَيْكَ خُدَعٌ وَغُرُورٌ.
وَقَدْ مَدَحَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَمَنِّي الْخَيْرِ، وَرُبَّمَا جَعَلَ

أَجْرُهُ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ كَأَجْرِ فَاعِلِهِ، كَالْقَائِلِ: «لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمَلْتُ بِعَمَلِ فَلَانِ الَّذِي يَتَّقِي فِي مَالِهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَقَّهُ، وَقَالَ: «هُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ» (١)، وَتَمَنَّى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ تَمَتَّعَ وَحَلَّ وَلَمْ يَسُقِ الْهَدْيَ، وَكَانَ قَدْ قَرَنَ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الْقِرَانِ بِفِعْلِهِ، وَثَوَابَ التَّمَتُّعِ الَّذِي تَمَنَّاهُ بِأَمْنِيَّتِهِ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الْأَجْرَيْنِ.

٣- التَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ - تَبَارَكَ تَعَالَى - :

وَهَذَا أَعْظَمُ مُفْسِدَاتِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

فَلَيْسَ عَلَيْهِ أَضَرُّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَقْطَعُ لَهُ عَنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللَّهِ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَخَذَلَهُ مِنْ جِهَةِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَفَاتَهُ تَحْصِيلُ مَقْصُودِهِ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِهِ وَالتَّفَاتِهِ إِلَى سِوَاهُ، فَلَا عَلَى نَصِيْبِهِ مِنَ اللَّهِ حَصْلٌ، وَلَا إِلَى مَا أَمَّلَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ وَصَلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) [مَرْيَم: ٨١-٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٢٥) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٨٩٤) .

تُخَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ [يس : ٧٤-٧٥] .

فَأَعْظَمُ النَّاسِ خَذْلَانًا مَنْ تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَا فَاتَهُ مِنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ أَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ، وَهُوَ مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ وَالْفَوَاتِ، وَمِثْلُ الْمُتَعَلِّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ كَمِثْلِ الْمُسْتَظِلِّ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَأَوْهِنِ الْبُيُوتِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَاسَاسُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا التَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلِصَاحِبِهِ الذَّمُّ وَالْخَذْلَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] ، ﴿مَذْمُومًا﴾ لَا حَامِدَ لَكَ، ﴿مَخْذُولًا﴾ مَخْذُولًا لَا نَاصِرَ لَكَ، إِذْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُ النَّاسِ مَقْهُورًا مَحْمُودًا كَالَّذِي قُهِرَ بِبَاطِلٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَذْمُومًا مَنْصُورًا، كَالَّذِي قُهِرَ وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ بِبَاطِلٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا مَنْصُورًا كَالَّذِي تَمَكَّنَ وَمَلَكَ بِحَقٍّ، وَالْمُشْرِكُ الْمُتَعَلِّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ قِسْمُهُ أَرْدَا الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، لَا مَحْمُودٌ وَلَا مَنْصُورٌ.

٤- كَثْرَةُ الطَّعَامِ :

وَالْمُفْسِدُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا مَا يُفْسِدُهُ لِعَيْنِهِ وَذَاتِهِ كَالْمَحْرَمَاتِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: مُحْرَمَاتُ لِحَقِّ اللَّهِ، كَالْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ، وَلَحْمِ الْخَنَزِيرِ، وَذِي النَّابِ مِنَ السَّبَاعِ وَالْمِخْلَبِ مِنَ الطَّيْرِ، وَمُحْرَمَاتُ لِحَقِّ الْعِبَادِ، كَالْمُسْرُوقِ

وَالْمَغْصُوبِ وَالْمَنْهُوبِ، وَمَا أَخَذَ بِغَيْرِ رِضَا صَاحِبِهِ، إِمَّا قَهْرًا وَإِمَّا حَيَاءً وَتَذَمُّمًا.

وَالثَّانِي: مَا يُفْسِدُهُ بِقَدْرِهِ وَتَعَدِّي حَدِّهِ، كَالِإِسْرَافِ فِي الْحَلَالِ، وَالشَّبَعِ الْمُفْرِطِ، فَإِنَّهُ يُثْقِلُهُ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَيَشْغَلُهُ بِمُزَاوَلَةِ مُؤَنَةِ الْبِطْنَةِ وَمُحَاوَلَتِهَا، حَتَّى يَظْفَرَ بِهَا، فَإِذَا ظَفَرَ بِهَا شَغَلَهُ بِمُزَاوَلَةِ تَصَرُّفِهَا وَوَقَايَةِ ضَرَرِهَا، وَالتَّأْدِّي بِثِقَلِهَا، وَقَوَّى عَلَيْهِ مَوَادَّ الشَّهْوَةِ، وَطُرُقَ مَجَارِي الشَّيْطَانِ وَوَسَّعَهَا، فَإِنَّهُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فَالصَّوْمُ يُضَيِّقُ مَجَارِيَهُ وَيَسُدُّ عَلَيْهِ طُرُقَهُ، وَالشَّبَعُ يَطْرُقُهَا وَيُوسِّعُهَا، وَمَنْ أَكَلَ كَثِيرًا شَرِبَ كَثِيرًا، فَنَامَ كَثِيرًا، فَخَسِرَ كَثِيرًا، وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ: « مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسَبِ ابْنِ آدَمَ لُقِيَمَاتٍ يُقَمِّنُ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَثُلُثٌ لِبَطْعَامِهِ، وَثُلُثٌ لَشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ » (١).

٥- كَثْرَةُ النَّوْمِ:

فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَيَثْقُلُ الْبَدَنَ، وَيُضَيِّعُ الْوَقْتَ، وَيُورِثُ كَثْرَةَ الْغَفْلَةِ وَالْكَسَلِ، وَمِنْهُ الْمَكْرُوهُ جَدًّا، وَمِنْهُ الضَّارُّ غَيْرُ النَّافِعِ لِلْبَدَنِ، وَأَنْفَعُ النَّوْمِ مَا كَانَ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَنَوْمٌ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَحْمَدُ وَأَنْفَعُ مِنْ آخِرِهِ، وَنَوْمٌ وَسَطِ النَّهَارِ أَنْفَعُ مِنْ طَرَفَيْهِ، وَكُلَّمَا قَرَّبَ النَّوْمُ مِنْ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٨١) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٩٣٩).

الطَّرْفَيْنِ قَلَّ نَفْعُهُ، وَكَثُرَ ضَرَرُهُ، وَلَا سِيَّامًا نَوْمُ الْعَصْرِ، وَالنَّوْمُ أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَّا لِسَهْرَانٍ.

النَّوْمُ الْمَكْرُوهُ :

وَمِنَ الْمَكْرُوهِ عِنْدَهُمُ النَّوْمُ بَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِنَّهُ وَقْتُ غَنِيمَةٍ، وَلِلسَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتُ عِنْدَ السَّالِكِينَ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّىٰ لَوْ سَارُوا طَوْلَ لَيْلِهِمْ لَمْ يَسْمَحُوا بِالْقُعُودِ عَنِ السَّيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ النَّهَارِ وَمِفْتَاحُهُ، وَوَقْتُ نُزُولِ الْأَرْزَاقِ، وَحُصُولِ الْقِسْمِ، وَحُلُولِ الْبَرَكَاتِ، وَمِنْهُ يَنْشَأُ النَّهَارُ، وَيَنْسَحِبُ حُكْمُ جَمِيعِهِ عَلَىٰ حُكْمِ تِلْكَ الْحِصَّةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَوْمُهَا كَنَوْمِ الْمُضْطَرِّ.

أَنْفَعُ النَّوْمِ :

وَبِالْجُمْلَةِ فَأَعْدَلُ النَّوْمِ وَأَنْفَعُهُ نَوْمُ نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وَسُدُسِهِ الْأَخِيرِ، وَهُوَ مِقْدَارُ ثَمَانِ سَاعَاتٍ، وَهَذَا أَعْدَلُ النَّوْمِ عِنْدَ الْأَطِبَّاءِ، وَمَا زَادَ عَلَيْهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ أَثَرٌ عِنْدَهُمْ فِي الطَّبِيعَةِ انْحِرَافًا بِحَسَبِهِ.

النَّوْمُ الضَّارُّ :

وَمِنَ النَّوْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ أَيْضًا النَّوْمُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، عَقِيبَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، حَتَّىٰ تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - يَكْرَهُهُ ، فَهُوَ مَكْرُوهٌ شَرُّعًا وَطَبْعًا .

آفَاتُ كَثْرَةِ النَّوْمِ :

وَكَمَا أَنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ مُورِثَةٌ لِهَذِهِ الْآفَاتِ ، فَمُدَافَعَتُهُ وَهَجْرُهُ مُورِثٌ لَآفَاتٍ أُخْرَى عِظَامٌ : مِنْ سُوءِ الْمِزَاجِ وَيُسْبِيهِ ، وَأَنْحِرَافِ النَّفْسِ ، وَجَفَافِ الرُّطُوبَاتِ الْمُعِينَةِ عَلَى الْفَهْمِ وَالْعَمَلِ ، وَيُورِثُ أَمْرَاضًا مُتَلَفَةً لَا يَنْتَفِعُ صَاحِبُهَا بِقَلْبِهِ وَلَا بَدَنِهِ مَعَهَا ، وَمَا قَامَ الْوُجُودُ إِلَّا بِالْعَدْلِ ، فَمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحِظِّهِ مِنْ مَجَامِعِ الْخَيْرِ ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ .

حَقِيقَةُ الزُّهْدِ :

قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ : أَيُّكُونُ الرَّجُلُ زَاهِدًا ، وَمَعَهُ أَلْفُ دِينَارٍ ؟ ، قَالَ : نَعَمْ عَلَى شَرِيطَةٍ أَلَّا يَفْرَحَ إِذَا زَادَتْ وَلَا يَحْزَنَ إِذَا نَقَصَتْ ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ أَزْهَدَ الْأُمَّةِ مَعَ مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ .

وَقِيلَ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ : أَيُّكُونُ ذُو الْمَالِ زَاهِدًا ؟ قَالَ : نَعَمْ إِنْ كَانَ إِذَا زِيدَ فِي مَالِهِ شَكَرَ ، وَإِنْ نَقَصَ شَكَرَ وَصَبَرَ .

الْفِرَارُ إِلَى اللَّهِ :

هُرُوبُ الْعَبْدِ مِنْ ضِيقِ صَدْرِهِ بِالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَخَافِ
الَّتِي تَعْتَرِيهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ ، وَمَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ نَفْسِهِ مِمَّا

يَتَعَلَّقُ بِأَسْبَابِ مَصَالِحِهِ، وَمَصَالِحٍ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِمَا لَهُ وَبَدَنِهِ وَأَهْلِهِ وَعَدُوِّهِ، يَهْرُبُ مِنْ ضَيْقِ صَدْرِهِ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى سَعَةِ فُضَاءِ الثِّقَةِ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَصَدَقَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَحُسْنُ الرَّجَاءِ لِحَمِيلِ صُنْعِهِ بِهِ، وَتَوَقُّعُ الْمَرْجُوِّ مِنْ لُطْفِهِ وَبِرِّهِ، وَمِنْ أَحْسَنِ كَلَامِ الْعَامَّةِ قَوْلُهُمْ: لَا هَمَّ مَعَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاقُ: ٢-٣].

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ، وَهَذَا جَامِعٌ لَشِدَائِدِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَضَائِقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لِلْمُتَّقِي مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَخْرَجًا، وَقَالَ الْحَسَنُ: مَخْرَجًا مِمَّا نَهَا عَنْهُ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلَاقُ: ٣] أَيْ كَافِي مَنْ يَتَّقِ بِهِ فِي نَوَائِبِهِ وَمُهِمَّاتِهِ، يَكْفِيهِ كُلُّ مَا أَهَمَّهُ، وَالْحَسْبُ الْكَافِي حَسْبُنَا اللَّهُ كَافِينَا اللَّهُ.

الصَّدَقُ مَعَ اللَّهِ :

وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ حَسَنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ، حَسَنَ الرَّجَاءِ لَهُ، صَادِقَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخَيِّبُ أَمَلَهُ فِيهِ الْبَتَّةَ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُخَيِّبُ أَمَلًا آمِلٍ، وَلَا يُضَيِّعُ عَمَلًا عَامِلٍ.

الْفَرَارُ مِنَ حُظُوظِ النَّفْسِ :

الْفَرَارُ مِنَ حُظُوظِ النَّفْسِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا
لَا الْمُعْتَنُونَ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمُرَادِهِ ، وَحَقِّهِ عَلَى عَبْدِهِ ، وَمَعْرِفَةُ نَفْسِهِمْ
وَأَعْمَالِهِمْ وَأَفَاتِهِمْ وَرُبَّ مُطَالِبٍ عَالِيَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعِبَادِ هِيَ حُظُوظٌ لِقَوْمٍ
آخَرِينَ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ مِنْهَا وَيَفِرُّونَ إِلَيْهِ مِنْهَا ، يَرَوْنَهَا حَائِلَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
مَطْلُوبِهِمْ .

عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ :

فَالْقَلْبُ يَعْزُضُ لَهُ حَالَتَانِ: حَالَةُ حَزْنٍ وَأَسْفٍ عَلَى مَفْقُودٍ، وَحَالَةُ
فَرَحٍ وَرِضَى بِمَوْجُودٍ، وَلَهُ بِمُقْتَضَى هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ عُبُودِيَّتَانِ.
وَلَهُ بِمُقْتَضَى الْحَالَةِ الْأُولَى عُبُودِيَّةُ الرِّضَاءِ، وَهِيَ لِلْسَّابِقِينَ، وَالصَّبْرِ
وَهِيَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَلَهُ بِمُقْتَضَى الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ عُبُودِيَّةُ الشُّكْرِ، وَالشَّاكِرُونَ فِيهَا أَيْضًا
نُوعَانِ: سَابِقُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، فَاقْتَطَعَتْهُ النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ عَنْ
هَاتَيْنِ الْعُبُودِيَّتَيْنِ، بِصَوْتَيْنِ أَحَقِّقَيْنِ فَاجِرَيْنِ، هُمَا لِلشَّيْطَانِ لَا لِلرَّحْمَنِ:
صَوْتِ النَّدْبِ وَالنِّيَاحَةِ عِنْدَ الْحُزْنِ وَفَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، وَصَوْتِ اللَّهْوِ
وَالْمِزْمَارِ وَالْغَنَاءِ عِنْدَ الْفَرَحِ وَحُصُولِ الْمَطْلُوبِ، فَعَوَّضَهُ الشَّيْطَانُ

بِهَذَيْنِ الصَّوْتَيْنِ عَنْ تَيْنِكَ الْعُبُودِيَّتَيْنِ.

وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - « إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحَقَّيْنِ، فَاجِرَيْنِ: صَوْتٍ وَيَلٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَصَوْتٍ مِزْمَارٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ » ^(١).

المُسْلِمُ بَيْنَ نِعْمَتَيْنِ :

قَالَ بَعْضُ السَّافِ: نِعْمَتُهُ فِيمَا زَوَى عَنِّي مِنَ الدُّنْيَا أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَتِهِ فِيمَا بَسَطَ لِي مِنْهَا، إِنِّي رَأَيْتُهُ أَعْطَاهَا قَوْمًا فَاغْتَرُّوا.

إِذَا عَمَّ بِالسَّرَّاءِ أَعْقَبَ شُكْرَهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ وَمَا مِنْهَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبُرُّ وَالْبَحْرُ

الْحُزْنُ غَيْرُ مَحْمُودٍ :

الْحُزْنُ مُوقِفٌ غَيْرُ مُسِيرٍ، وَلَا مَصْلَحَةٌ فِيهِ لِلْقَلْبِ، وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الشَّيْطَانِ أَنْ يَحْزَنَ الْعَبْدُ لِيَقْطَعَهُ عَنْ سَيْرِهِ، وَيُوقِفَهُ عَنْ سُلُوكِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [المُجَادَلَةُ ١٠:]، وَنَهَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « الثَّلَاثَةَ أَنْ يَتَنَاجَى اثْنَانِ

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (٤٠ / ٤) وَسَكَتَ عَنْهُ، وَلِهَذَا الْحَدِيثُ شَاهِدٌ آخَرٌ وَهُوَ « نَبِيٌّ لَمْ أَنَّهُ عَنِ الْبُكَاءِ... »، وَقَدْ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي « السُّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ » (٤٢٧).

مِنْهُمْ دُونَ الثَّالِثِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ ^(١).

فَالْحُزْنَ لَيْسَ بِمَطْلُوبٍ، وَلَا مَقْصُودٍ، وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ، وَقَدْ اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزَنِ» ^(٢)، فَهُوَ قَرِينُ الْهَمِّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمَكْرُوهَ الَّذِي يَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ، إِنْ كَانَ لَمَّا يُسْتَقْبَلُ أَوْرَثَهُ الْهَمُّ، وَإِنْ كَانَ لَمَّا مَضَى أَوْرَثَهُ الْحُزْنَ، وَكِلَاهُمَا مُضْعِفٌ لِلْقَلْبِ عَنِ السَّيْرِ، مُقْتَرٍ لِلْعَزْمِ.

مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ :

وَمِنْ مَنَازِلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ^(٥٦) مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ.
وَهِيَ مِنْ أَجْلِ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ وَأَنْفَعَهَا لِلْقَلْبِ، وَهِيَ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
[آلِ عِمْرَانَ: ١٧٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وَقَالَ:
﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَمَدَحَ أَهْلَهُ فِي كِتَابِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ، فَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ^(٥٧) - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ^(٦١) [المؤمنون: ٥٧-٦١].

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٢٩٠)، وَمُسْلِمٌ (٢١٨٤).
(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٥٤١) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١٣٦٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِيِّ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، «قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٦٠]، أَهْوَ الَّذِي يَزْنِي، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَيَسْرِقُ؟ قَالَ: لَا يَا ابْنَةَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ» ^(١)، قَالَ الْحَسَنُ: عَمِلُوا بِاللَّهِ بِالطَّاعَاتِ، وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالْمُنَافِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا.

تَعْرِيفُ الْخَوْفِ :

الْخَوْفُ اضْطِرَابُ الْقَلْبِ وَحَرَكَتُهُ مِنْ تَذَكُّرِ الْمَخُوفِ.

تَعْرِيفُ الْخَشْيَةِ :

وَ «الْخَشْيَةُ» أَحْصُ مِنَ الْخَوْفِ، فَإِنَّ الْخَشْيَةَ لِلْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِر: ٢٨]، فَهِيَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِمَعْرِفَةٍ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنِّي أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً» ^(٢).

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٩٨) وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (١٦٢) .

(٢) (صَحِيحٌ) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (١٣٣٦) .

تَعْرِيفُ الرَّهْبَةِ :

الرَّهْبَةُ فَهِيَ الْإِمْعَانُ فِي الْهَرَبِ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَهِيَ ضِدُّ الرَّغْبَةِ الَّتِي هِيَ سَفَرُ الْقَلْبِ فِي طَلَبِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ.

تَعْرِيفُ الْوَجَلِ :

وَأَمَّا الْوَجَلُ فَارْجَفَانُ الْقَلْبِ، وَأَنْصِدَاعُهُ لِذِكْرِ مَنْ يَخَافُ سُلْطَانَهُ وَعُقُوبَتَهُ، أَوْ لِرُؤْيَيْتِهِ.

تَعْرِيفُ الْهَيْبَةِ :

وَأَمَّا الْهَيْبَةُ فَخَوْفٌ مُقَارِنٌ لِلتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالْإِجْلَالُ: تَعْظِيمٌ مَقْرُونٌ بِالْحُبِّ.

فَاخْوَفُ لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْخَشْيَةُ لِلْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ، وَالْهَيْبَةُ لِلْمُحِبِّينَ، وَالْإِجْلَالُ لِلْمُقَرَّبِينَ، وَعَلَى قَدْرِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ يَكُونُ الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنِّي لَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً - وَفِي رِوَايَةٍ - خَوْفًا، وَقَالَ : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » ^(١).

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٩٠) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (١٧٢٢) .

فَصَاحِبُ الْخَوْفِ يَلْتَجِئُ إِلَى الْهَرَبِ، وَالْإِمْسَاكِ، وَصَاحِبُ الْخَشْيَةِ
يَلْتَجِئُ إِلَى الْاِعْتِصَامِ بِالْعِلْمِ، وَمَثْلُهُمَا مَثَلُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالطَّبِّ، وَمَثَلُ
الطَّيِّبِ الْحَاقِقِ، فَالْأَوَّلُ يَلْتَجِئُ إِلَى الْحِمِيَةِ وَالْهَرَبِ، وَالطَّيِّبُ يَلْتَجِئُ
إِلَى مَعْرِفَتِهِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ.

قَالَ أَبُو حَفْصٍ: الْخَوْفُ سَوْطُ اللَّهِ، يُقَوِّمُ بِهِ الشَّارِدِينَ عَنْ بَابِهِ، وَقَالَ:
الْخَوْفُ سَرَايُ فِي الْقَلْبِ، بِهِ يُبْصَرُ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا
خَفَتُهُ هَرَبَتْ مِنْهُ إِلَّا اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِنَّكَ إِذْ خَفَتُهُ هَرَبْتَ إِلَيْهِ.

الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ:

وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ: مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مُحَارِمِ اللَّهِ - عَزَّ
وَجَلَّ -، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ خِيفَ مِنْهُ الْيَأْسُ وَالْقَنُوطُ.

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: صِدْقُ الْخَوْفِ هُوَ الْوَرَعُ عَنِ الْآثَامِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.
وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ:
الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ مَا حَجَزَكَ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

سَيْرُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ:

الْقَلْبُ فِي سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ، فَاَلْمَحَبَّةُ رَأْسُهُ،
وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَى سَلِمَ الرَّأْسُ وَالْجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ

جَيْدُ الطَّيْرَانِ ، وَمَتَى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ ، وَمَتَى فَقَدَ الْجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ ، وَلَكِنَّ السَّلَفَ اسْتَحَبُّوا أَنْ يَقْوَى فِي الصَّحَّةِ جَنَاحُ الْخَوْفِ عَلَى جَنَاحِ الرَّجَاءِ ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا يَقْوَى جَنَاحُ الرَّجَاءِ عَلَى جَنَاحِ الْخَوْفِ ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَبِي سُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِ ، قَالَ : يَنْبَغِي لِلْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ ، فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ فَسَدَ .

وَقَالَ غَيْرُهُ : أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ : اغْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، وَغَلَبَةُ الْحُبِّ ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ الْمَرْكَبُ ، وَالرَّجَاءُ حَادٍ ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ ، وَاللَّهُ الْمُوَصِّلُ بَيْنَهُمَا وَكَرَّمَهُ .

مِنْ مُفْسِدَاتِ الْعَمَلِ :

فَالْعُجْبُ : يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُهُ الرِّيَاءُ ، فَيُشْفِقُ عَلَى سَعْيِهِ مِنْ هَذَا الْمَفْسِدِ شَفَقَةً تَصُونُهُ عَنْهُ .

مِنْ مُفْسِدَاتِ الْأَخْلَاقِ :

وَالْمَخَاصِمَةُ لِلْخُلُقِ مُفْسِدَةٌ لِلْخُلُقِ ، فَيُشْفِقُ عَلَى خُلُقِهِ مِنْ هَذَا الْمَفْسِدِ شَفَقَةً تَصُونُهُ عَنْهُ .

مِنْ مَفْسِدَاتِ الْإِرَادَةِ :

وَالْإِرَادَةُ يُفْسِدُهَا عَدَمُ الْجِدِّ ، وَهُوَ الْهَزْلُ وَاللَّعِبُ ، فَيُشْفِقُ عَلَى
إِرَادَتِهِ مِمَّا يُفْسِدُهَا .

حَقِيقَةُ الْخُشُوعِ :

وَقِيلَ : الْخُشُوعُ خُمُودُ نِيرَانِ الشَّهْوَةِ ، وَسُكُونُ دُخَانِ الصُّدُورِ ،
وَإِشْرَاقُ نُورِ التَّعْظِيمِ فِي الْقَلْبِ .

إِخْفَاءُ الْعَمَلِ :

إِنَّمَا الْمُرَادُ أَنْ يُخْفِيَ أَحْوَالَهُ عَنِ الْخَلْقِ جُهْدَهُ ، كَخُشُوعِهِ وَذُلِّهِ
وَانْكَسَارِهِ ، لئَلَّا يَرَاهَا النَّاسُ فَيَعْجَبُوهُ أَطْلَاعُهُمْ عَلَيْهَا ، وَرُؤْيَاهُمْ لَهَا ،
فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ وَقْتَهُ وَقَلْبَهُ وَحَالَهُ مَعَ اللَّهِ ، وَكَمْ قَدْ اقْتَطَعَ فِي هَذِهِ الْمَفَازَةِ
مَنْ سَالِكَ ؟ وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ ، فَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلصَّادِقِ مِنْ
التَّحَقُّقِ بِالْمُسْكَنَةِ وَالْفَاقَةِ وَالذُّلِّ ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَصِحَّ لَهُ
بَعْدُ الْإِسْلَامُ حَتَّى يَدَّعِيَ الشَّرَفَ فِيهِ .

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - مِنْ
ذَلِكَ أَمْرًا لَمْ أُشَاهِدْهُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَكَانَ يَقُولُ كَثِيرًا : مَا لِي شَيْءٌ ، وَلَا مَنِّي
شَيْءٌ ، وَلَا فِيَّ شَيْءٌ ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ :

أَنَا الْمُكَدِّي وَابْنُ الْمُكَدِّي وَهَكَذَا كَانَ أَبِي وَجَدِّي

وَكَانَ إِذَا أَتَنِي عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ يَقُولُ : وَاللَّهِ إِنِّي إِلَى الْآنِ أَجِدُّ إِسْلَامِي كُلَّ وَقْتٍ ، وَمَا أَسْلَمْتُ بَعْدَ إِسْلَامًا جَيِّدًا .

وَبَعَثَ إِلَيَّ فِي آخِرِ عُمُرِهِ قَاعِدَةً فِي التَّفْسِيرِ بِخَطِّهِ ، وَعَلَى ظَهْرِهَا آيَاتٌ بِخَطِّهِ مِنْ نَظْمِهِ :

أَنَا الْمُسِيكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي	أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ
وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي	أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي
وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ	لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ
وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي	وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلَى يُدَبِّرُنِي
إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ	إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا
وَلَا شَرِيكَ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ	وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا
كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ	وَلَا ظَهِيرٌ لَهُ كَيْ يَسْتَعِينَ بِهِ
كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصَفُّ لَهُ ذَاتِي	وَالْفَقْرُ لِي وَصَفُّ ذَاتٍ لَا زِمَ أَبَدًا
وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي	وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ

فَمَنْ بَغَىٰ مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ فَهُوَ الْجَهْلُ الظُّلُمُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءُ الْكَوْنِ أَجْمَعِهِ مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا مِنْ بَعْدُ قَدْ يَأْتِي

أَهْمِيَّةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ :

قَالَ بَعْضُ السَّالِفِ : الصَّلَاةُ كَجَارِيَةٍ تُهْدَى إِلَى مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ يَهْدِي إِلَيْهِ جَارِيَةٌ شَلَاءً ، أَوْ عَوْرَاءً ، أَوْ عَمِيَاءً ، أَوْ مَقْطُوعَةً الْيَدِ وَالرَّجُلِ ، أَوْ مَرِيضَةً ، أَوْ دَمِيمَةً ، أَوْ قَبِيحَةً ، حَتَّى يَهْدِيَ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ مَيِّتَةٌ بَلَا رُوحَ وَجَارِيَةٍ قَبِيحَةٍ ، فَكَيْفَ بِالصَّلَاةِ الَّتِي يُهْدِيهَا الْعَبْدُ ، وَيَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى ؟ ، وَاللَّهُ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ صَلَاةٌ لَا رُوحَ فِيهَا ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْعِتْقِ الطَّيِّبِ عِتْقُ عَبْدٍ لَا رُوحَ فِيهِ .

مِنْ عِلَامَاتِ انْقِطَاعِ الْقَلْبِ عَنِ اللَّهِ :

الْوُقُوفُ عِنْدَ مَدْحِ النَّاسِ وَذَمِّهِمْ ؛ عِلَامَةٌ انْقِطَاعِ الْقَلْبِ ، وَخُلُوهِ مِنَ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ تُبَاشِرْهُ رُوحَ مَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَلَمْ يَذُقْ حَلَاوَةَ التَّعَلُّقِ بِهِ وَالطَّمَأْنِينَةَ إِلَيْهِ .

عَقَبَةُ النَّفْسِ :

فَالنَّفْسُ جَبَلٌ عَظِيمٌ شَاقٌّ فِي طَرِيقِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَكُلُّ

سَائِرٌ لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ شَاقٌّ عَلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

وَفِي ذَلِكَ الْجَبَلِ أَوْدِيَّةٌ وَشُعُوبٌ ، وَعَقَبَاتٌ وَوُهُودٌ ، وَشَوْكٌ وَعَوَسَجٌ ، وَعَلِيقٌ وَشَبْرَقٌ ، وَلُصُوصٌ يَقْتَطِعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّائِرِينَ ، وَلَا سِيَّامَا أَهْلَ اللَّيْلِ الْمُذْلَجِينَ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ عُدَدُ الْإِيمَانِ ، وَمَصَابِيحُ الْيَقِينِ تَتَقَدُّ بَزَيْتِ الْإِخْبَاتِ ، وَإِلَّا تَعَلَّقَتْ بِهِمْ تِلْكَ الْمَوَانِعُ ، وَتَشَبَّثَتْ بِهِمْ تِلْكَ الْقَوَاطِعُ وَحَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّيْرِ .

فَإِنَّ أَكْثَرَ السَّائِرِينَ فِيهِ رَجَعُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ لَمَّا عَجَزُوا عَنْ قَطْعِهِ وَاقْتِحَامِ عَقَبَاتِهِ ، وَالشَّيْطَانُ عَلَى قُلَّةِ ذَلِكَ الْجَبَلِ يُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْ صُعُودِهِ وَارْتِفَاعِهِ ، وَيُخَوِّفُهُمْ مِنْهُ ، فَيَتَّفِقُ مَشَقَّةُ الصُّعُودِ وَقَعُودُ ذَلِكَ الْمُخَوِّفِ عَلَى قُلَّتِهِ ، وَضَعْفُ عَزِيمَةِ السَّائِرِ وَنَيْتِهِ ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَلِكَ الْإِنْقِطَاعُ وَالرُّجُوعُ ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ .

وَكُلَّمَا رَقَى السَّائِرُ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ اشْتَدَّ بِهِ صِيَاحُ الْقَاطِعِ ، وَتَحْذِيرُهُ وَتَخْوِيفُهُ ، فَإِذَا قَطَعَهُ وَبَلَغَ قُلَّتَهُ : انْقَلَبَتْ تِلْكَ الْمَخَافُ كُلُّهَا أَمَانًا ، وَحِينَئِذٍ يَسْهَلُ السَّيْرُ ، وَتَزُولُ عَنْهُ عَوَارِضُ الطَّرِيقِ ، وَمَشَقَّةُ عَقَبَاتِهَا ، وَيَرَى طَرِيقًا وَاسِعًا آمِنًا ، يُفْضِي بِهِ إِلَى الْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ ، وَعَلَيْهِ الْأَعْلَامُ .

وَفِيهِ الْإِقَامَاتُ ، قَدْ أَعِدَّتْ لِرَكْبِ الرَّحْمَنِ .

عَقَبَةُ فِي طَرِيقِ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ :

فَبَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ قُوَّةٌ عَزِيمَةٌ ، وَصَبْرٌ سَاعَةٌ ،
وَشَجَاعَةٌ نَفْسٌ ، وَثَبَاتٌ قَلْبٌ ، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ [الحديد: ٢٩] .

مِنْ عِلَامَاتِ التَّوْفِيقِ :

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ التَّرْهِيدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالْإِخْبَارِ بِخَسَّتِهَا ، وَقِلَّتِهَا
وَانْقِطَاعِهَا ، وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالْإِخْبَارِ بِشَرَفِهَا
وَدَوَامِهَا ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَقَامَ فِي قَلْبِهِ شَاهِدًا يُعَايِنُ بِهِ حَقِيقَةَ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيُؤَثِّرُ مِنْهُمَا مَا هُوَ أَوْلَى بِالْإِثَارِ .

أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَعْرِيفِ الزُّهْدِ :

وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الزُّهْدِ وَكُلُّ أَشَارٍ إِلَى ذَوْقِهِ ، وَنَطَقَ
عَنْ حَالِهِ وَشَاهِدِهِ ، فَإِنَّ غَالِبَ عِبَارَاتِ الْقَوْمِ عَنْ أَذْوَاقِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ،
وَالْكَلَامِ بِلِسَانِ الْعِلْمِ أَوْسَعُ مِنَ الْكَلَامِ بِلِسَانِ الذَّوْقِ ، وَأَقْرَبُ إِلَى
الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: الزُّهْدُ

تَرَكَ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ ، وَالْوَرَعَ تَرَكَ مَا تَخَافُ ضَرْرَهُ فِي الْآخِرَةِ .
وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَأَجْمَعِهَا .
أُوجُهُ الزُّهْدِ :

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : الزُّهْدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهُ :
الْأَوَّلُ تَرَكَ الْحَرَامِ ، وَهُوَ زُهْدُ الْعَوَامِّ .
وَالثَّانِي تَرَكَ الْفُضُولِ مِنَ الْحَلَالِ ، وَهُوَ زُهْدُ الْخَوَاصِّ .
وَالثَّالِثُ تَرَكَ مَا يَشْغُلُ عَنِ اللَّهِ ، وَهُوَ زُهْدُ الْعَارِفِينَ .
مُتَعَلِّقَاتُ الزُّهْدِ :

وَمُتَعَلِّقُهُ سِتَّةُ أَشْيَاءَ ، لَا يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ اسْمَ الزُّهْدِ حَتَّى يَزْهَدَ فِيهَا ،
وَهِيَ الْمَالُ ، وَالصُّورُ ، وَالرِّيَاسَةُ ، وَالنَّاسُ ، وَالنَّفْسُ ، وَكُلُّ مَا دُونُ اللَّهِ .
وَلَيْسَ الْمُرَادُ رَفْضُهَا مِنَ الْمُلْكِ ، فَقَدْ كَانَ سُلَيْمَانُ وَدَاوُدُ -عَلَيْهِمَا
السَّلَامُ- مِنْ أَزْهَدِ أَهْلِ زَمَانِهِمَا ، وَلَهُمَا مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ وَالنِّسَاءِ مَا لُهُمَا ،
وَكَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ أَزْهَدِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ،
وَلَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرُ
وَعُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مِنَ الزُّهَّادِ ، مَعَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ ،
وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مِنَ الزُّهَّادِ ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ

الْأُمَّةَ مُحِبَّةً لِلنِّسَاءِ وَنِكَاحًا لِهِنَّ، وَأَغْنَاهُمْ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الزُّهَّادِ، مَعَ مَالٍ كَثِيرٍ، وَكَذَلِكَ
الْلَيْثُ بْنُ سَعْدٍ مِنْ أَيْمَةِ الزُّهَّادِ، وَكَانَ لَهُ رَأْسُ مَالٍ يَقُولُ: لَوْلَا هُوَ
لَتَمَنَّدَلَ بَنَاهُ هَؤُلَاءِ.

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الزُّهْدِ، كَلَامُ الْحَسَنِ أَوْ غَيْرِهِ: لَيْسَ الزُّهْدُ فِي
الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنْ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ
أَوْثَقُ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِكَ، وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ - إِذَا أَصَبَتْ بِهَا -
أَرْغَبُ مِنْكَ فِيهَا لَوْ لَمْ تُصِيبْكَ، فَهَذَا مِنْ أَجْمَعَ كَلَامٍ فِي الزُّهْدِ وَأَحْسَنِهِ،
وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا ^(١).

فَالشُّبُهَاتُ بَرْزَخٌ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ :

فَالشُّبُهَاتُ بَرْزَخٌ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-
بَيْنَ كُلِّ مُتَبَايِنِينَ بَرْزَخًا، كَمَا جَعَلَ الْمَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ بَرْزَخًا بَيْنَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَجَعَلَ الْمَعَاصِيَ بَرْزَخًا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَجَعَلَ الْأَعْرَافَ
بَرْزَخًا بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَكَذَلِكَ جَعَلَ بَيْنَ كُلِّ مَشْعَرَيْنِ مِنْ مَشَاعِرِ الْمَنَاسِكِ بَرْزَخًا حَاجِزًا
بَيْنَهُمَا لَيْسَ مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، فَمُحَسَّرٌ بَرْزَخٌ بَيْنَ مِنَى وَمُزْدَلِفَةَ، لَيْسَ

(١) (ضَعِيفٌ جِدًّا): خَرَّجَهُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي «ضَعِيفِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٨٩٣).

مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَلَا يَبِيتُ بِهِ الْحَاجُّ لَيْلَةً جَمْعٌ، وَلَا لَيْالِي مَنَى، وَبَطْنُ عُرْنَةٍ
بَرْزَخُ بَيْنَ عَرَفَةٍ وَبَيْنَ الْحَرَمِ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَرَمِ وَلَا مِنَ عَرَفَةٍ، وَكَذَلِكَ
مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ بَرْزَخُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَيْسَ مِنَ
اللَّيْلِ، لِتَصَرُّمِهِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَلَا مِنَ النَّهَارِ لِأَنَّهُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ،
وَإِنْ دَخَلَ فِي اسْمِ الْيَوْمِ شَرْعًا.

وَكَذَلِكَ مَنَازِلُ السَّيْرِ بَيْنَ كُلِّ مَنَزَلَتَيْنِ بَرْزَخٌ يَعْرِفُهُ السَّائِرُ فِي تِلْكَ
الْمَنَازِلِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْوَارِدَاتِ تَكُونُ بَرَازِخَ، فَيُظَنُّهَا صَاحِبُهَا
غَايَةً، وَهَذَا لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهُ إِلَّا فَقَهَاءُ الطَّرِيقِ، وَالْعُلَمَاءُ هُمْ الْأَدَلَّةُ فِيهَا.

لَا تُشَارِكِ الْفُسَاقُ مَوَارِدَهُمْ :

الْفُسَاقُ يَزِدُّهُمْ عَلَى مَوَاضِعِ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَلِتِلْكَ الْمَوَاقِفِ بِهِمْ
كَظِيظٍ مِنَ الزَّحَامِ، فَالزَّاهِدُ يَأْنِفُ مِنْ مُشَارَكَتِهِمْ فِي تِلْكَ الْمَوَاقِفِ، وَيَرْفَعُ
نَفْسَهُ عَنْهَا، لِحَسَّةِ شُرَكَائِهِ فِيهَا، كَمَا قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: مَا الَّذِي زَهَّدَكَ فِي
الدُّنْيَا؟، قَالَ: قِلَّةُ وَفَائِهَا، وَكَثْرَةُ جَفَائِهَا، وَحَسَّةُ شُرَكَائِهَا.

إِذَا لَمْ أَتْرُكِ الْمَاءَ اتِّقَاءً تَرَكْتُ لِكَثْرَةِ الشُّرَكَاءِ فِيهِ
إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ عَلَى طَعَامٍ رَفَعْتُ يَدَيَّ وَنَفْسِي تَشْتَهِيهِ
وَتَجَنَّبُ الْأَسْوَدَ وَرُودَ مَاءٍ إِذَا كَانَ الْكِلَابُ يَلْغَنُ فِيهِ

حَقِيقَةُ الْوَرَعِ :

وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْوَرَعَ كُلَّهُ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ» ^(١)، فَهَذَا يَعُمُّ التَّركَ لِمَا لَا يَغْنِي مِنَ الْكَلَامِ، وَالنَّظَرِ، وَالِاسْتِمَاعِ، وَالْبَطْشِ، وَالْمَشْيِ، وَالْفِكْرِ، وَسَائِرِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ كَافِيَةٌ شَافِيَةٌ فِي الْوَرَعِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : الْوَرَعُ تَرْكُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَتَرْكُ مَا لَا يَغْنِيكَ هُوَ تَرْكُ الْفَضَلَاتِ ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا، تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ » ^(٢) .

حَالُ مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ :

فَإِنَّ مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَكَبُرَتْ عِنْدَهُ صَانَهَا وَحَمَاهَا، وَزَكَّاهَا وَعَلَّاهَا، وَوَضَعَهَا فِي أَعْلَى الْمَحَالِّ، وَزَاوَاهَا أَهْلَ الْعَزَائِمِ وَالْكَمَالَاتِ، وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَصَغُرَتْ عِنْدَهُ أَلْقَاهَا فِي الرِّذَائِلِ ، وَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا، وَحَلَّ زِمَامَهَا وَأَرْخَاهُ، وَدَسَّاهَا وَلَمْ يَصْنُهَا عَنْ قَبِيحٍ، فَأَقْلُ مَا فِي تَجَنُّبِ الْقَبَائِحِ: صَوْنُ النَّفْسِ.

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٣٩٧٦) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣٢١١) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٤٢١٧) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣٣٩٨) .

إِضْعَافُ الْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ :

الْإِيمَانُ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَقَدْ حَكَاهُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَإِضْعَافُ الْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالذَّوْقِ وَالْوُجُودِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ - : « إِذَا أَذْنَبَ نُكْتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ فَأَذْنَبَ نُكْتَ فِيهِ نُكْتَةٌ أُخْرَى ، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ ، وَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] ^(١) .

فَالْقَبَائِحُ تُسَوِّدُ الْقَلْبَ، وَتُطْفِئُ نُورَهُ، وَالْإِيمَانُ هُوَ نُورٌ فِي الْقَلْبِ، وَالْقَبَائِحُ تَذْهَبُ بِهِ أَوْ تُقَلِّلُهُ قِطْعًا، فَالْحَسَنَاتُ تَزِيدُ نُورَ الْقَلْبِ، وَالسَّيِّئَاتُ تُطْفِئُ نُورَ الْقَلْبِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّ كَسْبَ الْقُلُوبِ سَبَبٌ لِلرَّانِ الَّذِي يَعْلُوهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْكَسَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا كَسَبُوا، فَقَالَ: ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النساء: ٨٨]، وَأَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى عِبَادِهِ سَبَبٌ لِنَقْصِ الْقَلْبِ، فَقَالَ: ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣]، فَجَعَلَ ذَنْبَ

(١) (حَسَنٌ) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٤٢٤٤) وَحَسَنُهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣٤٢٢) .

النَّقْصُ مُوجِبًا لِهَذِهِ الْأَثَارِ مِنْ تَقْسِيَةِ الْقَلْبِ، وَاللَّعْنَةِ، وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ،
وَنَسْيَانِ الْعِلْمِ.

فَالْمَعَاصِي لِلْإِيْمَانِ كَالْمَرَضِ وَالْحُمَّى لِلْقُوَّةِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ ، وَلِذَلِكَ
قَالَ السَّلَفُ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْحُمَّى بَرِيدُ الْمَوْتِ. فَإِيْمَانُ
صَاحِبِ الْقَبَائِحِ كَقُوَّةِ الْمَرِيضِ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْمَرَضِ وَضَعْفِهِ.

مَعْرِفَةُ حُدُودِ اللَّهِ :

فَالْحُدُودُ هِيَ النِّهَايَاتُ ، وَهِيَ مَقَاطِعُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فَحَيْثُ
يَنْقَطِعُ وَيَنْتَهِي ، فَذَلِكَ حَدُّهُ ، فَمَنْ اقْتَحَمَهُ وَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ ، وَقَدْ نَهَى
اللَّهُ تَعَالَى عَنْ تَعَدِّي حُدُودِهِ وَقُرْبَانِهِ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ، فَإِنَّ
الْحُدُودَ يُرَادُ بِهَا أَوَاخِرُ الْحَلَالِ ، وَحَيْثُ نَهَى عَنِ الْقُرْبَانِ فَالْحُدُودُ
هُنَاكَ: أَوَائِلُ الْحَرَامِ.

يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « لَا تَتَعَدُّوا مَا أَبَحْتُ لَكُمْ، وَلَا تَقْرُبُوا مَا
حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ » .

فَالْوَرَعُ يُخَلِّصُ الْعَبْدَ مِنْ قُرْبَانِ هَذِهِ وَتَعَدِّي هَذِهِ ، وَهُوَ اقْتِحَامُ
الْحُدُودِ.

عَلَامَةُ قُبُولِ الْعَمَلِ :

عَلَامَةُ رَضَى اللهُ عَنْكَ : إِعْرَاضُكَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَعَلَامَةُ قُبُولِ عَمَلِكَ احْتِقَارُهُ وَاسْتِقْلَالُهُ ، وَصِغَرُهُ فِي قَلْبِكَ ، حَتَّى إِنَّ الْعَارِفَ لَيَسْتَغْفِرُ اللهُ عُقَيْبَ طَاعَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ اللهُ ثَلَاثًا » (١) .

وَأَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِالْإِسْتِغْفَارِ عُقَيْبِ الْحَجِّ ، وَمَدَحَهُمْ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ عُقَيْبَ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَشَرَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عُقَيْبَ الطُّهُورِ التَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ (٢) .

فَمَنْ شَهِدَ وَاجِبَ رَبِّهِ وَمِقْدَارَ عَمَلِهِ ، وَعَيْبَ نَفْسِهِ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ اسْتِغْفَارِ رَبِّهِ مِنْهُ ، وَاحْتِقَارِهِ إِيَّاهُ وَاسْتِصْغَارِهِ .

تَعْرِيفُ الْمُرَاقَبَةِ :

وَالْمُرَاقَبَةُ هِيَ التَّعَبُّدُ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ ، الْحَفِيزِ ، الْعَلِيمِ ، السَّمِيعِ ، الْبَصِيرِ ، فَمَنْ عَقَلَ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ ، وَتَعَبَّدَ بِمُقْتَضَاهَا : حَصَلَتْ لَهُ الْمُرَاقَبَةُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٥٩١) ، وَأَبُو دَاوُدَ (١٥١٣) .

(٢) إِشَارَةٌ إِلَى حَدِيثِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « مَنْ تَوَضَّأَ ... » رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي « عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » ، (ص ٨١ - ٨٣) ، وَالْحَاكِمُ (١/ ٥٦٤) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي « صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ » (٦١٧٢) .

حلاوة الإيمان :

سُرُورُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ وَفَرَحُهُ بِهِ ، وَقَرَّةُ الْعَيْنِ بِهِ ، لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ ، وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ يُقَاسُ بِهِ ، وَهُوَ حَالٌ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا : إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا ، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا السُّرُورَ يَبْعَثُهُ عَلَى دَوَامِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ ، وَبَذْلِ الْجُهِدِ فِي طَلَبِهِ ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَذَا السُّرُورَ ، وَلَا شَيْئًا مِنْهُ ، فَلَيْتَهُمْ إِيْمَانُهُ وَأَعْمَالُهُ ، فَإِنَّ لِلْإِيْمَانِ حَلَاوَةً ، مَنْ لَمْ يَذُقْهَا فَلْيَرْجَعْ ، وَلْيَقْتَبِسْ نُورًا يَجِدُ بِهِ حَلَاوَةَ الْإِيْمَانِ .

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَوْقَ طَعْمِ الْإِيْمَانِ وَوَجَدَ حَلَاوَتَهُ ، فَذَكَرَ الذَّوْقَ وَالْوَجْدَ ، وَعَلَّقَهُ بِالْإِيْمَانِ ، فَقَالَ : « ذَاقَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا » (١) .

وَقَالَ : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيْمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ - بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ - كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ » (٢) .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ : إِذَا لَمْ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣٤) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٦-٢١) ، وَمُسْلِمٌ (٤٣) .

تَجِدُ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِكَ وَانْشِرَاحًا، فَاتَّهَمُهُ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى شَكُورٌ،
يَعْنِي أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَثِيبَ الْعَامِلَ عَلَى عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَلَاوَةٍ يَجِدُهَا
فِي قَلْبِهِ، وَقُوَّةٍ انْشِرَاحٍ وَقُرَّةٍ عَيْنٍ، فَحَيْثُ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَعَمَلُهُ مَدْخُولٌ.

الْحُرْمَاتُ الَّتِي يَجِبُ تَعْظِيمُهَا :

وَالصَّوَابُ: أَنَّ الْحُرْمَاتِ تَعُمُّ هَذَا كُلَّهُ، وَهِيَ جَمْعُ حُرْمَةٍ وَهِيَ مَا يَجِبُ
احْتِرَامُهُ، وَحِفْظُهُ مِنَ الْحُقُوقِ، وَالْأَشْخَاصِ، وَالْأَزْمِنَةِ، وَالْأَمَاكِنِ،
فَتَعْظِيمُهَا تَوْفِيقُهَا حَقَّهَا، وَحِفْظُهَا مِنَ الْإِضَاعَةِ.

نَعِيمُ الْجَنَّةِ :

الْجَنَّةُ لَيْسَتْ اسْمًا لِمَجَرَّدِ الْأَشْجَارِ وَالْفَوَاكِهِ، وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ،
وَالْحُورِ الْعِينِ، وَالْأَنْهَارِ وَالْقُصُورِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَغْلُطُونَ فِي مُسَمَّيِ
الْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ اسْمٌ لِدَارِ النَّعِيمِ الْمُنْتَلَقِ الْكَامِلِ، وَمِنْ أَعْظَمِ نَعِيمِ
الْجَنَّةِ التَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ، وَقُرَّةُ الْعَيْنِ
بِالْقُرْبِ مِنْهُ وَبِرِضْوَانِهِ، فَلَا نِسْبَةَ لِلذَّةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ
وَالْمَلْبُوسِ وَالصُّورِ، إِلَى هَذِهِ اللَّذَّةِ أَبَدًا، فَأَيُّسِرُ يَسِيرٍ مِنْ رِضْوَانِهِ أَكْبَرُ
مِنَ الْجَنَانِ وَمَا فِيهَا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
أَكْبَرُ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٢]، وَأَتَى بِهِ مُنْكَرًا فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ؛ أَيُّ: أَيُّ
شَيْءٍ كَانَ مِنْ رِضَاهُ عَنْ عَبْدِهِ: فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ.

قَلِيلٌ مِنْكَ يُقْنِعْنِي وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ - حَدِيثِ الرَّؤْيَةِ - « فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ » ^(١) ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ « أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ ، وَرَأَوْا وَجْهَهُ عَيْنَانَا نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ ، وَذَهَلُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ » ^(٢) ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ هَكَذَا ، وَهُوَ أَجَلٌ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْبَالِ ، أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ فَوْزِ الْمُحِبِّينَ هُنَاكَ بِمَعِيَةِ الْمَحَبِّ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَلَا تَخْصِيصَ فِي هَذَا الْحُكْمِ ، بَلْ هُوَ ثَابِتٌ شَاهِدًا وَغَائِبًا .

فَأَيُّ نِعَمٍ ، وَأَيُّ لَذَّةٍ ، وَأَيُّ قُرَّةِ عَيْنٍ ، وَأَيُّ فَوْزٍ يُدَانِي نِعِيمَ تِلْكَ الْمَعِيَةِ وَلَذَّتِهَا ، وَقُرَّةِ الْعَيْنِ بِهَا ؟ .

تَعْرِيفُ الْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ :

الْإِخْلَاصُ هُوَ : التَّوَقُّيُّ مِنْ مُمْلَا حَظَّةِ الْخَلْقِ حَتَّى عَنْ نَفْسِكَ ، وَالصِّدْقُ التَّنَقُّيُّ مِنْ مُطَالَعَةِ النَّفْسِ ، فَالْمُخْلِصُ لَا رِيَاءَ لَهُ ، وَالصَّادِقُ لَا إِعْجَابَ لَهُ ، وَلَا يَتِمُّ الْإِخْلَاصُ إِلَّا بِالصِّدْقِ ، وَلَا الصِّدْقُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ ، وَلَا يَتِمَّانِ إِلَّا بِالصَّبْرِ .

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٠) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ .

(٢) (ضَعِيفٌ) : ضَعْفُهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «ضَعِيفِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣٣) .

الإِخْلَاصُ أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا :

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ : أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا : الإِخْلَاصُ ، وَكَمْ أَجْتَهَدُ فِي إِسْقَاطِ الرِّيَاءِ عَنْ قَلْبِي ، فَكَأَنَّهُ يَنْبُتُ عَلَى لَوْنٍ آخَرَ .

الإِخْلَاصُ سَبَبٌ لِانْقِطَاعِ الْوَسَاوِسِ :

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ : إِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ كَثْرَةُ الْوَسَاوِسِ وَالرِّيَاءِ .

الْإِنْسَانُ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ :

النَّفْسُ جَاهِلَةٌ ظَالِمَةٌ ، طَبَعُهَا الْكَسَلُ ، وَإِثَارُ الشَّهَوَاتِ وَالْبَطَالَةِ ، وَهِيَ مَنبَعُ كُلِّ شَرٍّ ، وَمَأْوَى كُلِّ سُوءٍ ، وَمَا كَانَ هَكَذَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ خَيْرٌ ، وَلَا هُوَ مِنْ شَأْنِهِ .

فَالْخَيْرُ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ وَبِهِ ، لَا مِنَ الْعَبْدِ ، وَلَا بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور : ٢١] ، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ٧] .

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْعَبْدِ فَهُوَ مُجَرَّدُ فَضْلِ اللَّهِ وَمِثَّتِهِ ، وَإِحْسَانِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَهُوَ الْمُحْمُودُ عَلَيْهِ ، فَرُؤْيَةُ الْعَبْدِ لِأَعْمَالِهِ فِي الْحَقِيقَةِ ، كَرُؤْيَتِهِ لَصِفَاتِهِ الْخَلْقِيَّةِ : مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ ، وَإِدْرَاكِهِ وَقُوَّتِهِ ، بَلْ مِنْ صِحَّتِهِ ، وَسَلَامَةِ أَعْضَائِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَالْكُلُّ مُجَرَّدُ عَطَاءِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ .

آفَةُ الْعَبْدِ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِهِ :

قَالَ بَعْضُهُمْ : آفَةُ الْعَبْدِ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ بِاسْتِحْسَانٍ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَهْلَكَهَا ، وَمَنْ لَمْ يَتَّهَمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ فَهُوَ مَعْرُورٌ .

تَعْرِيفُ الْإِسْتِقَامَةِ :

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : الْإِسْتِقَامَةُ : أَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا تَرُوغَ رَوَّغَانَ الثَّعَالِبِ .

حَقِيقَةُ الْإِسْتِقَامَةِ :

فَالِإِسْتِقَامَةُ كَلِمَةُ جَامِعَةٌ ، آخِذَةٌ بِمَجَامِعِ الدِّينِ ، وَهِيَ الْقِيَامُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَلَى حَقِيقَةِ الصِّدْقِ ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ .

وَالِإِسْتِقَامَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْأَقْوَالِ ، وَالْأَفْعَالِ ، وَالْأَحْوَالِ ، وَالنِّيَّاتِ ، فَالِإِسْتِقَامَةُ فِيهَا : وَقُوعُهَا لِلَّهِ ، وَبِاللَّهِ ، وَعَلَى أَمْرِ اللَّهِ .

قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : كُنْ صَاحِبَ الْإِسْتِقَامَةِ ، لَا طَالِبَ الْكِرَامَةِ ،
فَإِنَّ نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الْكِرَامَةِ ، وَرَبُّكَ يُطَالِبُكَ بِالْإِسْتِقَامَةِ .
وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ تَعَالَى رَوْحَهُ - يَقُولُ :
أَعْظَمُ الْكِرَامَةِ لُزُومُ الْإِسْتِقَامَةِ .

مَنْزِلَةُ الصَّبْرِ :

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - :

الصَّبْرُ فِي الْقُرْآنِ فِي نَحْوِ تِسْعِينَ مَوْضِعًا ، وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ ،
وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ .

فَإِنَّ الْإِيمَانَ نِصْفَانِ : نِصْفُ صَبْرٍ ، وَنِصْفُ شُكْرٍ ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي
الْقُرْآنِ عَلَى سِتَّةِ عَشَرَ نَوْعًا .

الْأَوَّلُ : الْأَمْرُ بِهِ ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٣٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾
[البقرة: ٤٥] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ٢٠٠] ، وَقَوْلُهُ :
﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

الثَّانِي : النَّهْيُ عَنْ ضِدِّهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْسِ مِنَ
الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَوَلَّوْهُمْ

الْأَذْبَارَ ﴿ [الأنفال: ١٥] ، فَإِنَّ تَوَلِيَةَ الْأَذْبَارِ : تَرْكُ لِلصَّبْرِ وَالْمَصَابِرَةِ ،
وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا بُطْلُؤًا أَعْمَلَكُمْ ﴾ [مُحَمَّد: ٣٣] ، فَإِنَّ إِبْطَاهَا تَرْكُ الصَّبْرِ
عَلَى إِمْتَامِهَا ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَهْنُؤُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [البقرة: ١٣٩] ، فَإِنَّ
الْوَهْنَ مِنْ عَدَمِ الصَّبْرِ .

الثَّالِثُ : الثَّنَاءُ عَلَى أَهْلِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾
[آلِ عِمْرَانَ: ١٧] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وَهُوَ
كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ .

الرَّابِعُ : إِيجَابُهُ سُبْحَانَهُ مَحَبَّتُهُ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٤٦] .

الخَامِسُ : إِيجَابُ مَعِيَّتِهِ لَهُمْ ، وَهِيَ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ ، تَتَضَمَّنُ حِفْظَهُمْ
وَنَصْرَهُمْ ، وَتَأْيِيدَهُمْ ، لَيْسَتْ مَعِيَّةً عَامَّةً ، وَهِيَ مَعِيَّةُ الْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ .
كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، وَقَوْلِهِ :
﴿ يَا ذُنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

السَّادِسُ : إِخْبَارُهُ بِأَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لِأَصْحَابِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَئِنْ
صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْ
تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٥] .

السابع : إِيحَابُ الْجَزَاءِ لَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

الثامن : إِيحَابُهُ سُبْحَانَهُ الْجَزَاءِ لَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

التاسع : إِطْلَاقُ الْبُشْرَى لِأَهْلِ الصَّبْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

العاشر : ضَمَانُ النَّصْرِ وَالْمَدَدِ لَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ» (١) .

الحادي عشر : الْإِخْبَارُ مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّ أَهْلَ الصَّبْرِ هُمُ أَهْلُ الْعَزَائِمِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

الثاني عشر : الْإِخْبَارُ أَنَّهُ مَا يَلْقَى الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةَ وَجَزَاءَهَا وَالْحُظُوظَ الْعَظِيمَةَ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ ﴾ (١) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الْمَشْهُور : «يَا غُلَامُ : إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ ... » ، وَهُوَ صَحِيحٌ ، صَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ بِرَقْمِ (١٨٠٤) .

اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ [الْقَصَصُ: ٨٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) ﴿فُصِّلَتْ: ٣٥﴾.

الثالث عشر: الإخبارُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ أَهْلُ الصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥) ﴿إِبْرَاهِيمَ: ٥﴾، وَقَوْلِهِ فِي أَهْلِ سَبَا: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٩) ﴿سَبَأَ: ١٩﴾، وَقَوْلِهِ: فِي سُورَةِ الشُّورَى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣) ﴿الشُّورَى: ٣٢-٣٣﴾.

الرابع عشر: الإخبارُ بِأَنَّ الْفَوْزَ الْمَطْلُوبَ الْمُحْبُوبَ، وَالنَّجَاةَ مِنَ الْمَكْرُوهِ الْمَرْهُوبِ، وَدُخُولَ الْجَنَّةِ، إِنَّمَا نَالُوهُ بِالصَّبْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤) ﴿الرَّعْدُ: ٢٣-٢٤﴾.

الخامس عشر: أَنَّهُ يُورِثُ صَاحِبُهُ دَرَجَةَ الْإِمَامَةِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ

الإمامة في الدين ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السَّجْدَةُ : ٢٤] .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان ، والتَّقْوَى والتَّوَكُّلِ ، وبالشُّكْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالرَّحْمَةِ .

ولهذا كَانَ الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَلَا إِيْمَانُ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا جَسَدَ لِمَنْ لَا رَأْسَ لَهُ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : خَيْرُ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بِالصَّبْرِ ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ ضِيَاءٌ ، وَقَالَ : « مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ » ^(١) .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » ^(٢) .

وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُضْرَعُ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَدْعُوَهَا : « إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِكَ » ، فَقَالَتْ :

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٦٩) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٥٣) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ : « مَا يَكُونُ عِنْدِي ... » .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٩٩) ، وَأَحْمَدُ (٣٣٢/٤) .

إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ ، فَدَعَا لَهَا ^(١) .

وَأَمَرَ الْأَنْصَارَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ - بِأَنْ يَصْبِرُوا عَلَى الْأَثَرَةِ الَّتِي يَلْقَوْنَهَا بَعْدَهُ ، حَتَّى يَلْقَوْهُ عَلَى الْحَوْضِ .

وَأَمَرَ عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ بِالصَّبْرِ ، وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ « عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى » ^(٢) .

وَأَمَرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمُصَابَ بِأَنْفَعِ الْأُمُورِ لَهُ ، وَهُوَ « الصَّبْرُ وَالْإِحْتِسَابُ » ^(٣) ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ مُصِيبَتَهُ ، وَيُوفِّرُ أَجْرَهُ ، وَالْجَزَعُ وَالتَّسَخُّطُ وَالتَّشَكِّيُّ يَزِيدُ فِي الْمُصِيبَةِ ، وَيَذْهَبُ الْأَجْرُ .

وَأَخْبَرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ كُلُّهُ ، فَقَالَ : « مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا لَهُ وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » ^(٤) .

صَبْرُ يُوسُفَ :

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ : كَانَ صَبْرُ يُوسُفَ عَنْ مُطَاوَعَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ عَلَى شَأْنِهَا : أَكْمَلُ مِنْ صَبْرِهِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٥٢) ، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧٦) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٨٣) ، وَمُسْلِمٌ (٩٢٦) .

(٣) (صَحِيحٌ) وَهُوَ حَدِيثُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِابْنَتِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : « ... فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » وَهُوَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (١٢٨٤) ، وَمُسْلِمٌ (٩٢٣) .

(٤) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الْمَشْهُورِ : « يَا غُلَامُ : إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ ... » ، وَهُوَ صَحِيحٌ ، صَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ بِرَقْمٍ (١٨٠٤) .

عَلَى إلقاءِ إخوته له في الحبِّ ، وبيعِهِ وتَفْرِيقِهِم بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ
أُمُورَ جَرَتْ عَلَيْهِ بَغَيْرِ اخْتِيَارِهِ ، لَا كَسْبَ لَهُ فِيهَا ، لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهَا
حِيلَةٌ غَيْرَ الصَّبْرِ ، وَأَمَّا صَبْرُهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ : فَصَبْرُ اخْتِيَارٍ وَرِضًا وَمُحَارَبَةً
لِلنَّفْسِ ، وَلَا سِيَّامَا مَعَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَقْوِي مَعَهَا دَوَاعِي الْمُوَافَقَةِ ، فَإِنَّهُ
كَانَ شَابًّا ، وَدَاعِيَةُ الشَّبَابِ إِلَيْهَا قَوِيَّةٌ ، وَعَزَبًا لَيْسَ لَهُ مَا يُعَوِّضُهُ وَيُرُدُّ
شَهْوَتَهُ ، وَغَرِيبًا ، وَالْغَرِيبُ لَا يَسْتَحْيِي فِي بَلَدٍ غُرْبَتَهُ مِمَّا يَسْتَحْيِي مِنْهُ مَنْ
بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَمَعَارِفِهِ وَأَهْلِهِ ، وَمَمْلُوكًا ، وَالْمَمْلُوكُ أَيْضًا لَيْسَ وَارِعُهُ
كَوَارِيعِ الْحُرِّ ، وَالْمَرْأَةُ جَمِيلَةٌ ، وَذَاتُ مَنْصَبٍ ، وَهِيَ سَيِّدَتُهُ ، وَقَدْ غَابَ
الرَّقِيبُ ، وَهِيَ الدَّاعِيَةُ لَهُ إِلَى نَفْسِهَا ، وَالْحَرِيسَةُ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَرِصِ
، وَمَعَ ذَلِكَ تَوَعَّدَتْهُ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِالسَّجْنِ وَالصَّغَارِ ، وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي
كُلُّهَا صَبَرَ اخْتِيَارًا ، وَإِثَارًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ صَبْرِهِ فِي الْحُبِّ
عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ كَسْبِهِ ؟ .

أنواع الصَّبْرِ :

وَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ : صَبْرٌ بِاللَّهِ ، وَصَبْرٌ لِلَّهِ ، وَصَبْرٌ مَعَ اللَّهِ .

فَالْأَوَّلُ : صَبْرُ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِ : وَرُؤْيَاهُ أَنَّهُ هُوَ الْمَصْبِرُّ ، وَأَنَّ صَبْرَ الْعَبْدِ
بِرَبِّهِ لَا بِنَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾
[النحل : ١٢٧] ، يَعْنِي إِنْ لَمْ يُصْبِرْكَ هُوَ لَمْ تَصْبِرْ .

وَالثَّانِي: الصَّبْرُ لِلَّهِ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْبَاعِثُ لَهُ عَلَى الصَّبْرِ مَحَبَّةَ اللَّهِ ، وَإِرَادَةَ وَجْهِهِ ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ ، لَا لِإِظْهَارِهِ قُوَّةَ النَّفْسِ ، وَالِاسْتِحْمَادَ إِلَى الْخَلْقِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْرَاضِ .

وَالثَّلَاثُ: الصَّبْرُ مَعَ اللَّهِ : وَهُوَ دَوْرَانُ الْعَبْدِ مَعَ مُرَادِ اللَّهِ الدِّينِيِّ مِنْهُ ، وَمَعَ أَحْكَامِهِ الدِّينِيَّةِ ، صَابِرًا نَفْسَهُ مَعَهَا ، سَائِرًا بَسِيرَهَا ، مُقِيمًا بِإِقَامَتِهَا ، يَتَوَجَّهَ مَعَهَا أَيْنَ تَوَجَّهَتْ رَكَائِبُهَا ، وَيَنْزِلُ مَعَهَا أَيْنَ اسْتَقَلَّتْ مَضَارِبُهَا .

فَهَذَا مَعْنَى كَوْنِهِ صَابِرًا مَعَ اللَّهِ ؛ أَيْ قَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ وَقْفًا عَلَى أَوَامِرِهِ وَمَحَابِبِهِ ، وَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ وَأَصْعَبُهَا ، وَهُوَ صَبْرُ الصَّدِيقِينَ .

النَّعِيمُ لَا يُدْرِكُ بِالنَّعِيمِ :

وَأَجْمَعَ عُقْلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرِكُ بِالنَّعِيمِ ، وَأَنَّ مَنْ رَافَقَ الرَّاحَةَ فَارَقَ الرَّاحَةَ ، وَحَصَلَ عَلَى الْمَشَقَّةِ وَقْتَ الرَّاحَةِ فِي دَارِ الرَّاحَةِ ، فَإِنَّ قَدْرَ التَّعَبِ تَكُونُ الرَّاحَةُ .

الرِّضَى نِهَآيَةُ التَّوَكُّلِ :

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا » ^(١) .

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣٤) .

وَقَالَ: مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: « رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ » (١) .

وَهَذَانِ الْحَدِيثَانِ عَلَيْنِهَا مَدَارُ مَقَامَاتِ الدِّينِ ، وَإِلَيْهِمَا يَنْتَهِي ، وَقَدْ تَضَمَّنَا الرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَالْوَهِيَّتِ ، وَالرِّضَا بِرَسُولِهِ ، وَالْإِنْقِيَادَ لَهُ ، وَالرِّضَا بِدِينِهِ ، وَالتَّسْلِيمَ لَهُ ، وَمَنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ: فَهُوَ الصَّدِيقُ حَقًّا ، وَهِيَ سَهْلَةٌ بِالذَّعْوَى وَاللِّسَانِ ، وَهِيَ مِنْ أَضْعَبِ الْأُمُورِ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ وَالْإِمْتِحَانِ ، وَلَا سِيَّأَ إِذَا جَاءَ مَا يُخَالِفُ هَوَى النَّفْسِ وَمُرَادَهَا ، مِنْ ذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ الرِّضَا كَانَ لِسَانَهُ بِهِ نَاطِقًا ، فَهُوَ عَلَى لِسَانِهِ لَا عَلَى حَالِهِ .

الْمُتَوَكِّلُ لَا يَسْتَوْحِشُ مِنَ الْغُرْبَةِ :

فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَوْحِشَ مِنَ الْإِغْتِرَابِ وَالتَّفَرُّدِ ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ عَيْنُ الْعِزَّةِ ، وَالصُّحْبَةِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَرُوحُ الْأَنْسِ بِهِ ، وَالرِّضَا بِهِ رَبًّا ، وَبِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَسُولًا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا .

حَلَاوَةُ الْغُرْبَةِ :

بَلِ الصَّادِقُ كُلَّمَا وَجَدَ مَسَّ الْإِغْتِرَابِ ، وَذَاقَ حَلَاوَتَهُ ، وَتَنَسَّمَ رُوحَهُ ، قَالَ: اللَّهُمَّ زِدْنِي إِغْتِرَابًا ، وَوَحْشَةً مِنَ الْعَالَمِ ، وَأُنْسًا بِكَ ،

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣٨٦) وَأَبُو دَاوُدَ (٥٢٥) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٧٢١) .

وَكَلَّمَا ذَاقَ حَلَاوَةَ هَذَا الْاِغْتِرَابِ، وَهَذَا التَّفَرُّدِ: رَأَى الْوَحْشَةَ عَيْنَ
الْأُنْسِ بِالنَّاسِ، وَالذُّلَّ عَيْنَ الْعِزِّ بِهِمْ، وَالْجَهْلَ عَيْنَ الْوُقُوفِ مَعَ آرَائِهِمْ
وَزُبَالَةَ أَذْهَانِهِمْ، وَالْاِنْقِطَاعَ عَيْنَ التَّقَيُّدِ بِرُسُومِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ، فَلَمْ
يُؤْثَرْ بِنَصِيْبِهِ مِنَ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَبِعْ حَظَّهُ مِنَ اللَّهِ بِمُوَافَقَتِهِمْ
فِيهِ لَا يُجْدِي عَلَيْهِ إِلَّا الْحَرَمَانُ.

وَعَايَتُهُ: مَوَدَّةٌ بَيْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِذَا انْقَطَعَتِ الْأَسْبَابُ، وَحَقَّتِ
الْحَقَائِقُ، وَبُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، وَبَلِيَتْ السَّرَائِرُ،
وَلَمْ يَجِدْ مِنْ دُونِ مَوْلَاهُ الْحَقِّ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ: تَبَيَّنَ لَهُ حِينَئِذٍ مَوَاقِعُ
الرَّبِّحِ وَالْخُسْرَانِ، وَمَا الَّذِي يَخْفُ أَوْ يَرْجَحُ بِهِ الْمِيزَانُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ،
وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

مَقَامُ الْعُرْبَةِ :

قِيلَ لِيَحْيَىٰ بَنَ مُعَاذٍ: مَتَىٰ يَبْلُغُ الْعَبْدُ إِلَىٰ مَقَامِ الرِّضَا؟ ، فَقَالَ: إِذَا
أَقَامَ نَفْسَهُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَصُولٍ فِيمَا يُعَامِلُ بِهِ رَبَّهُ ، فَيَقُولُ: إِنَّ أَعْطَيْتَنِي
قَبْلْتُ، وَإِنْ مَنَعْتَنِي رَضِيتُ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي عَبْدْتُ، وَإِنْ دَعَوْتَنِي أَجَبْتُ.

ثَمَرَةُ الرِّضَى :

فَطَرِيقُ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ: تُسِيرُ الْعَبْدُ وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، فَيُضْبِحُ
أَمَامَ الرِّكْبِ بِمَرَّاحِلَ.

وثمرَةُ الرِّضَا؛ الْفَرْحُ وَالسُّرُورُ بِالرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَرَأَيْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - فِي الْمَنَامِ، وَكَأَنِّي ذَكَرْتُ لَهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ، وَأَخَذْتُ فِي تَعْظِيمِهِ وَمَنْفَعَتِهِ - لَا أَذْكُرُهُ الْآنَ - فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَطَرِيقَتِي: الْفَرْحُ بِاللَّهِ، وَالسُّرُورُ بِهِ، أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَةِ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ فِي الْحَيَاةِ، يَبْدُو ذَلِكَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَيُنَادِي بِهِ عَلَيْهِ حَالُهُ.

حَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ :

وَلَمَّا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ التَّامَّةُ مَيْلَ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ: كَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ حَامِلًا عَلَى طَاعَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْمَيْلُ أَقْوَى: كَانَتْ الطَّاعَةُ أَتَمَّ، وَالتَّعْظِيمُ أَوْفَرَ، وَهَذَا الْمَيْلُ يُلَازِمُ الْإِيمَانَ، بَلْ هُوَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَكُلُّهُ، فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَعْلَى مِنْ أَمْرٍ يَتَضَمَّنُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْعَبْدِ، وَأَوَّلَى الْأَشْيَاءِ بِالتَّعْظِيمِ، وَأَحَقَّ الْأَشْيَاءِ بِالطَّاعَةِ؟.

وَبِهَذَا يَجِدُ الْعَبْدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ - بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ - كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ » (١).

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٦-٢١)، وَمُسْلِمٌ (٤٣) .

فَعَلَقَ ذَوْقَ الْإِيمَانِ بِالرِّضَا بِاللَّهِ رَبًّا ، وَعَلَقَ وُجُودَ حَلَاوَتِهِ بِمَا هُوَ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ ، وَهُوَ كَوْنُهُ سُبْحَانَهُ أَحَبُّ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْعَبْدِ هُوَ وَرَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْحُبُّ التَّامُّ ، وَالْإِخْلَاصُ - الَّذِي هُوَ ثَمَرَتُهُ - أَعْلَى مِنْ مُجَرَّدِ الرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ: كَانَتْ ثَمَرَتُهُ أَعْلَى ، وَهُوَ وَجْدٌ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ .

وَتَمَرَةُ الرِّضَا: ذَوْقُ طَعْمِ الْإِيمَانِ ، فَهَذَا وَجْدٌ حَلَاوَةٍ ، وَذَلِكَ ذَوْقُ طَعْمٍ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

مَنْزِلَةُ الرِّضَى :

الرِّضَى مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ ، نَظِيرُ الْجِهَادِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذُرْوَةٌ سَنَامِ الْإِيمَانِ ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ذُرْوَةٌ سَنَامِ الْإِيمَانِ: الصَّبْرُ لِلْحُكْمِ ، وَالرِّضَا بِالْقَدَرِ .

عَدَمُ الرِّضَى أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهَا :

أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ : إِنَّمَا نَشَأَتْ مِنْ عَدَمِ الرِّضَى ، فِإِبْلِيسُ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ اللَّهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ كَوْنًا ، مِنْ تَفْضِيلِ آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ ، وَلَا بِحُكْمِهِ الدِّينِيِّ ، مِنْ أَمْرِهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ، وَآدَمُ لَمْ يَرْضَ بِمَا أُبِيحَ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، حَتَّى ضَمَّ إِلَيْهِ الْأَكْلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحُمَى ،

ثُمَّ تَرَبَّتْ مَعَاصِي الذَّرِيَّةِ عَلَى عَدَمِ الصَّبْرِ وَعَدَمِ الرِّضَا .

مَنْعُ اللَّهِ إِيَّاكَ عَطَاءً :

مَنْعُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الْمُحِبِّ عَطَاءً ، وَابْتِلَاءَهُ إِيَّاهُ عَافِيَةً ، قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : مَنْعُهُ عَطَاءً ، وَذَلِكَ : أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ عَنْ بُخْلٍ وَلَا عَدَمٍ ، وَإِنَّمَا نَظَرَ فِي خَيْرِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَمَنْعَهُ اخْتِيَارًا وَحُسْنَ نَظَرٍ .

رِضَا اللَّهِ عَنِ الْعَبْدِ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا :

رِضَا اللَّهِ عَنِ الْعَبْدِ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا ، لِأَنَّ الرِّضَا صِفَةُ اللَّهِ وَالْجَنَّةُ خَلْقُهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٧٢] .

وَهَذَا الرِّضَا جَزَاءٌ عَلَى رِضَاهُمْ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْجَزَاءُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ ، كَانَ سَبَبُهُ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ .

عَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ :

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

عَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ : كَثْرَةُ ذِكْرِهِ ، فَإِنَّكَ لَا تَحِبُّ شَيْئًا إِلَّا أَكْثَرْتَ مِنْ ذِكْرِهِ .

وَعَلَامَةُ الدِّينِ : الإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ .

وَعَلَامَةُ الشُّكْرِ : الرِّضَا بِقَدْرِ اللَّهِ وَالتَّسْلِيمُ لِقَضَائِهِ .

الصُّوفِيَّةُ يَعْبُدُونَ أَنْفُسَهُمْ :

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَحْكِي عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ أَنَّهُ قَالَ: النَّاسُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَالصُّوفِيَّةُ يَعْبُدُونَ أَنْفُسَهُمْ.

أَرَادَ هَذَا الْمَعْنَى الْمُتَقَدِّمَ ، وَأَنَّهُمْ وَاقِفُونَ مَعَ مُرَادِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، لَا مَعَ مُرَادِ اللَّهِ مِنْهُمْ ، وَهَذَا عَيْنُ عِبَادَةِ النَّفْسِ ، فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّيْبُ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ ، فَإِنَّهُ مُحْكٌ وَمِيزَانٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

عَلَامَةُ الشَّقْوَةِ :

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ: خُمْسٌ مِنْ عِلَامَاتِ الشَّقْوَةِ: الْقِسْوَةُ فِي الْقَلْبِ، وَجُمُودُ الْعَيْنِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، وَطُولُ الْأَمَلِ.

حَيَاءُ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ تَعَالَى - مِنْ عَبْدِهِ :

وَأَمَّا حَيَاءُ الرَّبِّ تَعَالَى مِنْ عَبْدِهِ: فَذَاكَ نَوْعٌ آخَرٌ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَفْهَامُ، وَلَا تَكْيُفُهُ الْعُقُولُ، فَإِنَّهُ حَيَاءُ كَرَمٍ وَبِرٍّ وَجُودٍ وَجَلَالٍ، «فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا» (١) ،

(١) جَاءَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٤٨٨) ، صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١٣٢٠) .

وَيَسْتَحْيِي أَنْ يُعَذَّبَ ذَا شَيْبَةٍ شَابَتْ فِي الْإِسْلَامِ ^(١).

أَقْسَامُ الْحَيَاءِ :

وَقَدْ قَسَمَ الْحَيَاءُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ: حَيَاءُ جَنَائَةٍ ، وَحَيَاءُ تَقْصِيرٍ ، وَحَيَاءُ إِجْلَالٍ ، وَحَيَاءُ كَرَمٍ ، وَحَيَاءُ حُشْمَةٍ ، وَحَيَاءُ اسْتِصْغَارٍ لِلنَّفْسِ وَاحْتِقَارٍ لَهَا ، وَحَيَاءُ مَحَبَّةٍ ، وَحَيَاءُ عُبودِيَّةٍ ، وَحَيَاءُ شَرَفٍ وَعِزَّةٍ ، وَحَيَاءُ الْمُسْتَحْيِي مِنْ نَفْسِهِ.

فَأَمَّا حَيَاءُ الْجَنَائَةِ: فَمِنْهُ حَيَاءُ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا فَرَّ هَارِبًا فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَفْرَارًا مِنِّي يَا آدَمُ؟ ، قَالَ: لَا يَا رَبِّ ، بَلْ حَيَاءٌ مِنْكَ.

وَحَيَاءُ التَّقْصِيرِ: كَحَيَاءِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا: سُبْحَانَكَ ! مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

وَحَيَاءُ الْإِجْلَالِ: هُوَ حَيَاءُ الْمَعْرِفَةِ ، وَعَلَى حَسَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ يَكُونُ حَيَاؤُهُ مِنْهُ.

وَحَيَاءُ الْكَرَمِ: كَحَيَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ إِلَى وَلِيمَةٍ زَيْنَبَ ، وَطَوَّلُوا الْجُلُوسَ عِنْدَهُ ، فَقَامَ وَاسْتَحْيَا أَنْ

(١) جَاءَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فِيمَا أوردَهُ الْهَيْثُمِيُّ فِي «مُجْمَعِ الزَّوَائِدِ وَضَعْفَهُ» (٥ / ١٩٥).

يَقُولُ لَهُمْ: انْصَرِفُوا (١).

وَحَيَاءُ الْحَشَمَةِ: كَحَيَاءِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْمَذْيِ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ مِنْهُ (٢).

وَحَيَاءُ الاسْتِحْقَارِ وَاسْتِصْغَارِ النَّفْسِ: كَحَيَاءِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - حِينَ يَسْأَلُهُ حَوَائِجَهُ ، اخْتِقَارًا لِشَأْنِ نَفْسِهِ ، وَاسْتِصْغَارًا لَهَا ، وَفِي أَثَرِ إِسْرَائِيلَ: إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: يَا رَبِّ ، إِنَّهُ لَتُعَرِّضُ لِي الْحَاجَّةَ مِنَ الدُّنْيَا ، فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ هِيَ يَا رَبِّ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: سَلْنِي حَتَّى مِلْحَ عَجِيَّتِكَ ، وَعَلَفَ شَاتِكَ.

وَقَدْ يَكُونُ لِهَذَا النَّوعِ سَبَبَانِ :

أَحَدُهُمَا: اسْتِحْقَارُ السَّائِلِ نَفْسَهُ ، وَاسْتِعْظَامُ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ.

الثَّانِي: اسْتِعْظَامُ مَسْئُولِهِ.

وَأَمَّا حَيَاءُ الْمَحَبَّةِ: فَهُوَ حَيَاءُ الْمُحِبِّ مِنْ مَحْبُوبِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِهِ فِي غَيْبَتِهِ هَاجَ الْحَيَاءُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَأَحْسَسَ بِهِ فِي وَجْهِهِ ، وَلَا يَذْهَبُ مَا سَبَبُهُ ، وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لِلْمُحِبِّ عِنْدَ مُلَاقَاتِهِ مَحْبُوبِهِ وَمُفَاجَأَتِهِ لَهُ رَوْعَةٌ شَدِيدَةٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَمَالٌ رَائِعٌ ، وَسَبَبُ هَذَا الْحَيَاءِ وَالرَّوْعَةِ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ لِلْمَحَبَّةِ سُلْطَانًا قَاهِرًا لِلْقَلْبِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥١٦٨) ، وَمُسْلِمٌ (١٤٢٨) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٩) ، وَمُسْلِمٌ (٣٠٣) .

أَعْظَمَ مِنْ سُلْطَانٍ مَنْ يَقْهَرُ الْبَدَنَ ، فَأَيْنَ مَنْ يَقْهَرُ قَلْبَكَ وَرُوحَكَ إِلَى مَنْ يَقْهَرُ بَدَنَكَ ؟ ، وَلِذَلِكَ تَعَجَّبَتِ الْمُلُوكُ وَالْجَبَابِرَةُ مِنْ قَهْرِهِمْ لِلْخَلْقِ وَقَهْرِ الْمَحْبُوبِ لَهُمْ ، وَذَلَّهِمْ لَهُ ، فَإِذَا فَاجَأَ الْمَحْبُوبُ مُحِبَّهُ ، وَرَأَاهُ بَغْتَةً : أَحَسَّ الْقَلْبُ بِهُجُومِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِ ، فَأَعْتَرَاهُ رُوعَةٌ وَخَوْفٌ .

وَسَأَلْنَا يَوْمًا شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؟ فَذَكَرْتُ أَنَا هَذَا الْجَوَابَ ، فَتَبَسَّمَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا .

وَأَمَّا الْحَيَاءُ الَّذِي يَغْتَرِيهِ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ - كَأَمْتِهِ وَزَوْجَتِهِ - فَسَبَبُهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذَا السُّلْطَانَ لَمَّا زَالَ خَوْفُهُ عَنِ الْقَلْبِ بَقِيَتْ هَيْبَتُهُ وَاحْتِشَامُهُ ، فَتَوَلَّدَ مِنْهَا الْحَيَاءُ ، وَأَمَّا حُصُولُ ذَلِكَ لَهُ فِي غَيْبَةِ الْمَحْبُوبِ : فَظَاهِرٌ ، لِاسْتِيْلَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ ، فَوَهْمُهُ يُغَالِطُهُ عَلَيْهِ وَيُكَايِرُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ مَعَهُ .

وَأَمَّا حَيَاءُ الْعُبُودِيَّةِ : فَهُوَ حَيَاءٌ مُمْتَزَجٌ مِنْ مَحَبَّةٍ وَخَوْفٍ ، وَمُشَاهِدَةِ عَدَمِ صَلَاحِ عُبُودِيَّتِهِ لِمَعْبُودِهِ ، وَأَنَّ قَدْرَهُ أَعْلَى وَأَجَلُ مِنْهَا ، فَعُبُودِيَّتُهُ لَهُ تُوجِبُ اسْتِحْيَاءَهُ مِنْهُ لَا مَحَالَةَ .

وَأَمَّا حَيَاءُ الشَّرَفِ وَالْعِزَّةِ : فَحَيَاءُ النَّفْسِ الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرَةِ إِذَا صَدَرَ مِنْهَا مَا هُوَ دُونَ قَدْرِهَا مِنْ بَذْلِ أَوْ عَطَاءٍ وَإِحْسَانٍ ، فَإِنَّهُ يَسْتَحْيِي مَعَ بَذْلِهِ حَيَاءَ شَرَفِ نَفْسٍ وَعِزَّةٍ ، وَهَذَا لَهُ سَبَبَانِ .

أَحَدُهُمَا هَذَا ، وَالثَّانِي : اسْتَحْيَاؤُهُ مِنَ الْآخِذِ ، حَتَّى كَانَهُ هُوَ الْآخِذُ السَّائِلُ ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكَرَمِ لَا تُطَاوَعُهُ نَفْسُهُ بِمُوَاجَهَتِهِ لِمَنْ يُعْطِيهِ حَيَاءً مِنْهُ ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِي حَيَاءِ التَّلَوُّمِ ، لِأَنَّهُ يَسْتَحْيِي مِنْ خَجَلِهِ الْآخِذِ .

وَأَمَّا حَيَاءُ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ : فَهُوَ حَيَاءُ النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ الْعَزِيزَةِ الرَّفِيعَةِ مِنْ رِضَاهَا لِنَفْسِهَا بِالنَّقْصِ ، وَقَنَاعَتِهَا بِالذُّونِ ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مُسْتَحْيَاً مِنْ نَفْسِهِ ، حَتَّى كَأَنَّ لَهُ نَفْسَيْنِ ، يَسْتَحْيِي بِأَحَدَاهُمَا مِنَ الْآخَرَى ، وَهَذَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَيَاءِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اسْتَحْيَى مِنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ بَأَنْ يَسْتَحْيِي مِنْ غَيْرِهِ أَجْدَرُ .

إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ يَصْدُقْكَ :

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا صَدَقَ اللَّهُ : رَضِيَ اللَّهُ بِعَمَلِهِ ، وَحَالِهِ وَيَقِينِهِ ، وَقَصْدِهِ .

الصَّادِقُ غَرِيبٌ أَيْنَمَا حَلَّ :

وَمِنْ هَاهُنَا يُفَارِقُ الصَّادِقُ أَكْثَرَ السَّالِكِينَ ، بَلْ يَسْتَوْحِشُ فِي طَرِيقِهِ ، وَذَلِكَ لِقَلَّةِ سَالِكِيهَا ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ سَائِرُونَ عَلَى طُرُقِ أَذْوَاقِهِمْ ، وَتَجَرِيدِ أَنْفُسِهِمْ لِنُفُوسِهِمْ ، وَمُتَابَعَةِ رُسُومِ شُيُوخِهِمْ ، وَالصَّادِقُ فِي وَادٍ ، وَهُوَ لَآءٍ فِي وَادٍ .

لَا إِثَارَ فِي الْقُرْبِ :

وَكُلُّ سَبَبٍ يَعُودُ عَلَيْكَ بِصَلَاحِ قَلْبِكَ وَوَقْتِكَ وَحَالِكَ مَعَ اللَّهِ :
فَلَا تُؤْثِرُ بِهِ أَحَدًا ، فَإِنْ أَثَرْتَ بِهِ فَإِنَّمَا تُؤْثِرُ الشَّيْطَانَ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْتَ لَا
تَعْلَمُ .

وَتَأْمَلُ أَحْوَالَ أَكْثَرِ الْخَلْقِ فِي إِثَارِهِمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَضُرُّهُمْ إِثَارُهُمْ لَهُ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَأَيُّ جَهَالَةٍ وَسَفَهٍ فَوْقَ هَذَا ؟ .

وَمِنْ هَذَا تَكَلَّمَ الْفُقَهَاءُ فِي الْإِثَارِ بِالْقُرْبِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ مَكْرُوهٌ أَوْ
حَرَامٌ ، كَمَنْ يُؤْثِرُ بِالصَّفِّ الْأَوَّلِ غَيْرَهُ وَيَتَأَخَّرُ هُوَ ، أَوْ يُؤْثِرُهُ بِقُرْبِهِ مِنْ
الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، أَوْ يُؤْثِرُ غَيْرَهُ بِالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ ، أَوْ يُؤْثِرُهُ بِعِلْمٍ
يَحْرِمُهُ نَفْسُهُ ، وَيَرْفَعُهُ عَلَيْهِ ، فَيَفُوزُ بِهِ دُونَهُ .

وَتَكَلَّمُوا فِي إِثَارِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ - بِدَفْنِهِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حُجْرَتِهَا .

وَأَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّ الْمَيِّتَ يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ بِمَوْتِهِ وَبِقُرْبِهِ ، فَلَا يَتَصَوَّرُ فِي
حَقِّهِ الْإِثَارُ بِالْقُرْبِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، إِذْ لَا تَقَرُّبَ فِي حَقِّ الْمَيِّتِ ، وَإِنَّمَا هَذَا
إِثَارٌ بِمَسْكَنِ شَرِيفٍ فَاضِلٍ لِمَنْ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْهَا ، فَلَا إِثَارَ بِهِ قُرْبَةً إِلَى
اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِلْمُؤْثِرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

لَا تُؤْثِرَنَّ عَلَى اللَّهِ أَحَدًا :

وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ - الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا - أَنَّ مَنْ آثَرَ مَرْضَاةَ الْخَلْقِ عَلَى مَرْضَاتِهِ : أَنْ يُسَخِّطَ عَلَيْهِ مِنْ آثَرِ رِضَاهُ ، وَيَخْذُلَهُ مِنْ جِهَتِهِ ، وَيَجْعَلَ مُحَنَّتَهُ عَلَى يَدَيْهِ ، فَيَعُودَ حَامِدُهُ دَائِمًا ، وَمَنْ آثَرَ مَرْضَاتَهُ سَاخِطًا ، فَلَا عَلَى مَقْصُودِهِ مِنْهُمْ حَصَلَ ، وَلَا إِلَى ثَوَابِ مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَصَلَ ، وَهَذَا أَعْجَزُ الْخَلْقِ وَأَحْمَقُهُمْ .

هَذَا مَعَ أَنَّ رِضَا الْخَلْقِ : لَا مَقْدُورٌ ، وَلَا مَأْمُورٌ ، وَلَا مَأْثُورٌ ، فَهُوَ مُسْتَحِيلٌ ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ سُخْطِهِمْ عَلَيْكَ ، فَلَا أَنْ يَسْخَطُوا عَلَيْكَ وَتَفُوزَ بِرِضَا اللَّهِ عَنْكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ وَأَنْفَعُ لَكَ مِنْ أَنْ يَسْخَوْا عَلَيْكَ وَاللَّهُ عَنْكَ غَيْرُ رَاضٍ ، فَإِذَا كَانَ سُخْطُهُمْ لَا بُدَّ مِنْهُ - عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ - فَآثَرِ سُخْطَهُمْ الَّذِي يُنَالُ بِهِ رِضَا اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ رَضُوا عَنْكَ بَعْدَ هَذَا ، وَإِلَّا فَأَهْوَنُ شَيْءٍ رِضَا مَنْ لَا يَنْفَعُكَ رِضَاهُ ، وَلَا يَضُرُّكَ سُخْطُهُ فِي دِينِكَ ، وَلَا فِي إِيْمَانِكَ ، وَلَا فِي آخِرَتِكَ ، فَإِنْ ضَرَّكَ فِي أَمْرِ يَسِيرٍ فِي الدُّنْيَا فَمَضَرَّةٌ سُخْطِ اللَّهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ .

الْمُؤْثِرُ لِرِضَا اللَّهِ تَصَوَّبُ نَحْوَهُ السَّعَامُ :

مِنَ الْمَعْلُومِ : أَنَّ الْمُؤْثِرَ لِرِضَا اللَّهِ مُتَصَدِّ لِمُعَادَاةِ الْخَلْقِ وَأَذَاهُمْ ، وَسَعْيِهِمْ فِي إِتْلَافِهِ وَلَا بُدَّ ، هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَإِلَّا فَمَا ذَنْبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ،

وَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْقَائِمِينَ بَدِينِ اللَّهِ ، الَّذِينَ عَنْ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عِنْدَهُمْ ؟ .

فَمَنْ أَثَرُ رِضَا اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَادِيَهُ رَذَالَةُ الْعَالَمِ وَسَقَطُهُمْ ، وَغَرَثَاهُمْ وَجْهَاهُمْ ، وَأَهْلُ الْبِدْعِ وَالْفُجُورِ مِنْهُمْ ، وَأَهْلُ الرِّيَاسَاتِ الْبَاطِلَةِ ، وَكُلُّ مَنْ يُخَالِفُ هَدْيَهُ هَدْيُهُ ، فَمَا يَقْدَمُ عَلَى مُعَادَاةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا طَالِبُ الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ ، عَامِلٌ عَلَى سَمَاعِ خِطَابِ ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿ (٢٨) ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] ، وَمِنْ إِسْلَامِهِ صُلْبٌ كَامِلٌ لَا تُزْعِزُهُ الرِّجَالُ ، وَلَا تُثْقِلُهُ الْجِبَالُ ، وَمَنْ عَقْدُ عَزِيمَةٍ صَبْرِهِ مُحْكَمٌ لَا تَحُلُّهُ الْمِحْنُ وَالشَّدَائِدُ وَالْمَخَاوِفُ .

تَرْكِيةُ النُّفُوسِ :

تَرْكِيةُ النُّفُوسِ : أَصْعَبُ مِنْ عِلَاجِ الْأَبْدَانِ وَأَشَدُّ ، فَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْخُلُوعِ ، الَّتِي لَمْ يَجِئْ بِهَا الرُّسُلُ : فَهُوَ كَالْمَرِيضِ الَّذِي عَالَجَ نَفْسَهُ بِرَأْيِهِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ رَأْيُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّيِّبِ ؟ ، فَالرُّسُلُ أَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَرْكِيتِهَا وَصَلَاحِهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِمْ ، وَعَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَبِمَحْضِ الْإِنْقِيَادِ ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُمْ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

فَإِنْ قُلْتَ : هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ الْخُلُقُ كَسْبِيًّا ، أَوْ هُوَ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الْكَسْبِ ؟ .

قُلْتُ : يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ كَسْبِيًّا بِالتَّخَلُّقِ وَالتَّكْلِفِ ، حَتَّى يَصِيرَ لَهُ سَجِيَّةً وَمَلَكَةً ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « إِنْ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ ، وَالْأَنَاءُ » ، فَقَالَ : أَخْلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا ، أَمْ جَبَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمَا ؟ ، فَقَالَ : « بَلْ جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ^(١) .

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مِنَ الْخُلُقِ : مَا هُوَ طَبِيعَةٌ وَجَبَلَهُ ، وَمَا هُوَ مُكْتَسَبٌ ، وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ فِي دُعَاءِ الْإِسْتِفْتَاكِ : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي لَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا ، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ » ^(٢) ، فَذَكَرَ الْكَسْبَ وَالْقَدَرَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

تَجْدِيدُ التَّوْبَةِ :

فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَذَّرَ إِلَى رَبِّهِ مِنْ كُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، أَمَّا الشَّرُّ : فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا الْخَيْرُ : فَيَعْتَذِرُ مِنْ نُقْصَانِهِ ، وَلَا يَرَاهُ صَالِحًا لِرَبِّهِ . فَهُوَ - مَعَ إِحْسَانِهِ - مُعْتَذِرٌ فِي إِحْسَانِهِ ، وَلِذَلِكَ مَدَحَ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ بِالْوَجَلِ مِنْهُ مَعَ إِحْسَانِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاَوْ قُلُوبَهُمْ وَجَلَةً ﴾

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٧) وَأَبُو دَاوُدَ (٥٢٢٥) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٧١) وَأَبُو دَاوُدَ (٧٦٠) .

[المؤمنين: ٦٠] ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « هُوَ الرَّجُلُ يَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ » ^(١) ، فَإِذَا خَافَ فَهُوَ بِالْإِعْتِذَارِ أَوَّلَى .

وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا الْإِعْتِذَارِ أَمْرَانِ :

أَحَدُهُمَا : شُهُودُ تَقْصِيرِهِ وَنَقْصَانِهِ .

وَالثَّانِي : صِدْقُ مُحَبَّتِهِ ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ الصَّادِقَ يَتَقَرَّبُ إِلَى مُحَبُّوبِهِ بِغَايَةِ إِمْكَانِهِ ، وَهُوَ مُعْتَذِرٌ إِلَيْهِ ، مُسْتَحْيٍ مِنْهُ : أَنْ يُوَاجِهَهُ بِمَا وَاجَهَهُ بِهِ ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ قَدْرَهُ فَوْقَهُ وَأَجَلٌ مِنْهُ ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي مُحَبَّةِ الْمَخْلُوقِينَ .

أَوَّلُ ذَنْبِ عَصَى اللَّهِ بِهِ أَبَوَا الثَّقَلَيْنِ :

أَوَّلُ ذَنْبِ عَصَى اللَّهِ بِهِ أَبَوَا الثَّقَلَيْنِ : الْكِبَرُ وَالْحِرْصُ ، فَكَانَ الْكِبَرُ ذَنْبَ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ ، فَالَ أَمْرُهُ إِلَى مَا آلَ إِلَيْهِ ، وَذَنْبُ آدَمَ عَلَى نَبِينَا وَ-عَلَيْهِ السَّلَامُ- : كَانَ مِنَ الْحِرْصِ وَالشَّهْوَةِ ، فَكَانَ عَاقِبَتُهُ التَّوْبَةُ وَالْهُدَايَةُ ، وَذَنْبُ إِبْلِيسَ حَمَلَهُ عَلَى الْإِحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ وَالْإِضْرَارِ ، وَذَنْبُ آدَمَ أَوْجَبَ لَهُ إِضَافَتَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَالْإِعْتِرَافَ بِهِ وَالِاسْتِغْفَارَ .

فَأَهْلُ الْكِبَرِ وَالْإِضْرَارِ ، وَالْإِحْتِجَاجِ بِالْأَقْدَارِ : مَعَ شَيْخِهِمْ وَقَائِدِهِمْ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣١٧٤) ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي «السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (١٦٢) .

إِلَى النَّارِ إِنْ لَيْسَ، وَأَهْلُ الشَّهْوَةِ: الْمُسْتَغْفِرُونَ التَّائِبُونَ الْمُعْتَرِفُونَ
بِالذُّنُوبِ، الَّذِينَ لَا يَحْتَجُّونَ عَلَيْهَا بِالْقَدَرِ: مَعَ أَبِيهِمْ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ .
وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: التَّكَبُّرُ شَرٌّ مِنَ
الشَّرِّ فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ يَتَكَبَّرُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ اللَّهَ وَغَيْرَهُ .

تَعْرِيفُ الْبَصِيرَةِ :

وَالْبَصِيرَةُ نُورٌ يُجْعَلُهُ اللَّهُ فِي عَيْنِ الْقَلْبِ ، يُفَرِّقُ بِهِ الْعَبْدُ بَيْنَ الْحَقِّ
وَالْبَاطِلِ ، وَنِسْبَتُهُ إِلَى الْقَلْبِ : كَنَسْبَةِ ضَوْءِ الْعَيْنِ إِلَى الْعَيْنِ .
وَهَذِهِ الْبَصِيرَةُ وَهْبِيَّةٌ وَكَسْبِيَّةٌ ، فَمَنْ أَدَارَ النَّظَرَ فِي أَعْلَامِ الْحَقِّ
وَأَدْلَتِهِ، وَتَجَرَّدَ لِلَّهِ مِنْ هَوَاهُ : اسْتَنَارَتْ بَصِيرَتُهُ ، وَرُزِقَ فَرْقَانًا يُفَرِّقُ بِهِ
بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ .

حَدُّ الْخَوْفِ :

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ : حَدُّ الْخَوْفِ مَا
حَجَزَكَ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ ، فَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ : فَهُوَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ .

حَدُّ الرَّجَاءِ :

حَدُّ الرَّجَاءِ : مَا طَيَّبَ لَكَ الْعِبَادَةَ ، وَحَمَلَكَ عَلَى السَّيْرِ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ
الرِّيَّاحِ الَّتِي تُسِيرُ السَّفِينَةَ ، فَإِذَا انْقَطَعَتْ وَقَفَتِ السَّفِينَةُ ، وَإِذَا زَادَتْ

أَلْقَتْهَا إِلَى الْمَهَالِكِ ، وَإِذَا كَانَتْ بِقَدَرٍ : أَوْصَلَتْهَا إِلَى الْبُغْيَةِ .

النَّفْسُ قَرِينَةُ الشَّيْطَانِ :

وَالنَّفْسُ قَرِينَةُ الشَّيْطَانِ وَمُصَاحِبَتُهُ ، وَتُشَبَّهُهُ فِي صِفَاتِهِ ، وَمَوَاهِبُ الرَّبِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَنْزِلُ عَلَى الْقَلْبِ وَالرُّوحِ ، فَالنَّفْسُ تَسْتَرْقُ السَّمْعَ ، فَإِذَا نَزَلَتْ عَلَى الْقَلْبِ تِلْكَ الْمَوَاهِبُ : وَثَبَتْ لِتَأْخُذَ قِسْطَهَا مِنْهَا ، وَتُصَيِّرَهُ مِنْ عِدَّتِهَا وَحَوَاصِلِهَا ، فَالْمُسْتَرْسِلُ مَعَهَا ، الْجَاهِلُ بِهَا فَيَدْعُهَا تَسْتَوْفِي ذَلِكَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي مَوْهَبَةِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَعِدَّةٍ وَقُوَّةٍ لَهُ ، إِذْ صَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ حَاصِلِ النَّفْسِ وَآلَتِهَا ، وَعُدَدِهَا ، فَصَالَتْ بِهِ وَطَغَتْ ، لِأَنَّهَا رَأَتْ غَنَاهَا بِهِ ، وَالْإِنْسَانُ يَطْغَى أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى بِالْمَالِ ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ خَطَرًا ، وَأَجَلُّ قَدَرًا مِنَ الْمَالِ ، بِمَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا : مَنْ عِلْمٌ ، أَوْ حَالٌ ، أَوْ مَعْرِفَةٌ ، أَوْ كَشْفٌ ؟ ، فَإِذَا صَارَ ذَلِكَ مِنْ حَاصِلِهَا : انْحَرَفَ الْعَبْدُ بِهِ وَلَا بُدَّ إِلَى طَرَفٍ مَذْمُومٍ مِنْ جُرْأَةٍ ، أَوْ شَطْحٍ ، أَوْ إِذْلَالٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

فَوَاللَّهِ كَمْ هَاهُنَا مِنْ قَتِيلٍ ، وَسَلِيبٍ ، وَجَرِيحٍ يَقُولُ : مَنْ أَيْنَ أُتِيتُ؟ وَمَنْ أَيْنَ دُهِيتُ؟ ، وَمَنْ أَيْنَ أَصِبتُ؟ ، وَأَقْلُّ مَا يَعَاقِبُ بِهِ مِنَ الْحَرَمَانِ بِذَلِكَ : أَنْ يُغْلَقَ عَنْهُ بَابُ الْمَزِيدِ ، وَلِهَذَا كَانَ الْعَارِفُونَ وَأَرْبَابُ الْبَصَائِرِ: إِذَا نَالُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ انْحَرَفُوا إِلَى طَرَفِ الذُّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ ،

وَمُطَالَعَةُ عُيُوبِ النَّفْسِ ، وَاسْتَدْعَاؤُهَا حَارِسَ الْخَوْفِ ، وَحَافِظُوا عَلَى الرِّبَاطِ بِمُلَازِمَةِ الشَّغَرِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ النَّفْسِ ، وَنَظَرُوا إِلَى أَقْرَبِ الْخَلْقِ مِنْ اللَّهِ ، وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْهِ ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ وَسِيلَةً ، وَأَعْظَمِهِمْ عِنْدَهُ جَاهًا ، وَقَدْ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ ، وَذَقْنَهُ تَمَسُّ قُرْبُوسَ سَرَجِهِ : انْخِفَاضًا وَانْكِسَارًا ، وَتَوَاضَعًا لِرَبِّهِ تَعَالَى فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ ، الَّتِي عَادَةُ النَّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ فِيهَا : أَنْ يَمْلِكَهَا سُرُورُهَا ، وَفَرَحُهَا بِالنَّصْرِ ، وَالظَّفَرِ ، وَالتَّائِيدِ ، وَيَرْفَعُهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ .

فَالرَّجُلُ : مَنْ صَانَ فَتَحَهُ وَنَصِيْبَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَوَارَاهُ عَنْ اسْتِرَاقِ نَفْسِهِ ، وَبَخَلَ عَلَيْهَا بِهِ ، وَالْعَاجِزُ : مَنْ جَادَ لَهَا بِهِ ، فَيَأْخُذُ مِنْ جُودٍ مَا أَقْبَحُهُ ، وَسَمَاحَةٍ مَا أَسْفَهُ صَاحِبُهَا ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

مَنْزِلَةُ الْيَقِينِ :

هُوَ مِنَ الْإِيمَانِ مَنْزِلَةُ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَبِهِ تَفَاضَلُ الْعَارِفُونَ ، وَفِيهِ تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ ، وَإِلَيْهِ شَمَّرَ الْعَامِلُونَ ، وَعَمَلُ الْقَوْمِ إِنَّمَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَإِشَارَاتُهُمْ كُلُّهَا إِلَيْهِ ، وَإِذَا تَزَوَّجَ الصَّبْرُ بِالْيَقِينِ : وُلِدَ بَيْنَهُمَا حُصُولُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبَقَوْلِهِ : يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يُوقِنُونَ ﴿ ٢٤ ﴾ [السَّجْدَةُ : ٢٤] .

وَحَصَّ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْيَقِينِ بِالْإِنْتِفَاعِ بِالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ ، فَقَالَ
تَعَالَى ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢٠)
[الذَّارِيَّاتُ : ٢٠] .

وَحَصَّ أَهْلَ الْيَقِينِ بِالْهُدَى وَالْفَلَاحِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى :
﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤)
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ ٥ ﴾ [البَقَرَةُ : ٥] .

وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ : بَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ ، فَقَالَ تَعَالَى :
﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ
نُظِنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (٣٢) [الْحَاجِيَةُ : ٣٢] .

فَالْيَقِينُ رُوحُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي هِيَ أَرْوَاحُ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ ، وَهُوَ
حَقِيقَةُ الصِّدْقِيَّةِ ، وَهُوَ قُطْبُ هَذَا الشَّانِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُهُ .

مِنْ أَعْلَامِ الْيَقِينِ :

ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْيَقِينِ : قَلَّةُ مُحَاظَةِ النَّاسِ فِي الْعَشْرَةِ ، وَتَرْكُ الْمَدْحِ
لَهُمْ فِي الْعَطِيَّةِ ، وَالتَّنَزُّهُ عَنْ ذَمِّهِمْ عِنْدَ الْمَنَعِ ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِهِ أَيْضًا :
النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي
كُلِّ حَالٍ .

حَقِيقَةُ الْفَقْرِ :

الْفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ : دَوَامُ الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَأَنْ يَشْهَدَ الْعَبْدُ - فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ - فَاقَةً تَامَّةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

فَالْفَقْرُ ذَاتِي لِلْعَبْدِ ، وَإِنَّمَا يَتَجَدَّدُ لَهُ لِشُهُودِهِ وَوُجُودِهِ حَالًا ، وَإِلَّا فَهُوَ حَقِيقَةٌ ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - :
وَالْفَقْرُ لِي وَصْفٌ ذَاتٍ لَا زِمَّ أَبَدًا كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

أَرْكَانُ الْفَقْرِ :

أَرْكَانُ الْفَقْرِ أَرْبَعَةٌ : عِلْمٌ يَسُوسُهُ ، وَوَرَعٌ يَحْجِزُهُ ، وَيَقِينٌ يَحْمِلُهُ ، وَذِكْرٌ يُؤْنِسُهُ .

الْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءً :

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - :

وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَإِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ كَلَّا ۝ [الفجر: ١٥-١٧] ، أَيُّ لَيْسَ كُلُّ مَنْ وَسَّعَتْ عَلَيْهِ وَأَعْطَيْتَهُ : أَكُونُ قَدْ أَكْرَمْتُهُ ، وَلَا كُلُّ مَنْ ضَيَّقْتُ

عَلَيْهِ وَقَتَّرْتُ : أَكُونُ قَدْ أَهَنْتُهُ ، فَلَا إِكْرَامُ : أَنْ يُكْرِمَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِطَاعَتِهِ ،
وَالْإِيْمَانِ بِهِ ، وَمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَالْإِهَانَةُ : أَنْ يَسْلُبَهُ ذَلِكَ .

قَالَ - يَعْنِي ابْنَ تَيْمِيَّةَ - : وَلَا يَقَعُ التَّفَاضُلُ بِالْغِنَى وَالْفَقْرَ ، بَلْ
بِالتَّقْوَى ، فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي التَّقْوَى اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ .

هَجْرَةُ الْقَلْبِ :

لِلَّهِ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ هِجْرَتَانِ ، وَهُمَا فَرَضٌ لَا زِمَ لَهُ عَلَى الْإِنْفَاسِ :
* هِجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَالْإِنَابَةِ وَالْحُبِّ ،
وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْعُبُودِيَّةِ .

* وَهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : بِالتَّحْكِيمِ لَهُ وَالتَّسْلِيمِ
وَالْتَّفْوِيضِ ، وَالْإِنْقِيَادِ لِحُكْمِهِ ، وَتَلَقِّي أَحْكَامِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مِنْ
مَشْكَاةٍ ، فَيَكُونُ تَعَبُّدُهُ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ تَعَبُّدِ الرِّكْبِ بِالِدَّلِيلِ الْمَاهِرِ فِي ظُلْمِ
الَّيْلِ ، وَمَتَاهَاتِ الطَّرِيقِ .

فَمَا لَمْ يَكُنْ لِقَلْبِهِ هَاتَانِ الْهِجْرَتَانِ فَلْيَحْثُ عَلَى رَأْسِهِ الرَّمَادَ ، وَلْيُرَاجِعِ
الْإِيْمَانَ مِنْ أَصْلِهِ ، فَيَرْجِعْ وَرَاءَهُ لِيَقْتَبِسَ نُورًا ، قَبْلَ أَنْ يُجَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ،
وَيُقَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى الصِّرَاطِ مِنْ وَرَاءِ السُّورِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

مَنْزِلَةُ الطَّمَانِينَةِ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨) [الرَّعْد: ٢٨] ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] .

الطَّمَانِينَةُ سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَى الشَّيْءِ ، وَعَدَمُ اضْطِرَابِهِ وَقَلْقِهِ ، وَمِنْهُ الْأَثَرُ الْمَعْرُوفُ «الْصِّدْقُ طَمَانِينَةٌ ، وَالْكَذِبُ رِيَّةٌ» (١) ، أَيِ الصِّدْقُ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ قَلْبُ السَّامِعِ ، وَيَجِدُ عِنْدَهُ سُكُونًا إِلَيْهِ ، وَالْكَذِبُ يُوجِبُ لَهُ اضْطِرَابًا وَارْتِيَابًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : « الْبَرُّ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ » (٢) ، أَيِ سَكَنَ إِلَيْهِ وَزَالَ عَنْهُ اضْطِرَابُهُ وَقَلْقُهُ .

هَمَّتُكَ عَلَى قَدْرِ مَا أَهَمَّكَ :

أَنَّ هَمَّةَ الْعَبْدِ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِالْحَقِّ تَعَالَى طَلَبًا صَادِقًا خَالِصًا مَخْصًا ، فَتِلْكَ هِيَ الْهَمَّةُ الْعَالِيَةُ ، الَّتِي لَا يَتِمَّاكَ صَاحِبُهَا أَيُّ : لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُهْلَةِ ، وَلَا يَتِمَّاكَ صَبْرُهُ ؛ لِغَلَبَةِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِ ، وَشِدَّةِ إلْزَامِهَا إِيَّاهُ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٦٠) ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٠٤٥) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢٢٨/٤) ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢٨٨١) بِنَحْوِهِ .

بَطْلَبِ الْمَقْصُودِ ، وَلَا يَلْتَفِتْ عَنْهَا إِلَى مَا سِوَى أَحْكَامِهَا ، وَصَاحِبُ
هَذِهِ الْأَهْمَةِ : سَرِيعٌ وَصَوْلُهُ وَظَفَرُهُ بِمَطْلُوبِهِ ، مَا لَمْ تَعْقُهُ الْعَوَائِقُ ،
وَتَقَطَّعَهُ الْعَلَائِقُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ

مَنْزِلَةُ الْمَحَبَّةِ :

وَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ ، وَإِلَيْهَا شَخَّصَ الْعَامِلُونَ ،
وَإِلَى عِلْمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ ، وَعَلَيْهَا تَفَانَى الْمُحِبُّونَ ، وَبِرُوحِ نَسِيمِهَا
تَرَوَّحَ الْعَابِدُونَ ، فَهِيَ قُوَّةُ الْقُلُوبِ ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ ، وَقُرَّةُ الْعُيُونِ ،
وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي مِنْ حُرْمَتِهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ ، وَالنُّورُ الَّذِي مِنْ
فَقْدِهِ فَهُوَ فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ ، وَالشِّفَاءُ الَّذِي مِنْ عَدَمِهِ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ
الْأَسْقَامِ ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَآلَامٌ .

وَهِيَ رُوحُ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي مَتَى خَلَّتْ
مِنْهَا فَهِيَ كَالْجَسَدِ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ ، تَحْمِلُ أَثْقَالَ السَّائِرِينَ إِلَى بِلَادٍ
لَمْ يَكُونُوا إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ بِالْغِيهَا ، وَتُوصِلُهُمْ إِلَى مَنَازِلٍ لَمْ يَكُونُوا
بُدُونَهَا أَبَدًا وَاصِلِيهَا ، وَتُبَوِّوهُمْ مِنْ مَقَاعِدِ الصَّدَقِ مَقَامَاتٍ لَمْ يَكُونُوا
لَوْلَاهَا دَاخِلِيهَا ، وَهِيَ مَطَايَا الْقَوْمِ الَّتِي مَسَرَاهُمْ عَلَى ظُهُورِهَا دَائِمًا
إِلَى الْحَبِيبِ ، وَطَرِيقُهُمُ الْأَقْوَمُ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمُ الْأُولَى مِنْ
قَرِيبٍ .

تَاللهِ لَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُهَا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، إِذْ لَهُمْ مِنْ مَعِيَّةِ
مُحِبُّوهُمْ أَوْفَرُ نَصِيبٍ ، وَقَدْ قَضَى اللهُ - يَوْمَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ
بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ - : أَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ
عَلَى الْمُحِبِّينَ سَابِغَةٍ .

تَاللهِ لَقَدْ سَبَقَ الْقَوْمُ السُّعَاةَ ، وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الْفُرُشِ نَائِمُونَ ، وَقَدْ
تَقَدَّمُوا الرِّكْبَ بِمَرَا حِلَ ، وَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ وَاقِفُونَ .

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَّلِّلِ تَمْشِي رُويْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

أَجَابُوا مُنَادِيَ الشَّوْقِ إِذْ نَادَى بِهِمْ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، وَبَذَلُوا نُفُوسَهُمْ
فِي طَلَبِ الْوُصُولِ إِلَى مُحِبُّوهُمْ، وَكَانَ بَذْلُهُمْ بِالرِّضَا وَالسَّامِحِ، وَوَاصَلُوا
إِلَيْهِ الْمَسِيرَ بِالْإِدْلَاجِ وَالْغُدُوِّ وَالرَّوَا حِ ، تَاللهِ لَقَدْ حَمَدُوا عِنْدَ الْوُصُولِ
سُرَاهُمْ ، وَشَكَرُوا مَوْلَاهُمْ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ ، وَإِنَّمَا يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرِيُّ
عِنْدَ الصَّبَاحِ .

فَحِيْهَلَا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِي الشَّوْقِ فَاطُوِ الْمَرَا حِلَا
وَقُلْ لِمُنَادِي حُبِّهِمْ وَرِضَاهُمْ إِذَا مَا دَعَا لَبَيْكَ أَلْفَا كَوَامِلَا
وَلَا تَنْظُرِ الْأَطْلَالَ مِنْ دُونِهِمْ فَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى الْأَطْلَالِ عُذْنِ حَوَائِلَا

دَعْوَى الْمَحَبَّةِ :

لَمَّا كَثُرَ الْمَدْعُونَ لِلْمَحَبَّةِ طَوَّلُوا بِإِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ عَلَى صِحَّةِ الدَّعْوَى ، فَلَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَا دَعَى الْخَلِيُّ حُرْقَةَ الشَّجِيِّ ، فَتَنَوَّعَ الْمَدْعُونَ فِي الشُّهُودِ ، فَقِيلَ : لَا تُقْبَلُ هَذِهِ الدَّعْوَى إِلَّا بِبَيِّنَةٍ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ٣١] .

فَتَأَخَّرَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ، وَثَبَتَ اتِّبَاعُ الْحَبِيبِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، فَطَوَّلُوا بِعَدَالَةِ الْبَيِّنَةِ بِتَرْكِئَةٍ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَائِمَةً .

فَتَأَخَّرَ أَكْثَرُ الْمُحِبِّينَ وَقَامَ الْمُجَاهِدُونَ ، فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّ نَفُوسَ الْمُحِبِّينَ وَأَمْوَالَهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ ، فَهَلُمُّوا إِلَى بَيْعَةٍ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التَّوْبَةِ : ١١١] .

فَلَمَّا عَرَفُوا عَظَمَةَ الْمُشْتَرِي ، وَفَضْلَ الثَّمَنِ ، وَجَلَالَةَ مَنْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ عَقْدُ التَّبَايُعِ : عَرَفُوا قَدْرَ السَّلْعَةِ ، وَأَنَّ لَهَا شَأْنًا ، فَرَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ أَنْ يَبِيعُوهَا لِغَيْرِهِ بِثَمَنِ بَخْسٍ ، فَعَقَدُوا مَعَهُ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ بِالْإِتْرَاضِي ، مِنْ غَيْرِ ثُبُوتِ خِيَارٍ ، وَقَالُوا : وَاللَّهِ لَا نُقِيلُكَ وَلَا نَسْتَقِيلُكَ .

فَلَمَّا تَمَّ الْعَقْدُ وَسَلِّمُوا الْمَبِيعَ ، قِيلَ لَهُمْ : مُذْ صَارَتْ نَفُوسُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ لَنَا رَدْدُنَاهَا عَلَيْكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ ، وَأَضْعَفَهَا مَعًا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا
ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿١٧٠﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٦٩-١٧٠] .

شَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ :

إِذَا غُرِسَتْ شَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ فِي الْقَلْبِ ، وَسُقِيَتْ بِمَاءِ الْإِخْلَاصِ ،
وَمُتَابَعَةِ الْحَبِيبِ ، أَثْمَرَتْ أَنْوَاعَ الثَّمَارِ ، وَآتَتْ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ،
أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي قَرَارِ الْقَلْبِ ، وَفَرْعُهَا مُتَّصِلٌ بِسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى .
لَا يَزَالُ سَعْيُ الْمُحِبِّ صَاعِدًا إِلَى حَبِيبِهِ ، لَا يَحْجُبُهُ دُونُهُ شَيْءٌ
﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ .

الْأَسْبَابُ الْجَالِبَةُ لِلْمَحَبَّةِ :

الْأَسْبَابُ الْجَالِبَةُ لِلْمَحَبَّةِ ، وَالْمُوجِبَةُ لَهَا وَهِيَ عَشْرَةٌ :

أَحَدُهَا : قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ ، كَتَدَبُّرِ
الْكِتَابِ الَّذِي يُحْفَظُهُ الْعَبْدُ وَيُشْرَحُهُ ، لِيَتَفَهَّمُ مُرَادَ صَاحِبِهِ مِنْهُ .

الثَّانِي : التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ ، فَإِنَّهَا تُوصِّلُهُ إِلَى
دَرَجَةِ الْمَحْبُوبِيَّةِ بَعْدَ الْمَحَبَّةِ .

الثَّالِثُ : دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ : بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ ، وَالْعَمَلِ
وَالْحَالِ ، فَنَصِيحُهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ عَلَى قَدَرِ نَصِيحِهِ مِنْ هَذَا الذِّكْرِ .

الرَّابِعُ : إِثَارُ مَحَابِّهِ عَلَى مَحَابِّكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَى ، وَالتَّسَنُّمُ إِلَى مَحَابِّهِ ، وَإِنْ صَعِبَ الْمُرْتَقَى .

الخَامِسُ : مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمَعْرِفَتُهَا ، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَبَادِيهَا ، فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ : أَحَبَّهُ لَا مُحَالَهَ ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْمُعْطَلَةُ وَالْفِرْعَوْنِيَّةُ وَالْجَهَنَّمِيَّةُ قُطَاعَ الطَّرِيقِ عَلَى الْقُلُوبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَحْبُوبِ .

السَّادِسُ : مُشَاهَدَةُ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَآلَائِهِ ، وَنِعَمِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، فَإِنَّهَا دَاعِيَةٌ إِلَى مَحَبَّتِهِ .

السَّابِعُ : وَهُوَ مَنْ أَعْجَبَهَا ، انْكَسَارُ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ الْأَسْمَاءِ وَالْعِبَارَاتِ .

الثَّامِنُ : الْخُلُوعُ بِهِ وَقْتَ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ ، لِمُنَاجَاتِهِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِهِ ، وَالْوُقُوفُ بِالْقَلْبِ وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَبِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ .

التَّاسِعُ : مُجَالَسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ ، وَالتَّقَاطُطُ أَطْيَابِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ كَمَا يَنْتَقِي أَطْيَابَ الثَّمَرِ ، وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الْكَلَامِ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ فِيهِ مَزِيدًا لِحَالِكَ ، وَمَنْفَعَةً لِعَيْرِكَ .

الْعَاشِرُ : مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يُحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

فَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْعَشْرَةِ : وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَى مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ ، وَدَخَلُوا عَلَى الْحَبِيبِ ، وَمَلَكَ ذَلِكَ كُلُّهُ أَمْرَانِ : اسْتِعْدَادُ الرُّوحِ لِهَذَا الشَّأْنِ ، وَانْفِتَاحُ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

آيَةُ الْمَحَبَّةِ :

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى- : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ٣١] وَهِيَ تُسَمَّى آيَةُ الْمَحَبَّةِ ، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ : لَمَّا ادَّعَتْ الْقُلُوبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ : أَنْزَلَ اللَّهُ لَهَا مِحْنَةً ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : ادَّعَى قَوْمٌ مَحَبَّةَ اللَّهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْمِحْنَةِ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى دَلِيلِ الْمَحَبَّةِ وَثَمَرَتِهَا ، وَفَائِدَتِهَا ، فَدَلِيلُهَا وَعَلَامَتُهَا : اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ، وَفَائِدَتُهَا وَثَمَرَتُهَا : مَحَبَّةُ الْمُرْسَلِ لَكُمْ ، فَمَا لَمْ تَحْصِلِ الْمُتَابَعَةُ ، فَلَيْسَتْ مَحَبَّتُكُمْ لَهُ حَاصِلَةً ، وَمَحَبَّتُهُ لَكُمْ مُتَنَفِيَةً .

مَرَاتِبُ الْمَحَبَّةِ :

أَوَّلُهَا : الْعَلَاقَةُ ، وَسُمِّيَتْ عِلَاقَةً لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ .

قال الشاعر :

أَعْلَاقَةٌ أُمُّ الْوَلِيدِ بُعِيدَ مَا أَفْنَانُ رَأْسِكَ كَالثَّغَامِ الْمُخْلَسِ

الثَّانِيَّةُ : الْإِرَادَةُ ، وَهِيَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَى مُحِبُّوبِهِ وَطَلْبُهُ لَهُ .

الثَّالِثَةُ : الصَّبَابَةُ ، وَهِيَ انْصِبَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ ، بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ ، كَانْصِبَابِ الْمَاءِ فِي الْحُدُورِ ، فَاسْمُ الصِّفَةِ مِنْهَا صَبٌّ وَالْفِعْلُ صَبَا إِلَيْهِ يَصْبُو صَبًّا ، وَصَبَابَةٌ ، فَعَاقَبُوا بَيْنَ الْمُضَاعَفِ وَالْمُعْتَلِّ ، وَجَعَلُوا الْفِعْلَ مِنَ الْمُعْتَلِّ وَالصِّفَةَ مِنَ الْمُضَاعَفِ .

وَيُقَالُ : صَبَا وَصَبُوءٌ ، وَصَبَابَةٌ ، فَالْصَّبَا : أَصْلُ الْمَيْلِ ، وَالصَّبُوءُ : فَوْقَهُ ، وَالصَّبَابَةُ : الْمَيْلُ اللَّازِمُ ، وَانْصِبَابُ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ .

الرَّابِعَةُ : الْغَرَامُ وَهُوَ الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ ، الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ ، بَلْ يُلَازِمُهُ كَمُلَازِمَةِ الْغَرِيمِ لَغَرِيمِهِ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ عَذَابُ النَّارِ غَرَامًا لِلزُّومِ لِأَهْلِهِ ، وَعَدَمَ مُفَارَقَتِهِ لَهُمْ ، قَالَ -تَعَالَى- : ﴿ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الْفُرْقَان: ٦٥] .

الخَامِسَةُ : الْوَدَادُ وَهُوَ صَفْوُ الْمَحَبَّةِ ، مَرَاتِبُهَا عَشْرَةٌ وَخَالِصُهَا وَلَبُّهَا ، وَالْوُدُودُ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَى ، وَفِيهِ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ الْمُوْدُودُ ، قَالَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي صَحِيحِهِ :

الودود الحبيب .

والثاني : أنه الواد لعباده ، أي المحب لهم ، وقرنه باسمه الغفور إعلاما بأنه يغفر الذنب ، ويحب التائب منه ، ويودّه ، فحظ التائب : نيل المغفرة منه .

وعلى القول الأول " الودود " في معنى يكون سر الاقتران ، أي اقتران " الودود بالغفور " استدعاء مودة العباد له ، ومحبتهم إياه باسم الغفور .

السادسة : الشغف يقال : شغف بكذا ، فهو مشغوف به ، وقد شغفه المحبوب ، أي وصل حبه إلى شغاف قلبه ، كما قال النسوة عن امرأة العزيز : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف : ٣٠] .

وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الحب المستولي على القلب ، بحيث يحجبه عن غيره ، قال الكلبي : حجب حبه قلبها حتى لا تعقل سواه .

الثاني : الحب الواصل إلى داخل القلب ، قال صاحب هذا القول : المعنى أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها ، أي داخله .

الثالث : أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب ، والشغاف غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب ، قال السدي : الشغاف جلدة

رَقِيقَةٌ عَلَى الْقَلْبِ ، يَقُولُ : دَخَلَهُ الْحُبُّ حَتَّى أَصَابَ الْقَلْبَ .

وَقَرَأَ بَعْضُ السَّلَفِ " شَعَفَهَا " بِالْعَيْنِ الْمُهِمَلَةِ ، وَمَعْنَاهُ : ذَهَبَ الْحُبُّ بِهَا كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَبَلَغَ بِهَا أَعْلَى مَرَاتِبِهِ ، وَمِنْهُ : شَعَفُ الْجِبَالِ ، لِرُءُوسِهَا .
السَّابِعَةُ : الْعِشْقُ وَهُوَ الْحُبُّ الْمَفْرُطُ الَّذِي يُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْهُ ، وَعَلَيْهِ تَأَوَّلَ إِبْرَاهِيمُ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ ﴿ وَلَا تَحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، قَالَ مُحَمَّدٌ : هُوَ الْعِشْقُ .

وَرَفَعَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - شَابٌّ وَهُوَ يَعْرِفُهُ - قَدْ صَارَ كَالْخَلَالِ ، فَقَالَ : مَا بِهِ ؟ ، قَالُوا : الْعِشْقُ ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَامَّةَ دُعَائِهِ بِعَرَفَةٍ : الْإِسْتِعَاذَةِ مِنَ الْعِشْقِ .

وَفِي اسْتِثْقَاةِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مِنَ الْعَشَقَةِ - مُحَرَّكَةً - وَهِيَ نَبْتُ أَصْفَرٍ يَلْتَوِي عَلَى الشَّجَرِ ، فَشَبَّهَ بِهِ الْعَاشِقُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ مِنَ الْإِفْرَاطِ ، وَعَلَى الْقَوْلَيْنِ : فَلَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - ، وَلَا الْعَبْدُ فِي مَحَبَّةِ رَبِّهِ ، وَإِنْ أَطْلَقَهُ سَكْرَانٌ مِنَ الْمَحَبَّةِ قَدْ أَفْنَاهُ الْحُبُّ عَنْ تَمْيِيزِهِ ، كَانَ فِي خِفَارَةٍ صِدْقِهِ وَمَحَبَّتِهِ .

الثَّامِنَةُ : التَّيِّمُ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ، وَالتَّذَلُّلُ ، يُقَالُ : تَيَّمَهُ الْحُبُّ أَيَّ ذَلَّةٍ وَعَبْدَةٍ ، وَتَيَّمُ اللَّهُ : عَبْدُ اللَّهِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّيِّمِ - الَّذِي هُوَ الْإِنْفِرَادُ - تَلَاقٌ فِي الْإِسْتِثْقَاقِ الْأَوْسَطِ ، وَتَنَاسُبٌ فِي الْمَعْنَى ، فَإِنَّ التَّيِّمَ الْمُنْفَرِدُ

بُحْبِهِ وَشَجْوِهِ ، كَانْفِرَادِ الْيَتِيمِ بِنَفْسِهِ عَنْ أَبِيهِ ، وَكُلِّ مِنْهُمَا مَكْسُورٌ ذَلِيلٌ ، هَذَا كَسْرُهُ يَتِيمٌ ، وَهَذَا كَسْرُهُ تَتِيمٌ .

التاسعة : التَّعَبُّدُ وَهُوَ فَوْقَ التَّسِيمِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ هُوَ الَّذِي قَدْ مَلَكَ الْمَحْبُوبُ رَقَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ أَلْبَتَّةَ ، بَلْ كُلُّهُ عَبْدٌ لِمَحْبُوبِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ ، وَمَنْ كَمَّلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَمَّلَ مَرْتَبَتَهَا .

وَلَمَّا كَمَّلَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ : وَصَفَهُ اللَّهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ ، مَقَامِ الْإِسْرَاءِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإِسْرَاءُ : ١] ، وَمَقَامِ الدَّعْوَةِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الْحَجَّ : ١٩] ، وَمَقَامِ التَّحَدِّيِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البَقَرَةُ : ٢٣] ، وَبِذَلِكَ اسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ عَلَى الْخَلَائِقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَكَذَلِكَ يَقُولُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُمْ ، إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشَّفَاعَةَ - بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - « اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، عَبْدٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ » ^(١) .

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ : فَحَصَلَتْ لَهُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ ، بِتَكْمِيلِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَكَمَالِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ لَهُ .

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٤٠) ، وَمُسْلِمٌ (١٩٤) .

وَحَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ : الْحُبُّ التَّامُّ ، مَعَ الذُّلِّ التَّامِّ وَالْخُضُوعِ لِلْمَحْبُوبِ ،
تَقُولُ الْعَرَبُ طَرِيقُ مُعَبَّدٍ أَيْ قَدْ ذَلَّلْتُهُ الْأَقْدَامُ وَسَهَّلْتُهُ .

الْعَاشِرَةُ : مَرْتَبَةُ الْخُلَّةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا الْخَلِيلَانِ - إِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ - كَمَا صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا ، كَمَا
اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » (١) .

وَقَالَ : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا ؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ
خَلِيلًا ، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ » (٢) ، وَالْحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحِ .
وَهُمَا يُبْطِلَانِ قَوْلَ مَنْ قَالَ : الْخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ ، وَالْمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ ، فَإِبْرَاهِيمُ
خَلِيلُهُ وَمُحَمَّدٌ حَبِيبُهُ .

عَلَامَةُ مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ :

إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَنْشَأَ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّتَهُ .

الْوَقْتُ عِنْدَ الْعَابِدِ :

فَالْوَقْتُ مُنْقَضٌ بِذَاتِهِ ، مُنْصَرِّمٌ بِنَفْسِهِ ، فَمَنْ غَفَلَ عَنْ نَفْسِهِ تَصَرَّ مَتَّ
أَوْقَاتُهُ ، وَعَظُمَ فَوَاتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ حَسْرَاتُهُ ، فَكَيْفَ حَالُهُ إِذَا عَلِمَ عِنْدَ

(١) (ضَعِيفٌ) : رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (١٤١) ، وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «ضَعِيفِ
سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٢٦) .

(٢) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٥٤) ، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨٣) .

تَحَقُّقُ الْفَوْتِ مَقْدَارَ مَا أَضَاعَ ، وَطَلَبَ الرَّجْعِي فَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الِاسْتِرْجَاعِ وَطَلَبِ تَنَاوُلِ الْفَائِتِ .

وَكَيْفَ يُرَدُّ الْأَمْسُ فِي الْيَوْمِ الْجَدِيدِ ؟ ، ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سَبَأٌ: ٥٢] .

أنواع الولادة :

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَذْكُرُ ذَلِكَ ، وَيُفَسِّرُهُ
بِأَنَّ الْوِلَادَةَ نَوْعَانِ :
أَحَدُهُمَا : هَذِهِ الْمَعْرُوفَةُ .

وَالثَّانِيَةُ : وَلَادَةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَخُرُوجُهُمَا مِنْ مَشِيمَةِ النَّفْسِ ،
وَزُلْمَةِ الطَّبَعِ .

قَالَ : وَهَذِهِ الْوِلَادَةُ لَمَّا كَانَتْ بِسَبَبِ الرَّسُولِ كَانَ كَالْأَبِ لِلْمُؤْمِنِينَ ،
وَقَدْ قَرَأَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ
أَنفُسِهِمْ ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٦] ، وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ .

قَالَ : وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ وَالْقِرَاءَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَزْوَاجَهُ
أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٦] إِذْ ثُبُوتُ أُمُومَةِ أَزْوَاجِهِ لَهُمْ : فَرَعٌ عَنْ ثُبُوتِ
أَبَوْتِهِ .

قَالَ : فَالشَّيْخُ وَالْمَعْلَمُ وَالْمُؤَدِّبُ أَبُ الرُّوحِ ، وَالْوَالِدُ أَبُ الْجِسْمِ .

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ :

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَةٌ : عَبْدٌ مُحْضٌ ، وَحُرٌّ مُحْضٌ ، وَمُكَاتِبٌ قَدْ أَدَّى بَعْضَ كِتَابَتِهِ ، وَهُوَ يَسْعَى فِي بَقِيَّةِ الْأَدَاءِ .

فَالْعَبْدُ الْمُحْضُ : عَبْدُ الْمَاءِ وَالطِّينِ الَّذِي قَدْ اسْتَعْبَدَتْهُ نَفْسُهُ وَشَهْوَتُهُ ، وَمَلَكَتُهُ وَقَهَرَتْهُ ، فَانْقَادَ لَهَا انْقِيَادَ الْعَبْدِ إِلَى سَيِّدِهِ الْحَاكِمِ عَلَيْهِ .

وَالْحُرُّ الْمُحْضُ : هُوَ الَّذِي قَهَرَ شَهْوَتُهُ وَنَفْسُهُ وَمَلَكَهَا ، فَانْقَادَتْ مَعَهُ ، وَذَلَّتْ لَهُ وَدَخَلَتْ تَحْتَ رِقِّهِ وَحُكْمِهِ .

وَالْمُكَاتِبُ : مَنْ قَدْ عَقِدَ لَهُ سَبَبُ الْحُرِّيَّةِ ، وَهُوَ يَسْعَى فِي كِمَالِهَا ، فَهُوَ عَبْدٌ مِنْ وَجْهِ حُرٍّ مِنْ وَجْهِ ، وَبِالْبَقِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَاءِ يَكُونُ عَبْدًا مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ ، فَهُوَ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ حَظٌّ مِنْ حُظُوظِ نَفْسِهِ .

فَالْحُرُّ مَنْ تَخَلَّصَ مِنْ رِقِّ الْمَاءِ وَالطِّينِ ، وَفَارَزَ بِعُبُودِيَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ وَالْحُرِّيَّةُ ، فَعُبُودِيَّتُهُ مِنْ كِمَالِ حُرِّيَّتِهِ ، وَحُرِّيَّتُهُ مِنْ كِمَالِ عُبُودِيَّتِهِ .

حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ :

وَالْمَقْصُودُ : إِنَّ ذَوْقَ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ ، أَمْرٌ يَجِدُّهُ الْقَلْبُ ،

تَكُونُ نَسْبَتُهُ إِلَيْهِ كَنَسْبَةِ ذَوْقِ حَلَاوَةِ الطَّعَامِ إِلَى الْفَمِ ، وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْجَمَاعِ إِلَى إِلْفَةِ النَّفْسِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ » ^(١) .

فَلِلْإِيْمَانِ طَعْمٌ وَحَلَاوَةٌ يَتَعَلَّقُ بِهِمَا ذَوْقٌ وَوَجْدٌ ، وَلَا تَزُولُ الشُّبُهَةُ وَالشُّكُوكُ عَنِ الْقَلْبِ إِلَّا إِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ، فَبَاشَرَ الْإِيْمَانَ قَلْبُهُ حَقِيقَةَ الْمُبَاشَرَةِ ، فَيَذُوقُ طَعْمَهُ وَيَجِدُ حَلَاوَتَهُ ، وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ .

مَا يَقْطَعُ الْأَمَلَ :

قُوَّةُ رَغْبَتِهِ فِي الْمَطْلَبِ الْأَعْلَى ، الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْلَى مِنْهُ ، وَمَعْرِفَتُهُ بِخَسَّةِ مَا يُؤَمَّلُ دُونَهُ ، وَسُرْعَةُ ذَهَابِهِ ، فَيُوشِكُ انْقِطَاعُهُ ، وَأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَخَيَالِ طَيْفٍ ، أَوْ سَحَابَةِ صَيْفٍ ، فَهُوَ ظِلٌّ زَائِلٌ ، وَنَجْمٌ قَدْ تَدَلَّى لِلْغُرُوبِ ، فَهُوَ عَنْ قَرِيبٍ أَفَلٌ .

قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟ ، إِنَّمَا أَنَا كَرَائِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » ^(٢) ، وَقَالَ : « مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ؛ إِلَّا كَمَا يَدْخُلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعُهُ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ : بِمَ تَرْجِعُ ؟ » ^(٣) ، فَشَبَّهَ الدُّنْيَا

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٣٩) ، وَمُسْلِمٌ (١٤٣٣) .

(٢) (صَحِيحٌ) : رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٤٤) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٠٩) ، وَصَحَّحَهُ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ» (٣٣١٧) .

(٣) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٥٨) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥) .

فِي جَنْبِ الْآخِرَةِ بِمَا يَلْتَقُ عَلَى الْإِصْبَعِ مِنَ الْبَلَلِ حِينَ تُغْمَسُ فِي الْبَحْرِ .
 قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى
 آخِرِهَا أُوتِيَهَا رَجُلٌ ، ثُمَّ جَاءَهُ الْمَوْتُ : لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ
 مَا يَسُرُّهُ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ فَإِذَا لَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ .

تَفَاوُتُ الْحِمَمِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ :

فَلِلَّهِ هَمَّةٌ نَفْسٌ قَطَعَتْ جَمِيعَ الْأَكْوَانِ ، وَسَارَتْ فَمَا أَلْقَتْ عَصَا السَّيْرِ
 إِلَّا بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَسَجَدَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ سَجْدَةَ الشُّكْرِ
 عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، فَلَمْ تَزَلْ سَاجِدَةً حَتَّى قِيلَ لَهَا ﴿ يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ
 الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (٢٧) أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿ (٢٨) فَأَدْخَلِي فِي عَبْدِي ﴾ (٢٩) وَأَدْخَلِي
 جَنِّي ﴿ (٣٠) [الفجر : ٢٧-٣٠] .

فَسُبْحَانَ مَنْ فَاوَتْ بَيْنَ الْخَلْقِ فِي هِمَمِهِمْ ، حَتَّى تَرَى بَيْنَ الْهَمَّتَيْنِ أَبْعَدَ
 مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ ، بَلْ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ أَسْفَلِ سَافِلِينَ وَأَعْلَى عَلِيَّينَ ،
 وَتِلْكَ مَوَاهِبُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣١) [الحديد : ٢١] .

الفرح بالله :

وَمِنْ أَعْظَمِ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ : الْفَرَحُ بِاللَّهِ ، وَالشُّرُورُ بِهِ ، فَيَفْرَحُ بِهِ إِذْ
 هُوَ عَبْدُهُ وَحُبُّهُ ، وَيَفْرَحُ بِهِ سُبْحَانَهُ رَبًّا وَإِلَهًا ، وَمُنْعِمًا وَمُرَبِّيًا ، أَشَدَّ مِنْ

فَرَحَ الْعَبْدُ بِسَيِّدِهِ الْمَخْلُوقِ الْمُشْفِقِ عَلَيْهِ ، الْقَادِرِ عَلَى مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ وَيَطْلُبُهُ مِنْهُ ، الْمُتَنَوِّعِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَالذَّبِّ عَنْهُ .

مَنْ وَكَّلَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَدْ هَلَكَ :

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ - مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ - حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ طَرِيفٍ الْمُعَوَّلِيُّ حَدَّثَنَا غِيْلَانُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ : وَجَدْتُ هَذَا الْإِنْسَانَ مُلْقًى بَيْنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ خَيْرًا : جَبَذَهُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِ خَيْرًا : وَكَلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ وَكَلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَقَدْ هَلَكَ .

نُورُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ :

فَالْإِسْلَامُ لَهُ نُورٌ ، وَالْإِيمَانُ لَهُ نُورٌ أَقْوَى مِنْهُ ، وَالْإِحْسَانُ لَهُ نُورٌ أَقْوَى مِنْهُمَا ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَالْإِحْسَانُ ، وَزَالَتِ الْحُجُبُ الشَّاعِلَةُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى : اِمْتَلَأَ الْقَلْبُ وَالْجَوَارِحُ بِذَلِكَ النُّورِ .

تَفَاوُتُ السَّالِكِينَ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ :

فَمِنْ السَّالِكِينَ : مَنْ يَكُونُ سَيْرُهُ بِبَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنْ سَيْرِهِ بِقَلْبِهِ وَرُوحِهِ .

وَمِنْهُمْ : مَنْ سَيْرُهُ بِقَلْبِهِ أَغْلَبَ عَلَيْهِ ، أَعْنِي قُوَّةَ سَيْرِهِ وَحِدَّتَهُ .

وَمِنْهُمْ : - وَهُمْ الْكَمَلُ الْأَقْوِيَاءُ - مَنْ يُعْطِي كُلَّ مَرْتَبَةٍ حَقَّهَا ، فَيَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بِبَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ ، وَقَلْبِهِ وَرُوحِهِ .

لَا تَنْفَعُ رُسُومُ الصُّوفِيَّةِ وَلَا شَطَاحَاتُهُمْ :

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ : رَأَيْتُ الْجُنَيْدَ فِي النَّوْمِ ، فَقُلْتُ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ ، فَقَالَ : طَاحَتْ تِلْكَ الْإِشَارَاتُ ، وَغَابَتْ تِلْكَ الْعِبَارَاتُ ، وَفَنِيَتْ تِلْكَ الْعُلُومُ ، وَنَفِدَتْ تِلْكَ الرُّسُومُ ، وَمَا نَفَعْنَا إِلَّا رَكَعَاتُ كُنَّا نَرْكَعُهَا فِي الْأَسْحَارِ .

وَتَذَاكُرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ ، وَمَا اسْتَهَانُوا بِهِ مِنَ الْأَوْرَادِ وَالْعِبَادَاتِ بَعْدَمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ الْجُنَيْدُ : الْعِبَادَةُ عَلَى الْعَارِفِينَ أَحْسَنُ مِنَ التَّيْجَانِ عَلَى رُءُوسِ الْمُلُوكِ ، وَقَالَ : الطَّرْقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَلَى الْخَلْقِ ، إِلَّا مَنْ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ ، وَلَزِمَ طَرِيقَتَهُ ، فَإِنَّ طُرُقَ الْخَيْرَاتِ كُلَّهَا مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ فَمُتَمِّنٌ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ بِغَيْرِ بَذْلِ الْمَجْهُودِ فَمُتَمِّنٌ .

وَقَالَ أَبُو نَعِيمٍ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ هَانِيٍّ يَقُولُ : سَأَلْتُ الْجُنَيْدَ ، مَا عَلَامَةُ الْإِيمَانِ ؟ ، فَقَالَ : عَلَامَتُهُ طَاعَةٌ مَنْ أَمَنْتَ بِهِ ، وَالْعَمَلُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَتَرْكُ التَّشَاغُلِ عَنْهُ بِمَا يَنْقُضِي وَيَزُولُ .

فَرَحَّمَهُ اللهُ عَلَى أَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، مَا أَتْبَعَهُ لِسُنَّةِ
الرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا أَقْفَاهُ لَطَرِيقَةَ أَصْحَابِهِ - رَضِيَ
اللهُ عَنْهُمْ - .

مَقَامُكَ حَيْثُ الْمَوْلَى أَقَامَكَ :

وَالصَّادِقُ : يَنْتَظِرُ الْفَرَجَ ، وَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَيُلْقِي نَفْسَهُ
بِالْبَابِ طَرِيقًا ذَلِيلًا مُسْكِينًا مُسْتَكِينًا ، كَالْإِنَاءِ الْفَارِغِ الَّذِي لَا شَيْءَ فِيهِ
الْبَتَّةَ ، يَنْتَظِرُ أَنْ يَضَعَ فِيهِ مَالِكُ الْإِنَاءِ وَصَانِعُهُ مَا يَصْلُحُ لَهُ ، لَا بِسَبَبٍ
مِنَ الْعَبْدِ - وَإِنْ كَانَ هَذَا الْاِفْتِقَارُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ - لَكِنْ لَيْسَ هُوَ
مِنْكَ ، بَلْ هُوَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بِهِ ، وَجَرَّدَكَ مِنْكَ ، وَأَخْلَاكَ عَنْكَ ،
وَهُوَ الَّذِي يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .

فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ أَقَامَكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْحَمَكَ وَيَمْلَأَ
إِنَاءَكَ ، فَإِنْ وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلْبٌ مُضَيِّعٌ ،
فَسَلِّ رَبَّهُ وَمَنْ هُوَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ : أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْكَ وَيَجْمَعَ شَمْلَكَ بِهِ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

إِذَا مَا وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِغَيْرِ إِنَاءٍ فَهُوَ قَلْبٌ مُضَيِّعٌ

أَحْسَنُ مَا عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ :

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ ، فَمَا انْتَفَعْتُ مِنْهُمْ إِلَّا بِكَلِمَتَيْنِ ، سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : الْوَقْتُ سَيْفٌ ، فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ ، وَنَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ ، وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ .

نِعْمَةُ الْإِنْتِفَاعِ بِالْوَقْتِ :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْعَبْدِ خَيْرًا : أَعَانَهُ بِالْوَقْتِ ، وَجَعَلَ وَقْتَهُ مُسَاعِدًا لَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ شَرًّا : جَعَلَ وَقْتَهُ عَلَيْهِ ، وَنَاكَدَهُ وَقْتَهُ ، فَكُلَّمَا أَرَادَ التَّأَهُبَ لِلْمَسِيرِ : لَمْ يُسَاعِدْهُ الْوَقْتُ ، وَالْأَوَّلُ : كُلَّمَا هَمَّتْ نَفْسُهُ بِالْقُعُودِ أَقَامَهُ الْوَقْتُ وَسَاعَدَهُ .

أَقْصَرُ طَرِيقٍ إِلَى اللَّهِ :

فَالطَّرِيقُ مَسْدُودَةٌ إِلَّا عَلَى مَنْ اقْتَفَى آثَارَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَاقْتَدَى بِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ .

فَلَا يَتَعَنَّى السَّالِكُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ ، فَلَيْسَ حَظُّهُ مِنْ سُلُوكِهِ إِلَّا التَّعَبُ ، وَأَعْمَالُهُ كَسَرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾

[النور: ٣٩] .

وَلَا يَتَعَنَّى السَّالِكُ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ ، فَإِنَّهُ وَاصِلٌ وَلَوْ زَحَفَ زَحْفًا ،
فَاتَّبَاعُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِذَا قَعَدَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، قَامَتْ
بِهِمْ عَزَائِمُهُمْ وَهَمَمُّهُمْ وَمَتَابَعَتُهُمْ لِنَبِيِّهِمْ .

كَمَا قِيلَ :

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَّلِّ تَمْشِي رُويْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

هَمَّةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ :

وَأَعْلَى الْهَمَمِ : هَمَّةٌ اتَّصَلَتْ بِالْحَقِّ سُبْحَانَهُ طَلَبًا وَقَصْدًا ، وَأَوْصَلَتْ
الْخَلْقَ إِلَيْهِ دَعْوَةً وَنُصْحًا ، وَهَذِهِ هَمَّةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَصِحَّتْهَا :
بِتَمْيِيزِهَا مِنْ انْقِسَامِ طَلِبِهَا وَانْقِسَامِ مَطْلُوبِهَا وَانْقِسَامِ طَرِيقِهَا ، بَلْ
تَوَحَّدَ مَطْلُوبُهَا بِالْإِخْلَاصِ ، وَطَلِبُهَا بِالصِّدْقِ ، وَطَرِيقُهَا بِالسُّلُوكِ
خَلْفَ الدَّلِيلِ الَّذِي نَصَبَهُ اللَّهُ دَلِيلًا ، لَا مَنْ نَصَبَهُ هُوَ دَلِيلًا لِنَفْسِهِ .

وَلِلَّهِ الْهَمَمُ ! مَا أَعْجَبَ شَأْنَهَا ، وَأَشَدَّ تَفَاوُتَهَا ، فَهَمَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَنْ فَوْقَ
الْعَرْشِ ، وَهَمَّةٌ حَائِمَةٌ حَوْلَ الْأَنْتَانِ وَالْحُشِّ ، وَالْعَامَّةُ تَقُولُ : قِيَمَةُ كُلِّ
أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ . وَالْخَاصَّةُ تَقُولُ : قِيَمَةُ الْمَرْءِ مَا يَطْلُبُهُ ، وَخَاصَّةُ الْخَاصَّةِ
تَقُولُ : هَمَّةُ الْمَرْءِ إِلَى مَطْلُوبِهِ .

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَرَاتِبَ الْهَمَمِ ، فَانْظُرْ إِلَى هَمَّةِ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ
الْأَسْلَمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - : « سَلْنِي ، فَقَالَ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ » . وَكَانَ غَيْرُهُ
يَسْأَلُهُ مَا يَمْلَأُ بَطْنَهُ ، أَوْ يُوَارِي جِلْدَهُ .

وَانْظُرْ إِلَى هِمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ عُرِضَتْ
عَلَيْهِ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ الْأَرْضِ - فَأَبَاهَا .

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَهَا لَأَنْفَقَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ تَعَالَى ، فَأَبَتْ لَهُ تِلْكَ الْهِمَّةُ
الْعَالِيَةُ : أَنْ يَتَعَلَّقَ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِمَّا سِوَى اللَّهِ وَمَحَابِّهِ ، وَعُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ
يَتَصَرَّفَ بِالْمُلْكِ ، فَأَبَاهُ ، وَاخْتَارَ التَّصَرُّفَ بِالْعِبُودِيَّةِ الْمُخَضَّةِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ ، خَالَقُ هَذِهِ الْهِمَّةِ ، وَخَالِقُ نَفْسٍ تَحْمِلُهَا ، وَخَالِقُ هِمَمٍ لَا تَعْدُو هِمَمَ
أَخْسَ الْحَيَوَانَاتِ .

الْفَرَحُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ :

فَالْفَرَحُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ : دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِهِ عِنْدَ صَاحِبِهِ ،
وَمَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَإِثَارِهِ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ ، فَإِنَّ فَرَحَ الْعَبْدِ بِالشَّيْءِ عِنْدَ حُصُولِهِ
لَهُ : عَلَى قَدَرِ مَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَرَغْبَتِهِ فِيهِ ، فَمَنْ لَيْسَ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّيْءِ لَا
يُفَرِّحُهُ حُصُولُهُ لَهُ ، وَلَا يُحْزِنُهُ فَوَاتُهُ ، فَالْفَرَحُ تَابِعٌ لِلْمَحَبَّةِ وَالرَّغْبَةِ .

الْحُزْنُ يَتَوَلَّدُ مِنْ مُفَارَقَةِ الْمَحْبُوبِ :

الْحُزْنُ يَتَوَلَّدُ مِنْ مُفَارَقَةِ الْمَحْبُوبِ ، لَيْسَ لَهُ سَبَبٌ سِوَاهُ ، وَإِنْ تَوَلَّدَ
مِنْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ ، فَذَلِكَ الْمَكْرُوهُ : إِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِمَا فَاتَ بِهِ مِنْ

المَحْبُوب، فَلَا حُزْنَ إِذَا وَلَا هَمَّ وَلَا غَمَّ، وَلَا أَذَى وَلَا كَرْبَ إِلَّا فِي مُفَارَقَةِ الْمَحْبُوب، وَلِهَذَا كَانَ حُزْنُ الْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْأَلَمِ وَالْجَهْلِ وَالْخُمُولِ وَالضُّيْقِ وَسُوءِ الْحَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ : عَلَى فِرَاقِ الْمَحْبُوبِ مِنَ الْمَالِ وَالْوَجْدِ وَالْعَافِيَةِ، وَالْعِلْمِ وَالسَّعَةِ وَحُسْنِ الْحَالِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُفَارَقَةَ الْمُشْتَهَيَاتِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ﴾ [سَبَأُ: ٥٤]، فَالْفَرْحُ وَالسُّرُورُ بِالظَّفَرِ بِالْمَحْبُوبِ، وَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ وَالْأَسْفُ بِفَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، فَاطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُحِبِّ الْوَاصِلِ إِلَى مُحَبُّوبِهِ، وَأَمْرُ الْعَيْشِ عَيْشُ مَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَبُّوبِهِ.

هُمُ الْغُرَبَاءُ :

أَهْلُ الْإِسْلَامِ فِي النَّاسِ غُرَبَاءُ، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ غُرَبَاءُ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمُؤْمِنِينَ غُرَبَاءُ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُمَيِّزُونَهَا مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ فَهُمْ غُرَبَاءُ، وَالِدَّاعُونَ إِلَيْهَا الصَّابِرُونَ عَلَى أَذَى الْمُخَالَفِينَ هُمْ أَشَدُّ هَوْلَاءِ غُرَبَةٍ، وَلَكِنَّ هَوْلَاءَ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ حَقًّا، فَلَا غُرَبَةَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا غُرَبَتُهُمْ بَيْنَ الْأَكْثَرِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِيهِمْ: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١١٦]، فَأَوْلَيْكَ هُمْ

الْغُرَبَاءُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ ، وَغُرَبَتُهُمْ هِيَ الْغُرْبَةُ الْمُوحِشَةُ ، وَإِنْ كَانُوا هُمْ الْمَعْرُوفِينَ الْمَشَارُ إِلَيْهِمْ .

كَمَا قِيلَ :

فَلَيْسَ غَرِيبًا مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارُهُ وَلَكِنَّ مَنْ تَنَأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبٌ

أَنْوَاعُ الْغُرْبَةِ :

الْغُرْبَةُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ :

١ - غُرْبَةُ أَهْلِ اللَّهِ وَأَهْلِ سُنَّةِ رَسُولِهِ :

غُرْبَةُ أَهْلِ اللَّهِ وَأَهْلِ سُنَّةِ رَسُولِهِ بَيْنَ هَذَا الْخَلْقِ ، وَهِيَ الْغُرْبَةُ الَّتِي مَدَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَهْلَهَا ، وَأَخْبَرَ عَنِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ : أَنَّهُ بَدَأَ غَرِيبًا وَأَنَّهُ سَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَأَنَّ أَهْلَهُ يَصِيرُونَ غُرَبَاءَ .

وَهَذِهِ الْغُرْبَةُ قَدْ تَكُونُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ ، وَوَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، وَبَيْنَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ ، وَلَكِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْغُرْبَةِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ حَقًّا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَأْوُوا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَنْتَسِبُوا إِلَى غَيْرِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَلَمْ يَدْعُوا إِلَى غَيْرِ مَا جَاءَ بِهِ ، وَهُمْ الَّذِينَ فَارَقُوا النَّاسَ أَحْوَاجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا انْطَلَقَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ آلِهِتِهِمْ بَقُوا فِي مَكَانِهِمْ ، فَيَقَالُ لَهُمْ : « أَلَا تَنْطَلِقُونَ حَيْثُ انْطَلَقَ النَّاسُ ؟ فَيَقُولُونَ : فَارَقْنَا النَّاسَ

وَنَحْنُ أَحْوَجُ إِلَيْهِمْ مِنَّا الْيَوْمَ، وَإِنَّا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُهُ» (١).

فَهَذِهِ الْغُرْبَةُ لَا وَحْشَةَ عَلَى صَاحِبِهَا ، بَلْ وَأَنْسُ مَا يَكُونُ إِذَا اسْتَوْحَشَ النَّاسُ ، وَأَشَدُّ مَا تَكُونُ وَحْشَتُهُ إِذَا اسْتَأْنَسُوا ، فَوَلِيَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَإِنْ عَادَاهُ أَكْثَرُ النَّاسِ وَجَفَوْهُ.

مِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءِ :

وَمِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ غَبَطَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : التَّمَسُّكُ بِالسُّنَّةِ ، إِذَا رَغِبَ عَنْهَا النَّاسُ ، وَتَرَكُ مَا أَحَدَثُوهُ ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ وَتَجَرِيدُ التَّوْحِيدِ ، وَإِنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَتَرَكُ الْإِنْتِسَابَ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، لَا شَيْخَ وَلَا طَرِيقَةَ وَلَا مَذْهَبَ وَلَا طَائِفَةَ ، بَلْ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءُ مُتَّسِبُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَحْدَهُ ، وَإِلَى رَسُولِهِ بِالِاتِّبَاعِ لِمَا جَاءَ بِهِ وَحْدَهُ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقَابِضُونَ عَلَى الْجَمْرِ حَقًّا ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ بَلْ كُلُّهُمْ لَا يَمُومُ لَهُمْ .

فَلِغُرْبَتِهِمْ بَيْنَ هَذَا الْخَلْقِ : يَعُدُّونَهُمْ أَهْلَ شُدُوزٍ وَبِدْعَةٍ ، وَمُفَارَقَةٍ لِلسَّوَادِ الْأَعْظَمِ .

٢- غُرْبَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ :

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْغُرْبَةِ : غُرْبَةُ مَذْمُومَةٍ وَهِيَ غُرْبَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٢) .

وَأَهْلُ الْفُجُورِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ ، فَهِيَ غُرْبَةٌ بَيْنَ حِزْبِ اللَّهِ الْمُفْلِحِينَ وَإِنْ كَثُرَ أَهْلُهَا فَهُمْ غُرَبَاءُ عَلَى كَثَرَةِ أَصْحَابِهِمْ وَأَشْيَاعِهِمْ ، أَهْلٌ وَخَشَةٌ عَلَى كَثَرَةِ مُؤَنِسِهِمْ ، يُعْرِفُونَ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَيَخْفَوْنَ عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ .

٣- الغُرْبَةُ عَنِ الْوَطَنِ :

النَّوْعُ الثَّالِثُ : غُرْبَةٌ مُشْتَرَكَةٌ لَا تُحْمَدُ وَلَا تُذَمُّ وَهِيَ الْغُرْبَةُ عَنِ الْوَطَنِ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ غُرَبَاءُ ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَهُمْ بَدَارُ مَقَامٍ ، وَلَا هِيَ الدَّارُ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » ^(١) . وَهَكَذَا هُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ أَنْ يُطَالَعَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ وَيَعْرِفَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ .

طُغْيَانُ الْمَعَاصِي أَسْلَمَ عَاقِبَةً مِنْ طُغْيَانِ الطَّاعَةِ :

فَانْظُرْ إِلَى السَّجَّادِ الْعَبَّادِ الزَّاهِدِ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ ، كَيْفَ أَوْرَثَهُ طُغْيَانُ عَمَلِهِ أَنْ أَنْكَرَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَأَوْرَثَ أَصْحَابَهُ اخْتِقَارَ الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى سَلَّوْا عَلَيْهِمْ سُيُوفَهُمْ ، وَاسْتَبَاحُوا دِمَاءَهُمْ .

وَانْظُرْ إِلَى الشَّرِيبِ السَّكِرِ الَّذِي كَانَ كَثِيرًا مَا يُؤْتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤١٦) .

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَيُحَدِّثُهُ عَلَى الشَّرَابِ ، كَيْفَ قَامَتْ بِهِ قُوَّةُ
إِيْمَانِهِ وَيَقِينِهِ ، وَمَحَبَّتِهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَوَاضَعِهِ وَأَنْكِسَارِهِ لِلَّهِ حَتَّى نَهَى
رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ لَعْنَتِهِ .

فَظَهَرَ بِهَذَا : أَنَّ طُغْيَانَ الْمَعَاصِي أَسْلَمَ عَاقِبَةً مِنْ طُغْيَانِ الطَّاعَاتِ .

الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ لِأَهْلِ الْإِيْمَانِ :

جَعَلَ اللَّهُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِأَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى :
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٧)
[النَّحْلُ : ٩٧] ، وَقَدْ فَسَّرَتْ « الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ » بِالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا ، وَالرِّزْقِ
الْحَسَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَالصَّوَابُ : أَنَّهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَنَعِيمُهُ ، وَبَهْجَتُهُ
وَسُرُورُهُ بِالْإِيْمَانِ وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ ، وَمَحَبَّتِهِ ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ،
فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ صَاحِبِهَا ، وَلَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إِلَّا نَعِيمَ
الْجَنَّةِ ، كَمَا كَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ : إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا إِنَّ
كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّهُ لَيَمُرُّ
بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا .

وَإِذَا كَانَتْ حَيَاةُ الْقَلْبِ حَيَاةً طَيِّبَةً تَبَعَتْهُ حَيَاةُ الْجَوَارِحِ ، فَإِنَّهُ مَلَكَهَا ،
وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَهِيَ عَكْسُ

وَهَذِهِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَكُونُ فِي الدُّورِ الثَّلَاثِ ، أَعْنِي : دَارَ الدُّنْيَا ، وَدَارَ
الْبَرْزَخِ ، وَدَارَ الْقَرَارِ ، وَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ أَيْضًا تَكُونُ فِي الدُّورِ الثَّلَاثِ ،
فَالْأَبْرَارُ فِي النَّعِيمِ هُنَا وَهُنَالِكَ ، وَالْفُجَّارُ فِي الْجَحِيمِ هُنَا وَهُنَالِكَ ، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ ﴾ [النحل: ٣٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ
يُمِيعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود:
٣] ، فَذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمَحَبَّتَهُ وَطَاعَتَهُ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ ضَامِنٌ
لأَطْيَبِ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ وَالْغَفْلَةُ وَمَعْصِيَتُهُ
كَفِيلٌ بِالْحَيَاةِ الْمُنْغَصَّةِ ، وَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ إِنَّمَا تُنَالُ بِالْعِمَّةِ الْعَالِيَةِ :

كُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَتَمَّ حَيَاةً ، كَانَتْ هِمَّتُهُ أَعْلَى وَإِرَادَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ أَقْوَى ،
فَإِنَّ الْإِرَادَةَ وَالْمَحَبَّةَ تَتَّبِعُ الشُّعُورَ بِالْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ ، وَسَلَامَةُ الْقَلْبِ مِنَ
الْآفَةِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَلَبِهِ وَإِرَادَتِهِ ، فَضَعْفُ الطَّلَبِ ، وَفُتُورُ الْهَمَّةِ
إِمَّا مِنْ نُقْصَانِ الشُّعُورِ وَالْإِحْسَاسِ ، وَإِمَّا مِنْ وُجُودِ الْآفَةِ الْمُضْعِفَةِ
لِلْحَيَاةِ ، فَقُوَّةُ الشُّعُورِ ، وَقُوَّةُ الْإِرَادَةِ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ الْحَيَاةِ ، وَضَعْفُهَا
دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِهَا ، وَكَمَا أَنَّ عُلُوَّ الْهَمَّةِ ، وَصِدْقَ الْإِرَادَةِ وَالطَّلَبِ مِنْ

كَمَالِ الْحَيَاةِ : فَهُوَ سَبَبٌ إِلَى حُصُولِ أَكْمَلِ الْحَيَاةِ وَأَطْيَبِهَا ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ
الطَّيِّبَةَ إِنَّمَا تُنَالُ بِالْهَمَّةِ الْعَالِيَةِ ، وَالْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ ، وَالْإِرَادَةِ الْخَالِصَةِ ،
فَعَلَى قَدَرِ ذَلِكَ تَكُونُ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ ، وَأَخْسُ النَّاسِ حَيَاةً أَخْسَهُمْ هَمَّةً ،
وَأَضْعَفُهُمْ مَحَبَّةً وَطَلَبًا ، وَحَيَاةُ الْبَهَائِمِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِهِ .

كَمَا قِيلَ :

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورٌ سَهُوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَا زِمٌ
وَتَكْدَحُ فِيمَا سَوْفَ تُنْكِرُ غِبَّهُ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ
تُسَرِّ بِمَا يَفْنَى وَتَفْرَحُ بِالْمُنَى كَمَا غُرَّ بِاللَّذَاتِ فِي النَّوْمِ حَالُمٌ

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ حَيَاةَ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْهَمَّةِ ، وَالنَّاسُ إِذَا
شَاهَدُوا ذَلِكَ مِنَ الرَّجُلِ قَالُوا : هُوَ حَيُّ الْقَلْبِ ، وَحَيَاةُ الْقَلْبِ بِدَوَامِ
الذِّكْرِ ، وَتَرْكِ الذُّنُوبِ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرَكَ الذُّنُوبَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمَلُوءُ كُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا
وَبَاعُوا النُّفُوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا وَلَمْ يَغْلُ فِي الْبَيْعِ أَثْمَانُهَا

فَقَدْ رَتَعَ الْقَوْمُ فِي جِيْفَةٍ يَبِينُ لِذِي اللَّبِّ حُسْرَانَهَا

حَيَاةُ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الذِّكْرِ :

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ : مَنْ وَاطَبَ عَلَى «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ سُنَّةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً أَحْيَى اللَّهُ بِهَا قَلْبَهُ .

وَكَمَا أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - جَعَلَ حَيَاةَ الْبَدَنِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَحَيَاةُ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الذِّكْرِ ، وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَتَرْكِ الذُّنُوبِ ، وَالْغَفْلَةِ الْجَائِمَةِ عَلَى الْقَلْبِ ، وَالتَّعَلُّقِ بِالرَّذَائِلِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنْ قَرِيبٍ يُضْعَفُ هَذِهِ الْحَيَاةُ ، وَلَا يَزَالُ الضَّعْفُ يَتَوَالَى عَلَيْهِ حَتَّى يَمُوتَ ، وَعَلَامَةُ مَوْتِهِ : أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ أَتَدْرُونَ مَنْ مَيِّتُ الْقَلْبِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاخَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

قَالُوا : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا .

كَيْفَ يَمُوتُ الْقَلْبُ ؟ :

وَالرَّجُلُ : هُوَ الَّذِي يَخَافُ مَوْتَ قَلْبِهِ ، لَا مَوْتَ بَدَنِهِ ، إِذْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْخَلْقِ يَخَافُونَ مَوْتَ أَبْدَانِهِمْ ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَوْتِ قُلُوبِهِمْ ، وَلَا يَعْرِفُونَ

مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا الْحَيَاةَ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَذَلِكَ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الطَّبِيعِيَّةَ شَبِيهَةٌ بِالظِّلِّ الزَّائِلِ ، وَالنَّبَاتِ السَّرِيعِ الْجَفَافِ ، وَالْمَنَامِ الَّذِي يُخَيَّلُ كَأَنَّهُ حَقِيقَةٌ ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ خَيَالًا ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- : لَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا أَوْتِيَهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، ثُمَّ جَاءَهُ الْمَوْتُ : لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يَسُرُّهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ ، فَإِذَا لَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْمَوْتَ مَوْتَانِ : مَوْتُ إِرَادِيٍّ ، وَمَوْتُ طَبِيعِيٍّ ، فَمَنْ أَمَاتَ نَفْسَهُ مَوْتًا إِرَادِيًّا كَانَ مَوْتُهُ الطَّبِيعِيَّ حَيَاةً لَهُ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْمَوْتَ الْإِرَادِيَّ : هُوَ قَمْعُ الشَّهَوَاتِ الْمُرِيدَةِ ، وَإِخْمَادُ نِيرَانِهَا الْمُحْرِقَةِ ، وَتَسْكِينُ هَوَائِجِهَا الْمُتَلِفَةِ ، فَحِينَئِذٍ يَتَفَرَّغُ الْقَلْبُ وَالرُّوحُ لِلتَّفَكُّرِ فِيمَا فِيهِ كَمَالُ الْعَبْدِ ، وَمَعْرِفَتِهِ ، وَالِاشْتِغَالِ بِهِ .

وَيَرَى حِينَئِذٍ أَنَّ إِثَارَ الظِّلِّ الزَّائِلِ عَنْ قَرِيبٍ عَلَى الْعَيْشِ اللَّذِيزِ الدَّائِمِ أَخْسَرُ الْخُسْرَانِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الشَّهَوَاتُ وَافِدَةً ، وَاللَّذَاتُ مُؤَثَّرَةً ، وَالْعَوَائِدُ غَالِبَةً ، وَالطَّبِيعَةُ حَاكِمَةً ، فَالْقَلْبُ حِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَسِيرًا ذَلِيلًا ، أَوْ مَهْزُومًا مُخْرَجًا عَنْ وَطْنِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ الَّذِي لَا قَرَارَ لَهُ إِلَّا فِيهِ أَوْ قَتِيلًا مَيِّتًا ، وَمَا لُجْرَحَ بِهِ إِيْلَامٌ ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ : أَنْ يَكُونَ فِي حَرْبٍ ، يُدَالُّ لَهُ فِيهَا مَرَّةً ، وَيُدَالُّ عَلَيْهِ مَرَّةً ، فَإِذَا مَاتَ الْعَبْدُ مَوْتَهُ الطَّبِيعِيَّ ، كَانَتْ بَعْدَهُ حَيَاةُ رُوحِهِ بِتِلْكَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ ، وَالْأَعْمَالِ

الصَّالِحَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ بِإِمَاتَةِ نَفْسِهِ ، فَتَكُونُ حَيَاتُهُ هَاهُنَا عَلَى حَسَبِ مَوْتِهِ الْإِرَادِيِّ فِي هَذِهِ الدَّارِ .

وَهَذَا مَوْضِعٌ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا أَلْبَاءُ النَّاسِ وَعُقَلَاؤُهُمْ ، وَلَا يَعْمَلُ بِمُقْتَضَاهُ إِلَّا أَهْلُ الْأَهَمِّ الْعَلِيَّةِ ، وَالنَّفُوسِ الزَّكِيَّةِ الْأَبِيَّةِ .

حَيَاةُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ :

حَيَاةُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَقَرَّةُ الْعَيْنِ بِاللَّهِ ، وَهَذِهِ الْحَيَاةُ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ الظَّفَرِ بِالْمَطْلُوبِ ، الَّذِي تَقَرُّ بِهِ عَيْنُ طَالِبِهِ ، فَلَا حَيَاةَ نَافِعَةً لَهُ بِدُونِهِ ، وَحَوْلَ هَذِهِ الْحَيَاةِ يُدْنِدُنُ النَّاسُ كُلَّهُمْ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ أَخْطَأَ طَرِيقَهَا ، وَسَلَكَ طَرِيقًا لَا تُفْضِي إِلَيْهَا ، بَلْ تَقْطَعُهُ عَنْهَا ، إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ .

فَدَارَ طَلَبُ الْكُلِّ حَوْلَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَحَرَمَهَا أَكْثَرُهُمْ .

وَسَبَبُ حَرَمَانِهِمْ إِيَّاهَا : ضَعْفُ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ وَالْبَصِيرَةِ ، وَضَعْفُ الْهَمَّةِ وَالْإِرَادَةِ ، فَإِنَّ مَادَّتَهَا بَصِيرَةٌ وَقَادَةٌ ، وَهَمَّةٌ نَقَادَةٌ ، وَالْبَصِيرَةُ كَالْبَصَرِ تَكُونُ عَمَى وَعُورًا وَعَمَشًا وَرَمَدًا ، وَتَامَّةُ النُّورِ وَالضِّيَاءِ ، وَهَذِهِ الْأَفَاتُ قَدْ تَكُونُ لَهَا بِالْخَلْقَةِ فِي الْأَصْلِ ، وَقَدْ تَحْدُثُ فِيهَا بِالْعَوَارِضِ الْكَسْبِيَّةِ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ مِنْ مَرَاتِبِ الْحَيَاةِ هِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِهَا ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهَا مَنْ عَقَلُهُ مَسْبِيٌّ فِي بِلَادِ الشَّهَوَاتِ ، وَأَمَلُهُ مَوْقُوفٌ عَلَى اجْتِنَاءِ اللَّذَاتِ ، وَسِيرَتُهُ جَارِيَةٌ عَلَى أَسْوَأِ الْعَادَاتِ ، وَدِينُهُ مُسْتَهْلَكٌ

بالمعاصي والمخالفات ، وهِمَّتْهُ واقِفَةٌ مَعَ السُّفْلِيَّاتِ ، وَعَقِيدَتُهُ غَيْرُ مُتَلَقَّاةٍ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوتِ ؟ !

فَهُوَ فِي الشَّهَوَاتِ مُنْغَمَسٌ ، وَفِي الشُّبُهَاتِ مُتَكِسٌ ، وَعَنِ النَّاصِحِ مُعْرِضٌ ، وَعَلَى الْمُرْشِدِ مُعْتَرِضٌ ، وَعَنِ السَّرَّاءِ نَائِمٌ ، وَقَلْبُهُ فِي كُلِّ وادِّ هَائِمٌ ، فَلَوْ أَنَّهُ تَجَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَرَغِبَ عَنْ مُشَارَكَةِ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ ، وَخَرَجَ مِنْ ضِيقِ الْجَهْلِ إِلَى فِضَاءِ الْعِلْمِ ، وَمِنْ سِجْنِ الْهَوَىٰ إِلَى سَاحَةِ الْهُدَىٰ ، وَمِنْ نَجَاسَةِ النَّفْسِ ، إِلَى طَهَارَةِ الْقُدُسِ لَرَأَى الْإِلْفَ الَّذِي نَشَأَ بِنَشَأَتِهِ ، وَزَادَ بَزِيَادَتِهِ ، وَقَوِيَ بِقُوَّتِهِ ، وَشَرَفَ عِنْدَ نَفْسِهِ وَأَبْنَاءِ جَنْسِهِ بِحُصُولِهِ ، وَسَدَّ قَذَىٰ فِي عَيْنِ بَصِيرَتِهِ ، وَشَجَا فِي حَلْقِ إِيْمَانِهِ ، وَمَرَضًا مُتَرَامِيًا إِلَى هَلَاكِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ أَشْرْتَ إِلَى حَيَاةٍ غَيْرِ مَعْهُودَةٍ بَيْنَ أَمْوَاتِ الْأَحْيَاءِ ، فَهَلْ يُمَكِّنُكَ وَصْفُ طَرِيقِهَا ، لِأَصِلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ أَذْوَاقِهَا ، فَقَدْ بَانَ لِي أَنَّ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ حَيَاةٌ بَهِيمِيَّةٌ ، رَبَّمَا زَادَتْ عَلَيْنَا فِيهِ الْبَهَائِمُ بِخُلُوقِهَا عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْمُنْغَصَّاتِ وَسَلَامَةِ الْعَاقِبَةِ ؟ .

قُلْتُ : لَعَمْرُ اللَّهِ إِنَّ اشْتِيَاقَكَ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَطَلَبَ عِلْمِهَا وَمَعْرِفَتِهَا : لَدَلِيلٌ عَلَى حَيَاتِكَ ، وَأَنْتَ لَسْتَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ .

فَأَوَّلُ طَرِيقِهَا : أَنْ تَعْرِفَ اللَّهَ ، وَتَهْتَدِيَ إِلَيْهِ طَرِيقًا يُوصِّلُكَ إِلَيْهِ ،

وَيُحْرِقُ ظِلْمَاتِ الطَّبَعِ بِأَشْعَةِ الْبَصِيرَةِ ، فَيَقُومُ بِقَلْبِهِ شَاهِدٌ مِنْ شَوَاهِدِ
الْآخِرَةِ ، فَيَنْجَذِبُ إِلَيْهَا بِكُلِّيَّتِهِ ، وَيَزْهَدُ فِي التَّعَلُّقَاتِ الْفَانِيَةِ ، وَيَدَأْبُ
فِي تَصْحِيحِ التَّوْبَةِ ، وَالْقِيَامِ بِالْمَأْمُورَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، وَتَرْكِ
الْمُنْهَيَّاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، ثُمَّ يَقُومُ حَارِسًا عَلَى قَلْبِهِ ، فَلَا يُسَاحِمُهُ
بِخَطَرَةٍ يَكْرَهُهَا اللَّهُ ، وَلَا بِخَطَرَةٍ فُضُولٍ لَا تَنْفَعُهُ ، فَيَصْفُو بِذَلِكَ قَلْبَهُ
عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَوَسْوَاسِهَا ، فَيُفْدِي مِنْ أَسْرَهَا ، وَيَصِيرُ طَلِيقًا ،
فَحِينَئِذٍ يَخْلُو قَلْبُهُ بِذِكْرِ رَبِّهِ ، وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ بَيُوتِ
طَبَعِهِ وَنَفْسِهِ ، إِلَى فُضَاءِ الْخُلُوةِ بِرَبِّهِ وَذِكْرِهِ ، كَمَا قِيلَ :

وَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعْنِي أَحَدَّثَ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السَّرِّ خَالِيًا
فَحِينَئِذٍ يَجْتَمِعُ قَلْبُهُ وَخَوَاطِرُهُ وَحَدِيثُ نَفْسِهِ عَلَى إِرَادَةِ رَبِّهِ ، وَطَلَبِهِ
وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ .

فَإِذَا صَدَقَ فِي ذَلِكَ رُزْقَ مَحَبَّةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ،
وَاسْتَوْلَتْ رُوحَانِيَّتُهُ عَلَى قَلْبِهِ ، فَجَعَلَهُ إِمَامَهُ وَمُعَلِّمَهُ ، وَأُسْتَاذَهُ وَشَيْخَهُ
وَقُدْوَتَهُ ، كَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ وَهَادِيًا إِلَيْهِ ، فَيُطَالِعُ سِيرَتَهُ
وَمَبَادِي أَمْرِهِ ، وَكَيْفِيَّةَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ، وَيَعْرِفُ صِفَاتِهِ وَأَخْلَاقَهُ ،
وَأَدَابَهُ فِي حَرَكَاتِهِ وَسُكُونِهِ وَيَقْظَتِهِ وَمَنَامِهِ ، وَعِبَادَتِهِ وَمُعَاشَرَتِهِ لِأَهْلِهِ
وَأَصْحَابِهِ ، حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ مَعَهُ مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ .

فَإِذَا رَسَخَ قَلْبُهُ فِي ذَلِكَ : فَتَحَ عَلَيْهِ بِفَهْمِ الْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ،
بَحِثُ لَوْ قَرَأَ السُّورَةَ شَاهَدَ قَلْبُهُ مَا أَنْزَلْتَ فِيهِ ، وَمَا أَرِيدَ بِهَا ، وَحَظَّهُ
الْمُخْتَصَّ بِهَا مِنْهَا مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ ، فَيَجْتَهِدُ
فِي التَّخْلِصِ مِنْهَا كَمَا يَجْتَهِدُ فِي الشِّفَاءِ مِنَ الْمَرَضِ الْمَخُوفِ ، وَشَاهَدَ
حَظَّهُ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَمْدُوحَةِ ، فَيَجْتَهِدُ فِي تَكْمِيلِهَا وَإِتْمَامِهَا .

فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ انْفَتَحَ فِي قَلْبِهِ عَيْنٌ أُخْرَى ، يُشَاهِدُ بِهَا صِفَاتِ
الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ، حَتَّى تَصِيرَ لِقَلْبِهِ بِمَنْزِلَةِ الْمَرْئِي لِعَيْنِهِ ، فَيَشْهَدُ عُلُوَّ
الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فَوْقَ خَلْقِهِ ، وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ ، وَنُزُولَ الْأَمْرِ مِنْ
عِنْدِهِ بِتَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ ، وَتَكْلِيمِهِ بِالْوَحْيِ ، وَتَكْلِيمَهُ لِعَبْدِهِ جَبْرِيلَ بِهِ ،
وَأَرْسَالَهُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ بِمَا يَشَاءُ ، وَصُعُودَ الْأُمُورِ إِلَيْهِ ، وَعَرْضَهَا عَلَيْهِ .

فَيُشَاهِدُ قَلْبُهُ رَبًّا قَاهِرًا فَوْقَ عِبَادِهِ ، أَمْرًا نَاهِيًا ، بَاعِثًا لِرُسُلِهِ ، مُنْزِلًا
لِكُتُبِهِ ، مَعْبُودًا مُطَاعًا ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا مَثِيلَ ، وَلَا عَدْلَ لَهُ ، لَيْسَ
لِأَحَدٍ مَعَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ ، فَيَشْهَدُ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ قَائِمًا
بِالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ ، فَلَا حَرَكَةَ وَلَا سُكُونَ ، وَلَا نَفْعَ وَلَا ضَرَّ ، وَلَا عَطَاءَ
وَلَا مَنَعَ ، وَلَا قَبْضَ وَلَا بَسْطَ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، فَيَشْهَدُ قِيَامَ الْكَوْنِ
كُلِّهِ بِهِ ، وَقِيَامَهُ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ ، فَهُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ ، الْمُقِيمُ لِكُلِّ مَا
سِوَاهُ .

فَإِذَا رَسَخَ قَلْبُهُ فِي ذَلِكَ: شَهِدَ الصِّفَةَ الْمَصَحَّحَةَ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي كَمَا هَا يَسْتَلْزِمُ كَمَالَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْقُدْرَةَ وَالْإِرَادَةَ وَالْكَلَامَ وَسَائِرِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَصِفَةَ الْقِيُومِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمَصَحَّحَةَ لِجَمِيعِ الْأَفْعَالِ، فَالْحَيُّ الْقَيُّومُ: مَنْ لَهُ كُلُّ صِفَةٍ كَمَالٍ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ.

فَإِذَا رَسَخَ قَلْبُهُ فِي ذَلِكَ: فَتَحَ لَهُ مَشْهَدَ الْقُرْبِ وَالْمَعِيَّةِ فَيَشْهَدُهُ سُبْحَانَهُ مَعَهُ، غَيْرَ غَائِبٍ عَنْهُ، قَرِيبًا غَيْرَ بَعِيدٍ، مَعَ كَوْنِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ، قَائِمًا بِالْصُّنْعِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَيَحْصُلُ لَهُ مَعَ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ الْأَنْسُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَيَأْنَسُ بِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُسْتَوْحِشًا، وَيَقْوَى بِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ ضَعِيفًا، وَيَفْرَحُ بِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ حَزِينًا، وَيَجِدُ بَعْدَ أَنْ كَانَ فَاقِدًا، فَحِينَئِذٍ يَجِدُ طَعْمَ قَوْلِهِ: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» (١).

فَأَطِيبَ الْحَيَاةَ عَلَى الْإِطْلَاقِ حَيَاةَ هَذَا الْعَبْدِ، فَإِنَّهُ مُحِبٌّ مُحْبُوبٌ، مُتَقَرَّبٌ إِلَى رَبِّهِ، وَرَبُّهُ قَرِيبٌ مِنْهُ، قَدْ صَارَ لَهُ حَبِيبُهُ لِفَرْطِ اسْتِيلَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ وَلَهْجِهِ بِذِكْرِهِ وَعُكُوفِ هِمَّتِهِ عَلَى مَرْضَاتِهِ بِمَنْزِلَةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٢).

وَيْدِهِ وَرَجْلِهِ ، وَهَذِهِ آلَاتُ إِدْرَاكِهِ وَعَمَلِهِ وَسَعْيِهِ ، فَإِنْ سَمِعَ سَمِعَ بِحَبِيبِهِ ، وَإِنْ أَبْصَرَ أَبْصَرَ بِهِ ، وَإِنْ بَطَشَ بَطَشَ بِهِ ، وَإِنْ مَشَى مَشَى بِهِ .
فَإِنْ صَعِبَ عَلَيْكَ فَهُمْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَكَوْنُ الْمَحَبِّ الْكَامِلِ الْمَحَبَّةَ
يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي بِمَحْبُوبِهِ ، وَذَاتُهُ غَائِبَةٌ عَنْهُ ، فَاضْرِبْ
عَنْهُ صَفْحًا ، وَخَلِّ هَذَا الشَّأْنَ لِأَهْلِهِ .

خَلِّ الْهَوَى لِنَاسٍ يُعْرِفُونَ بِهِ قَدْ كَابَدُوا الْحَبَّ حَتَّى لَانَ أَصْعَبُهُ

لِكُلِّ عَمَلٍ شَرٌّ :

فَإِنَّ السَّالِكَ إِلَى رَبِّهِ لَا تَزَالُ هِمَّتُهُ عَاكِفَةً عَلَى أَمْرَيْنِ ؛ اسْتِفْرَاغِ الْقَلْبِ
فِي صَدَقِ الْحَبِّ ، وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى
يَبْدُو عَلَى سِرِّهِ شَوَاهِدُ مَعْرِفَتِهِ ، وَآثَارُ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ ، وَلَكِنْ يَتَوَارَى
عَنْ ذَلِكَ أَحْيَانًا ، وَيَبْدُو أَحْيَانًا ، يَبْدُو مِنْ عَيْنِ الْجُودِ ، وَيَتَوَارَى بِحُكْمِ
الْفَتْرَةِ ، وَالْفَتَرَاتُ أَمْرٌ لَازِمٌ لِلْعَبْدِ ، فَكُلُّ عَامِلٍ لَهُ شَرٌّ ، وَلِكُلِّ شَرٍّ
فَتْرَةٌ ، فَأَعْلَاهَا فَتْرَةُ الْوَحْيِ ؛ وَهِيَ لِلْأَنْبِيَاءِ ، وَفَتْرَةُ الْحَالِ الْخَاصِّ
لِلْعَارِفِينَ ، وَفَتْرَةُ الْهَمَّةِ لِلْمُرِيدِينَ ، وَفَتْرَةُ الْعَمَلِ لِلْعَابِدِينَ ، وَفِي هَذِهِ
الْفَتَرَاتِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَالتَّعَرُّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَتَعْرِيفِ قَدْرِ
النِّعْمَةِ ، وَتَجْدِيدِ الشَّوْقِ إِلَيْهَا ، وَمَحْضِ التَّوَّاجُدِ إِلَيْهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَتَكَرَّرُ وَتَتَزَايِدُ ، حَتَّى تَسْتَقَرَّ ، وَيَنْصَبِغَ بِهَا

قَلْبُهُ ، وَتَصِيرُ الْفَتْرَةُ غَيْرَ قَاطِعَةٍ لَهُ ، بَلْ تَكُونُ نِعْمَةً عَلَيْهِ ، وَرَاحَةً لَهُ ، وَتَرْوِيحًا وَتَنْفِيسًا عَنْهُ .

فَهَمَّةُ الْمَحَبِّ إِذَا تَعَلَّقَتْ رُوحَهُ بِحَبِيبِهِ ، عَاكِفًا عَلَى مَزِيدِ مَحَبَّتِهِ ، وَأَسْبَابِ قُوَّتِهَا ، فَهُوَ يَعْمَلُ عَلَى هَذَا ، ثُمَّ يَتَرَقَّى مِنْهُ إِلَى طَلَبِ مَحَبَّةِ حَبِيبِهِ لَهُ ، فَيَعْمَلُ عَلَى حُصُولِ ذَلِكَ ، وَلَا يُعَدِّمُ الطَّلَبَ الْأَوَّلَ ، وَلَا يُفَارِقُهُ أَلْبَتَّةَ ، بَلْ يَنْدَرِجُ فِي هَذَا الطَّلَبِ الثَّانِي ، فَتَعَلَّقَ هَمَّتُهُ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ مَنْزِلَةٌ " كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ " بِهَذَا الْأَمْرِ الثَّانِي ، وَهُوَ كَوْنُهُ مُحْبُوبًا لِحَبِيبِهِ ، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ " فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمِعُهُ وَبَصَرُهُ " إلخ ، فَهُوَ يَتَقَرَّبُ إِلَى رَبِّهِ حِفْظًا لِمَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَاسْتِدْعَاءً لِمَحَبَّةِ رَبِّهِ لَهُ .

فَحِينَئِذٍ يَشُدُّ مَنَزَرَ الْجَدِّ فِي طَلَبِ مَحَبَّةِ حَبِيبِهِ لَهُ بِأَنْوَاعِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ، فَقَلْبُهُ ؛ لِلْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَلِسَانُهُ ؛ لِلذِّكْرِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِ حَبِيبِهِ ، وَجَوَارِحُهُ ؛ لِلطَّاعَاتِ ، فَهُوَ لَا يَفْتَرُّ عَنِ التَّقَرُّبِ مِنْ حَبِيبِهِ .

وَهَذَا هُوَ السَّيْرُ الْمَفْضِي إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ الَّتِي لَا تُنَالُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ ، وَحِينَئِذٍ تَجْمَعُ لَهُ فِي سَيْرِهِ جَمِيعُ مُتَفَرِّقَاتِ السُّلُوكِ مِنَ الْحُضُورِ وَالْهَيْبَةِ وَالْمَرَاقَبَةِ وَنَفْيِ الْخَوَاطِرِ وَتَخْلِيَةِ الْبَاطِنِ .

التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ :

فَإِنَّ الْمَحَبَّ يَشْرَعُ أَوَّلًا فِي التَّقَرُّبَاتِ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ ، وَهِيَ ظَاهِرُ التَّقَرُّبِ ، ثُمَّ يَتَرَقَّى مِنْ ذَلِكَ إِلَى حَالِ التَّقَرُّبِ ، وَهُوَ الْإِنْجَذَابُ إِلَى حَبِيبِهِ بِكُلِّيَّتِهِ بِرُوحِهِ وَقَلْبِهِ ، وَعَقْلِهِ وَبَدَنِهِ ، ثُمَّ يَتَرَقَّى مِنْ ذَلِكَ إِلَى حَالِ الْإِحْسَانِ ، فَيَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، فَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَاطِنِهِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ ؛ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْخَشْيَةِ ، فَيَنْبَعِثُ حِينَئِذٍ مِنْ بَاطِنِهِ الْجُودُ بِبَدَلِ الرُّوحِ وَالْجُودُ فِي مَحَبَّةِ حَبِيبِهِ بِلَا تَكْلَفٍ ، فَيَجُودُ بِرُوحِهِ وَنَفْسِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَأَعْمَالِهِ لِحَبِيبِهِ حَالًا لَا تَكْلَفًا ، فَإِذَا وَجَدَ الْمَحَبُّ ذَلِكَ فَقَدْ ظَفَرَ بِحَالِ التَّقَرُّبِ وَسِرِّهِ وَبَاطِنِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ فَهُوَ يَتَقَرَّبُ بِلِسَانِهِ وَبَدَنِهِ وَظَاهِرِهِ فَقَطْ ، فَلْيَدْمُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلْيَتَكَلَّفِ التَّقَرُّبَ بِالْأَذْكَارِ وَالْأَعْمَالِ عَلَى الدَّوَامِ ، فَعَسَاهُ أَنْ يَحْظِيَ بِحَالِ الْقُرْبِ .

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْمُحِبِّينَ :

فَلَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْمُحِبِّينَ ، الَّذِينَ قَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ بِحَبِيبِهِمْ ، وَسَكَنَتْ نَفْسُهُمْ إِلَيْهِ ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِهِ ، وَاسْتَأْنَسُوا بِقُرْبِهِ ، وَتَنَعَّمُوا بِحُبِّهِ ، فِي الْقَلْبِ فَاقَةً لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّةُ اللَّهِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَلْمُ شَعْنَهُ بغيرِ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ ، وَمَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِذَلِكَ : فَحَيَاتُهُ كُلُّهَا هُمُومٌ

وَعُغْمُومٌ ، وَالْأَمُّ وَحَسَرَاتٌ ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ
عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ ، فَإِنَّ هِمَّتَهُ لَا تَرْضَى فِيهَا بِالْذُّونِ وَإِنْ كَانَ مَهِينًا
خَسِيسًا ، فَعَيْشُهُ كَعَيْشِ أَحْسَنِ الْحَيَوَانَاتِ ، فَلَا تَقْرَأُ الْعُيُونُ إِلَّا بِمَحَبَّةِ
الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ .

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ

حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ :

حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا الْأَبْدَانِ وَخِلَاصِهَا مِنْ هَذَا السَّجْنِ
وَضَيْقِهِ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ فُضَاءٌ وَرَوْحًا وَرَيْحَانًا وَرَاحَةً ، نَسْبَةُ هَذِهِ الدَّارِ
إِلَيْهِ كَنَسْبَةِ بَطْنِ الْأُمِّ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ ، أَوْ أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ بَعْضُ
الْعَارِفِينَ : لَتَكُنْ مُبَادَرْتُكَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا كَمُبَادَرَتِكَ إِلَى الْخُرُوجِ
مِنَ السَّجْنِ الضَّيِّقِ إِلَى أَحَبِّتِكَ ، وَالْاجْتِمَاعِ بِهِمْ فِي الْبَسَاتِينِ الْمُوْنِقَةِ ،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٨٨) فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ (٨٩) ﴿ [الْوَاقِعَةُ : ٨٨-٨٩] .

وَيَكْفِي فِي طَيْبِ هَذِهِ الْحَيَاةِ : مُرَافَقَةُ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَمُفَارَقَةُ الرَّفِيقِ
الْمُؤْذِي الْمُنْكَدِ ، الَّذِي تُنْغَصُ رُؤْيِيَّتُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ الْحَيَاةَ ، فَضْلًا عَنْ
مُخَالَطَتِهِ وَعِشْرَتِهِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ، فِي جِوَارِ
الرَّبِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

قَدْ قُلْتُ :

إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَسْرَفُوا فِي الْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ
لَا تُعْرَفُ مِنْهَا أَمَانُ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يُنْصَفُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَوْتِ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا أَنَّهُ بَابُ الدُّخُولِ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ،
وَجِسْرٌ يُعْبَرُ مِنْهُ إِلَيْهَا : لَكَفَى بِهِ تَخَفَةً لِلْمُؤْمِنِ .

جَزَى اللَّهُ عَنَّا الْمَوْتَ خَيْرًا فَإِنَّهُ أَبْرُّ بِنَا مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَأَلْطَفُ
يُعَجِّلُ تَخْلِيصَ النُّفُوسِ مِنَ الْأَذَى وَيُؤَدِّي إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

فَالَا جِتْهَادُ فِي هَذَا الْعُمُرِ الْقَصِيرِ ، وَالْمُدَّةِ الْقَلِيلَةِ ، وَالسَّعْيِ وَالْكَدْحِ ،
وَتَحْمُلِ الْأَثْقَالِ ، وَالتَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ إِنَّمَا هُوَ هَذِهِ الْحَيَاةُ ، وَالْعُلُومُ وَالْأَعْمَالُ
وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا ، وَهِيَ يَقْظَةٌ ، وَمَا قَبْلَهَا مِنَ الْحَيَاةِ نَوْمٌ ، وَهِيَ عَيْنٌ ، وَمَا
قَبْلَهَا أَثَرٌ ، وَهِيَ حَيَاةٌ جَامِعَةٌ بَيْنَ فَقْدِ الْمَكْرُوهِ ، وَحُصُولِ الْمَحْبُوبِ فِي
مَقَامِ الْأُنْسِ ، وَحَضْرَةِ الْقُدُسِ ، حَيْثُ لَا يَتَعَذَّرُ مَطْلُوبٌ ، وَلَا يُفْقَدُ
مَحْبُوبٌ ؛ حَيْثُ الطَّمَأْنِينَةُ وَالرَّاحَةُ ، وَالْبَهْجَةُ وَالسُّرُورُ ، حَيْثُ لَا عِبَارَةَ
لِلْعَبْدِ عَنْ حَقِيقَةِ كُنْهَهَا ؛ لِأَنَّهَا فِي بَلَدٍ لَا عَهْدَ لَنَا بِهِ ، وَلَا إِلْفَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

سَاكِنَهُ ، فَالْنَفْسُ لِأَلْفَهَا هَذَا السَّجْنَ الضَّيِّقِ النَّكَدِ زَمَانًا طَوِيلًا تَكْرَهُ
الْإِنْتِقَالَ مِنْهُ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ ، وَتَسْتَوْحِشُ إِذَا اسْتَشْعَرَتْ مُفَارَقَتَهُ .

وَحُصُولُ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ إِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِخَبَرِ إِلَهِيٍّ عَلَى يَدِ
أَكْمَلِ الْخَلْقِ وَأَعْلَمِهِمْ وَأَنْصَحِهِمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَامَتْ
شَوَاهِدُهَا فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، حَتَّى صَارَتْ لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَانِ ،
فَفَرَّتْ نُفُوسُهُمْ مِنْ هَذَا الظِّلِّ الزَّائِلِ ، وَالْخَيَالِ الْمُضْمَحِلِّ ، وَالْعَيْشِ
الْفَانِي الْمَشُوبِ بِالتَّغْيِصِ وَأَنْوَاعِ الْغَصَصِ ، رَغْبَةً عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ ،
وَشَوْقًا إِلَى ذَلِكَ الْمَلَكُوتِ ، وَوَجَدًا بِهَذَا السُّرُورِ ، وَطَرَبًا عَلَى هَذَا الْحَدِّ ،
وَاشْتِيَاقًا لِهَذَا النَّسِيمِ الْوَارِدِ مِنْ مَحَلِّ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنَّ مَنْ سَافَرَ إِلَى بَلَدِ الْعَدْلِ وَالْخُصْبِ وَالْأَمْنِ وَالسُّرُورِ
صَبَرَ فِي طَرِيقِهِ عَلَى كُلِّ مَشَقَّةٍ وَإِعْوَازٍ وَجَذَبٍ ، وَفَارَقَ الْمُتَخَلِّفِينَ
أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِمْ ، وَأَجَابَ الْمُنَادِيَ إِذَا نَادَى بِهِ حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ ،
وَبَذَلَ نَفْسَهُ فِي الْوُصُولِ بِذَلِكَ الْمُحِبِّ بِالرِّضَا وَالسَّمَاحِ ، وَوَاصَلَ السَّيْرَ
بِالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ ، فَحَمِدَ عِنْدَ الْوُصُولِ مَسْرَاهُ ، وَإِنَّمَا يَحْمَدُ الْمَسَافِرُ
السَّرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ .

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرَى وَفِي الْمَمَاتِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ اللَّقَا

وَمَا هَذَا وَاللَّهُ بِالصَّعْبِ وَلَا بِالشَّدِيدِ ، مَعَ هَذَا الْعُمَرِ الْقَصِيرِ ،

الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تِلْكَ الدَّارِ كَسَاعَةٍ مِنْ ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الْأَحْقَافُ: ٣٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يُونُسُ: ٤٥] ، وَقَالَ : ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦) [النَّازِعَات: ٤٦] ، وَقَالَ : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّومُ: ٥٥] ، قَالَ تَعَالَى : ﴿قَلَّ كَمَ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ (١١٣) قَلَّ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) [الْمُؤْمِنُونَ: ١١٢-١١٤] ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَنَا يُجْرَى عَلَى وَجْهِهِ يَتَّقِي بِهِ الشُّوكَ وَالْحِجَارَةَ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَثِيرًا وَلَا غَبْنًا فِي جَنْبِ مَا يُوقَّاهُ .

فَوَاحَسَرَتَاهُ عَلَى بَصِيرَةٍ شَاهَدَتْ هَاتَيْنِ الْحَيَاتَيْنِ عَلَى مَا هُمَا عَلَيْهِ ، وَعَلَى هِمَّةٍ تُؤَثِّرُ الْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِتَوْفِيقٍ مِّنْ أَرْمَةِ الْأُمُورِ بِيَدَيْهِ ، وَمِنْهُ ابْتِدَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَانْتِهَاؤُهُ إِلَيْهِ ، أَقْعَدَ نَفُوسَ مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ عَنِ السَّفَرِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ ، وَجَذَبَ قُلُوبَ مَنْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ الْحُسْنَى ، وَأَقَامَهُمْ فِي الطَّرِيقِ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِمْ رُكُوبَ الْأَخْطَارِ ، فَأَضَاعَ أُولَئِكَ مَرَاحِلَ أَعْمَارِهِمْ مَعَ الْمُتَخَلِّفِينَ وَقَطَعَ هَؤُلَاءِ مَرَاحِلَ أَعْمَارِهِمْ مَعَ السَّائِرِينَ ، وَعَقِدَتِ الْغَبْرَةُ وَثَارَ الْعَجَاجِ ، فَتَوَارَى عَنْهُ السَّائِرُونَ وَالْمُتَخَلِّفُونَ ، وَسَيَنْجَلِي عَنْ قَرِيبٍ ، فَيَفُوزُ الْعَامِلُونَ ،

وَيُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ .

حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ :

وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ تُعَلِّمُ حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَنْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَأَنَّهَا أَكْمَلُ مِنْ حَيَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَأَتَمُّ وَأَطْيَبُ ، وَإِنْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مُتَلَاشِيَةً ، وَلَحُومُهُمْ مُتَمَزِّقَةً ، وَأَوْصَالُهُمْ مُتَفَرِّقَةً ، وَعِظَامُهُمْ نَخِرَةً ، فَلَيْسَ الْعَمَلُ عَلَى الطَّلَلِ إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي السَّائِكِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٦٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [البَقَرَةِ : ١٥٤] ، وَإِذَا كَانَ الشُّهَدَاءُ إِنَّمَا نَالُوا هَذِهِ الْحَيَاةَ بِمُتَابَعَةِ الرُّسُلِ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَمَا الظَّنُّ بِحَيَاةِ الرُّسُلِ فِي الْبَرْزَخِ ؟ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ :

فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خَيَالٌ سَارِي

فَلِلرُّسُلِ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّدِيقِينَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي هِيَ يَقْظَةٌ مِنْ نَوْمِ الدُّنْيَا أَكْمَلُهَا وَأَتَمُّهَا ، وَعَلَى قَدَرِ حَيَاةِ الْعَبْدِ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَكُونُ شَوْقُهُ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَسَعْيُهُ وَحِرْصُهُ عَلَى الظَّفَرِ بِهَا ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

الحياة الباقية :

الحياة الدائمة الباقية بعد طي هذا العالم ، وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان ، وهي الحياة التي شمر إليها المشمرون ، وسابق إليها المتسابقون ، ونافس فيها المتنافسون ، وهي التي أجرينا الكلام إليها ، ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها ، وهي التي يقول من فاتته الاستعداد لها ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۚ وَجَاءَ يَوْمٍ يُؤْمَذُ بِجَهَنَّمَ يَوْمٍ يَنْذَكَرُ الْإِنْسَنُ أَنَّ لَهُ الذِّكْرَى ۚ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۚ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ۚ وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدٌ ۚ ﴾ [الفجر : ٢١-٢٦] .

وهي التي قال الله - عز وجل - فيها : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

والحياة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها ، وكل ما تقدم من وصف السير ومنازله ، وأحوال السائرين ، وعبوديتهم الظاهرة والباطنة فوسيلة إلى هذه الحياة ، وإنما الحياة الدنيا بالنسبة إليها ، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبغته في السَّمِّ فليَنْظُرْ بَمَ تَرْجِعُ ؟ » ^(١) .

(١) (صحيح) رواه مسلم (٢٨٥٨) والترمذي (١٥) .

وَكَمَا قِيلَ : تَنَفَّسَتِ الْآخِرَةُ فَكَانَتْ الدُّنْيَا نَفْسًا مِنْ أَنْفَاسِهَا ، فَأَصَابَ أَهْلُ السَّعَادَةِ نَفْسَ نَعِيمِهَا ، فَهُمْ عَلَى هَذَا النَّفْسِ يَعْمَلُونَ ، وَأَصَابَ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ نَفْسَ عَذَابِهَا ، فَهُمْ عَلَى ذَلِكَ النَّفْسِ يَعْمَلُونَ .

غَيْرَةُ الْمَوْلَى - جَلَّ جَلَالُهُ - :

الْحَقَّ جَلَّ جَلَالُهُ غَيْرٌ لَا يَرْضَى مَنْ عَرَفَهُ وَوَجَدَ حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ ، وَاتَّصَلَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّتِهِ وَالْأَنْسَ بِهِ ، وَتَعَلَّقَتْ رُوحُهُ بِإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ التَّفَاتُ إِلَى غَيْرِهِ أَلْبَتَّةَ .

وَمِنْ غَيْرَتِهِ سُبْحَانَهُ : حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَغَارُ أَشَدَّ الْغَيْرَةِ عَلَى عَبْدِهِ : أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى سِوَاهُ ، فَإِذَا أَذَاقَهُ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِهِ ، وَلَذَّةَ الشُّوقِ إِلَيْهِ ، وَأَنْسَ مَعْرِفَتِهِ ، ثُمَّ سَاكَنَ غَيْرَهُ بِأَعَدَهُ مِنْ قُرْبِهِ ، وَقَطَعَهُ مِنْ وَصْلِهِ ، وَأَوْحَشَ سِرَّهُ ، وَشَتَّتَ قَلْبَهُ ، وَنَغَصَ عَيْشَهُ ، وَأَلْبَسَهُ رَدَاءَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ وَالْهُوَانِ ، فَنَادَى عَلَيْهِ حَالُهُ ، إِنْ لَمْ يُصْرِّحْ بِهِ قَالَهُ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَعَوَّضَ عَنْ وَلِيِّهِ وَإِلَهِهِ وَفَاطِرِهِ ، وَمَنْ لَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِهِ بَغَيْرِهِ وَآثَرَ غَيْرَهُ عَلَيْهِ ، فَاتَّخَذَ سِوَاهُ لَهُ حَبِيبًا ، وَرَضِيَ بَغَيْرِهِ أُنَيْسًا ، وَاتَّخَذَ سِوَاهُ وَلِيًّا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ

لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

فَإِذَا ضُربَ هَذَا الْقَلْبُ بِسَوْطِ الْبُعْدِ وَالْحِجَابِ ، وَسُلِطَ عَلَيْهِ مَنْ
يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَمُلِيَ مِنَ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ ، وَصَارَ
مَحَلًّا لِلْجَيْفِ وَالْأَقْذَارِ وَالْأَتْتَانِ ، وَبُدِّلَ بِالْأَنْسِ وَخَشَّةً ، وَبِالْعَزِّ ذُلًّا ،
وَبِالْقَنَاعَةِ حِرْصًا ، وَبِالْقُرْبِ بُعْدًا وَطَرْدًا ، وَبِالْجَمْعِ شَتَاتًا وَتَفَرُّقَةً كَانَ
هَذَا بَعْضُ جَزَائِهِ ، فَحِينَئِذٍ تَطْرُقُهُ الطَّوَارِقُ وَالْمُؤَلِمَاتُ ، وَتَعْتَرِيهِ وَفُودُ
الْأَحْزَانِ وَالْهُمُومِ بَعْدَ وَفُودِ الْمَسَرَّاتِ .

قَرَأَ قَارِئٌ بَيْنَ يَدَيِ السَّرِيِّ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] ، فَقَالَ
السَّرِيُّ : تَدْرُونَ مَا هَذَا الْحِجَابُ ؟ ، هُوَ حِجَابُ الْغَيْرَةِ ، وَلَا أَحَدٌ أَغْيَرُ
مِنَ اللَّهِ ، فَمَنْ عَرَفَهُ وَذَاقَ حَلَاوَةَ قُرْبِهِ وَمَحَبَّتِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ إِلَى مُسَاكِنَةِ
غَيْرِهِ : ثَبَّطَ جَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ ، وَعَقَلَ قَلْبَهُ عَنْ إِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ ، وَأَخْرَهُ
عَنْ مَحَلِّ قُرْبِهِ ، وَوَلَّاهُ مَا اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : اخْذَرُهُ ، فَإِنَّهُ غَيُورٌ ، لَا يُحِبُّ أَنْ يَرَى فِي قَلْبِ عَبْدِهِ سِوَاهُ .
وَمِنْ غَيْرَتِهِ : أَنَّ صَفِيَّةَ آدَمَ لَمَّا سَاكَنَ بِقَلْبِهِ الْجَنَّةَ ، وَحَرَصَ عَلَى الْخُلُودِ
فِيهَا أَخْرَجَهُ مِنْهَا ، وَمِنْ غَيْرَتِهِ سُبْحَانَهُ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ لَمَّا أَخَذَ
إِسْمَاعِيلُ شُعْبَةً مِنْ قَلْبِهِ أَمَرَهُ بِذَبْحِهِ ، حَتَّى يُخْرِجَ مِنْ قَلْبِهِ ذَلِكَ الْمُرَاحِمَ .

إِنَّمَا كَانَ الشِّرْكَ عِنْدَهُ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ لَتَعْلُقَ قَلْبُ الْمُشْرِكِ بِهِ وَبِغَيْرِهِ ،
فَكَيْفَ بِمَنْ تَعْلَقَ قَلْبُهُ كُلُّهُ بِغَيْرِهِ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ بِكُلِّيَّتِهِ ؟ .

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَا حَلَّ بِكَ مِنْ بَلَاءِ الْإِنْفِصَالِ ، وَذُلِّ الْحِجَابِ ،
فَانْظُرْ لِمَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبُكَ ، وَاسْتَخْدَمَ جَوَارِحَكَ ، وَبِمَنْ شَغَلَ سِرِّكَ ،
وَأَيْنَ يَبِيتُ قَلْبُكَ إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ ؟ وَإِلَى أَيْنَ يَطِيرُ إِذَا اسْتَيْقَظْتَ
مِنْ مَنَامِكَ ؟ ، فَذَلِكَ هُوَ مَعْبُودُكَ وَإِلَهُكَ ، فَإِذَا سَمِعْتَ النِّدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :
لِيَنْطَلِقَ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُهُ ، انْطَلَقْتَ مَعَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! مَا أَشَدَّ غَبْنَ مَنْ بَاعَ أَطْيَبَ الْحَيَاةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْمُتَّصِلَةَ
بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ هُنَاكَ ، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ بِالْحَيَاةِ الْمُنْعَصَةِ الْمُنَكَّدَةِ الْمُتَّصِلَةَ
بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَالْمُدَّةَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، أَوْ عَشِيَّةً أَوْ ضَحَاها ، أَوْ يَوْمًا
أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، فِيهِ رِبْحُ الْأَبَدِ أَوْ خَسَارَةُ الْأَبَدِ .

فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي وَيَذْهَبُ هَذَا كُلُّهُ وَيَزُولُ

أُولِيَاءُ اللَّهِ هُمُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِسْتِقَامَةِ :

لَا يَكُونُ وَلِيٌّ لِلَّهِ كَامِلُ الْوِلَايَةِ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْعِلْمِ أَبَدًا ، فَمَا اتَّخَذَ
اللَّهُ وَلَا يَتَّخِذُ وَلِيًّا جَاهِلًا ، وَالْجَاهِلُ رَأْسُ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ وَنَقْصٍ ،
وَالْعِلْمُ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ وَهُدًى وَكَمَالٍ .

بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا :

قِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ: بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا؟، قَالَ: بَأَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَاتَى عَبْدُ اللَّهِ بِأَصْلِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ مَعْرِفَةُ وَلَا إِقْرَارٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ الْمُبَايَنَةُ وَالْعُلُوُّ عَلَى الْعَرْشِ.

مَنْ هُوَ الْعَارِفُ :

الْعَارِفُ ابْنُ وَقْتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْكَلَامِ وَأَخْصَرِهِ، فَهُوَ مَشْغُولٌ بِوِظِيفَةِ وَقْتِهِ عَمَّا مَضَى، وَصَارَ فِي الْعَدَمِ، وَعَمَّا لَمْ يَدْخُلْ بَعْدُ فِي الْوُجُودِ، فَهَمُّهُ عِمَارَةُ وَقْتِهِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاتِهِ الْبَاقِيَةِ.

وَمِنْ عَلَامَاتِهِ : أَنَّهُ مُسْتَأْنَسٌ بِرَبِّهِ، مُسْتَوْحِشٌ مِمَّنْ يَقْطَعُهُ عَنْهُ، وَهَذَا قِيلَ : الْعَارِفُ مَنْ أُنْسَ بِاللَّهِ، فَأَوْحَشَهُ مِنَ الْخَلْقِ، وَافْتَقَرَ إِلَى اللَّهِ فَأَغْنَاهُ عَنْهُمْ، وَذَلَّ لِلَّهِ فَأَعَزَّهُ فِيهِمْ، وَتَوَاضَعَ لِلَّهِ فَرَفَعَهُ بَيْنَهُمْ، وَاسْتَغْنَى بِاللَّهِ فَأَحْوَجَهُمْ إِلَيْهِ.



أَدَبٌ

مِنْ مُفْسِدَاتِ الْأَخْلَاقِ :

وَالْمَخَاصِمَةُ لِلْخَلْقِ مُفْسِدَةٌ لِلْخَلْقِ ، فَيُشْفِقُ عَلَى خُلُقِهِ مِنْ هَذَا الْمُفْسِدِ
شَفَقَةً تَصُونُهُ عَنْهُ .

مُرَاعَاةُ حُقُوقِ النَّاسِ :

أَنْ تُرَاعِيَ حُقُوقَ النَّاسِ فَتُؤَدِّيَهَا ، وَلَا تَرَى أَنَّ مَا فَعَلُوهُ مِنْ
حُقُوقِكَ عَلَيْهِمْ ، فَلَا تُعَاوِضُهُمْ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ رُغُونَاتِ النَّفْسِ
وَحَمَاقَاتِهَا ، وَلَا تُطَالِبُهُمْ بِحُقُوقِ نَفْسِكَ ، وَتَعْتَرِفُ بِفَضْلِ ذِي الْفَضْلِ
مِنْهُمْ ، وَتَنْسَى فَضْلَ نَفْسِكَ .

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ :
الْعَارِفُ لَا يَرَى لَهُ عَلَى أَحَدٍ حَقًّا ، وَلَا يَشْهَدُ عَلَى غَيْرِهِ فَضْلًا ، وَلِذَلِكَ
لَا يُعَاتِبُ ، وَلَا يُطَالِبُ ، وَلَا يُضَارِبُ .

ظُلْمُ الْمَسْأَلَةِ :

وَالْمَسْأَلَةُ فِي الْأَصْلِ حَرَامٌ ، وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ ، لِأَنَّهَا

ظَلَمَ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَظَلَمَ فِي حَقِّ الْمَسْئُولِ ، وَظَلَمَ فِي حَقِّ السَّائِلِ .
أَمَّا الْأَوَّلُ : فَلِأَنَّهُ بَدَلَ سُؤَالِهِ وَفَقَرَهُ وَذَلَّهُ وَاسْتَعْطَاهُ لغيرِ الله ،
 وَذَلِكَ نَوْعُ عُبُودِيَّةٍ ، فَوَضَعَ الْمَسْأَلَةَ فِي غيرِ مَوْضِعِهَا ، وَأَنْزَلَهَا بغيرِ
 أَهْلِهَا ، وَظَلَمَ تَوْحِيدَهُ وَإِخْلَاصَهُ ، وَفَقَرَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَتَوَكَّلَهُ عَلَيْهِ وَرَضَاهُ
 بِقِسْمِهِ ، وَاسْتَعْنَى بِسُؤَالِ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَةِ رَبِّ النَّاسِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ
 يَهْضُمُ مِنْ حَقِّ التَّوْحِيدِ ، وَيُطْفِئُ نُورَهُ وَيُضْعِفُ قُوَّتَهُ .

وَأَمَّا ظُلْمُهُ لِلْمَسْئُولِ : فَلِأَنَّهُ سَأَلَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَأَوْجَبَ لَهُ بِسُؤَالِهِ
 عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ ، وَعَرَّضَهُ لِمَشَقَّةِ الْبَدَلِ ، أَوْ لَوْمِ الْمَنَعِ ، فَإِنْ
 أَعْطَاهُ ، أَعْطَاهُ عَلَى كَرَاهَةٍ ، وَإِنْ مَنَعَهُ ، مَنَعَهُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ وَإِغْمَاضٍ ،
 هَذَا إِذَا سَأَلَهُ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا إِذَا سَأَلَهُ حَقًّا هُوَ لَهُ عِنْدَهُ : فَلَمْ يَدْخُلْ
 فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يَظْلِمْهُ بِسُؤَالِهِ .

وَأَمَّا ظُلْمُهُ لِنَفْسِهِ : فَإِنَّهُ أَرَاقَ مَاءٍ وَجْهِهِ ، وَذَلَّ لِغَيْرِ خَالِقِهِ ، وَأَنْزَلَ
 نَفْسَهُ أَذْنَى الْمَنْزِلَتَيْنِ ، وَرَضِيَ لَهَا بِأَبْخَسِ الْحَالَتَيْنِ ، وَرَضِيَ بِإِسْقَاطِ
 شَرَفِ نَفْسِهِ ، وَعِزَّةِ تَعَفُّفِهِ ، وَرَاحَةِ قَنَاعَتِهِ ، وَبَاعَ صَبْرَهُ وَرَضَاهُ وَتَوَكَّلَهُ ،
 وَقَنَاعَتَهُ بِمَا قُسِمَ لَهُ ، وَاسْتِغْنَاءَهُ عَنِ النَّاسِ بِسُؤَالِهِمْ ، وَهَذَا عَيْنُ ظُلْمِهِ
 لِنَفْسِهِ ، إِذْ وَضَعَهَا فِي غيرِ مَوْضِعِهَا ، وَأَخْلَلَ شَرَفَهَا ، وَوَضَعَ قَدْرَهَا ،
 وَأَذْهَبَ عِزَّهَا ، وَصَغَّرَهَا وَحَقَّرَهَا ، وَرَضِيَ أَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ تَحْتَ نَفْسٍ

المُسْتُول ، وَيَدُهُ تَحْتَ يَدِهِ ، وَلَوْ لَا الضَّرُورَةُ لَمْ يُبَيِّحْ ذَلِكَ فِي الشَّرْعِ .

قَوَاعِدُ الشُّكْرِ :

وَالشُّكْرُ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ : خُضُوعُ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ ، وَحُبُّهُ لَهُ ، وَاعْتِرَافُهُ بِنِعْمَتِهِ ، وَثَنَؤُهُ عَلَيْهِ بِهَا ، وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ .

الشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا :

وَالشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إِبْرَاهِيمُ : ٧] ، فَمَتَى لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ ، فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ .

مِمَّا يَكُونُ الشُّكْرُ :

وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْقَلْبِ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً ، وَبِاللِّسَانِ ثَنَاءً وَاعْتِرَافًا ، وَبِالْجَوَارِحِ طَاعَةً وَانْقِيَادًا .

شُكْرُ نِعْمَةِ اللَّهِ نِعْمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ آخَرَ :

وَأَمَّا إِنْعَامُ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ : فَإِحْسَانٌ إِلَيْهِ ، وَتَفَضُّلٌ عَلَيْهِ ، وَمُجَرَّدُ امْتِنَانٍ ، لَا لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ ، وَلَا لِمُعَاوَضَةٍ ، وَلَا لِاسْتِعَانَةٍ بِهِ ، وَلَا لِيَتَكَثَّرَ بِهِ مِنْ قِلَّةٍ ، وَلَا لِيَتَعَزَّزَ بِهِ مِنْ ذَلَّةٍ ، وَلَا لِيَقْوَى بِهِ مِنْ ضَعْفٍ ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ .

وَأَمْرُهُ لَهُ بِالشُّكْرِ أَيْضًا : إِنْعَامٌ آخَرُ عَلَيْهِ ، وَإِحْسَانٌ مِنْهُ إِلَيْهِ ، إِذْ مَنْفَعَةٌ

الشُّكْرُ تَرْجُعُ إِلَى الْعَبْدِ دُنْيَا وَآخِرَةً ، لَا إِلَى اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِشُكْرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [الْقَمَان: ١٢] ، فَشُكْرُ الْعَبْدِ إِحْسَانٌ مِنْهُ إِلَى نَفْسِهِ دُنْيَا وَآخِرَى ، فَلَا يُذَمُّ مَا أَتَى بِهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُحْسِنُ مُقَابَلَةَ الْمُنْعَمِ بِهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ شُكْرَهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مُحْسِنٌ إِلَى نَفْسِهِ بِالشُّكْرِ ، لَا أَنَّهُ مُكَافِئٌ بِهِ لِنِعْمِ الرَّبِّ ، فَالرَّبُّ تَعَالَى لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُكَافِيَ نِعْمَهُ أَبَدًا ، وَلَا أَقْلَهَا ، وَلَا أَذْنَى نِعْمَةٍ مِنْ نِعْمِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ ، الْخَالِقُ لِلشُّكْرِ وَالشَّاكِرِ ، وَمَا يُشْكُرُ عَلَيْهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُحْصِيَ ثَنَاءً عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُحْسِنُ إِلَى عَبْدِهِ بِنِعْمِهِ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِأَنْ أَوْزَعَهُ شُكْرَهَا ، فَشُكْرُهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ ، تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ آخَرَ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

أَسَاسُ الصِّدْقِ وَأَسَاسُ الْكَذِبِ :

وَالْإِيْمَانُ أَسَاسُهُ الصِّدْقُ ، وَالنِّفَاقُ أَسَاسُهُ الْكَذِبُ ، فَلَا يَجْتَمِعُ كَذِبٌ وَإِيْمَانٌ إِلَّا وَاحِدُهُمَا مُحَارِبٌ لِلْآخَرِ .

وَمِنْ عِلَامَاتِ الصِّدْقِ وَ الْكَذِبِ :

وَمِنْ عِلَامَاتِ الصِّدْقِ : طَمَئِنَّةُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ ، وَمِنْ عِلَامَاتِ الْكَذِبِ : حُصُولُ الرِّيْبَةِ ، كَمَا فِي التِّرْمِذِيِّ - مَرْفُوعًا - مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « الصِّدْقُ

طَمَآنِيَّةٌ ، وَالْكَذِبُ رِيَّةٌ « (١) .

ثَقُلُ الصَّدْقِ وَخِفَةُ الْكَذِبِ :

فَحِمْلُ الصَّدْقِ كَحِمْلِ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي ، لَا يُطِيقُهُ إِلَّا أَصْحَابُ الْعِزَائِمِ ، فَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ تَحْتَهُ تَقَلُّبَ الْحَامِلِ بِحِمْلِهِ الثَّقِيلِ ، وَالرِّيَاءُ وَالْكَذِبُ خَفِيفٌ كَالرِّيشَةِ لَا يَجِدُ لَهُ صَاحِبُهُ ثِقَلًا أَلْبَتَّةَ ، فَهُوَ حَامِلٌ لَهُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ اتَّفَقَ ، بَلَا تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ وَلَا كُفَّةٍ ، فَهُوَ لَا يَتَقَلَّبُ تَحْتَ حِمْلِهِ وَلَا يَجِدُ ثِقَلَهُ .

أَفْضَلُ السَّخَاءِ وَأَحْمَدُهُ :

السَّخَاءُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ هُوَ السَّخَاءُ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ الْبَذْلِ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : سَخَاءُ النَّفْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالْبَذْلِ .

وَهَذَا الْمَنْزِلُ : هُوَ مَنْزِلُ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ وَالْإِحْسَانِ .

وَسُمِّيَ بِمَنْزِلِ الْإِثَارِ لِأَنَّهُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ ، فَإِنَّ الْمَرَاتِبَ ثَلَاثَةٌ .

إِحْدَاهَا : أَنْ لَا يَنْقُصَهُ الْبَذْلُ ، وَلَا يَضْعُبَ عَلَيْهِ ، فَهُوَ مَنْزِلَةُ السَّخَاءِ .

(١) (صَحِيحٌ) : رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٦٠) وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٠٤٥) .

الثانية : أَنْ يُعْطِيَ الْأَكْثَرَ ، وَيُبْقِيَ لَهُ شَيْئًا ، أَوْ يُبْقِيَ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ ، فَهُوَ الْجُودُ .

الثالثة : أَنْ يُؤْثِرَ غَيْرَهُ بِالشَّيْءِ مَعَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مَرْتَبَةُ الْإِثَارِ وَعَكْسُهَا الْأَثَرُ وَهُوَ اسْتِثَارُهُ عَنْ أَخِيهِ بِمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْأَنْصَارِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - : « إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ » ^(١) ، وَالْأَنْصَارُ : هُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِالْإِثَارِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] .

مَرَاتِبُ الْجُودِ :

وَالْجُودُ عَشْرُ مَرَاتِبٍ :

أَحَدَاهَا : الْجُودُ بِالنَّفْسِ ، وَهُوَ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ .

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

يُجُودُ بِالنَّفْسِ ، إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

الثانية : الْجُودُ بِالرِّيَاسَةِ ، وَهُوَ ثَانِي مَرَاتِبِ الْجُودِ ، فَيَحْمِلُ الْجَوَادُ جُودَهُ عَلَى امْتِهَانِ رِيَاسَتِهِ ، وَالْجُودُ بِهَا ، وَالْإِثَارِ فِي قَضَاءِ حَاجَاتِ الْمُلْتَمِسِ .

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٧٩٢) ، وَمُسْلِمٌ (١٨٤٥) .

الثالثة : الجودُ بِرَاحَتِهِ وَرَفَاهِيَّتِهِ ، وَإِجْمَامِ نَفْسِهِ ، فَيَجُودُ بِهَا تَعَبًا وَكَدًّا فِي مَصْلَحَةِ غَيْرِهِ ، وَمِنْ هَذَا جُودُ الْإِنْسَانِ بِنَوْمِهِ وَلَذَّتِهِ لِمُسَامِرِهِ ، كَمَا قِيلَ :

مُتِمِّمٌ بِاللَّدَى ، لَوْ قَالَ سَائِلُهُ : هَبْ لِي جَمِيعَ كَرَى عَيْنَيْكَ ، لَمْ يَنْمِ

الرابعة : الجودُ بِالْعِلْمِ وَبَذْلِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْجُودِ ، وَالْجُودُ بِهِ أَفْضَلُ مِنَ الْجُودِ بِالْمَالِ ، لِأَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مِنَ الْمَالِ .

وَالنَّاسُ فِي الْجُودِ بِهِ عَلَى مَرَاتِبٍ مُتَفَاوِتَةٍ ، وَقَدْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ وَتَقْدِيرُهُ النَّافِذُ : أَنْ لَا يَنْفَعَ بِهِ بَخِيلًا أَبَدًا .

وَمِنَ الْجُودِ بِهِ : أَنْ تَبْذُلَهُ لِمَنْ يَسْأَلُكَ عَنْهُ ، بَلْ تَطْرَحُهُ عَلَيْهِ طَرْحًا .

وَمِنَ الْجُودِ بِالْعِلْمِ : أَنْ السَّائِلَ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ : اسْتَقْصَيْتَ لَهُ جَوَابَهَا جَوَابًا شَافِيًا ، لَا يَكُونُ جَوَابُكَ لَهُ بِقَدَرِ مَا تُدْفِعُ بِهِ الضَّرُورَةُ ، كَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَكْتُبُ فِي جَوَابِ الْفُتْيَا : نَعَمْ ، أَوْ : لَا ، مُقْتَصِرًا عَلَيْهَا .

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - فِي ذَلِكَ أَمْرًا عَجِيبًا :

كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ حُكْمِيَّةٍ ، ذَكَرَ فِي جَوَابِهَا مَذَاهِبَ الْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ ، إِذَا قَدَّرَ ، وَمَأْخَذَ الْخِلَافِ ، وَتَرْجِيحَ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ ، وَذَكَرَ

مُتَعَلِّقَاتِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي رُبَّمَا تَكُونُ أَنْفَعُ لِلسَّائِلِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ، فَيَكُونُ فَرْحُهُ بِتِلْكَ الْمُتَعَلِّقَاتِ ، وَاللَّوْازِمِ : أَعْظَمُ مِنْ فَرْحِهِ بِمَسْأَلَتِهِ ، وَهَذِهِ فِتَاوِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَيْنَ النَّاسِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا رَأَى ذَلِكَ .

فَمِنْ جُودِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ : أَنَّهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَسْأَلَةِ السَّائِلِ ، بَلْ يَذْكُرُ لَهُ نَظَائِرَهَا وَمُتَعَلِّقَهَا وَمَأْخَذَهَا ، بِحَيْثُ يَشْفِيهِ وَيَكْفِيهِ .

وَقَدْ سَأَلَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْمُتَوَضَّئِ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ ، فَقَالَ : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الْحِلُّ مِيتَتُهُ » ^(١) ، فَأَجَابَهُمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ ، وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِمَا لَعَلَّهُمْ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ إِلَيْهِ أَوْجَحُ مِمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ .

وَكَانُوا إِذَا سَأَلُوهُ عَنِ الْحُكْمِ نَبَّهَهُمْ عَلَى عِلَّتِهِ وَحُكْمَتِهِ ، كَمَا سَأَلُوهُ عَنْ بَيْعِ الرُّطْبِ بِالتَّمْرِ؟ ، فَقَالَ : « أَيْنَقُصُ الرُّطْبُ إِذَا جَفَّ؟ » ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَلَا إِذَنْ ^(٢) ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْفَى عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نُقْصَانُ الرُّطْبِ بِجَفَافِهِ ، وَلَكِنْ نَبَّهَهُمْ عَلَى عِلَّةِ الْحُكْمِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ جَدًّا فِي أَجْوَبَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، مِثْلَ قَوْلِهِ : « إِنْ بَعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمْرَةً ، فَأَصَابَتْهَا جَائِحَةٌ فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ أَخِيكَ شَيْئًا ، بِمِ

(١) (صَحِيحٌ) : رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٦٩) وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٥٩) .

(٢) (صَحِيحٌ) : رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٣٥٩) وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٢٨٧١) .

يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بَغَيْرِ حَقٍّ؟^(١) ، وَفِي لَفْظٍ : « أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ : بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بَغَيْرِ حَقٍّ؟ » ، فَصَرَّحَ بِالْعِلَّةِ الَّتِي يَحْرُمُ لِأَجْلِهَا إلْزَامُهُ بِالثَّمَنِ ، وَهِيَ مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ الَّتِي لَيْسَ لِلْمُشْتَرِي فِيهَا صُنْعٌ .

وَكَانَ خُصُومُهُ - يَعْنِي شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - يَعْيُونَهُ بِذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ : سَأَلَهُ السَّائِلُ عَنْ طَرِيقِ مِصْرَ - مَثَلًا - فَيَذْكُرُ لَهُ مَعَهَا طَرِيقَ مَكَّةَ ، وَالْمَدِينَةَ ، وَخُرَاسَانَ ، وَالْعِرَاقَ ، وَالْهِنْدَ ، وَأَيُّ حَاجَةٍ بِالسَّائِلِ إِلَى ذَلِكَ ؟ .

وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَيْسَ ذَلِكَ بِعَيْبٍ ، وَإِنَّمَا الْعَيْبُ : الْجَهْلُ وَالْكِبْرُ .

وَهَذَا مَوْضِعُ الْمَثَلِ الْمَشْهُورِ :

لَقَبُوهُ بِحَامِضٍ وَهُوَ خَلٌّ مِثْلَ مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى الْعُنُقُودِ

الخامسة : الْجُودُ بِالنَّفْعِ بِالْجَاهِ ، كَالشَّفَاعَةِ وَالْمَشْيِ مَعَ الرَّجُلِ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ وَنَحْوِهِ ، وَذَلِكَ زَكَاةُ الْجَاهِ الْمُطَالَبُ بِهَا الْعَبْدُ ، كَمَا أَنَّ التَّعْلِيمَ وَبَذَلَ الْعِلْمِ زَكَاتُهُ .

السادسة : الْجُودُ بِنَفْعِ الْبَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ ، كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « يُضْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، كُلُّ يَوْمٍ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٥٥٤) .

تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ ، يَعْدُلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ : صَدَقَةٌ ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ ،
فِيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ : صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ :
صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا الرَّجُلُ إِلَى الصَّلَاةِ : صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ
الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، صَدَقَةٌ « (١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

السَّابِعَةُ : الْجُودُ بِالْعَرَضِ ، كَجُودِ أَبِي ضَمْضَمٍ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ - ، كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا مَالَ لِي أَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى
النَّاسِ ، وَقَدْ تَصَدَّقْتُ عَلَيْهِمْ بَعْرَضِي ، فَمَنْ شَتَمَنِي ، أَوْ قَذَفَنِي : فَهُوَ
فِي حِلٍّ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنْكُمْ أَنْ
يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ ؟ » (٢) .

وَفِي هَذَا الْجُودِ مِنْ سَلَامَةِ الصَّدْرِ ، وَرَاحَةِ الْقَلْبِ ، وَالتَّخْلُصِ مِنْ
مُعَادَاةِ الْخَلْقِ مَا فِيهِ .

الثَّامِنَةُ : الْجُودُ بِالصَّبْرِ ، وَالِاحْتِمَالِ ، وَالْإِغْضَاءِ ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ شَرِيفَةٌ
مِنْ مَرَاتِبِهِ ، وَهِيَ أَنْفَعُ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْجُودِ بِالْمَالِ ، وَأَعَزُّ لَهُ وَأَنْصَرُ ،
وَأَمْلَكُ لِنَفْسِهِ ، وَأَشْرَفُ لَهَا ، وَلَا يَقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا التُّفُوسُ الْكِبَارُ .

فَمَنْ صَعِبَ عَلَيْهِ الْجُودُ بِمَالِهِ فَعَلَيْهِ بِهِذَا الْجُودِ ، فَإِنَّهُ يَجْتَنِي ثَمَرَةَ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٢٠) .

(٢) (ضَعِيفٌ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٨٧) ، وَضَعَفَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي

«ضَعِيفٌ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (١٠٤٢) .

عَوَاقِبِهِ الْحَمِيدَةِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَهَذَا جُودُ الْفُتُوَّةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، وَفِي هَذَا الْجُودِ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] ، فَذَكَرَ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : مَقَامَ الْعَدْلِ ، وَأَذِنَ فِيهِ ، وَمَقَامَ الْفَضْلِ ، وَنَدَبَ إِلَيْهِ ، وَمَقَامَ الظُّلْمِ ، وَحَرَّمَهُ .

التَّاسِعَةُ : الْجُودُ بِالْخُلُقِ وَالْبَشْرِ وَالْبَسْطَةِ ، وَهُوَ فَوْقَ الْجُودِ بِالصَّبْرِ ، وَالْإِحْتِمَالِ وَالْعَفْوِ ، وَهُوَ الَّذِي بَلَغَ بِصَاحِبِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ، وَهُوَ أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ » ^(١) ، وَفِي هَذَا الْجُودِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَسَارِّ ، وَأَنْوَاعِ الْمَصَالِحِ مَا فِيهِ ، وَالْعَبْدُ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْعَهُمْ بِخُلُقِهِ وَاحْتِمَالِهِ .

الْعَاشِرَةُ : الْجُودُ بِتَرْكِهِ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَسْتَشْرِفُ لَهُ بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ بِحَالِهِ ، وَلَا لِسَانِهِ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ : إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالْبَذْلِ .

فَلِسَانُ حَالِ الْقَدَرِ يَقُولُ لِلْفَقِيرِ الْجَوَادِ : وَإِنْ لَمْ أُعْطِكَ مَا تَجُودُ بِهِ عَلَى النَّاسِ ، فَجُدْ عَلَيْهِمْ بِزُهْدِكَ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، تُفَضِّلُ ^(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٢٦) وَابْنُ دَاوُدَ (٤٠٨٤) .

عَلَيْهِمْ ، وَتَزَاهِمُهُمْ فِي الْجُودِ ، وَتَتَفَرَّدُ عَنْهُمْ بِالرَّاحَةِ .
 وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْجُودِ مَزِيدٌ وَتَأْثِيرٌ خَاصٌّ فِي الْقَلْبِ وَالْحَالِ ،
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ ضَمِنَ الْمَزِيدَ لِلْجَوَادِ ، وَالْإِتْلَافَ لِلْمُمْسِكِ ، وَاللَّهُ
 الْمُسْتَعَانُ .

حُسْنُ الْخُلُقِ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ :

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ
 سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ؟ ، فَقَالَ :
 « الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ
 النَّاسُ » (١) .

فَقَابَلَ الْبِرَّ بِالْإِثْمِ ، وَأَخْبَرَ : أَنَّ الْبِرَّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ : حَوَازُ
 الصُّدُورِ ، وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ : هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ ، وَهُوَ حَقَائِقُ
 الْإِيمَانِ ، وَشَرَائِعُ الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا قَابِلُهُ بِالْإِثْمِ .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : « الْبِرُّ مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ
 فِي الصَّدْرِ » (٢) ، وَقَدْ فُسِّرَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِأَنَّهُ الْبِرُّ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ حُسْنَ
 الْخُلُقِ : طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ ، وَالْإِثْمُ حَوَازُ الصُّدُورِ ، وَمَا حَاكَ

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٥٠) وَابْنُ دَاوُدَ (٤٧٧٣) .

(٢) (صَحِيحُ) : وَرَوَاهُ أَحْمَدُ (٤/٢٢٨) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِ
 الْجَامِعِ» (٢٨٨٠) .

فِيهَا ، وَاسْتَرَابَتْ بِهِ ، وَهَذَا غَيْرُ حُسْنِ الْخَلْقِ وَسُوِّهِ فِي عُرْفٍ كَثِيرٍ
مِنَ النَّاسِ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - « خِيَارُكُمْ : أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا » ^(١) .

أَرْكَانُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ :

وَحُسْنُ الْخَلْقِ يَقُومُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ لَا يَتَصَوَّرُ قِيَامُ سَاقِهِ إِلَّا عَلَيْهَا:
الصَّبْرُ ، وَالْعِفَّةُ ، وَالشَّجَاعَةُ ، وَالْعَدْلُ .

فَالصَّبْرُ : يَحْمِلُهُ عَلَى الْإِحْتِمَالِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ ، وَكَفِّ الْأَذَى ، وَالْحِلْمِ
وَالْأَنَانَةِ وَالرَّفْقِ ، وَعَدَمِ الطَّيْشِ وَالْعَجَلَةِ .

وَالْعِفَّةُ : تَحْمِلُهُ عَلَى اجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ وَالْقَبَائِحِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ،
وَتَحْمِلُهُ عَلَى الْحَيَاءِ ، وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ ، وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ ، وَالْبُخْلِ
وَالْكَذِبِ ، وَالْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ .

وَالشَّجَاعَةُ : تَحْمِلُهُ عَلَى عِزَّةِ النَّفْسِ ، وَإِثَارِ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ ،
وَعَلَى الْبَذْلِ وَالنَّدَى ، الَّذِي هُوَ شَجَاعَةُ النَّفْسِ وَقُوَّتُهَا عَلَى إِخْرَاجِ
الْمَحْبُوبِ وَمُفَارَقَتِهِ ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ وَالْحِلْمِ ، فَإِنَّهُ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ
وَشَجَاعَتِهَا يُمَسِّكُ عَنَانَهَا ، وَيَكْبَحُهَا بِلِجَامِهَا عَنِ النَّزْغِ وَالْبَطْشِ ،
كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالْصُّرْعَةِ ، إِنَّمَا

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٥٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٣٢١) .

الشَّدِيدُ: الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ «^(١)»، وَهُوَ حَقِيقَةُ الشَّجَاعَةِ، وَهِيَ مَلَكَهٌ يَقْتَدِرُ بِهَا الْعَبْدُ عَلَى قَهْرِ خَصْمِهِ .

وَالْعَدْلُ : يَحْمِلُهُ عَلَى اعْتِدَالِ أَخْلَاقِهِ ، وَتَوَسُّطِهِ فِيهَا بَيْنَ طَرَفِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، فَيَحْمِلُهُ عَلَى خُلُقِ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الذِّلِّ وَالْقَحَةِ ، وَعَلَى خُلُقِ الشَّجَاعَةِ ، الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الْجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ ، وَعَلَى خُلُقِ الْحِلْمِ ، الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الْغَضَبِ وَالْمَهَانَةِ وَسُقُوطِ النَّفْسِ .

أَرْكَانُ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ :

وَمَنْشَأُ جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ ، وَبِنَاؤُهَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ : الْجَهْلُ ، وَالظُّلْمُ ، وَالشَّهْوَةُ ، وَالْغَضَبُ .

فَالْجَهْلُ : يُرِيهِ الْحَسَنَ فِي صُورَةِ الْقَبِيحِ ، وَالْقَبِيحَ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ ، وَالْكَمَالَ نَقْصًا وَالنَّقْصَ كَمَالًا .

وَالظُّلْمُ : يَحْمِلُهُ عَلَى وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، فَيَغْضَبُ فِي مَوْضِعِ الرِّضَا ، وَيَرْضَى فِي مَوْضِعِ الْغَضَبِ ، وَيَجْهَلُ فِي مَوْضِعِ الْأَنَاءِ ، وَيَبْخُلُ فِي مَوْضِعِ الْبَذْلِ ، وَيَبْذُلُ فِي مَوْضِعِ الْبُخْلِ ، وَيُحْجِمُ فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ ، وَيُقَدِّمُ فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ ، وَيَلِينُ فِي مَوْضِعِ الشَّدَّةِ ، وَيَشْتَدُّ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦١١٤) ، وَمُسْلِمٌ (٢٦٠٩) .

فِي مَوْضِعِ الدِّينِ ، وَيَتَوَاضَعُ فِي مَوْضِعِ الْعِزَّةِ ، وَيَتَكَبَّرُ فِي مَوْضِعِ التَّوَاضُّعِ .

وَالشَّهْوَةُ : تَحْمِلُهُ عَلَى الْحِرْصِ وَالشُّحِّ وَالْبُخْلِ ، وَعَدَمِ الْعِفَّةِ وَالنَّهْمَةِ وَالْجَشَعِ ، وَالذُّلِّ وَالِدَّنَاءَاتِ كُلِّهَا .

وَالغَضَبُ : يَحْمِلُهُ عَلَى الْكِبَرِ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ ، وَالْعُدْوَانِ وَالسَّفَةِ .
وَيَتَرَكَّبُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ خُلُقَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ : أَخْلَاقُ مَذْمُومَةٌ .
وَمَلَائِكُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَضْلَانُ : إِفْرَاطُ النَّفْسِ فِي الضَّعْفِ ، وَإِفْرَاطُهَا فِي الْقُوَّةِ ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ إِفْرَاطِهَا فِي الضَّعْفِ : الْمَهَانَةُ وَالْبُخْلُ ، وَالْخِسَّةُ وَاللُّؤْمُ ، وَالذُّلُّ وَالْحِرْصُ ، وَالشُّحُّ وَسَفْسَافُ الْأُمُورِ وَالْأَخْلَاقِ .
وَيَتَوَلَّدُ مِنْ إِفْرَاطِهَا فِي الْقُوَّةِ : الظُّلْمُ وَالْغَضَبُ وَالْحِدَّةُ ، وَالْفُحْشُ وَالطَّيْشُ .

وَيَتَوَلَّدُ مِنْ تَزَوُّجِ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ بِالْآخَرِ أَوْلَادُ غِيَّةٍ كَثِيرُونَ ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَجَمَّعَ قُوَّةٌ وَضَعْفًا ، فَيَكُونُ صَاحِبُهَا أَجْبَرَ النَّاسِ إِذَا قَدَرَ ، وَأَذْلَهُمْ إِذَا قَهَرَ ، ظَالِمًا عُنُوفًا جَبَّارًا ، فَإِذَا قَهَرَ صَارَ أَذَلَّ مِنْ امْرَأَةٍ : جَبَانًا عَنِ الْقَوِيِّ ، جَرِيئًا عَلَى الضَّعِيفِ .

فَالْأَخْلَاقُ الذَّمِيمَةُ : يُوَلَّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، كَمَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ : يُوَلَّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

كُلُّ خُلُقٍ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ :

خُلُقٌ مَحْمُودٌ مُكْتَنَفٌ بِخُلُقَيْنِ ذَمِيمَيْنِ، وَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا ، وَطَرَفَاهُ خُلُقَانِ ذَمِيمَانِ ، كَالْجُودِ : الَّذِي يَكْتَنِفُهُ خُلُقَا الْبُخْلِ وَالتَّبَذِيرِ .
وَالْتَّوَاضِعُ : الَّذِي يَكْتَنِفُهُ خُلُقَا الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَالْكِبَرُ وَالْعُلُوُّ .

فَإِنَّ النَّفْسَ مَتَى انْحَرَفَتْ عَنِ التَّوَسُّطِ انْحَرَفَتْ إِلَى أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ الذَّمِيمَيْنِ وَلَا بُدَّ ، فَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ التَّوَاضُعِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى كِبَرٍ وَعُلُوٍّ ، وَإِمَّا إِلَى ذُلٍّ وَمَهَانَةٍ وَحَقَارَةٍ ، وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْحَيَاءِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى قِحَةٍ وَجُرْأَةٍ ، وَإِمَّا إِلَى عَجْزٍ وَخَوَرٍ وَمَهَانَةٍ ، بِحَيْثُ يُطْمَعُ فِي نَفْسِهِ عَدُوَّهُ ، وَيَفُوتُهُ كَثِيرٌ مِنْ مَصَالِحِهِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ الْحَامِلَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ الْحَيَاءَ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمَهَانَةُ وَالْعَجْزُ ، وَمَوْتُ النَّفْسِ .

وَكَذَلِكَ إِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الصَّبْرِ الْمَحْمُودِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى جَزَعٍ وَهَلَعٍ وَجَشَعٍ وَتَسَخُّطٍ ، وَإِمَّا إِلَى غِلْظَةٍ كَبِيدٍ ، وَقَسْوَةٍ قَلْبٍ ، وَتَحَجُّرٍ طَبْعٍ ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

تَبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ فَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبْلِ
وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْحِلْمِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى الطَّيْشِ وَالتَّرَفِ
وَالْحِدَّةِ وَالْخَفَّةِ ، وَإِمَّا إِلَى الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ وَالْحَقَارَةِ ، فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ حِلْمُهُ
حِلْمٌ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ وَحَقَارَةٌ وَعَجْزٌ ، وَبَيْنَ مَنْ حِلْمُهُ حِلْمٌ اقْتِدَارٌ وَعِزَّةٌ

وَشَرَفٍ ، كَمَا قِيلَ :

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لَاجِئٍ إِلَيْهَا اللَّئَامُ

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْأَنَاءِ وَالرَّفْقِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى عَجَلَةٍ وَطَيْشٍ وَعُغْفٍ ، وَإِمَّا إِلَى تَفْرِيطٍ وَإِضَاعَةٍ ، وَالرَّفْقُ وَالْأَنَاءُ بَيْنَهُمَا .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْعِزَّةِ الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى كِبَرٍ ، وَإِمَّا إِلَى ذُلٍّ ، وَالْعِزَّةُ الْمُحْمُودَةُ بَيْنَهُمَا .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الشَّجَاعَةِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى تَهَوُّرٍ وَإِقْدَامٍ غَيْرِ مُحْمُودٍ ، وَإِمَّا إِلَى جُبْنٍ وَتَأَخُّرٍ مَذْمُومٍ .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الْمُنَافَسَةِ فِي الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ وَالْغِبْطَةِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى حَسَدٍ ، وَإِمَّا إِلَى مَهَانَةٍ ، وَعَجْزٍ وَذُلٍّ وَرِضَا بِالذُّونِ .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ الْقَنَاعَةِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى حِرْصٍ وَكَلْبٍ ، وَإِمَّا إِلَى خِسَّةٍ وَمَهَانَةٍ وَإِضَاعَةٍ .

وَإِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ خُلُقِ الرَّحْمَةِ انْحَرَفَتْ : إِمَّا إِلَى قَسْوَةٍ ، وَإِمَّا إِلَى ضَعْفِ قَلْبٍ وَجُبْنِ نَفْسٍ ، كَمَنْ لَا يَقْدُمُ عَلَى ذَبْحِ شَاةٍ ، وَلَا إِقَامَةِ حَدٍّ ، وَتَأْدِيبِ وَلَدٍ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ الرَّحْمَةَ تَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَبَحَ أَرْحَمَ الْخَلْقِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِيَدِهِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ

بَدَنَهُ ، وَقَطَعَ الْأَيْدِيَّ مِنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَضَرَبَ الْأَعْنَاقَ ، وَأَقَامَ
الْحُدُودَ وَرَجَمَ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى مَاتَ الْمَرْجُومُ ، وَكَانَ أَرْحَمَ خَلْقِ اللَّهِ
عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَرْأَفَهُمْ .

وَكَذَلِكَ طَلَاقُ الْوَجْهِ ، وَالْبَشَرُ الْمَحْمُودُ ، فَإِنَّهُ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعْبِيسِ
وَالْتَّقْطِيبِ وَتَضْعِيرِ الْخَدِّ ، وَطَيِّ الْبَشَرِ عَنِ الْبَشَرِ ، وَبَيْنَ الْإِسْتِرْسَالِ
بِذَلِكَ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ ، بَحِثْ يُذْهِبُ الْهَيْبَةَ ، وَيُزِيلُ الْوَقَارَ ، وَيُطْمَعُ فِي
الْجَانِبِ ، كَمَا أَنَّ الْأَنْحِرَافَ الْأَوَّلَ يُوقِعُ الْوَحْشَةَ وَالْبَغْضَةَ ، وَالتُّفْرَةَ فِي
قُلُوبِ الْخَلْقِ .

وَصَاحِبُ الْخُلُقِ الْوَسَطِ : مَهِيْبٌ مَحْبُوْبٌ ، عَزِيْزٌ جَانِبُهُ ، حَبِيْبٌ لِقَاؤُهُ ،
وَفِي صِفَةِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَنْ رَأَاهُ بِدِيْهَةٍ هَابَةٍ ، وَمَنْ خَالَطَهُ
عَشْرَةَ أَحَبَّهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَوَائِدُ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْخَلْقِ :

وَهَاهُنَا لِلْعَبْدِ أَحَدَ عَشَرَ مَشْهَدًا فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ أَذَى الْخَلْقِ وَجَنَائِتِهِمْ
عَلَيْهِ .

مَشْهَدُ الْقَدَرِ :

أَحَدُهَا : الْمَشْهَدُ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَهُوَ مَشْهَدُ الْقَدَرِ وَأَنَّ
مَا جَرَى عَلَيْهِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَيَرَاهُ كَالْتَّأَذِي بِالْحَرِّ وَالْبَرْدِ ،

وَالْمَرَضَ وَالْأَلَمَ ، وَهُبُوبَ الرِّيحِ ، وَانْقِطَاعَ الْأَمْطَارِ ، فَإِنَّ الْكُلَّ أَوْجَبَتْهُ مَشِيئَةُ اللَّهِ ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، وَوَجَبَ وَجُودُهُ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَامْتَنَعَ وَجُودُهُ ، وَإِذَا شَهِدَ هَذَا : اسْتَرَّاحَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ ، فَمَا لِلْجَزَعِ مِنْهُ وَجْهٌ ، وَهُوَ كَالْجَزَعِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْمَرَضِ وَالْمَوْتِ .

مَشْهُدُ الصَّبْرِ :

المشهد الثاني : مَشْهُدُ الصَّبْرِ فَيَشْهَدُهُ وَيَشْهَدُ وَجُوبُهُ ، وَحُسْنُ عَاقِبَتِهِ ، وَجَزَاءُ أَهْلِهِ ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ ، وَيُخَلِّصُهُ مِنْ نَدَامَةِ الْمُقَابَلَةِ وَالْإِنْتِقَامِ ، فَمَا انْتَقَمَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَعْقَبَهُ ذَلِكَ نَدَامَةً ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَصْبِرْ اخْتِيَارًا عَلَى هَذَا - وَهُوَ مُحَمَّدٌ - صَبَرَ اضْطِرَارًا عَلَى أَكْبَرَ مِنْهُ ، وَهُوَ مَذْمُومٌ .

مَشْهُدُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ :

المشهد الثالث : مَشْهُدُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ فَإِنَّهُ مَتَى شَهِدَ ذَلِكَ وَفَضْلُهُ وَحَلَاوَتُهُ وَعِزَّتُهُ : لَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ إِلَّا لِعَشْيٍ فِي بَصِيرَتِهِ ، فَإِنَّهُ مَا «زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» ^(١) ، كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَعُلِمَ بِالتَّجَرِبَةِ وَالْوُجُودِ ، وَمَا انْتَقَمَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ إِلَّا ذَلٌّ . هَذَا ، وَفِي الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالْحِلْمِ : مِنَ الْحَلَاوَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ ،

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٨) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي التَّوَاضِعِ .

وَشَرَفَ النَّفْسَ ، وَعَزَّهَا وَرَفَعَتْهَا عَنْ تَشْفِيهَا بِالْإِنْتِقَامِ : مَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ فِي الْمَقَابِلَةِ وَالْإِنْتِقَامِ .

مَشْهَدُ الرِّضَى :

المشهد الرابع : مَشْهَدُ الرِّضَا وَهُوَ فَوْقَ مَشْهَدِ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلنَّفُوسِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، سَيِّمًا إِنْ كَانَ مَا أَصَابَتْ بِهِ سَبَبُهُ الْقِيَامُ لِلَّهِ ، فَإِذَا كَانَ مَا أَصَابَ بِهِ فِي اللَّهِ ، وَفِي مَرْضَاتِهِ وَمَحَبَّتِهِ : رَضِيَتْ بِمَا نَالَهَا فِي اللَّهِ ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مُحِبٍّ صَادِقٍ ، يَرْضَى بِمَا يَنَالُهُ فِي رِضَا مُحْبُوبِهِ مِنَ الْمَكَارِهِ ، وَمَتَى تَسَخَّطَ بِهِ وَتَشَكَّى مِنْهُ ، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى كَذِبِهِ فِي مُحَبَّتِهِ ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ ، وَالْمُحِبُّ الصَّادِقُ كَمَا قِيلَ :

مِنْ أَجْلِكَ جَعَلْتُ خَدِّي أَرْضًا لِلشَّامِتِ وَالْحُسُودِ حَتَّى تَرْضَى
وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِمَا يُصِيبُهُ فِي سَبِيلِ مُحْبُوبِهِ ، فَلْيَنْزِلْ عَنْ دَرَجَةِ الْمَحَبَّةِ ،
وَلْيَتَأَخَّرْ فَلَيْسَ مِنْ ذَا الشَّأْنِ .

مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ :

المشهد الخامس : مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ وَهُوَ أَرْفَعُ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَهُوَ أَنْ يُقَابَلَ إِسَاءَةُ الْمُسِيءِ إِلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ ، فَيُحْسِنَ إِلَيْهِ كُلَّمَا أَسَاءَ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيَهْوَنُ هَذَا عَلَيْهِ عِلْمُهُ بِأَنَّهُ قَدْ رَجَحَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ حَسَنَاتِهِ ، وَمَحَاها

مِنْ صَحِيفَتِهِ ، وَأَثْبَتَهَا فِي صَحِيفَةٍ مِّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ، فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَشْكُرَهُ ،
وَتُحْسِنَ إِلَيْهِ بِمَا لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى مَا أَحْسَنَ بِهِ إِلَيْكَ .

وَهَاهُنَا يَنْفَعُ اسْتِحْضَارُ مَسْأَلَةِ اقْتِضَاءِ هِبَةِ الثَّوَابِ ، وَهَذَا الْمُسْكِينُ
قَدْ وَهَبَكَ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْكَرَمِ فَاتِّبِعْ عَلَيْهَا ، لِثَبَتِ هِبَةِ ،
وَتَأْمَنَ رُجُوعَ الْوَاهِبِ فِيهَا .

وَفِي هَذَا حِكَايَاتٌ مَعْرُوفَةٌ عَنْ أَرْبَابِ الْمَكَارِمِ ، وَأَهْلِ الْعَزَائِمِ .
وَيُهَوِّنُهُ عَلَيْكَ أَيْضًا : عَلِمْتُكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَإِنْ كَانَ
هَذَا عَمَلُكَ فِي إِسَاءَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَيْكَ عَفَوْتَ عَنْهُ ، وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهِ ، مَعَ
حَاجَتِكَ وَضَعْفِكَ وَفَقْرِكَ وَذَلِكَ ، فَهَكَذَا يَفْعَلُ الْمُحْسِنُ الْقَادِرُ الْعَزِيزُ
الْغَنِيُّ بِكَ فِي إِسَاءَتِكَ ، يُقَابِلُهَا بِمَا قَابَلَتْ بِهِ إِسَاءَةَ عَبْدِهِ إِلَيْكَ ، فَهَذَا لَا
بَدَّ مِنْهُ ، وَشَاهِدُهُ فِي السُّنَّةِ مِنْ وُجُوهِ كَثِيرَةٍ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا .

مَشْهَدُ السَّلَامَةِ وَبَرْدِ الْقَلْبِ :

الْمَشْهَدُ السَّادِسُ : مَشْهَدُ السَّلَامَةِ وَبَرْدِ الْقَلْبِ وَهَذَا مَشْهَدٌ شَرِيفٌ
جَدًّا لِمَنْ عَرَفَهُ ، وَذَاقَ حَلَاوَتَهُ ، وَهُوَ أَنْ لَا يَشْتَغَلَ قَلْبُهُ وَسِرُّهُ بِمَا نَالَهُ
مِنَ الْأَذَى ، وَطَلَبَ الْوُصُولِ إِلَى دَرْكِ ثَأْرِهِ ، وَشَفَاءِ نَفْسِهِ ، بَلْ يُفَرِّغُ
قَلْبَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَرَى أَنَّ سَلَامَتَهُ وَبَرْدَهُ وَخُلُوهُ مِنْهُ أَنْفَعُ لَهُ ، وَالَّذِ
وَأَطْيَبُ ، وَأَعُونُ عَلَى مَصَالِحِهِ ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ فَاتَهُ مَا هُوَ

أَهْمُ عِنْدَهُ ، وَخَيْرٌ لَهُ مِنْهُ ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مَغْبُونًا ، وَالرَّشِيدُ لَا يَرْضَى بِذَلِكَ ، وَيَرَى أَنَّهُ مَنْ تَصَرَّفَاتِ السَّفِيهِ ، فَأَيْنَ سَلَامَةُ الْقَلْبِ مِنْ امْتِلَائِهِ بِالْغِلِّ وَالْوَسَاوِسِ ، وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي إِدْرَاكِ الْإِنْتِقَامِ ؟ .

مَشْهَدُ الْأَمْنِ :

المشهد السابع : مَشْهَدُ الْأَمْنِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ الْمُقَابَلَةَ وَالْإِنْتِقَامَ : أَمِنَ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِذَا انْتَقَمَ : وَقَعَهُ الْخَوْفُ وَلَا بُدَّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزْرَعُ الْعَدَاوَةَ ، وَالْعَاقِلُ لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ ، وَلَوْ كَانَ حَقِيرًا ، فَكَمْ مِنْ حَقِيرٍ أَرْدَى عَدُوَّهُ الْكَبِيرَ ؟ ، فَإِذَا غَفَرَ ، وَلَمْ يَنْتَقِمْ ، وَلَمْ يُقَابَلْ : أَمِنَ مَنْ تَوَلَّدَ الْعَدَاوَةَ ، أَوْ زِيَادَتَهَا ، وَلَا بُدَّ أَنْ عَفْوُهُ وَحِلْمُهُ وَصَفْحُهُ يَكْسِرُ عَنْهُ شَوْكَةَ عَدُوِّهِ ، وَيَكْفُ مِنْ جَزَعِهِ ، بِعَكْسِ الْإِنْتِقَامِ ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ أَيْضًا .

مَشْهَدُ الْجِهَادِ :

المشهد الثامن : مَشْهَدُ الْجِهَادِ وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ تَوَلَّدَ أَذَى النَّاسِ لَهُ مِنْ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَاتِهِ .

وصاحب هذا المقام : قَدْ اشْتَرَى اللَّهُ مِنْهُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَعَرَضَهُ بِأَعْظَمِ الثَّمَنِ ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُسَلَّمَ إِلَيْهِ الثَّمَنَ فَلْيُسَلِّمْ هُوَ السَّلْعَةَ لِيَسْتَحَقَّ ثَمَنَهَا ، فَلَا حَقَّ لَهُ عَلَى مَنْ آذَاهُ ، وَلَا شَيْءَ لَهُ قَبْلَهُ ، إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ بِعَقْدِ هَذَا

التَّبَائِعِ ، فَإِنَّهُ قَدْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .

وَهَذَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، وَلِهَذَا مَنَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمُهَاجِرِينَ مَنْ سَكَنُوا مَكَّةَ - أَعَزَّهَا اللَّهُ - وَلَمْ يَرُدَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ دَارَهُ وَلَا مَالَهُ الَّذِي أَخَذَهُ الْكُفَّارُ ، وَلَمْ يُضْمَنْهُمْ دِيَّةٌ مَنْ قَتَلُوهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَلَمَّا عَزَمَ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى تَضْمِينِ أَهْلِ الرِّدَّةِ مَا أَتْلَفُوهُ مِنْ نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، قَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - بِمَشْهَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - تِلْكَ دِمَاءٌ وَأَمْوَالٌ ذَهَبَتْ فِي اللَّهِ ، وَأَجُورُهَا عَلَى اللَّهِ ، وَلَا دِيَّةَ لِشَهِيدٍ فَأَضْفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَوْلِ عُمَرَ ، وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - .

فَمَنْ قَامَ لِلَّهِ حَتَّى أُوذِيَ فِي اللَّهِ : حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَامَ ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِابْنِهِ ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لُقْمَانُ: ١٧] .

مَشْهَدُ النِّعْمَةِ :

الْمَشْهَدُ التَّاسِعُ : مَشْهَدُ النِّعْمَةِ وَذَلِكَ مِنْ وَجُوهِ .

أَحَدُهَا : أَنْ يَشْهَدَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي أَنْ جَعَلَهُ مَظْلُومًا يَتَرَقَّبُ النَّصْرَ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ ظَالِمًا يَتَرَقَّبُ الْمَقْتَّ وَالْأَخْذَ ، فَلَوْ خَيْرَ الْعَاقِلُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ

- وَلَا بُدَّ مِنْ إِحْدَاهُمَا - لَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا .

وَمِنْهَا : أَنْ يَشْهَدَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي التَّكْفِيرِ بِذَلِكَ مِنْ خَطَايَاهُ ، فَإِنَّهُ مَا أَصَابَ الْمُؤْمِنَ هُمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا أَذًى إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ خَطَايَاهُ ، فَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ دَوَاءٌ يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْهُ دَاءُ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ ، وَمَنْ رَضِيَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ بِأَدْوَائِهِ كُلِّهَا وَأَسْقَامِهِ ، وَلَمْ يُدَاوِهِ فِي الدُّنْيَا بِدَوَاءٍ يُوجِبُ لَهُ الشِّفَاءَ : فَهُوَ مَغْبُورٌ سَفِيهٌ ، فَأَذَى الْخَلْقِ لَكَ كَالدَّوَاءِ الْكَرِيهِ مِنَ الطَّبِيبِ الْمُشْفِقِ عَلَيْكَ ، فَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ وَكَرَاهَتِهِ وَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَانْظُرْ إِلَى شَفَقَةِ الطَّبِيبِ الَّذِي رَكَّبَهُ لَكَ ، وَبَعَثَهُ إِلَيْكَ عَلَى يَدَيْهِ مَنْ نَفَعَكَ بِمَضَرَّتِهِ .

وَمِنْهَا : أَنْ يَشْهَدَ كَوْنَ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ أَهْوَنَ وَأَسْهَلَ مِنْ غَيْرِهَا ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ مِحْنَةٍ إِلَّا وَفَوْقَهَا مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهَا وَأَمْرٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَوْقَهَا مِحْنَةٌ فِي الْبَدَنِ وَالْمَالِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَلَامَةِ دِينِهِ وَإِسْلَامِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَأَنَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ دُونَ مُصِيبَةِ الدِّينِ فَهَيِّنَةٌ ، وَأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ نِعْمَةٌ ، وَالْمُصِيبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ مُصِيبَةُ الدِّينِ .

وَمِنْهَا : تَوْفِيَّةُ أَجْرِهَا وَثَوَابُهَا يَوْمَ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ .

وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ : أَنَّهُ يَتَمَنَّى أَنَاسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ تُقَرَّضُ بِالْمَقَارِضِ ، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ .

هَذَا ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَشْتَدُّ فَرَحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا لَهُ قَبْلَ النَّاسِ مِنَ الْحَقُوقِ فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ وَالْعَرَضِ ، فَالْعَاقِلُ يَعُدُّ هَذَا ذُخْرًا لِيَوْمِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ ، وَلَا يُبْطِلُهُ بِالْإِنْتِقَامِ الَّذِي لَا يُجْدِي عَلَيْهِ شَيْئًا .

مَشْهُدُ الْأُسُوءَةِ :

المشهد العاشر : مَشْهُدُ الْأُسُوءَةِ وَهُوَ مَشْهُدٌ شَرِيفٌ لَطِيفٌ جَدًّا ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ اللَّيِّبَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسُوءَةٌ بِرُسُلِ اللَّهِ ، وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَخَاصَّتِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِنَّهُمْ أَشَدُّ الْخَلْقِ امْتِحَانًا بِالنَّاسِ ، وَأَذَى النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ فِي الْحُدُورِ .

وَيَكْفِي تَدَبُّرُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مَعَ أُمَّهَاتِهِمْ وَشَأْنِ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَذَى أَعْدَائِهِ لَهُ بِمَا لَمْ يُؤْذِهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَقَدْ قَالَ لَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ لَتَكْذِبَنَّ وَلَتَخْرَجَنَّ وَلَتُؤْذِينَ ، وَقَالَ لَهُ : مَا جَاءَ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي ، وَهَذَا مُسْتَمِرٌّ فِي وَرَثَتِهِ كَمَا كَانَ فِي مُوَرِّثِهِمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

أَفَلَا يَرْضَى الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسُوءَةٌ بِخِيَارِ خَلْقِ اللَّهِ ، وَخَوَاصِّ عِبَادِهِ : الْأَمْثَلِ فَلَا مِثْلَ ؟ .

وَمَنْ أَحَبَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ فَلْيَقِفْ عَلَى مَحَنِ الْعُلَمَاءِ ، وَأَذَى الْجُهَّالِ لَهُمْ ، وَقَدْ صَنَّفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ كِتَابًا سَمَّاهُ مَحَنَ الْعُلَمَاءِ .

مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ :

المَشْهَدُ الْحَادِي عَشَرَ : مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ وَهُوَ أَجَلُ الْمَشَاهِدِ وَأَرْفَعُهَا ، فَإِذَا امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَمُعَامَلَتِهِ ، وَإِثَارِ مَرْضَاتِهِ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ، وَقُرَّةِ الْعَيْنِ بِهِ ، وَالْأُنْسِ بِهِ ، وَاطْمَأْنَنِ إِلَيْهِ ، وَسَكَنَ إِلَيْهِ ، وَاشْتَقَاقِ إِلَى لِقَائِهِ ، وَاتَّخَذَهُ وَلِيًّا دُونَ مَنْ سِوَاهُ ، بِحَيْثُ فَوَّضَ إِلَيْهِ أُمُورَهُ كُلَّهَا ، وَرَضِيَ بِهِ وَبِأَقْضِيَّتِهِ ، وَفَنِيَ بِحُبِّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَذِكْرِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ : فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى فِي قَلْبِهِ مُتَسَّعٌ لَشُهُودِ أَذَى النَّاسِ لَهُ أَلْبَتَّةَ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَشْتَغَلَ قَلْبُهُ وَفِكْرُهُ وَسِرُّهُ بِتَطَلُّبِ الْإِنْتِقَامِ وَالْمُقَابَلَةِ ، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ وَيَعْوِضُهُ مِنْهُ ، فَهُوَ قَلْبٌ جَائِعٌ غَيْرُ شَبْعَانَ ، فَإِذَا رَأَى أَيْ طَعَامَ رَأَاهُ هَفَّتْ إِلَيْهِ نَوَازِعُهُ ، وَانْبَعَثَتْ إِلَيْهِ دَوَاعِيهِ ، وَأَمَّا مَنْ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِأَعْلَى الْأَغْذِيَةِ وَأَشْرَفَهَا : فَإِنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَا دُونَهَا . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] .

حَقِيقَةُ التَّوَاضُعِ :

التَّوَاضُعُ : أَنْ يَتَوَاضَعَ الْعَبْدُ لِمَصُولَةِ الْحَقِّ .

يَعْنِي : أَنْ يَتَلَقَّى سُلْطَانَ الْحَقِّ بِالْخُضُوعِ لَهُ ، وَالذَّلِّ ، وَالْإِنْقِيَادِ ، وَالذُّخُولِ تَحْتَ رِقِّهِ ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْحَقُّ مُتَصَرِّفًا فِيهِ تَصَرُّفَ الْمَالِكِ فِي

مَمْلُوكِهِ ، فَبِهَذَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ خُلُقُ التَّوَاضُّعِ ، وَلِهَذَا فَسَّرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْكِبَرَ بِضِدِّهِ ، فَقَالَ : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَضُ النَّاسِ » ^(١) ، « فَبَطَرُ الْحَقِّ » : رُدُّهُ وَجَحْدُهُ ، وَالِدَّفْعُ فِي صَدْرِهِ ، كَدَفْعِ الصَّائِلِ ، « وَغَمَضُ النَّاسِ » : احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاءُؤُهُمْ ، وَمَتَى اخْتَقَرَهُمْ وَازْدَرَاهُمْ : دَفَعَ حُقُوقَهُمْ ، وَجَحَدَهَا ، وَاسْتَهَانَ بِهَا .

وَلَمَّا كَانَ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالٌ وَصَوْلَةٌ : كَانَتْ النُّفُوسُ الْمُتَكَبِّرَةُ لَا تَقْرَأُ لَهُ بِالصَّوْلَةِ عَلَى تِلْكَ الصَّوْلَةِ الَّتِي فِيهَا ، وَلَا سِيَّما النُّفُوسُ الْمُبْطِلَةُ ، فَتَصُولُ عَلَى صَوْلَةِ الْحَقِّ بِكِبَرِهَا وَبَاطِلِهَا ، فَكَانَ حَقِيقَةُ التَّوَاضُّعِ : خُضُوعَ الْعَبْدِ لَصَوْلَةِ الْحَقِّ ، وَانْقِيَادَهُ لَهَا ، فَلَا يُقَابِلُهَا بِصَوْلَتِهِ عَلَيْهَا .

التَّوَاضُّعُ لِلدِّينِ :

التَّوَاضُّعُ لِلدِّينِ ، هُوَ الْانْقِيَادُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ ، وَالِإِذْعَانُ ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :

الْأَوَّلُ : أَنْ لَا يُعَارِضَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَارِضَاتِ الْأَرْبَعَةِ السَّارِيَةِ فِي الْعَالَمِ ، الْمُسَمَّاةِ : بِالْمَعْقُولِ ، وَالْقِيَّاسِ ، وَالذَّوْقِ ، وَالسِّيَّاسَةِ .

فَالْأَوَّلَى : لِلْمُنْحَرِفِينَ أَهْلُ الْكِبَرِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ، الَّذِينَ عَارَضُوا نُصُوصَ الْوَحْيِ بِمَعْقُولَاتِهِمْ الْفَاسِدَةِ ، وَقَالُوا : إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ

(١) (صَحِيحٌ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩١) .

وَالنَّقْلُ : قَدَّمْنَا الْعَقْلَ ، وَعَزَلْنَا النَّقْلَ ، إِمَّا عَزَلَ تَفْوِيضٌ ، وَإِمَّا عَزَلَ تَأْوِيلٌ .

وَالثَّانِي : لِلْمُتَكَبِّرِينَ مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى الْفَقْهِ ، قَالُوا : إِذَا تَعَارَضَ الْقِيَاسُ وَالرَّأْيُ وَالنُّصُوصُ : قَدَّمْنَا الْقِيَاسَ عَلَى النَّصِّ ، وَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَيْهِ .

وَالثَّالِثُ : لِلْمُتَكَبِّرِينَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى التَّصَوُّفِ وَالزُّهْدِ ، فَإِذَا تَعَارَضَ عِنْدَهُمُ الذَّوْقُ وَالْأَمْرُ ، قَدَّمُوا الذَّوْقَ وَالْحَالِ ، وَلَمْ يَعْأُوا بِالْأَمْرِ .

وَالرَّابِعُ : لِلْمُتَكَبِّرِينَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ الْوُلَاةِ وَالْأَمْراءِ الْجَائِرِينَ ، إِذَا تَعَارَضَتْ عِنْدَهُمُ الشَّرِيعَةُ وَالسِّيَاسَةُ ، قَدَّمُوا السِّيَاسَةَ ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى حُكْمِ الشَّرِيعَةِ .

فَهَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةُ : هُمْ أَهْلُ الْكِبَرِ ، وَالتَّوَاضُّعُ : التَّخَلُّصُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ .

الثَّانِي : أَنْ لَا يَتَّهَمَ دَلِيلًا مِنْ أَدَلَّةِ الدِّينِ ، بِحَيْثُ يَظُنُّهُ فَاسِدَ الدَّلَالَةِ ، أَوْ نَاقِصَ الدَّلَالَةِ ، أَوْ قَاصِرَهَا ، أَوْ أَنَّ غَيْرَهُ كَانَ أَوْلَى مِنْهُ ، وَمَتَى عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَتَّهَمْ فَهْمَهُ ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْآفَةَ مِنْهُ ، وَالْبَلِيَّةَ فِيهِ ، كَمَا قِيلَ :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الْأَذْهَانَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْفُهْمِ

وَهَكَذَا الْوَاقِعُ فِي الْوَاقِعِ حَقِيقَةٌ : أَنَّهُ مَا اتَّهَمَ أَحَدٌ دَلِيلًا لِلدِّينِ إِلَّا وَكَانَ الْمُتَّهَمُ هُوَ الْفَاسِدَ الذِّهْنِ ، الْمَأْفُونِ فِي عَقْلِهِ وَذِهْنِهِ ، فَالْآفَةُ مِنَ الذِّهْنِ الْعَلِيلِ ، لَا فِي نَفْسِ الدَّلِيلِ .

وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ أَدَلَّةِ الدِّينِ مَا يُشْكَلُ عَلَيْكَ ، وَيَبْهُو فَهْمُكَ عَنْهُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ وَشَرَفِهِ اسْتَعْصَى عَلَيْكَ ، وَأَنَّ تَحْتَهُ كَنْزًا مِنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ تُؤْتَ مِفْتَاحَهُ بَعْدُ ، هَذَا فِي حَقِّ نَفْسِكَ .

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِكَ : فَاتَّهَمَ آرَاءَ الرِّجَالِ عَلَى نُصُوصِ الْوَحْيِ ، وَلَيْكُنْ رَدُّهَا أَيْسَرَ شَيْءٍ عَلَيْكَ لِلنُّصُوصِ ، فَمَا لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَسْتَ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَوْ . . وَلَوْ . . وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ - قَدَّسَ اللَّهُ رَوْحَهُ - : أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ اسْتَبَانَ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَدْعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ .

الثَّالِثُ : أَنْ لَا يَجِدَ إِلَى خِلَافِ النَّصِّ سَبِيلًا أَلْبَتَّةَ ، لَا بَاطِنَهُ ، وَلَا بَلْسَانَهُ وَلَا بَفْعْلَهُ ، وَلَا بِحَالِهِ ، بَلْ إِذَا أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْخِلَافِ : فَهُوَ كَخِلَافِ الْمُقَدَّمِ عَلَى الزَّنا ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ ، وَقَتْلِ النَّفْسِ ، بَلْ هَذَا الْخِلَافُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ دَاعٍ إِلَى النِّفَاقِ ، وَهُوَ الَّذِي خَافَهُ الْكِبَارُ ، وَالْأَئِمَّةُ عَلَى نَفُوسِهِمْ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُخَالَفَ لِلنَّصِّ - لِقَوْلِ مَتَّبِعِهِ وَشَيْخِهِ وَمُقَلِّدِهِ ، أَوْ لِرَأْيِهِ وَمَعْقُولِهِ ، وَذَوْقِهِ ، وَسِيَاسَتِهِ ، إِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مَعْذُورًا ، وَلَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِمَعْذُورٍ - فَالْمُخَالَفُ لِقَوْلِهِ ، لِنُصُوصِ الْوَحْيِ أَوَّلَى بِالْعُذْرِ عِنْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ .

فَوَاعَجَبًا إِذَا اتَّسَعَ بُطْلَانُ الْمُخَالَفِينَ لِلنُّصُوصِ لِعُذْرِ مَنْ خَالَفَهَا تَقْلِيدًا ، أَوْ تَأْوِيلًا ، أَوْ لَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ ضَاقَ عَنْ عُذْرِ مَنْ خَالَفَ أَقْوَاهُمْ ، وَأَقْوَالَ شُيُوخِهِمْ ، لِأَجْلِ مُوَافَقَةِ النُّصُوصِ ؟ ، وَكَيْفَ نَصَبُوا لَهُ الْحَبَائِلَ ، وَبَغَوْهُ الْغَوَائِلَ ، وَرَمَوْهُ بِالْعِظَائِمِ ، وَجَعَلُوهُ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِمِ ؟ ، فَرَمَوْهُ بِدَائِهِمْ وَأَنْسَلُوا مِنْهُ لَوْ آذًا ، وَقَذَفُوهُ بِمُصَابِهِمْ ، وَجَعَلُوا تَعْظِيمَ الْمَتَّبِعِينَ مَلَاذًا لَهُمْ وَمَعَاذًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

مِنَ التَّوَاضُّعِ قَبُولِ الْعُذْرِ :

إِنَّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، ثُمَّ جَاءَ يَعْتَذِرُ مِنْ إِسَاءَتِهِ ، فَإِنَّ التَّوَاضُّعَ يُوجِبُ عَلَيْكَ قَبُولَ مَعْذَرَتِهِ ، حَقًّا كَانَتْ أَوْ بَاطِلًا ، وَتَكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْهُ فِي الْغَزْوِ ، فَلَمَّا قَدِمَ جَاءُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، فَقَبِلَ أَعْذَارَهُمْ ، وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَعَلَامَةُ الْكَرَمِ وَالتَّوَاضُّعِ : أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ الْخُلَلَ فِي عُذْرِهِ لَا تُوقِفُهُ

عَلَيْهِ وَلَا تَحَاجُّهُ ، وَقُلْ : يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ ، وَلَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ ، وَالْمَقْدُورُ لَا مَدْفَعَ لَهُ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

حَقِيقَةُ الْمُرُوءَةِ :

الْمُرُوءَةُ فُعُولَةٌ مِنْ لَفْظِ الْمَرْءِ ، كَالْفُتُوَّةِ مِنَ الْفَتَى ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلِهَذَا كَانَ حَقِيقَتُهَا : اتِّصَافَ النَّفْسِ بِصِفَاتِ الْإِنْسَانِ الَّتِي فَارَقَ بِهَا الْحَيَوَانَ الْبَهِيمَ ، وَالشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ ، فَإِنَّ فِي النَّفْسِ ثَلَاثَةَ دَوَاعٍ مُتَجَاذِبَةٍ : دَاعٍ يَدْعُوهَا إِلَى الْإِنْصَافِ بِأَخْلَاقِ الشَّيْطَانِ : مِنَ الْكِبَرِ ، وَالْحَسَدِ ، وَالْعُلُوِّ ، وَالْبَغْيِ ، وَالشَّرِّ ، وَالْأَذَى ، وَالْفَسَادِ ، وَالْغِشِّ .

وَدَاعٍ يَدْعُوهَا إِلَى أَخْلَاقِ الْحَيَوَانِ ، وَهُوَ دَاعِي الشَّهْوَةِ .

وَدَاعٍ يَدْعُوهَا إِلَى أَخْلَاقِ الْمَلِكِ : مِنَ الْإِحْسَانِ ، وَالنُّصْحِ ، وَالْبِرِّ ، وَالْعِلْمِ ، وَالطَّاعَةِ .

فَحَقِيقَةُ الْمُرُوءَةِ : بُغْضُ ذَيْنِكَ الدَّاعِيَيْنِ ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِيِ الثَّالِثِ ، وَقِلَّةُ الْمُرُوءَةِ وَعَدَمُهَا : هُوَ الْإِسْتِرْسَالُ مَعَ ذَيْنِكَ الدَّاعِيَيْنِ ، وَالتَّوَجُّهُ لِدَعْوَتِهِمَا أَيْنَ كَانَتْ .

فَالْإِنْسَانِيَّةُ ، وَالْمُرُوءَةُ ، وَالْفُتُوَّةُ : كُلُّهَا فِي عَصِيَانِ الدَّاعِيَيْنِ ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِيِ الثَّالِثِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ عُقُولًا بِلَا شَهْوَةٍ ، وَخَلَقَ الْبَهَائِمَ شَهْوَةً بِلَا عَقُولٍ ، وَخَلَقَ ابْنَ آدَمَ ، وَرَكَّبَ فِيهِ

الْعَقْلُ وَالشَّهْوَةُ ، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتُهُ : التَّحَقَّ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلُهُ : التَّحَقَّ بِالْبَهَائِمِ .

وَلِهَذَا قِيلَ فِي حَدِّ الْمَرْوَةِ : إِنَّهَا غَلَبَةُ الْعَقْلِ لِلشَّهْوَةِ .

وَقَالَ الْفَقْهَاءُ فِي حَدِّهَا : هِيَ اسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُ الْعَبْدَ وَيُزِينُهُ ، وَتَرْكُ مَا يُدْنِسُهُ وَيَشِينُهُ .

وَقِيلَ : الْمَرْوَةُ اسْتِعْمَالُ كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَاجْتِنَابُ كُلِّ خُلُقٍ قَبِيحٍ .

وَحَقِيقَةُ الْمَرْوَةِ تَجَنُّبُ الدَّنَايَا وَالرَّذَائِلِ ، مِنَ الْأَقْوَالِ ، وَالْأَعْمَالِ ، وَالْأَفْعَالِ .

فَمَرْوَةُ اللِّسَانِ : حَلَاوَتُهُ وَطَيِّبُهُ وَلِينُهُ ، وَاجْتِنَاءُ الثَّمَارِ مِنْهُ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ .

وَمَرْوَةُ الْخُلُقِ : سَعَتُهُ وَبَسْطُهُ لِلْحَبِيبِ وَالْبَغِيضِ .

وَمَرْوَةُ الْمَالِ : الْإِصَابَةُ بِبَذْلِهِ مَوَاقِعَهُ الْمُحْمُودَةِ عَقْلاً وَعُرْفاً وَشَرْعاً .

وَمَرْوَةُ الْجَاهِ : بَذْلُهُ لِلْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ .

وَمَرْوَةُ الْإِحْسَانِ : تَعْجِيلُهُ وَتَيْسِيرُهُ ، وَتَوْفِيرُهُ ، وَعَدَمُ رُؤْيَتِهِ حَالَ

وُقُوعِهِ ، وَنَسْيَانُهُ بَعْدَ وَقُوعِهِ ، فَهَذِهِ مَرْوَةُ الْبَذْلِ .

دَرَجَاتُ الْمَرْوَةِ :

وَأَمَّا مَرْوَةُ التَّرَكِّ : فَتَرْكُ الْخِصَامِ ، وَالْمُعَاتَبَةِ ، وَالْمُطَالَبَةِ وَالْمَاهِرَةِ ،

وَالْإِغْضَاءِ عَنْ عَيْبِ مَا يَأْخُذُهُ مِنْ حَقِّكَ ، وَتَرْكُ الْإِسْتِقْصَاءِ فِي طَلْبِهِ ،

وَالْتَّغَافُلُ عَنْ عَثَرَاتِ النَّاسِ ، وَإِشْعَارُهُمْ أَنَّكَ لَا تَعْلَمُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَثْرَةً ، وَالتَّوْقِيرُ لِلْكَبِيرِ ، وَحِفْظُ حُرْمَةِ النَّظِيرِ ، وَرِعَايَةُ آدَبِ الصَّغِيرِ ، وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ .

الدَّرَجَةُ الْأُولَى : مُرُوءَةُ الْمَرْءِ مَعَ نَفْسِهِ ، وَهِيَ أَنْ يَحْمِلَهَا قَسْرًا عَلَى مَا يُجَمِّلُ وَيُزَيِّنُ ، وَتَرْكُ مَا يُدَنِّسُ وَيَشِينُ ، لِيَصِيرَ لَهَا مَلَكَةٌ فِي الْعَلَانِيَةِ ، فَمَنْ أَرَادَ شَيْئًا فِي سِرِّهِ وَخُلُوتِهِ : مَلَكُهُ فِي جَهْرِهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، فَلَا يَكْشِفُ عَوْرَتَهُ فِي الْخُلُوةِ ، وَلَا يَتَجَشَّأُ بِصَوْتِ مُزْعَجٍ مَا وَجَدَ إِلَى خِلَافِهِ سَبِيلًا ، وَلَا يُخْرِجُ الرِّيحَ بِصَوْتٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى خِلَافِهِ ، وَلَا يَجْشَعُ وَيَنْهَمُ عِنْدَ أَكْلِهِ وَحَدَهُ .

وَبِالْجُمْلَةِ : فَلَا يَفْعَلُ خَالِيًا مَا يَسْتَحْيِي مِنْ فِعْلِهِ فِي الْمَلَأِ ، إِلَّا مَا لَا يَحْظَرُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخُلُوةِ ، كَالْجَمَاعِ وَالتَّخْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ : الْمُرُوءَةُ مَعَ الْخَلْقِ ، بَأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمْ شُرُوطَ الْأَدَبِ وَالْحَيَاءِ ، وَالْخُلُقِ الْجَمِيلِ ، وَلَا يُظْهَرُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُهُ هُوَ مِنْ غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلِيَتَّخِذَ النَّاسَ مِرَاةً لِنَفْسِهِ ، فَكُلُّ مَا كَرَهُهُ وَنَفَرَ عَنْهُ ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ خُلُقٍ ، فَلْيَتَجَنَّبْهُ ، وَمَا أَحَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَحْسَنَهُ فَلْيَفْعَلْهُ .

وَصَاحِبُ هَذِهِ الْبَصِيرَةِ يَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَنْ خَالَطَهُ وَصَاحِبُهُ مِنْ كَامِلٍ

وَنَاقِصٍ ، وَسَيِّئِ الْخَلْقِ وَحَسَنِهِ ، وَعَدِيمِ الْمُرُوءَةِ وَغَزِيرِهَا .

وَكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ : يَتَعَلَّمُ الْمُرُوءَةَ ، وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْمُصُوفِينَ
بَأُضْدَادِهَا كَمَا رَوَى عَنْ بَعْضِ الْأَكَابِرِ : أَنَّهُ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سَيِّئُ الْخَلْقِ ،
فَظٌّ غَلِيظٌ ، لَا يُنَاسِبُهُ ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ؟ ، فَقَالَ : أَدْرُسُ عَلَيْهِ مَكَارِمَ
الْأَخْلَاقِ ، وَهَذَا يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي ضِدِّ أَخْلَاقِهِ ،
وَيَكُونُ بِتَمْرِينِ النَّفْسِ عَلَى مُصَاحَبَتِهِ وَمُعَاشَرَتِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ .

الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ : الْمُرُوءَةُ مَعَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ، بِالِاسْتِحْيَاءِ مِنْ نَظَرِهِ
إِلَيْكَ ، وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْكَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفْسٍ ، وَإِصْلَاحِ عُيُوبِ نَفْسِكَ
جَهْدَ الْإِمْكَانِ ، فَإِنَّهُ قَدْ اشْتَرَاهَا مِنْكَ ، وَأَنْتَ سَاعٍ فِي تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ ،
وَتَقَاضِي الثَّمَنِ .

وَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ : تَسْلِيمُهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْعُيُوبِ ، وَتَقَاضِي الثَّمَنِ
كَامِلًا ، أَوْ رُؤْيَا مُتَّهِ فِي هَذَا الْإِصْلَاحِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُتَوَلَّى لَهُ ، لَا أَنْتَ ، فَيُغْنِيكَ
الْحَيَاءُ مِنْهُ عَنْ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ ، وَالِاسْتِغَالِ بِإِصْلَاحِ عُيُوبِ نَفْسِكَ عَنْ
الْتِفَاتِكَ إِلَى عَيْبِ غَيْرِكَ ، وَشُهُودِ الْحَقِيقَةِ عَنْ رُؤْيَا فِعْلِكَ وَصَلَاحِكَ .

كَيْفَ تُعَاشِرُ النَّاسَ :

وَالْبَصِيرُ الصَّادِقُ : يَضْرِبُ فِي كُلِّ غَنِيمَةٍ بَسْمَهُمْ ، وَيُعَاشِرُ كُلَّ طَائِفَةٍ
عَلَى أَحْسَنِ مَا مَعَهَا ، وَلَا يَتَحَيَّزُ إِلَى طَائِفَةٍ ، وَيَنَأِي عَنِ الْآخَرَى بِالْكُلِّيَّةِ :

أَنْ لَا يَكُونَ مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الصَّادِقِينَ ، وَدَعَايُ
الْجَاهِلِيَّةِ كَامِنَةٌ فِي النَّفُوسِ .

وَلَا أَغْنِي بِذَلِكَ أَصْغَرِيَهُمْ وَلَكِنِّي أُرِيدُ بِهِ الدُّوَيْنَا

مِنْ صِفَاتِ عُقَلَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا :

الْعَاقِلُ يَقِفُ عَلَى الْبِسَاطِ ، وَيَحْذَرُ مِنَ الْإِنْبِسَاطِ ، وَهَذَا شَأْنُ عُقَلَاءِ
أَهْلِ الدُّنْيَا وَرُؤُوسَائِهِمْ : إِذَا مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ مَا يَسُرُّهُمْ وَيُسْطُهُمْ وَيَهْجِجُ
أَفْرَاحَهُمْ ، قَابَلُوهُ بِالسُّكُونِ وَالثَّبَاتِ وَالِاسْتِقْرَارِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَهْجُمْ
عَلَيْهِمْ .

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ فِي مَدْحِ الْمُهَاجِرِينَ :

لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا

حَاجَتُنَا إِلَى الْأَدَبِ :

قَالَ ابْنُ مُبَارَكٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- : نَحْنُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا
إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ .

مِنْ أَدَبِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ :

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ الرُّسُلِ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ- مَعَ اللَّهِ ،
وَخِطَابَهُمْ وَسُؤَالَهُمْ ، كَيْفَ تَجِدُهَا كُلُّهَا مَشْحُونَةً بِالْأَدَبِ قَائِمَةً بِهِ ؟ .

قَالَ الْمَسِيحُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦]، وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ أَقُلْهُ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ فِي حَقِيقَةِ الْأَدَبِ، ثُمَّ أَحَالَ الْأَمْرَ عَلَى عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِالْحَالِ وَسِرِّهِ، فَقَالَ: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي﴾ [المائدة: ١١٦]، ثُمَّ بَرَأَ نَفْسَهُ عَنْ عِلْمِهِ بَغِيبِ رَبِّهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثُمَّ أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ، وَوَصَفَهُ بِتَفَرُّدِهِ بِعِلْمِ الْغُيُوبِ كُلِّهَا، فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثُمَّ نَفَى أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ غَيْرَ مَا أَمَرَهُ رَبُّهُ بِهِ - وَهُوَ مُحَضِّ التَّوْحِيدِ - فَقَالَ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ شَهَادَتِهِ عَلَيْهِمْ مُدَّةَ مُقَامِهِ فِيهِمْ، وَأَنَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَا اِطِّلَاعَ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَحْدَهُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بَعْدَ الْوَفَاةِ بِالْاِطِّلَاعِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثُمَّ وَصَفَهُ بِأَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَهَادَةٍ وَأَعَمُّ، فَقَالَ: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ [المائدة: ١١٧]، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ، أَيْ شَأْنِ السَّيِّدِ رَحْمَةً عِبِيدِهِ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، وَهَؤُلَاءِ عِبِيدُكَ لَيْسُوا عِبِيدًا لِغَيْرِكَ فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ - مَعَ كَوْنِهِمْ عِبِيدُكَ - فَلَوْلَا أَنَّهُمْ عِبِيدُ سُوءٍ مِنْ أَبْخَسِ الْعَبِيدِ، وَأَعْتَائَهُمْ عَلَى سَيِّدِهِمْ، وَأَعْصَاهُمْ لَهُ - لَمْ تُعَذِّبْهُمْ، لِأَنَّ قُرْبَةَ

الْعُبُودِيَّةَ تَسْتَدْعِي إِحْسَانَ السَّيِّدِ إِلَى عَبْدِهِ وَرَحْمَتَهُ، فَلِمَاذَا يُعَذِّبُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَأَجُودُ الْأَجَوْدِينَ، وَأَعْظَمُ الْمُحْسِنِينَ إِحْسَانًا عَبْدَهُ؟، لَوْلَا فَرْطُ عُتُوِّهِمْ، وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ، وَكَمَالُ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١١٦]، أَيُّ هُمْ عِبَادُكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ، فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ: عَذَّبْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْكَ بِمَا تُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ، فَهُمْ عِبَادُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا جَنَوُهُ وَاکْتَسَبُوهُ، فَلَيْسَ فِي هَذَا اسْتِعْطَافٌ لَهُمْ، كَمَا يَظُنُّ الْجُهَّالُ، وَلَا تَفْوِيضٌ إِلَى مُحَضِّ الْمَشِيئَةِ وَالْمُلْكِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الْحِكْمَةِ، كَمَا تَظُنُّ الْقَدَرِيَّةُ، وَإِنَّمَا هُوَ إِقْرَارٌ وَاعْتِرَافٌ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِحُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ بِحَالِهِمْ، وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وَلَمْ يَقُلْ: الْغُفُورُ الرَّحِيمُ وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ قَالَهُ فِي وَقْتِ غَضَبِ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ، وَالْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَلَيْسَ هُوَ مَقَامَ اسْتِعْطَافٍ وَلَا شَفَاعَةٍ، بَلْ مَقَامُ بَرَاءَةٍ مِنْهُمْ، فَلَوْ قَالَ: فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ لَأَشْعَرَ بِاسْتِعْطَافِهِ رَبَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ الَّذِينَ قَدْ اشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمْ، فَالْمَقَامُ مَقَامُ مُوَافَقَةِ لِلرَّبِّ فِي غَضَبِهِ عَلَى مَنْ غَضِبَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ، فَعَدَلَ عَنْ ذِكْرِ الصِّفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُسْأَلُ بِهِمَا عَطْفُهُ وَرَحْمَتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ إِلَى ذِكْرِ الْعِزَّةِ

وَالْحِكْمَةُ ، الْمُتَضَمِّنَتَيْنِ لِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ .

وَالْمَعْنَى : إِنَّ غَفَرْتَ لَهُمْ فَمَغْفِرَتُكَ تَكُونُ عَنْ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ ، لَيْسَتْ عَنْ عَجْزٍ عَنْ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ ، وَلَا عَنْ خَفَاءٍ عَلَيْكَ بِمَقْدَارِ جَرَائِمِهِمْ ، وَهَذَا لِأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَغْفِرُ لغيرِهِ لِعَجْزِهِ عَنْ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ ، وَلِجَهْلِهِ بِمَقْدَارِ إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ ، وَالْكَمَالُ : هُوَ مَغْفِرَةُ الْقَادِرِ الْعَالِمِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَكَانَ ذِكْرُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَيْنَ الْأَدَبِ فِي الْخِطَابِ .

وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ حَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ : اثْنَانِ يَقُولَانِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ ، وَاثْنَانِ يَقُولَانِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ .

وَلِهَذَا يَقْتَرِنُ كُلُّ مَنِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالْأُخْرَى ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النِّسَاءُ : ١٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النِّسَاءُ : ١٤٩] .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) [الشُّعَرَاءُ : ٧٨-٨٠] ، وَلَمْ يَقُلْ : وَإِذَا أَمْرَضَنِي ، حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْخَضِرِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي السَّفِينَةِ ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾

[الْكَهْفُ: ٧٩] ، وَلَمْ يَقُلْ : فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ أَعْيِيَهَا ، وَقَالَ فِي الْغُلَامَيْنِ : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [الْكَهْفُ: ٨٢] .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُؤْمِنِي الْجَنِّ : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الْجِنُّ: ١٠] ، وَلَمْ يَقُولُوا : أَرَادَهُ بِهِمْ ، ثُمَّ قَالُوا : ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الْجِنُّ: ١٠] .

وَالطَّفُ مِنْ هَذَا قَوْلُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [الْقَصَصُ: ٢٤] ، وَلَمْ يَقُلْ : أَطْعِمْنِي .

وَقَوْلُ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٢٣] ، وَلَمْ يَقُلْ : رَبِّ قَدَّرْتَ عَلَيَّ وَقَضَيْتَ عَلَيَّ .

وَقَوْلُ أَيُّوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٨٣] ، وَلَمْ يَقُلْ : فَعَافِنِي وَاشْفِنِي .

وَقَوْلُ يُوسُفَ لِأَبِيهِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَإِخْوَتِهِ : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٠] ، وَلَمْ يَقُلْ : أَخْرَجَنِي مِنَ الْجُبِّ ، حِفْظًا لِلْأَدَبِ مَعَ إِخْوَتِهِ ، وَتَفَتُّيًا عَلَيْهِمْ : أَنْ لَا يُخْجِلَهُمْ بِمَا جَرَى فِي الْجُبِّ .

وَقَالَ : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٠] ، وَلَمْ يَقُلْ : رَفَعَ عَنْكُمْ

جُهِدَ الْجُوعَ وَالْحَاجَةَ، أَدَبًا مَعَهُمْ ، وَأَضَافَ مَا جَرَى إِلَى السَّبَبِ ، وَلَمْ يُضِفْهُ إِلَى الْمُبَاشَرِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يُوسُفُ : ١٠٠] ، فَأَعْطَى الْفُتُوَّةَ وَالْكَرَمَ وَالْأَدَبَ حَقَّهُ ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ كَمَا لَ هَذَا الْخُلُقِ إِلَّا لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ .

الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - هُوَ الْقِيَامُ بِدِينِهِ ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

وَلَا يَسْتَقِيمُ لِأَحَدٍ قَطُّ الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : مَعْرِفَتُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَمَعْرِفَتُهُ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ ، وَنَفْسٌ مُسْتَعِدَّةٌ قَابِلَةٌ لِنَيْتِهِ ، مُتَهَيِّئَةٌ لِقَبُولِ الْحَقِّ عِلْمًا وَعَمَلًا وَحَالًا ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِهِ .
فِرَاسُ الْأَدَبِ مَعَهُ : كَمَا لُ التَّسْلِيمُ لَهُ ، وَالْإِنْقِيَادُ لِأَمْرِهِ ، وَتَلَقِّي خَبَرِهِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ ، دُونَ أَنْ يُحْمَلَهُ مُعَارَضَةً خِيَالٍ بَاطِلٍ ، يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا ، أَوْ يُحْمَلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا ، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ ، وَزُبَالَاتِ أَذْهَانِهِمْ ، فَيُوحِّدُهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَالْإِنْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ ، كَمَا وَحَدَّ

الْمُرْسِلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ ، وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ .
فَهُمَا تَوْحِيدَانِ ، لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا بِهِمَا : تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ ،
وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ .

الأدب مع الخلق :

وَأَمَّا الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ : فَهُوَ مُعَامَلَتُهُمْ - عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ - بِمَا
يَلِيْقُ بِهِمْ ، فَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَدَبٌ ، وَالْمَرَاتِبُ فِيهَا أَدَبٌ خَاصٌّ ، فَمَعَ الْوَالِدَيْنِ :
أَدَبٌ خَاصٌّ وَلِلْأَبِ مِنْهُمَا : أَدَبٌ هُوَ أَخْصُّ بِهِ ، وَمَعَ الْعَالَمِ : أَدَبٌ آخَرٌ ،
وَمَعَ السُّلْطَانِ : أَدَبٌ يَلِيْقُ بِهِ ، وَلَهُ مَعَ الْأَقْرَانِ أَدَبٌ يَلِيْقُ بِهِمْ ، وَمَعَ
الْأَجَانِبِ : أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ وَذَوِي أَنْسِهِ ، وَمَعَ الضَّيْفِ : أَدَبٌ
غَيْرُ أَدَبِهِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ .

ولكل حال أدب :

وَلِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ فَلِلْأَكْلِ آدَابٌ ، وَلِلشُّرْبِ آدَابٌ ، وَلِلرُّكُوبِ ،
وَالدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ ، وَالسَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ ، وَالنَّوْمِ آدَابٌ ، وَلِلْبَوْلِ آدَابٌ ،
وَلِلْكَلامِ آدَابٌ ، وَلِلسُّكُوتِ وَالِاسْتِمَاعِ آدَابٌ .

وأدب المرء : عنوان سعادته :

وَأَدَبُ الْمَرْءِ : عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ .

وَقَلَّةُ أَدَبِهِ: عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ.

فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حَرَمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ.

فَانْظُرْ إِلَى الْأَدَبِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ: كَيْفَ نَجَى صَاحِبُهُ مِنْ حَبْسِ الْغَارِ حِينَ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ؟ وَالْإِخْلَالُ بِهِ مَعَ الْأُمِّ - تَأْوِيلًا وَإِقْبَالًا عَلَى الصَّلَاةِ - كَيْفَ امْتَحَنَ صَاحِبُهُ بِهِدْمَ صَوْمَعَتِهِ وَضَرْبَ النَّاسِ لَهُ، وَرَمِيَهُ بِالْفَاحِشَةِ؟.

وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ كُلِّ شَقِيٍّ وَمُغْتَرٍّ وَمُدْبِرٍ: كَيْفَ تَجِدُ قِلَّةَ الْأَدَبِ هِيَ الَّتِي سَاقَتْهُ إِلَى الْحَرَمَانِ؟.

وَانْظُرْ قِلَّةَ أَدَبِ عَوْفٍ مَعَ خَالِدٍ: كَيْفَ حَرَمَهُ السَّلْبُ بَعْدَ أَنْ بَرَدَ بِيَدَيْهِ؟. وَاَنْظُرْ أَدَبَ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الصَّلَاةِ: أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: « مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - »^(١)، كَيْفَ أَوْرَثَهُ مَقَامَهُ وَالْإِمَامَةَ بِالْأُمَّةِ بَعْدَهُ؟، فَكَانَ ذَلِكَ التَّأَخُّرُ إِلَى خَلْفِهِ - وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنْ اثْبُتْ مَكَانَكَ - جَمْرًا، وَسَعْيًا إِلَى قُدَامٍ؟، بِكُلِّ خُطْوَةٍ إِلَى وَرَاءَ مَرَّاحِلٍ إِلَى قُدَامٍ، تَنْقَطِعُ فِيهَا أَعْنَاقُ الْمَطِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) (صَحِيحُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٨٤)، وَمُسْلِمٌ (٤٢١).

حَدُّ الْأَدَبِ :

هَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْحُدُودِ ، فَإِنَّ الانْحِرَافَ إِلَى أَحَدِ طَرَفِي الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ :
هُوَ قَلَّةُ الْأَدَبِ .

وَالْأَدَبُ : الْوُقُوفُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، فَلَا يُقْصَرُ بِحُدُودِ الشَّرْعِ
عَنْ تَمَامِهَا ، وَلَا يَتَجَاوَزُ بِهَا مَا جُعِلَتْ حُدُودًا لَهُ ، فَكِلَاهُمَا عُدْوَانٌ ، وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَالْعُدْوَانُ : هُوَ سُوءُ الْأَدَبِ .

أَدَبُ الصُّحْبَةِ :

قَالَ أَبُو عَثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : الصُّحْبَةُ مَعَ اللَّهِ : بِحُسْنِ
الْأَدَبِ ، وَدَوَامِ الْهَيْبَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ ، وَالصُّحْبَةُ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - : بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ ، وَلِزُومِ ظَاهِرِ الْعِلْمِ ، وَمَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ : بِالْإِحْتِرَامِ
وَالْخِدْمَةِ ، وَمَعَ الْأَهْلِ : بِحُسْنِ الْخُلُقِ ، وَمَعَ الْإِخْوَانِ : بِدَوَامِ الْبُشْرِ ،
مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، وَمَعَ الْجُهَّالِ : بِالدُّعَاءِ لَهُمْ وَالرَّحْمَةِ .

زَادَ غَيْرُهُ : وَمَعَ الْحَافِظِينَ : بِإِكْرَامِهِمَا وَاحْتِرَامِهِمَا ، وَإِمْلَائِهِمَا مَا
يُحْمَدَانِكَ عَلَيْهِ ، وَمَعَ النَّفْسِ : بِالْمُخَالَفَةِ ، وَمَعَ الشَّيْطَانِ : بِالْعِدَاوَةِ .

الْحِمْمُ الْعَالِيَةُ :

أَعْلَى الْهِمَمِ : مَا تَعَلَّقَ بِالْعَلِيِّ الْأَعْلَى ، وَأَوْسَعُهَا : مَا تَعَلَّقَ بِصَلَاحِ

الْعِبَادِ ، وَهِيَ هِمَمُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَرَثَتِهِمْ .

أَرْكَانُ الْحِكْمَةِ :

وَلَهَا ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ : الْعِلْمُ ، وَالْحِلْمُ ، وَالْأَنَاءُ .

وَأَفَاتُهَا وَأَضْدَادُهَا : الْجَهْلُ ، وَالطَّيْشُ ، وَالْعَجَلَةُ .

فَلَا حِكْمَةَ لَجَاهِلٍ ، وَلَا طَائِشٍ ، وَلَا عَجُولٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْفِرَاسَةُ الْإِيمَانِيَّةُ :

وَسَبَبُهَا : نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ ، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْحَالِي وَالْعَاطِلِ ، وَالصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ .

وَحَقِيقَتُهَا : أَنَّهَا خَاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ يَنْفِي مَا يُضَادُّهُ ، يَثْبُتُ عَلَى الْقَلْبِ كَوُثُوبِ الْأَسَدِ عَلَى الْفَرِيسَةِ ، لَكِنَّ الْفَرِيسَةَ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مُفْعُولَةٍ ، وَبِنَاءُ الْفِرَاسَةِ كِبَاءُ الْوَلَايَةِ وَالْإِمَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ ، وَهَذِهِ الْفِرَاسَةُ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ ، فَمَنْ كَانَ أَقْوَى إِيْمَانًا فَهُوَ أَحَدُ فِرَاسَةٍ .

أَفْرَسُ النَّاسِ :

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : الْعَزِيزُ فِي يَوْسُفَ ، حَيْثُ قَالَ لِامْرَأَتِهِ : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَنَهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا ﴾ [يُوسُفَ : ٢١] ، وَابْنَةُ شُعَيْبٍ حِينَ قَالَتْ لِأَبِيهَا فِي مُوسَى :

﴿أَسْتَجِرُّهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وَأَبُو بَكْرٍ فِي عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-
حَيْثُ اسْتَخْلَفَهُ .

وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى : وَامْرَأَةٌ فَرَعَوْنَ حِينَ قَالَتْ : ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ
لَا نَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] .

وَكَانَ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَعْظَمَ الْأُمَّةِ فِرَاسَةً، وَبَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ
الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ، وَوَقَائِعُ فِرَاسَتِهِ مَشْهُورَةٌ ، فَإِنَّهُ مَا قَالَ
لِشَيْءٍ أَظُنُّهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا قَالَ ، وَيَكْفِي فِي فِرَاسَتِهِ : مُوَافَقَتُهُ رَبَّهُ فِي
الْمَوَاضِعِ الْمَعْرُوفَةِ .

وَمَرَّ بِهِ سَوَادُ بْنُ قَارِبٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ ، فَقَالَ : لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي ، أَوْ
أَنَّ هَذَا كَاهِنٌ ، أَوْ كَانَ يَعْرِفُ الْكِهَانَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَمَّا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ
قَالَ لَهُ ذَلِكَ عُمَرُ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا اسْتَقْبَلْتَ
أَحَدًا مِنْ جُلَسَائِكَ بِمِثْلِ مَا اسْتَقْبَلْتَنِي بِهِ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ- : مَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَخْبَرَنِي عَمَّا
سَأَلْتُكَ عَنْهُ ، فَقَالَ : صَدَقْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كُنْتُ كَاهِنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،
ثُمَّ ذَكَرَ الْقِصَّةَ .

فِرَاسَةُ الْأَطِبَّاءِ :

وَلِلْأَطِبَّاءِ فِرَاسَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ حَدِّقِهِمْ فِي صِنَاعَتِهِمْ ، وَمَنْ أَحَبَّ

الْوُقُوفُ عَلَيْهَا فَلْيُطَالَعْ تَارِيخَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ ، وَقَرِيبٌ مِنْ نِصْفِ الطَّبِّ
فِرَاسَةٌ صَادِقَةٌ ، يَقْتَرِنُ بِهَا تَجَرُّبَةٌ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

الفِرَاسَةُ الْخَلْقِيَّةُ :

الفِرَاسَةُ الْخَلْقِيَّةُ : وَهِيَ الَّتِي صَنَّفَ فِيهَا الْأَطِبَّاءُ وَغَيْرُهُمْ ، وَاسْتَدَلُّوا
بِالْخُلُقِ عَلَى الْخُلُقِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْارْتِبَاطِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ اللَّهِ ،
كَالاستِدْلَالِ بِصَغَرِ الرَّأْسِ الْخَارِجِ عَنِ الْعَادَةِ عَلَى صَغَرِ الْعَقْلِ ،
وَبِكِبَرِهِ ، وَبَسْعَةِ الصَّدْرِ ، وَبَعْدَ مَا يَبِينُ جَانِبِيهِ : عَلَى سَعَةِ خُلُقِ صَاحِبِهِ ،
وَاحْتِمَالِهِ وَبَسْطَتِهِ ، وَبِضِيقِهِ عَلَى ضِيقِهِ ، وَبِخُمُودِ الْعَيْنِ وَكَلَالِ نَظَرِهَا
عَلَى بِلَادَةِ صَاحِبِهَا ، وَضَعْفِ حَرَارَةِ قَلْبِهِ ، وَبَشِدَةِ بَيَاضِهَا مَعَ إِشْرَافِهِ
بِحُمْرَةٍ - وَهُوَ الشَّكْلُ - عَلَى شَجَاعَتِهِ وَإِقْدَامِهِ وَفُطْنَتِهِ ، وَبِتَدْوِيرِهَا
مَعَ حُمْرَتِهَا وَكَثْرَةِ تَقَلُّبِهَا عَلَى خِيَانَتِهِ وَمَكْرِهِ وَخِدَاعِهِ .

وَمُعْظَمُ تَعَلُّقِ الْفِرَاسَةِ بِالْعَيْنِ ، فَإِنَّهَا مِرَاةُ الْقَلْبِ وَعُنْوَانُ مَا فِيهِ ،
ثُمَّ بِاللِّسَانِ ، فَإِنَّهُ رَسُولُهُ وَتَرْجُمَانُهُ ، وَبِالاستِدْلَالِ بِزُرْقَتِهَا مَعَ شُقْرَةِ
صَاحِبِهَا عَلَى رَدَائَتِهِ ، وَبِالْوَحْشَةِ الَّتِي تُرَى عَلَيْهَا عَلَى سُوءِ دَاخِلِهِ
وَفَسَادِ طَوِيَّتِهِ .

وَكَالاستِدْلَالِ بِإِفْرَاطِ الشَّعْرِ فِي السُّبُوطَةِ عَلَى الْبِلَادَةِ ، وَبِإِفْرَاطِهِ فِي
الْجُعُودَةِ عَلَى الشَّرِّ ، وَبِاعْتِدَالِهِ عَلَى اعْتِدَالِ صَاحِبِهِ .

أصل الفِرَاسَةِ الْخَلْقِيَّةِ :

وَأَصْلُ هَذِهِ الْفِرَاسَةِ : أَنَّ اعْتِدَالَ الْخَلْقَةِ وَالصُّورَةِ : هُوَ مِنْ اعْتِدَالِ الْمَزَاجِ وَالرُّوحِ ، وَعَنْ اعْتِدَالِهَا يَكُونُ اعْتِدَالُ الْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ ، وَبِحَسَبِ انْحِرَافِ الْخَلْقَةِ وَالصُّورَةِ عَنْ الْإِعْتِدَالِ : يَقَعُ الْإِنْحِرَافُ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ .

هَذَا إِذَا خُلِيتِ النَّفْسُ وَطَبِيعَتَهَا .

وَلَكِنْ صَاحِبَ الصُّورَةِ وَالْخَلْقَةِ الْمُعْتَدِلَةَ يَكْتَسِبُ بِالْمُقَارَنَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ أَخْلَاقَ مَنْ يُقَارِنُهُ وَيُعَاشِرُهُ ، وَلَوْ أَنَّهُ مِنَ الْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ ، فَيَصِيرُ مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ أَخْلَاقًا وَأَفْعَالًا ، وَتَعَوَّدَ لَهُ تِلْكَ طِبَاعًا ، وَيَتَعَذَّرُ - أَوْ يَتَعَسَّرُ - عَلَيْهِ الْإِنْتِقَالُ عَنْهَا .

وَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْخَلْقَةِ وَالصُّورَةِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنْ الْإِعْتِدَالِ يَكْتَسِبُ بِصُحْبَةِ الْكَامِلِينَ بِخُلُطَتِهِمْ أَخْلَاقًا وَأَفْعَالًا شَرِيفَةً ، تَصِيرُ لَهُ كَالطَّبِيعَةِ ، فَإِنَّ الْعَوَائِدَ وَالْمَزَاوِلَاتِ تُعْطَى الْمَلَكَاتِ وَالْأَخْلَاقِ .

فَلْيَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَوْضِعَ وَلَا يُعَجِّلْ بِالْقَضَاءِ بِالْفِرَاسَةِ دُونَهُ ، فَإِنَّ الْقَاضِيَ حِينَئِذٍ يَكُونُ خَطْوُهُ كَثِيرًا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ أَسْبَابٌ لَا مُوجِبَةً ، وَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْهَا أَحْكَامُهَا لِفَوَاتِ شَرْطٍ ، أَوْ لَوْجُودِ مَانِعٍ .

وَفِرَاسَةُ الْمُتَفَرِّسِ تَتَعَلَّقُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :

بَعَيْنِهِ ، وَأُذُنِهِ ، وَقَلْبِهِ ، فَعَيْنُهُ لِلْسِّيَاءِ وَالْعَلَامَاتِ ، وَأُذُنُهُ : لِلْكَلَامِ وَتَصْرِيحِهِ وَتَعْرِيزِهِ ، وَمَنْطُوقِهِ ، وَمَفْهُومِهِ ، وَفَحْوَاهُ وَإِشَارَتِهِ ، وَلَحْنِهِ وَإِيمَانِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَقَلْبُهُ لِلْعُبُورِ : وَالِاسْتِدْلَالِ مِنَ الْمَنْظُورِ وَالْمَسْمُوعِ إِلَى بَاطِنِهِ وَخَفِيِّهِ ، فَيَعْبُرُ إِلَى مَا وَرَاءَ ظَاهِرِهِ ، كَعُبُورِ النُّقَادِ مِنْ ظَاهِرِ النَّقْشِ وَالسَّكَّةِ إِلَى بَاطِنِ النَّقْدِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ : هَلْ هُوَ صَحِيحٌ ، أَوْ زَغَلٌ ؟ ، وَكَذَلِكَ عُبُورُ الْمُتَفَرِّسِ مِنْ ظَاهِرِ الْهَيْئَةِ وَالِدَلِّ ، إِلَى بَاطِنِ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ ، فَنِسْبَةُ نَقْدِهِ لِلْأَرْوَاحِ مِنَ الْأَشْبَاحِ كَنِسْبَةِ نَقْدِ الصَّيْرِفِيِّ يَنْظُرُ لِلْجَوْهَرِ مِنْ ظَاهِرِ السَّكَّةِ وَالنَّقْدِ .

وَكَذَلِكَ نَقْدُ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، فَإِنَّهُ يَمُرُّ إِسْنَادُ ظَاهِرٍ كَالشَّمْسِ عَلَى مَتْنٍ مَكْذُوبٍ ، فَيُخْرِجُهُ نَاقِدُهُمْ ، كَمَا يُخْرِجُ الصَّيْرِفِيُّ الزَّغْلَ مِنْ تَحْتِ الظَّاهِرِ مِنَ الْفُضَّةِ ، وَكَذَلِكَ فِرَاسَةُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ .

وَلِفِرَاسَةِ سَبَبَانِ :

أَحَدُهُمَا : جَوْدَةُ ذَهْنِ الْمُتَفَرِّسِ ، وَحِدَّةُ قَلْبِهِ ، وَحُسْنُ فِطْنَتِهِ .

وَالثَّانِي : ظُهُورُ الْعَلَامَاتِ وَالْأَدِلَّةِ عَلَى الْمُتَفَرِّسِ فِيهِ ، فَإِذَا اجْتَمَعَ السَّبَبَانِ لَمْ تَكُنْ تَخْطِئُ لِلْعَبْدِ فِرَاسَةً ، وَإِذَا انْتَفَيَا لَمْ تَكُنْ تَصِحُّ لَهُ فِرَاسَةً ،

وَإِذَا قَوِيَ أَحَدُهُمَا وَضَعُفَ الْآخَرُ ، كَانَتْ فِرَاسَتُهُ بَيْنَ بَيْنٍ .

وَكَانَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ فِرَاسَةً ، وَلَهُ الْوَقَائِعُ الْمَشْهُورَةُ ، وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ، وَقِيلَ : إِنَّ لَهُ فِيهَا تَأْلِيفٌ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ فِرَاسَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أُمُورًا عَجِيبَةً ، وَمَا لَمْ أَشَاهِدْ مِنْهَا أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ ، وَوَقَائِعُ فِرَاسَتِهِ تَسْتَدْعِي سِفْرًا ضَخْمًا .

أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِدُخُولِ التَّارِ الشَّامَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَأَنَّ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ تَكْسِرُ ، وَأَنَّ دِمَشْقَ لَا يَكُونُ بِهَا قَتْلٌ عَامٌّ وَلَا سَبْيٌ عَامٌّ ، وَأَنَّ كَلْبَ الْجَيْشِ وَحَدَّثَهُ فِي الْأَمْوَالِ ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَهْمَ التَّارُ بِالْحَرَكَةِ . ثُمَّ أَخْبَرَ النَّاسَ وَالْأُمَرَاءَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِمِائَةٍ لَمَّا تَحَرَّكَ التَّارُ وَقَصَدُوا الشَّامَ : أَنَّ الدَّائِرَةَ وَالْهَزِيمَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ الظَّفَرَ وَالنَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ يَمِينًا ، فَيُقَالُ لَهُ : قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَيَقُولُ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَحْقِيقًا لَا تَعْلِيقًا ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ ، قَالَ : فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيَّ ، قُلْتُ : لَا تَكْثُرُوا ، كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، أَنَّهُمْ مَهْزُومُونَ فِي هَذِهِ الْكِرَّةِ ، وَأَنَّ النَّصْرَ لَجُيُوشِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ : وَأَطْمَعْتُ بَعْضَ الْأُمَرَاءِ وَالْعَسْكَرِ حَلَاوَةَ النَّصْرِ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ إِلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ . وَكَانَتْ فِرَاسَتُهُ الْجَزِئِيَّةُ فِي خِلَالِ هَاتَيْنِ الْوَاقِعَتَيْنِ مِثْلَ الْمَطَرِ .

وَلَمَّا طُلِبَ إِلَى الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَأُرِيدَ قَتْلُهُ - بَعْدَمَا أَنْضَجَتْ لَهُ
الْقُدُورُ ، وَقَلَّبَتْ لَهُ الْأُمُورَ - اجْتَمَعَ أَصْحَابُهُ لِدَوَاعِهِ ، وَقَالُوا : قَدْ
تَوَاتَرَتْ الْكُتُبُ بِأَنَّ الْقَوْمَ عَامِلُونَ عَلَى قَتْلِكَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يَصْلُونَ
إِلَى ذَلِكَ أَبَدًا ، قَالُوا : أَفَتُحْبَسُ؟ ، قَالَ : نَعَمْ ، وَيَطُولُ حَبْسِي ، ثُمَّ أَخْرَجَ
وَأَتَكَلَّمَ بِالسُّنَّةِ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ ، سَمِعَتْهُ يَقُولُ ذَلِكَ .

وَلَمَّا تَوَلَّى عَدُوَّهُ الْمُلقَّبُ بِالْجَاشْنَكِيرِ الْمَلِكَ أَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ ، وَقَالُوا :
الْآنَ بَلَغَ مُرَادُهُ مِنْكَ ، فَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا وَأَطَالَ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا سَبَبُ هَذِهِ
السَّجْدَةِ؟ ، فَقَالَ : هَذَا بَدَايَةُ ذُلِّهِ وَمُفَارَقَةُ عِزِّهِ مِنَ الْآنَ ، وَقُرْبُ زَوَالِ
أَمْرِهِ ، فَقِيلَ : مَتَى هَذَا؟ فَقَالَ : لَا تُرْبِطُ خَيُْولَ الْجُنْدِ عَلَى الْقُرْطِ حَتَّى
تُغْلَبَ دَوْلَتُهُ ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ، سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْهُ .

وَقَالَ مَرَّةً : يَدْخُلُ عَلَيَّ أَصْحَابِي وَغَيْرُهُمْ ، فَأَرَى فِي وُجُوهِهِمْ
وَأَعْيُنِهِمْ أُمُورًا لَا أَذْكُرُهَا لَهُمْ . فَقُلْتُ لَهُ - أَوْ غَيْرِي - لَوْ أَخْبَرْتُهُمْ؟ ،
فَقَالَ : أَتُرِيدُونَ أَنْ أَكُونَ مُعَرِّفًا كَمُعَرِّفِ الْوَلَاةِ؟ .

وَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : لَوْ عَامَلْتَنَا بِذَلِكَ لَكَانَ أَدْعَى إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ ،
فَقَالَ : لَا تَصْبِرُونَ مَعِيَ عَلَى ذَلِكَ جُمُعَةً ، أَوْ قَالَ : شَهْرًا .

وَأَخْبَرَنِي غَيْرَ مَرَّةٍ بِأُمُورٍ بَاطِنَةٍ تَخْتَصُّ بِي مِمَّا عَزَمْتُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَنْطِقْ
بِهِ لِسَانِي .

وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ حَوَادِثَ كِبَارٍ تَجَرَّي فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلَمْ يُعَيِّنْ أَوْقَاتَهَا ،
وَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ بَقِيَّتَهَا ، وَمَا شَاهَدَهُ كِبَارُ أَصْحَابِهِ مِنْ
ذَلِكَ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا شَاهَدْتُهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

مَا هِيَ السَّكِينَةُ :

وَأَصْلُ السَّكِينَةِ هِيَ الطَّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ ، وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ فِي
قَلْبِ عَبْدِهِ ، عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَخَافِ ، فَلَا يَنْزَعُجُ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَّا
يَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةَ الْإِيْمَانِ ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ .

وَلِهَذَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ أَنْزَالِهَا عَلَى رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعِ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ ، كَيَوْمِ الْهَجْرَةِ ، إِذْ هُوَ
وَصَاحِبُهُ فِي الْغَارِ وَالْعَدُوُّ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ، لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى مَا تَحْتَ
قَدَمَيْهِ لَرَأَاهُمَا ، وَكَيَوْمِ حُنَيْنٍ ، حِينَ وَلَّوْا مُدَبِّرِينَ مِنْ شِدَّةِ بَأْسِ الْكُفَّارِ ، لَا
يَلُوي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ ، وَكَيَوْمِ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ اضْطَرَبَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ
تَحْكُمِ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ ، وَدُخُولِهِمْ تَحْتَ شُرُوطِهِمُ الَّتِي لَا تَحْمِلُهَا النَّفُوسُ .
وَحَسْبُكَ بَضْعُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ حَمَلِهَا - وَهُوَ عُمَرُ -
حَتَّى ثَبَّتَهُ اللَّهُ بِالصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .



الفَقْرُسُ

الفهرس

٥	المقدمة
٧	ترجمة مختصرة للإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -
١٠	ترجمة موجزة للإمام الهروي صاحب المنازل - رحمه الله تعالى -
١٦	١ - العلم
١٦	هداية القرآن :
١٦	كمال الإنسان بالعلم النافع :
١٧	أمثال القرآن :
٢١	لا يستحب للمعتكف نشر العلم :
٢١	فوائد تدبر القرآن :
٢٣	معاني القرآن :
٢٤	أخذ العلم من الكتاب والسنة :
٢٥	فضل العلم :
٢٧	أقسام العلماء :
٢٧	الرحلة في طلب العلم :

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى أُمِّهَاتِ الْمَطَالِبِ ٢٨

إِثْبَاتُ الْمَعَادِ: ٢٨

إِثْبَاتُ النُّبُوتِ: ٢٩

وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ النُّبُوتِ مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ: ٢٩

أَعْظَمُ مَرَاتِبِ الْهَدَايَةِ: ٣١

إِسْنَادُ النِّعْمَةِ لِلَّهِ دُونَ الْغَضَبِ: ٣٥

النِّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ وَمُطْلَقُ النِّعْمَةِ: ٣٦

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ ٤٠

٢ - عَقِيدَةٌ ٤٧

أَفْعَالُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كُلُّهَا حِكْمٌ: ٤٧

فِي التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَتَوْحِيدِهِ: ٤٨

اشْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ: ٥٠

فِي دِلَالَةِ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ عَلَى أَوْصَافِ كَمَالٍ: ٥١

حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ: ٥٣

فِي دِلَالَةِ الْأَسْمَاءِ الْخَمْسَةِ عَلَى الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ: ٥٤

فِي دِلَالَةِ اسْمِ (اللَّهِ) عَلَى الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: ٥٦

فِي ارْتِبَاطِ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ بِأَسْمَائِهِ (اللَّهُ - الرَّبُّ - الرَّحْمَنُ): ٥٩

- ٦٠ إِيْقَاعُ الْحَمْدِ عَلَى مَضْمُونِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ :
- ٦٣ مَرَاتِبُ الْهَدَايَةِ :
- ٦٣ الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى : مَرْتَبَةُ تَكْلِيمِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِعَبْدِهِ
- ٦٥ الْوَحْيُ :
- ٦٥ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ : مَرْتَبَةُ الْوَحْيِ الْمُخْتَصِّ بِالْأَنْبِيَاءِ :
- ٦٦ إِرْسَالُ الرُّسُلِ :
- ٦٦ الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ : إِرْسَالُ الرُّسُولِ الْمَلَكِيِّ إِلَى الرُّسُولِ الْبَشَرِيِّ :
- ٦٦ التَّحْدِيثُ :
- ٦٨ الْإِفْهَامُ :
- ٧٠ الْبَيَانُ الْعَامُّ :
- ٧٢ الْبَيَانُ الْخَاصُّ :
- ٧٢ الْإِسْمَاعُ :
- ٧٢ الْمَرْتَبَةُ الثَّامِنَةُ : مَرْتَبَةُ الْإِسْمَاعِ :
- ٧٤ الْإِلْهَامُ :
- ٧٥ الرُّوْيَا الصَّادِقَةُ :
- ٧٦ فِي حَقِيقَةِ إِصَابَةِ الْعَبْدِ :
- ٧٩ فِي اشْتِمَالِ الْفَاتِحَةِ عَلَى الرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ الْمُبْطِلِينَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ :

- ٨١ إِبْتِاثُ الرُّبُوبِيَّةِ :
- ٨٣ فِي بَيَانِ تَضَمُّنِهَا الرَّدَّ عَلَى الرَّافِضَةِ :
- ٨٦ أَنْقِسَامُ النَّاسِ فِي الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ :
- ٩٠ مَنْ لَهُ عِبَادَةٌ بِلَا اسْتِعَانَةٍ :
- ٩٣ عَقِيدَتُنَا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ :
- ٩٣ دَعْوَةُ الرُّسُلِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ :
- ٩٤ مَرَاتِبُ إِيَّاكَ نَعْبُدُكَ عِلْمًا وَعَمَلًا :
- ٩٥ الْإِعْتِذَارُ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مُخَاصَمَةٌ لِلَّهِ
- ٩٥ مَا حُكِمَ الْإِعْتِذَارُ بِالْقَدَرِ ؟ :
- ٩٦ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَقْتَضِي آثَارَهَا :
- ٩٧ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ :
- ١٠٠ حَقِيقَةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ :
- ١٠٣ حَاجَةُ الْعَبْدِ لِلرَّجَاءِ :
- ١٠٤ التَّوَكُّلُ نِصْفُ الدِّينِ :
- ١٠٤ أَقْسَامُ النَّاسِ فِي التَّوَكُّلِ :
- ١٠٥ مِمَّنْ يَصِحُّ التَّوَكُّلُ :
- ١٠٥ عَدَمُ الرُّكُونِ إِلَى الْأَسْبَابِ :

- ١٠٥ التَّوَكَّلُ مِنْ أَعْظَمِ التَّوَحِيدِ :
- ١٠٥ التَّوَكَّلُ رُسُوحُ الْقَلْبِ فِي مَقَامِ التَّوَحِيدِ :
- ١٠٦ التَّوَكَّلُ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ :
- ١٠٦ الرِّضَا مِنْ ثَمَارِ التَّوَكَّلِ :
- ١٠٧ الْاعْتِمَادُ عَلَى الرَّائِبِ :
- ١٠٨ تَعَلُّقُ التَّوَكَّلِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى :
- ١٠٨ مَقْصُودُ التَّوَكَّلِ :
- ١٠٩ سُؤَالُ الْخَلْقِ مُنَافٍ لِلتَّوَكَّلِ :
- ١١٢ تَوَكَّلِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
- ١١٢ مَعِيَّةُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ :
- ١١٣ أَهَمِّيَّةُ التَّوَحِيدِ :
- ١١٤ الْأَرْوَاحُ خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ :
- ١١٤ الْمُعْطَلُ شَرٌّ مِنَ الْمُشْرِكِ :
- ١١٥ الْإِيْمَانُ بِالصِّفَاتِ :
- ١١٦ أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ هِيَ الْجَاذِبِيَّةُ لِلْقُلُوبِ إِلَى مَحَبَّتِهِ :
- ١١٦ السُّنَّةُ فَصَّلَتْ الصِّفَاتِ أَتَمَّ التَّفْصِيلِ :
- ١١٧ تَأْوِيلُ الصِّفَاتِ أَصْلُ فَسَادِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ :

المخلوقات شواهد صفات الرب - سبحانه وتعالى - : ١١٩

ليس كمثله شيء : ١٢٠

العمل بالأسباب : ١٢٠

بالأسباب عرف الله : ١٢٠

التوحيد مفتاح دعوة الرسل : ١٢٣

التعلق بالأسباب تعلقاً زائداً نوع من الشرك : ١٢٤

حال المتوكل مع الأسباب : ١٢٤

٣ - الاعتصام بالسنة ١٢٦

لمن ضمنت النجاة : ١٢٦

الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم : ١٢٦

أسباب ظهور الكرامات بعد عصر الصحابة : ١٢٨

أقسام الرؤيا : ١٢٩

أصدق الرؤيا : ١٣٠

لا يعبر الرؤيا إلا عالم بالتأويل : ١٣١

أهل الإخلاص والمتابعة : ١٣١

من لا إخلاص له ولا متابعة : ١٣٣

من أخلص في أعماله بلا متابعة : ١٣٤

- ١٣٥ مَنْ أَعْمَلَهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَكِنَّهَا لِغَيْرِ اللَّهِ:
- ١٣٥ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ:
- ١٣٧ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ أَصْلُ الشِّرْكِ:
- ١٣٨ التَّوْبَةُ مِنَ الْبِدْعِ:
- ١٣٩ الْإِعْتِصَامُ بِاللَّهِ:
- ١٣٩ تَحْكِيمُ الْوَحْيِ:
- ١٤٠ الْحُكْمُ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ:
- ١٤٠ الْاِقْتِصَادُ فِي الْعَمَلِ وَالْاِعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ:
- ١٤١ الطَّرِيقُ إِلَى الْحِكْمَةِ:
- ١٤٢ طَرِيقُ الْحَقِّ:
- ١٤٢ مَنْ فَارَقَ الدَّلِيلَ ضَلَّ السَّبِيلَ:
- ١٤٢ الدِّينُ وَسَطٌ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالْجَفَاءِ:
- ١٤٣ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ:
- ١٤٥ ٤ - رَقَائِقُ
- ١٤٥ اسْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى الشِّفَاءَيْنِ: شِفَاءِ الْقُلُوبِ وَشِفَاءِ الْأَبْدَانِ:
- ١٤٨ مَا يَعْرِضُ لِلْقَلْبِ مِنَ الْأَمْرَاضِ:
- ١٤٩ اسْتِمَالُ الْفَاتِحَةِ عَلَى شِفَاءِ الْأَبْدَانِ:

- أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ وَأَنْفَعُهَا : ١٥٠
- سِرُّ الْعِبَادَةِ : ١٥٢
- الْقَوَاعِدُ الْأَرْبَعُ لِلْعِبَادَةِ التَّامَّةِ : ١٥٧
- مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ : ١٥٨
- لُزُومُ إِيَّاكَ نَعْبُدُ لِكُلِّ عَبْدٍ إِلَى الْمَوْتِ ١٦٢
- مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى خَمْسِ عَشْرَةَ قَاعِدَةً : ١٦٣
- عُبُودِيَّةُ اللِّسَانِ الْخَمْسُ : ١٧٠
- عُبُودِيَّةُ الْجَوَارِحِ الْخَمْسُ : ١٧٣
- مَرَاتِبُ التَّمَحِيصِ : ١٨٢
- تَأَمُّلٌ إِلَى عَظَمَةِ مَنْ عَصَيْتَ : ١٨٥
- الْمُتَنَفِّعُونَ بِالْآيَاتِ : ١٨٥
- التَّوْبَةُ وَسَطٌ بَيْنَ مُحَاسَبَتَيْنِ : ١٨٦
- سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ : ١٨٧
- الرِّضَا بِالطَّاعَةِ : ١٨٧
- التَّغْيِيرُ بِالْمَعْصِيَةِ : ١٩٠
- وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ : ١٩٣
- تَعْرِيفُ التَّوْفِيقِ وَالْخُذْلَانِ : ١٩٤

- ١٩٤ الْفَرْحُ بِالْمَعْصِيَةِ:
- ١٩٥ الْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى:
- ١٩٦ حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ :
- ١٩٦ عِلَامَاتُ قُبُولِ التَّوْبَةِ :
- ١٩٨ الْحَذَرُ مِنَ الْاِعْتِدَادِ بِالطَّاعَةِ:
- ١٩٨ مِنْ لَطَائِفِ التَّوْبَةِ :
- ٢٠٠ الْإِشْتِغَالُ بِاللَّهِ :
- ٢٠٠ فَرْحُ اللَّهِ بِتَوْبَةِ التَّائِبِ :
- ٢٠٢ عِنَايَةُ اللَّهِ بِالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ:
- ٢٠٣ جُودُ اللَّهِ وَكَرَمُهُ :
- ٢٠٣ رَحْمَةُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ:
- ٢٠٥ الْعُقُوبَةُ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ:
- ٢٠٦ تَدْرُجُ الشَّيْطَانِ فِي الْإِغْوَاءِ : وَلَهُ سَبْعُ عَقَبَاتٍ
- ٢٠٦ ١ - عَقْبَةُ الْكُفْرِ:
- ٢٠٦ ٢ - عَقْبَةُ الْبِدْعَةِ:
- ٢٠٧ ٣ - عَقْبَةُ الْكِبَائِرِ:
- ٢٠٨ ٤ - عَقْبَةُ الصَّغَائِرِ:

- ٥- عَقْبَةُ الْمَبَاحَاتِ : ٢٠٩
- ٦- عَقْبَةُ الْأَعْمَالِ الْمَرْجُوحَةِ الْمَفْضُولَةِ : ٢١٠
- ٧- عَقْبَةُ تَسْلِيْطِ جُنْدِهِ عَلَيْهِ : ٢١١
- اسْتِفْلَالُ الْمُعْصِيَةِ وَاسْتِكْثَارُ الطَّاعَةِ : ٢١٣
- إِضَاعَةُ الْوَقْتِ : ٢١٤
- لَا شَيْءَ أَضَرُّ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ إِضَاعَةِ وَقْتِهِ مَعَ اللَّهِ : ٢١٦
- تَأْخِيرُ التَّوْبَةِ ذَنْبٌ تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ : ٢١٧
- التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ دُونَ آخَرَ : ٢١٨
- لَا يُبْطَلُ الذَّنْبُ إِلَّا بِحَقِّ التَّوْبَةِ السَّابِقَةِ : ٢١٩
- تَوْبَةُ الْعَاجِزِ عَنِ الذَّنْبِ : ٢٢٠
- التَّحَلُّلُ مِنَ الْمَظَالِمِ : ٢٢٢
- لَا يُشْتَرَطُ فِي التَّوْبَةِ إِعْلَامُ الْأَخِ بِمَا نَالَ مِنْ عَرَضِهِ : ٢٢٢
- إِذَا نَزَلَ الْعَبْدُ بِالذَّنْبِ ارْتَقَى بِالتَّوْبَةِ : ٢٢٤
- تَفْضِيلُ الطَّائِعِ عَلَى التَّائِبِ تَوْبَةً نَصُوحًا : ٢٢٦
- الذَّنْبُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ : ٢٢٦
- التَّوْبَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ٢٢٧
- التَّوْبَةُ هِيَ الدِّينُ كُلُّهُ : ٢٢٩

- ٢٣٠ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ :
- ٢٣٢ حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ :
- ٢٣٥ الْفَرْقُ بَيْنَ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ :
- ٢٣٧ أَنْهَارُ أَهْلِ الذُّنُوبِ :
- ٢٣٨ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مُحْفُوفَةٌ بِتَوْبَةِ مَنْ اللَّهُ :
- ٢٣٩ بَدَايَةُ التَّوْبَةِ وَنَهَايَتُهَا :
- ٢٤٠ أَقْسَامُ الذُّنُوبِ :
- ٢٤٠ تَعْرِيفُ اللَّمَمِ :
- ٢٤١ الْأَحَادِيثُ وَأَقْوَالُ السَّلَفِ فِي الْكَبَائِرِ :
- ٢٤٤ الْأَحْوَالُ وَالصِّفَاتُ الَّتِي تَكُونُ مَعَهَا الْكَبِيرَةُ صَغِيرَةً وَبِالْعَكْسِ : ...
- ٢٤٧ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ :
- ٢٥١ عُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ تُوجِبُ زِيَادَةَ الْإِتْبَاهِ :
- ٢٥٥ فِي أَجْنَاسٍ مَا يُتَابُ مِنْهُ :
- ٢٥٦ الْكُفْرُ :
- ٢٥٨ الْكُفْرُ الْأَكْبَرُ :
- ٢٦٠ كُفْرُ الْجُحُودِ :
- ٢٦١ الشِّرْكُ :

- المُشْرِكُ : ٢٦٤
- الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ : ٢٦٦
- النِّفَاقُ : ٢٧١
- فَضَحَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ : ٢٧١
- مُحَنَّةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ : ٢٧٢
- اجْتِمَاعُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى مُفَارَقَةِ الْهُدَى : ٢٧٢
- خُلُو قُلُوبِهِمْ مِنْ مَعَالِمِ الْإِيمَانِ : ٢٧٣
- بِضَاعَتُهُمْ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرُ : ٢٧٤
- فَسَادُ قُلُوبِهِمْ : ٢٧٤
- أَصْحَابُ ظَوَاهِرٍ : ٢٧٥
- أَصْحَابُ وُجُوهِ : ٢٧٥
- إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : ٢٧٦
- لَا تَفْقَهُ قُلُوبُهُمْ وَلَا تَعِي : ٢٧٧
- عَلَامَاتُهُمْ : ٢٧٨
- يَكِيدُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ : ٢٧٨
- لَهُمْ مَنْطِقٌ : ٢٧٩
- لَا يَأْتِي مِنْهُمْ إِلَّا الْفَسَادُ : ٢٧٩

- ٢٨٠ يَنْفِرُونَ مِنَ الْحَقِّ :
- ٢٨٢ حُسْنُ الْمَظْهَرِ مَعَ تَبَعِ الْجَوْهَرِ :
- ٢٨٤ لَا يُؤْمِنُونَ لِفَسَادِ بَاطِنِهِمْ :
- ٢٨٥ ثَقُلَ الْحَقُّ لَدَيْهِمْ :
- ٢٨٦ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ :
- ٢٨٦ تَسَاقُطُهُمْ عَلَى الْجِسْرِ :
- ٢٨٨ هُمْ كَثِيرٌ - لَا كَثَرَهُمُ اللَّهُ - :
- ٢٨٨ خَوْفُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنَ النِّفَاقِ :
- ٢٨٩ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْبُتُ النِّفَاقُ :
- ٢٩٠ الْفُسُوقُ :
- ٢٩٣ فَائِدَةٌ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ :
- ٢٩٤ التَّوْبَةُ مِنَ الْفُسُوقِ :
- ٢٩٦ شُرُوطُ تَوْبَةِ الْفَسَّاقِ مِنْ جِهَةِ الْإِعْتِقَادِ :
- ٢٩٦ شُرُوطُ تَوْبَةِ الْمُنَافِقِينَ :
- ٢٩٧ شُرُوطُ تَوْبَةِ الْقَازِفِ :
- ٢٩٧ تَوْبَةُ السَّارِقِ :
- ٢٩٨ الْإِثْمُ وَالْعُدْوَانِ :

- تَعْرِيفُ الْإِثْمِ : ٢٩٨
- تَعْرِيفُ الْعُدْوَانِ : ٢٩٨
- أَنْوَاعُ الْعُدْوَانِ : ٢٩٩
- الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ : ٣٠٠
- التَّوْبَةُ مِنَ الْبِدْعِ : ٣٠١
- التَّوْبَةُ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ الَّتِي تَعَذَّرَ رَدُّهَا : ٣٠٢
- فِي الْعِوَضِ الْمَحْرَمِ يُتَصَدَّقُ بِهِ : ٣٠٤
- فِي تَوْبَةِ الْغَاصِبِ وَتَعَذُّرِ رَدِّهِ عَلَيْهِ : ٣٠٥
- تَوْبَةُ الْقَاتِلِ : ٣٠٧
- فِي مَشَاهِدِ الْخَلْقِ فِي الْمَعْصِيَةِ : وَهِيَ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ مَشْهَدًا : ٣٠٨
- ١- مَشْهَدُ الْحَيَوَانِيَّةِ : ٣٠٩
- حُكْمُ مَنْ عُرِفَ الرَّجُلُ بِالْأَذَى بِالْعَيْنِ : ٣١١
- ٢- مَشْهَدُ رُسُومِ الطَّبِيعَةِ : ٣١١
- ٣- مَشْهَدُ أَصْحَابِ الْجَبْرِ : ٣١٢
- ٤- مَشْهَدُ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ : ٣١٣
- ٥- مَشْهَدُ الْحِكْمَةِ : ٣١٣
- ٦- مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ : ٣١٤

- ٧- مَشْهَدُ التَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ : ٣١٤
- ٨- مَشْهَدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ : ٣١٥
- ٩- مَشْهَدُ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ : ٣١٦
- حَالُ قُلُوبِ أَهْلِ الْبِدْعِ : ٣١٨
- لَذَّةُ الطَّاعَاتِ : ٣١٩
- عَاقِبَةُ الْمَعَاصِي : ٣١٩
- ١٠- مَشْهَدُ الرَّحْمَةِ : ٣٢٠
- ١١- مَشْهَدُ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ : ٣٢١
- ١٢- مَشْهَدُ الذُّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ وَالْخُضُوعِ : ٣٢٢
- ١٣- مَشْهَدُ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ : ٣٢٣
- مَنْزِلَةُ الْإِنَابَةِ : ٣٢٤
- الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا تَتِمُّ بِالطَّاعَةِ : ٣٢٥
- عَلَامَاتُ الْإِنَابَةِ : ٣٢٥
- حُظُوظُ النَّفْسِ : ٣٢٦
- وُصُولُ أَثَرِ الْعَمَلِ إِلَى الْقَلْبِ : ٣٢٦
- عَوَائِقُ فِي طَرِيقِ وُصُولِ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ : ٣٢٧
- أَقْسَامُ النَّاسِ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِالْآيَاتِ : ٣٢٧

- تَأْثِيرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ : ٣٢٩
- خُطُورَةُ اتِّبَاعِ الْهَوَى : ٣٢٩
- قَصْرُ الْأَمَلِ : ٣٣٠
- أَسَاسُ قَصْرِ الْأَمَلِ : ٣٣٠
- سَيْرُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ : ٣٣٠
- نَعِيمُ الْقَلْبِ : ٣٣١
- مُفْسِدَاتُ الْقَلْبِ : ٣٣٢
- ١- الْخُلْطَةُ ٣٣٢
- ضُرُورَةُ الْخُلْطَةِ فِي الدِّينِ : ٣٣٢
- الْخُلْطَةُ النَّافِعَةُ وَضَوَابِطُهَا : ٣٣٣
- ٢- التَّمَنِّي : ٣٣٤
- ٣- التَّعَلُّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ - تَبَارَكَ تَعَالَى - : ٣٣٥
- ٤- كَثْرَةُ الطَّعَامِ : ٣٣٦
- ٥- كَثْرَةُ النَّوْمِ : ٣٣٧
- النَّوْمُ الْمَكْرُوهُ : ٣٣٨
- أَنْفَعُ النَّوْمِ : ٣٣٨
- النَّوْمُ الضَّارُّ : ٣٣٨

- ٣٣٩ آفَاتُ كَثْرَةِ النَّوْمِ :
- ٣٣٩ حَقِيقَةُ الزُّهْدِ :
- ٣٣٩ الْفِرَارُ إِلَى اللَّهِ :
- ٣٤٠ الصَّدَقُ مَعَ اللَّهِ :
- ٣٤١ الْفِرَارُ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ :
- ٣٤١ عُبودِيَّةُ الْقَلْبِ :
- ٣٤٢ الْمُسْلِمُ بَيْنَ نِعْمَتَيْنِ :
- ٣٤٣ مَنْزِلَةُ الْخَوْفِ :
- ٣٤٤ تَعْرِيفُ الْخَوْفِ :
- ٣٤٤ تَعْرِيفُ الْخَشْيَةِ :
- ٣٤٥ تَعْرِيفُ الرَّهْبَةِ :
- ٣٤٥ تَعْرِيفُ الْوَجَلِ :
- ٣٤٥ تَعْرِيفُ الْهَيْبَةِ :
- ٣٤٦ الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ :
- ٣٤٦ سَيْرُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ :
- ٣٤٧ مِنْ مُفْسِدَاتِ الْعَمَلِ :
- ٣٤٧ مِنْ مُفْسِدَاتِ الْأَخْلَاقِ :

- ٣٤٨ مِنْ مُفْسِدَاتِ الْإِرَادَةِ :
- ٣٤٨ حَقِيقَةُ الْخُشُوعِ :
- ٣٤٨ إِخْفَاءُ الْعَمَلِ :
- ٣٥٠ أَهْمِيَّةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ :
- ٣٥٠ مِنْ عَلَامَاتِ انْقِطَاعِ الْقَلْبِ عَنِ اللَّهِ :
- ٣٥٠ عَقَبَةُ النَّفْسِ :
- ٣٥٢ عَقَبَةُ فِي طَرِيقِ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ :
- ٣٥٢ مِنْ عَلَامَاتِ التَّوْفِيقِ :
- ٣٥٢ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَعْرِيفِ الزُّهْدِ :
- ٣٥٣ أَوْجُهُ الزُّهْدِ :
- ٣٥٣ مُتَعَلِّقَاتُ الزُّهْدِ :
- ٣٥٤ فَالشُّبُهَاتُ بَرَزَخٌ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ :
- ٣٥٥ لَا تُشَارِكِ الْفُسَّاقَ مَوْرِدَهُمْ :
- ٣٥٦ حَقِيقَةُ الْوَرَعِ :
- ٣٥٦ حَالُ مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ :
- ٣٥٧ إِضْعَافُ الْمَعَاصِي لِلْإِيمَانِ :
- ٣٥٨ مَعْرِفَةُ حُدُودِ اللَّهِ :

- ٣٥٩ : عَلَامَةُ قُبُولِ الْعَمَلِ
- ٣٥٩ : تَعْرِيفُ الْمُرَاقَبَةِ
- ٣٦٠ : حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ
- ٣٦١ : الْحُرُمَاتُ الَّتِي يَجِبُ تَعْظِيمُهَا
- ٣٦١ : نَعِيمُ الْجَنَّةِ
- ٣٦٢ : تَعْرِيفُ الْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ
- ٣٦٣ : الْإِخْلَاصُ أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا
- ٣٦٣ : الْإِخْلَاصُ سَبَبٌ لَانْقِطَاعِ الْوَسَاوِسِ
- ٣٦٣ : الْإِنْسَانُ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ
- ٣٦٤ : آفَةُ الْعَبْدِ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِهِ
- ٣٦٤ : تَعْرِيفُ الْاسْتِقَامَةِ
- ٣٦٤ : حَقِيقَةُ الْاسْتِقَامَةِ
- ٣٦٥ : مَنْزِلَةُ الصَّبْرِ
- ٣٧٠ : صَبْرُ يُوسُفَ
- ٣٧١ : أَنْوَاعُ الصَّبْرِ
- ٣٧٢ : النَّعِيمُ لَا يُدْرِكُ بِالنَّعِيمِ
- ٣٧٢ : الرِّضَى نِهَايَةُ التَّوَكُّلِ

- المُتَوَكِّلُ لَا يَسْتَوْحِشُ مِنَ الْغُرْبَةِ : ٣٧٣
- حَلَاوَةُ الْغُرْبَةِ : ٣٧٣
- مَقَامُ الْغُرْبَةِ : ٣٧٤
- ثَمَرَةُ الرِّضَى : ٣٧٤
- حَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ : ٣٧٥
- مَنْزِلَةُ الرِّضَى : ٣٧٦
- عَدَمُ الرِّضَى أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ عَصِيَ اللَّهُ بِهَا : ٣٧٦
- مَنْعُ اللَّهِ إِيَّاكَ عَطَاءً : ٣٧٧
- رِضَا اللَّهِ عَنِ الْعَبْدِ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا : ٣٧٧
- عَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ : ٣٧٧
- الصُّوْفِيَّةُ يَعْبُدُونَ أَنْفُسَهُمْ : ٣٧٨
- عَلَامَةُ الشَّقْوَةِ : ٣٧٨
- حَيَاءُ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ تَعَالَى - مِنْ عَبْدِهِ : ٣٧٨
- أَقْسَامُ الْحَيَاءِ : ٣٧٩
- إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ يَصْدُقْكَ : ٣٨٢
- الصَّادِقُ غَرِيبٌ أَيْنَمَا حَلَّ : ٣٨٢
- لَا إِثَارَ فِي الْقُرْبِ : ٣٨٣

- ٣٨٤ لَا تُؤْثِرَنَّ عَلَى اللَّهِ أَحَدًا :
- ٣٨٤ الْمُؤْثِرُ لِرِضَا اللَّهِ تُصَوِّبُ نَحْوَهُ السَّهَامُ :
- ٣٨٥ تَزَكِيَةُ النُّفُوسِ :
- ٣٨٦ تَجْدِيدُ التَّوْبَةِ :
- ٣٨٧ أَوَّلُ ذَنْبٍ عَصَى اللَّهُ بِهِ أَبَوَا الثَّقَلَيْنِ :
- ٣٨٨ تَعْرِيفُ الْبَصِيرَةِ :
- ٣٨٨ حَدُّ الْخَوْفِ :
- ٣٨٨ حَدُّ الرَّجَاءِ :
- ٣٨٩ النَّفْسُ قَرِينَةُ الشَّيْطَانِ :
- ٣٩٠ مَنَزَلَةُ الْيَقِينِ :
- ٣٩١ مِنْ أَعْلَامِ الْيَقِينِ :
- ٣٩٢ حَقِيقَةُ الْفَقْرِ :
- ٣٩٢ أَرْكَانُ الْفَقْرِ :
- ٣٩٢ الْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءٌ :
- ٣٩٣ هِجْرَةُ الْقَلْبِ :
- ٣٩٤ مَنَزَلَةُ الطَّمَأْنِينَةِ :
- ٣٩٤ هَمَّتِكَ عَلَى قَدَرٍ مَا أَهَمَّكَ :

- مَنْزِلَةُ الْمَحَبَّةِ : ٣٩٥
- دَعْوَى الْمَحَبَّةِ : ٣٩٧
- شَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ : ٣٩٨
- الْأَسْبَابُ الْجَالِبَةُ لِلْمَحَبَّةِ : ٣٩٨
- آيَةُ الْمَحَبَّةِ : ٤٠٠
- مَرَاتِبُ الْمَحَبَّةِ : ٤٠٠
- عَلَامَةُ مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ : ٤٠٥
- الْوَقْتُ عِنْدَ الْعَابِدِ : ٤٠٥
- أَنْوَاعُ الْوِلَادَةِ : ٤٠٦
- أَقْسَامُ النَّاسِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ : ٤٠٧
- حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ : ٤٠٧
- مَا يَقْطَعُ الْأَمَلَ : ٤٠٨
- تَفَاوُتُ الْهَمَمِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ : ٤٠٩
- الْفَرَحُ بِاللَّهِ : ٤٠٩
- مَنْ وَكَّلَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَدْ هَلَكَ : ٤١٠
- نُورُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ : ٤١٠
- تَفَاوُتُ السَّالِكِينَ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ : ٤١٠

- ٤١١ لَا تَنْفَعُ رُسُومُ الصُّوفِيَّةِ وَلَا شَطَحَاتِهِمْ :
- ٤١٢ مَقَامُكَ حَيْثُ الْمَوْلَى أَقَامَكَ :
- ٤١٣ أَحْسَنُ مَا عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ :
- ٤١٣ نِعْمَةُ الْإِنْتِفَاعِ بِالْوَقْتِ :
- ٤١٣ أَقْصَرُ طَرِيقٍ إِلَى اللَّهِ :
- ٤١٤ هِمَّةُ الرُّسُلِ وَاتِّبَاعِهِمْ :
- ٤١٥ الْفَرْحُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيْمَانِ وَالسُّنَّةِ :
- ٤١٥ الْحُزْنُ يَتَوَلَّدُ مِنْ مُفَارَقَةِ الْمُحِبُّوبِ :
- ٤١٦ هُمُ الْغُرَبَاءُ :
- ٤١٧ أَنْوَاعُ الْغُرَبَةِ :
- ٤١٧ ١ - غُرَبَةُ أَهْلِ اللَّهِ وَأَهْلِ سُنَّةِ رَسُولِهِ :
- ٤١٨ مِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءِ :
- ٤١٨ ٢ - غُرَبَةُ أَهْلِ الْبَاطِلِ :
- ٤١٩ ٣ - الْغُرَبَةُ عَنِ الْوَطَنِ :
- ٤١٩ طُغْيَانُ الْمَعَاصِي أَسْلَمَ عَاقِبَتُهُ مِنْ طُغْيَانِ الطَّاعَةِ :
- ٤٢٠ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ لِأَهْلِ الْإِيْمَانِ :
- ٤٢١ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ إِنَّمَا تَنَالُ بِالْهِمَّةِ الْعَالِيَةِ :

- ٤٢٣ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الذِّكْرِ :
- ٤٢٣ كَيْفَ يَمُوتُ الْقَلْبُ ؟ :
- ٤٢٥ حَيَاةُ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ :
- ٤٣٠ لِكُلِّ عَمَلٍ شَرٌّ :
- ٤٣٢ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ :
- ٤٣٢ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْمُحِبِّينَ :
- ٤٣٣ حَيَاةُ الْأَرْوَاحِ :
- ٤٣٧ حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ :
- ٤٣٨ الْحَيَاةُ الْبَاقِيَّةُ :
- ٤٣٩ غَيْرَةُ الْمَوْلَى - جَلَّ جَلَالُهُ - :
- ٤٤١ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِسْتِقَامَةِ :
- ٤٤٢ بِمَاذَا نَعْرِفُ رَبَّنَا :
- ٤٤٢ مَنْ هُوَ الْعَارِفُ :
- ٤٤٣ ٥- أَدَبُ
- ٤٤٣ مِنْ مُفْسِدَاتِ الْأَخْلَاقِ :
- ٤٤٣ مُرَاعَاةُ حُقُوقِ النَّاسِ :
- ٤٤٣ ظُلْمُ الْمَسْأَلَةِ :

- ٤٤٥ قَوَاعِدُ الشُّكْرِ:
- ٤٤٥ الشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا :
- ٤٤٥ مِمَّا يَكُونُ الشُّكْرُ :
- ٤٤٥ شُكْرُ نِعْمَةِ اللَّهِ نِعْمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ آخَرَ:
- ٤٤٦ أَسَاسُ الصِّدْقِ وَأَسَاسُ الْكَذِبِ:
- ٤٤٦ وَمِنْ عِلَامَاتِ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ:
- ٤٤٧ ثَقُلُ الصِّدْقِ وَخِفَةُ الْكَذِبِ:
- ٤٤٧ أَفْضَلُ السَّخَاءِ وَأَحْمَدُهُ:
- ٤٤٨ مَرَاتِبُ الْجُودِ:
- ٤٥١ وَهَذَا مَوْضِعُ الْمَثَلِ الْمَشْهُورِ:
- ٤٥٤ حُسْنُ الْخَلْقِ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ:
- ٤٥٥ أَرْكَانُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ:
- ٤٥٦ أَرْكَانُ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ:
- ٤٥٨ كُلُّ خُلُقٍ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ:
- ٤٦٠ فَوَائِدُ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْخَلْقِ:
- ٤٦٠ مَشْهَدُ الْقَدَرِ:
- ٤٦١ مَشْهَدُ الصَّبْرِ:

- ٤٦١ مَشْهَدُ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ:
- ٤٦٢ مَشْهَدُ الرِّضَى:
- ٤٦٢ مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ:
- ٤٦٣ مَشْهَدُ السَّلَامَةِ وَبَرْدِ الْقَلْبِ:
- ٤٦٤ مَشْهَدُ الْأَمْنِ:
- ٤٦٤ مَشْهَدُ الْجِهَادِ:
- ٤٦٥ مَشْهَدُ النِّعْمَةِ:
- ٤٦٧ مَشْهَدُ الْأُسُوءَةِ:
- ٤٦٨ مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ:
- ٤٦٨ حَقِيقَةُ التَّوَاضُّعِ:
- ٤٦٩ التَّوَاضُّعُ لِلدِّينِ:
- ٤٧٢ مِنْ التَّوَاضُّعِ قُبُولُ الْعُذْرِ:
- ٤٧٣ حَقِيقَةُ الْمُرُوءَةِ:
- ٤٧٤ دَرَجَاتُ الْمُرُوءَةِ:
- ٤٧٦ كَيْفَ تُعَاشِرُ النَّاسَ:
- ٤٧٧ مِنْ صِفَاتِ عُقْلَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا:
- ٤٧٧ حَاجَتُنَا إِلَى الْأَدَبِ:

- ٤٧٧ مِنْ أَدَبِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ :
- ٤٨٢ الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :
- ٤٨٢ الْأَدَبُ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :
- ٤٨٣ الْأَدَبُ مَعَ الْخَلْقِ :
- ٤٨٣ وَلِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ :
- ٤٨٣ وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنوانُ سَعَادَتِهِ :
- ٤٨٥ حَدُّ الْأَدَبِ :
- ٤٨٥ أَدَبُ الصُّحْبَةِ :
- ٤٨٥ الْهِمَمُ الْعَالِيَّةُ :
- ٤٨٦ أَرْكَانُ الْحِكْمَةِ :
- ٤٨٦ الْفِرَاسَةُ الْإِيمَانِيَّةُ :
- ٤٨٦ أَفْرَسُ النَّاسِ :
- ٤٨٧ فِرَاسَةُ الْأَطْبَاءِ :
- ٤٨٨ الْفِرَاسَةُ الْخَلْقِيَّةُ :
- ٤٨٩ أَصْلُ الْفِرَاسَةِ الْخَلْقِيَّةِ :
- ٤٩٣ مَا هِيَ السَّكِينَةُ :
- ٤٩٥ الْفَهْرَس

من أحدث إصدارات دار الإيمان

أوسمة حافظ القرآن

تأليف
أبي عبد الله فضيل بن محمد قاتر الحاسري
عفا الله عنه

دار الإيمان
الإشكندرية

دار القسمة
الإشكندرية

من أحدث إصدارات دار الإيمان

صِنَاغَةُ الْحِفْظِ

قواعد سهلة ووسائل مُبتكرة لحفظ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تأليف

أبي عبد الله فضيل بن حمزة قاتر الحاسري

عفا الله عنه

دار الإيمان
الإشعكية

دار القسمة
الإشعكية

من أحدث إصدارات دار الإيمان

حكمة الملوك

تأليف

أبي عبد الله الفضل بن محمد بن قاتر الحارثي

عفا الله عنه

دار الإيمان
الإسكندرية

دار القسمة
الإسكندرية

من أحدث إصدارات دار الإيمان

اربعون حديثاً في
عظمتنا نبينا

تأليف
أبي عبد الله الفضل بن محمد قاتر الحاسري
عفا الله عنه

دار الإيمان
الإشعكية

دار القسمة
الإشعكية

من أحدث إصدارات دار الإيمان

ذَوَقِيَّاتٌ^{٢٨}

مَعًا لِنَرْتَقِ بِأُخْلَاقِنَا

تَأَلَّفَ
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فَيضِلْ بِنُجْمَةِ قَائِلِ الْحَاكِمِي
عَفَا اللَّهُ عَنْهُ

دار الإيمان
الإشعك ندرية

دار القسمة
الإشعك ندرية